﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾
الأنفال ٨/ ٢٤

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

المجلد السابع
الجزءان ١٣ ـ ١٤





دار الفكر - دمشق - البرامكة


٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣


٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد السابع

الرقم الاصطلاحي: ٧- ١١٠,١٦٩٠

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٦٠٨ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

المجلد السابع

الجزءان ١٣ ـ ١٤



- ٢ -
النّفس الأمّارة بالسّوء

﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾

القراءات:

﴿نَفۡسِيٓۚ إِنَّ﴾، ﴿رَبِّيٓۚ إِنَّ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (نفسيَ إنَّ، ربيَ إن).

البلاغة:

﴿لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ أمَّارة: من صيغ المبالغة، على وزن «فعَّال» مبالغة في وصف النّفس بالاندفاع نحو المعاصي والمهالك.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾ من الزّلل أو السّوء .﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ﴾ جنس النّفس. ﴿لَأَمَّارَةُۢ﴾ كثيرة الأمر، مائلة بالطبع إلى الشّهوات .﴿إِلَّا مَا﴾ بمعنى «من». والمعنى إلا من رحم ربِّي من النّفوس فعصمه، أو إلا وقت رحمة ربِّي، وقيل: إن الاستثناء منقطع، أي ولكن رحمة ربِّي هي التي تصرف الإساءة.

والآية على الرّاجح حكاية قول امرأة العزيز: زليخا أو راعيل، والمستثنى نفس يوسف وأمثاله. وقيل: ذلك من قول يوسف، والمعنى: لا أنزهها، تنبيهاً على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتّوفيق.

المناسبة:

هذه الآية من تتمة كلام امرأة العزيز، متّصلة بما قبلها، قال أبو حيان: الظاهر أن هذا كلام امرأة العزيز، وهو داخل تحت قوله: ﴿قَالَتِ﴾ والمعنى: ذلك الإقرار والاعتراف بالحقّ، ليعلم يوسف أنّي لم أخنه في غيبته، والذّبّ عنه، وأرميه بذنب هو منه بريء، ثم اعتذرت عما وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشّهوات بقولها: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ﴾، والنّفوس مائلة إلى الشّهوات، أمّارة بالسّوء[١]. وكذلك قال ابن كثير: هذا القول أقوى وأظهر؛ لأن سياق الكلام كله من امرأة العزيز بحضرة الملك؛ ولم يكن يوسف عليه السّلام عندهم، بل بعد ذلك أحضره الملك[٢].

التفسير والبيان:

قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحقّ، وليعلم يوسف أنّي لم أخنه في غيبته، وهو سجين، أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بيوسف، وأني لم أرتكب الفاحشة، فلم يحدث مني إلا مجرد المراودة أو المغازلة، فامتنع وأبى ولاذ بالفرار، ولا أُنزّه نفسي من الزّلل والخطأ، إن النّفوس ميّالة بالطّبع إلى الشّهوات والأهواء.

إلا من رحمه الله الخالق، فصرف عنه السّوء والفحشاء كيوسف وأمثاله.

ولكني لا أيأس من رحمة الله، إنّ ربّي كثير المغفرة، رحيم بالعباد.

وفي قول مرجوح: إن هذه الآية حكاية لقول يوسف، بمعنى: ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجه أثناء غيبته، وحال ثقته بي، وائتمانه على عرضه، وما أُبرئ نفسي البشريّة من خواطر القلب، فكل نفس ميّالة بالطّبع للشّهوات

---

(١) البحر المحيط: ٥/ ٣١٧

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٨٢

والأهواء، إلا النّفس التي عصمها الله من الانزلاق في المعاصي، ووفقها للاستقامة، وتلك هي نفس الأنبياء، وسيرة الصُّلحاء، إنَّ ربِّي غفّار لذنوب المخطئين، رحيم بهم إذا بادروا إلى التَّوبة والإنابة والتّضرُّع إلى الله، ليخلصهم من آثار الذّنوب، ويطهِّر نفوسهم من شوائب المعاصي.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآية على أنّ أكثر النّفوس نزّاعة للشّهوة، ميَّالة للهوى، ذات نزعة شريرة، تحتاج إلى مجاهدة ومكافحة ومراقبة وتحذير. جاء في الخبر عن النَّبي ﷺ: «ما تقولون في صاحب لكم، إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية؟! قالوا: يا رسول الله! هذا شرّ صاحب في الأرض. قال: فوالذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم».

واستدلّ أهل السُّنّة بآية: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ على أن الطّاعة والإيمان لا يحصلان إلا من الله، وعلى أن انصراف النّفس من الشّر لا يكون إلا برحمته.

ودلّت الآية أيضاً على مدى فضل الله وإحسانه فهو غفور لذنوب عباده، رحيم بهم إذا هم تابوا وأنابوا وأحسنوا العمل، أي يغفر للمستغفر لذنوبه، المعترف على نفسه، ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

الفصل التّاسع من قصّة يوسف
يوسف في رئاسة الحكم ووزارة الماليّة

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾

القراءات:

﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾:

وقرأ ابن كثير (حيث نشاء).

المفردات اللغوية:

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ أجعله خالصاً لنفسي دون شريك .﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ أي فلما أتوا به فكلمه، وشاهد منه الرّشد والدّهاء .﴿مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كل شيء .﴿خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر .﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ذو حفظ وعلم بأمرها، وقيل: كاتب حاسب.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كإنعامنا عليه بالخلاص من السّجن .﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر .﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ ينزل من بلاد مصر أي مكان أراد، فصار صاحب الأمر والحكم بعد الضّيق والحبس. وفي القصّة كما يقول السّيوطي: أن الملك توّجه وختّمه وولاه مكان العزيز، وعزله، ومات بعد، فزوّجه امرأته، فوجدها عذراء، وولدت له ولدين، وأقام العدل بمصر، ودانت له الرّقاب.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾ في الدُّنيا والآخرة. ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفِّي أجورهم عاجلاً وآجلاً. ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدُّنيا. ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الشّرك والفواحش، لعظمه ودوامه.

المناسبة:

بعد أن تحقق الملِك الأكبر من أمر النّسوة بناءً على طلب يوسف عليه السّلام، وظهرت له براءته وعفَّته، طلب إحضاره إليه من السّجن، ليصطفيه لنفسه، فلما سمع منه تعبير رؤياه، أعجب به وبعلمه وحسن أدبه، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية، وآمنه على نفسه، وائتمنه على كل شيء، وسلَّمه مقاليد الحكم والسّلطة، وفوّض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر.

التفسير والبيان:

المراد بالملك هنا: الملك الأكبر، وليس العزيز على الرّأي الرّاجح، لطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض، ولأنه كان قبل ذلك خالصاً للعزيز، والآن يريد الملك الأكبر (الرّيان بن الوليد) استخلاصه لنفسه.

والمعنى: وقال الملك: أحضروه إلي من سجنه، أجعله من خاصَّتي وأهل مشورتي وموضع ثقتي، فلما خاطبه الملك وتعرّفه، ورأى فضله وعلمه وبراعته، وحسن أدبه، وسموّ أخلاقه، قال له: إنك عندنا اليوم وما بعده أصبحت ذا مكانة وعزّة وأمانة تؤتمن على كل شيء في أمور الحكم، وصاحب التّصرف التّام في شؤون البلاد.

روي أن يوسف لما خرج من السّجن اغتسل وتنظَّف ولبس ثياباً جدداً، فلما دخل على الملك قال: اللهم إني أسألك من خيره، وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّه، ثم سلَّم عليه بالعربيّة، فقال الملك: ما هذا اللسان؟ فقال:

لسان عمي إسماعيل، ودعا له بالعبريّة، فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان آبائي.

وكان إبراهيم وأولاده وحفدته من العرب القحطانيين، وكان ملوك مصر من العرب الذين يسمون بالرّعاة (الهكسوس).

قال يوسف: اجعلني أيها الملك على خزائن الأرض: وهي الخُزُن التي تخزن فيها الغلال، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السّنين التي أخبرهم بشأنها، أي ولّني عليها، لأشرف عليها، وأتصرَّف فيها حتى أجعل توازناً اقتصادياً بين سنوات الخصب وسني القحط، فأنقذ البلاد من المجاعة التي تهدد أهلها، بحسب الرؤيا التي رأيت؛ لأني حفيظ عليم، أي خازن أمين، ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وفي هذا إيماء لأهمية التّخطيط والتّنظيم المالي وإقامة التوازن بين الموارد الماليّة والنفقات.

فأجابه الملك إلى طلبه، وجعله وزير المال والخزانة، وأطلق له سلطة التّصرف في شؤون الحكم، لما لمس لديه من رجاحة عقل، وخبرة وضبط وسياسة، وحسن تصرُّف، وقدرة على إحكام النّظام.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا﴾ أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا على يوسف في تقريبه إلى قلب الملك، وإنجائه من السّجن، مكّنّا له في الأرض، أي أقدرناه على ما يريد، وجعلنا له مكانة ومنزلة في أرض مصر، فانتقل من كونه مملوكاً إلى أن أصبح مالكاً آمراً ناهياً، ذا نفوذ وسلطة، مطاعاً بعد أن كان تابعاً لغيره مطواعاً، حرّاً طليقاً بعد أن كان سجيناً أسيراً، وذلك لما تحلّى به من صبر، وإطاعة لله عزّ وجلّ، وعفّة وخلُق وعقل حكيم، فإنه صبر على أذى إخوته، وعلى الحبس بسبب امرأة العزيز، وعفّ عن السّوء والفحشاء، وامتنع من اقتراف المنكر، فأعقبه الله النّصر والتّأييد، وأصبح في منصب سيّده السّابق الذي اشتراه من مصر، العزيز زوج التي راودته، قال مجاهد: وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السّلام.

وما أضاعه ربّه ورحمه وصانه، والله تعالى يخصّ برحمته من يشاء ورحمته وسعت كل شيء، فيعطي الملك والغنى والصّحة ونحوها من يريد من عباده. وقوله تعالى: ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ أي بإحساننا، والرّحمة: النّعمة والإحسان.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا نضيع ثواب الذين يحسنون أعمالهم، فنمنحهم في الدُّنيا سعادةً وعزّاً ومكانة، وفي الآخرة خلوداً في الجنان.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ﴾ أي إن ثواب الآخرة للمؤمنين الأتقياء، وهو التّنعم في الجنان خير وأعظم وأكثر من خير الدُّنيا وما فيها من متاع العزّ والسُّلطان، والجاه والملك، والمال والزّينة ونحو ذلك.

والله تعالى يخبر بهذا أن ما ادَّخره لنبيِّه يوسف عليه السّلام في الدّار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ مما أنعم عليه من التّصرُّف والنّفوذ في الدُّنيا، كقوله في حقّ سليمان عليه السّلام: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: ٣٨/٣٩-٤٠] .

ومن جمع له الله السّعادتين في الدُّنيا والآخرة، كان فضل الله عليهم أكثر، وعطاؤه أتم؛ لقيامهم بواجب الطّاعة، واجتنابهم المعصية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى ما يلي:

١ - إنّ الحوار وسيلة التّعارف والتّعرف على فضائل الإنسان ومعارفه، وبه يزن العاقل مقادير الرِّجال.

٢ - إن المقوّمات العالية من علم وخلق وأدب وحسن تصرُّف تبوئ صاحبها المنزلة السّامية والمكانة الرَّفيعة.

٣ً - يجوز طلب الولاية وإظهار كون الشّخص مستعدّاً لها، إذا كان من أجل التّعريف للمغمور غير المعروف، وكان الشّخص واثقاً من نفسه ودينه وعلمه، وأهلاً لما يطلب.

وأما النّهي عن طلب الإمارة في قوله ﷺ لعبد الرّحمن بن سَمُرة فيما أخرجه الشيخان: «لا تسأل الإمارة» والنّهي عن مدح النّفس في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢] فالمراد به في الحديث لمن لا يثق بنفسه من القيام بحقّ الولاية لضعفه وعجزه، أو لأغراض نفسه، والمراد بالآية تزكية النّفس حال العلم بكونها غير متزكية، وكل من المحذورين لا ينطبق على النَّبي يوسف عليه السّلام وأمثاله الأنبياء؛ لأنه يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان، ولأن السّعي في إيصال النّفع إلى المستحقين ودفع الضّرر عنهم أمر مستحسن في العقول، وعلِم يوسف أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الحقوق إلى الفقراء، فرأى أن قيامه بهذه الأمور فرض متعيّن عليه، وقال يوسف عن نفسه: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ عند من لا يعرفه، فأراد تعريف نفسه.

٤ً - يباح للرّجل الفاضل أن يعمل للرَّجل الفاجر، والسُّلطان الكافر، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحقّ وسياسة الخلق إلا بالاستعانة به، وكان مفوَّضاً في فعله لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء. وأما إذا كان عمله بحسب مراد الفاجر وهواه، فلا يجوز.

فإن كان المولِّي ظالماً فللعلماء قولان: أحدهما - جواز تولِّي العمل له إذا عمل بالحقّ فيما تقلَّده؛ لأن يوسف عليه السّلام ولِّي من قبل فرعون، ولأن الاعتبار بفعله لا بفعل غيره.

الثاني: أنه لا يجوز ذلك؛ لما فيه من إعانة الظَّالم على ظلمه، وتزكيته ودعمه وتأييده بتقلّد أعماله. وأما فرعون يوسف فكان صالحاً، وعن مجاهد: أن

الملك أسلم على يده. وإنما الطّاغي فرعون موسى، ثم إنّ يوسف نظر في مصالح الأمة والبلاد وأملاك الملك دون أعماله، فزالت التّبعة عنه.

٥ً - للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل إذا دعته الضرورة إليه، كالكسب المعيشي ونحوه.

٦ً - قوله تعالى: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السّلام كان من المحسنين.

٧ً - غمرت رحمة الله وفضله وإحسانه يوسف عليه السّلام لصبره وتقواه، وإنه سبحانه ما أضاع يوسف لصبره في الجبّ، وفي الرّقّ، وفي السّجن، وعلى أذى إخوته، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة.

٨ً - إن ثواب الآخرة وعطاء الله فيها أجلّ وأعظم وأكثر من عطاء الدُّنيا لمن كان مؤمناً تقيّاً؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدُّنيا منقطع، وظاهر الآية: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ العموم في كل مؤمنٍ متّقٍ، وهي تدلّ دلالة خاصة على فضل الله على يوسف عليه السّلام، فإن ما سيعطيه الله له في الآخرة خير وأفضل مما أعطاه إيّاه في الدُّنيا من الملك والسُّلطان والمكانة والسّمو.

ودلّت هذه الآية بخصوصها على أن يوسف عليه السّلام من الذين آمنوا وكانوا يتّقون، وهذا تنصيص من الله عزّ وجلّ.

والخلاصة:

تضمّنت الآيات شهادتين من الله تعالى ليوسف عليه السّلام الأولى أنه كان من المحسنين، والثانية أنه كان من المؤمنين المتّقين. ودلّت آية أخرى وهي: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ على أنه من المخلصين، فصارت الشَّهادات من الله تعالى ليوسف ثلاثة: كونه من المتّقين، ومن المحسنين، ومن المخلصين. وسبب هذه الشهادات الصّبر على مُراد الله فيه، والطّاعة والتّقوى وإخلاص العمل وصفاء النّفس من الأحقاد والضّغائن.

الفصل العاشر من قصة يوسف
أولاد يعقوب يشترون القمح من أخيهم يوسف ومطالبته إياهم بإحضار أخيهم

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾

القراءات:

﴿أَنِّىٓ أُوفِى﴾:

وقرأ نافع (أنيَ أوفي).

﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾: قرئ:

١- (لِفِتْيانِهِ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (لِفِتْيَتِهِ) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ بين عرف وأنكر: طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وهم أحد عشر إلا بنيامين ليمتاروا لما بلغهم أن

عزيز مصر يعطي الطعام بثمنه. ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ أنهم إخوته، والمعرفة وعرفان الشيء: التّفكّر في أثره. ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ الإنكار: ضدّ المعرفة، أي إنهم لم يعرفوه لبعد عهدهم به وظنّهم هلاكه. ﴿جَهَّزَهُم﴾ أوفى لهم كيلهم من القمح الذي جاؤوا لطلبه من عنده، أي جعله تاماً وافياً. وجهاز السّفر: أهبته وحوائجه، وجهاز العروس: حوائج الزّفاف. ﴿بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ أي بنيامين لأعلم صدقكم فيما قلتم. ﴿أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ أُتمه من غير بخس. ﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾ المضيفين الضيوف، وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم.

﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي ميرة. ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ نهي أو عطف على محل: ﴿فَلَا كَيْلَ﴾ أي تُحرموا ولا تقربوا، أي فلا تقربوني ولا تدخلوا دياري. ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه، ونستميله لتحقيق هذه الرّغبة برفق. ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ ذلك لا نتوانى فيه. ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ لغلمانه الكيالين، جمع فتى. ﴿بِضَٰعَتَهُمْ﴾ ثمن ما أتوا به من الطعام، وكانت دراهم فضة، وإنما فعل ذلك توسيعاً وتفضُّلاً عليهم وترفُّعاً من أن يأخذ ثمن الطَّعام منهم. ﴿فِى رِحَالِهِمْ﴾ أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ لعلهم يعرفون حقّ ردّها، أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ انصرفوا ورجعوا إلى أهلهم، وفتحوا أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرّجوع.

أضواء من التّاريخ:

قال ابن عباس وغيره[١]: لما أصاب النّاس القحط والشدَّة، ونزل ذلك بأرض كنعان، بعث يعقوب عليه السّلام ولده لِلْمِيرة، وذاع أمر يوسف عليه السّلام في الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ٢٢٠

عليه السّلام حين نزلت الشّدّة بالنّاس يجلس عند البيع بنفسه، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم، لكل رأس وَسْقاً[١].

وذكر السُّدِّي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين: أن السَّبب الذي من أجله أقدم إخوة يوسف بلاد مصر: أن يوسف عليه السّلام، لما باشر الوزارة بمصر، ومضت السَّبع السّنين المخصبة، ثم تلتها السَّبع السّنين المجدبة، وعم القحط بلاد مصر بكمالها، ووصل إلى بلاد كنعان: وهي التي فيها يعقوب عليه السّلام وأولاده، وحينئذٍ احتاط يوسف عليه السّلام للنّاس في غلاتهم، وجمعها أحسن جمع، فحصل من ذلك مبلغ عظيم، وهدايا متعددة، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات، يمتارون لأنفسهم وعيالهم، فكان لا يعطي الرّجل أكثر من حمل بعير في السّنة، وكان عليه السّلام لا يشبع نفسه، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلةً واحدةً في وسط النّهار، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدّة السَّبع السنين، وكان رحمة من الله تعالى على أهل مصر[٢].

وغير هذه الرِّوايات هي من الإسرائيليات.

التفسير والبيان:

وجاء إخوة يوسف عليه السّلام من أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر، يطلبون شراء القمح؛ لأن القحط عم بلاد الشّام ومصر، لما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه.

فلما دخلوا على يوسف، وهو في منصبه الرّفيع، عرفهم حين نظر إليهم؛ لأن ملامح الكبار لا تتغيّر كثيراً، وهم له منكرون، أي لا يعرفونه؛ لأنهم

(١) الوسق: ستون صاعاً، والصّاع (٢٧٥١ غم)، وعند الحنفيّة (٣٩٠٠ غم).

(٢) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٨٣

فارقوه، وهو صغير حَدَث، وباعوه للسَّيّارة، والملامح في حال الصِّغر تتغيَّر كثيراً في حال الكِبَر، ولأنهم قدروا هلاكه، وما دار في خَلَدهم أنه سيصير إلى ما صار إليه، ولنسيانهم له بطول العهد.

وزاد في الأمر أنه - كما ذكر السُّدّي - شرع يخاطبهم، فقال لهم كالمنكر عليهم: ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا: أيُّها العزيز، إنّا قدمنا للميرة، قال: فلعلكم عيون؟ قالوا: معاذ الله، قال: فمن أين أنتم؟ قالوا: من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله، قال: وله أولاد غيركم؟ قالوا: نعم، كنّا اثني عشر، فذهب أصغرنا هلك في البريّة، وكان أحبّنا إلى أبيه وبقي شقيقه، فاحتبسه أبوه ليتسلّى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

لكن يبعد من يوسف عليه السّلام أن يتّهم إخوته وينسبهم إلى أنهم جواسيس وعيون؛ لأنه يعرف براءتهم عن هذه التّهمة. وعلى كل حال إنه سؤال لا يقتضي صحته.

ولما جهّزهم بجهازهم، أي لما أوفى لهم كيلهم، وحمل أحمالهم من القمح، وهي عشرة أحمال وزادهم حملين آخرين لأبيهم وأخيهم، قال: ائتوني في المرة القادمة بأخ لكم من أبيكم؟ وهو بنيامين، ألا ترون أني أتم لكم الكيل الذي تريدون دون بخس، وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم، وأنا خير المنزلين، المضيفين للضيوف، وكان أحسن ضيافتهم؟ وقصده من ذلك ترغيبهم في الرّجوع إليه، وكان السَّبب في سؤال يوسف عن حال أخيهم أنهم ذكروا أن لهم أباً شيخاً كبيراً وأخاً بقي في خدمة أبيه، ولا بدّ لهما أيضاً من شيء من الطعام، فجهّز لهما أيضاً بعيرين آخرين من الطعام، فقال يوسف: فهذا يدلّ على أن حبّ أبيكم له أزيد من حبّه لكم، فجيئوني به حتى أراه.

ثم أنذرهم بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى﴾ أي إن لم تقدموا به في المرة الثّانية فليس لكم عندي ميرة، ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ أي ولا تدخلون بلادي.

﴿سَنُرَاوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه، ونحاول إقناعه بذلك برفق، وإنّا لفاعلون ذلك لا محالة، أي سنحرص على مجيئه إليك بكل إمكاناتنا ولا نبقي مجهوداً نبذله، لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وقال لفتيانه أي لغلمانه، اجعلوا بضاعتهم في رحالهم أي اجعلوا البضاعة التي اشتروا بها الطعام، وقدموا بها للميرة معاوضة، في أمتعتهم التي لهم من حيث لا يشعرون.

﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ﴾ لعلهم يعرفون حقّ ردّها وحقّ إكرامنا لهم بإعادتها إليهم، لعلهم يرجعون إلينا، بعد عودتهم إلى أهلهم، وفتح متاعهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - قد لا يعرف الأخ أخاه بسبب طول العهد والمدّة، ولاسيما إذا تبدل حال الأخ من أدنى درجات الحال إلى أعلاها، مما يبعد عن التّصور في الذّهن احتمال معرفته.

٢ً - تحقيق الغايات قد يستعمل من أجله التّرغيب والتّرهيب معاً، كما فعل يوسف من أجل إحضار أخيه بنيامين، فالتّرغيب هو قوله: ﴿أَلَا تَرَوۡنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلۡكَيۡلَ وَأَنَا۠ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، والتّرهيب هو قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده، فإذا منعهم من الحضور عنده، كان ذلك نهاية التّرهيب والتّخويف.

٣ً - اتّفق أكثر المفسّرين على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم.

٤ - السَّبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم: هو ترغيبهم في العود إليه، والحرص على معاملته، حينما يعلمون أن بضاعتهم ردت إليهم، كرماً من يوسف، وسخاءً محضاً.

٥ - استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه؛ لأنه يجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أمره بذلك ابتلاءً ليعقوب، ليعظم له الثَّواب، فاتَّبع أمره فيه، وهذا هو الأظهر كما قال القرطبي. وربَّما كان السَّبب تنبيه أبيه على حاله، أو لتتضاعف المسرّة لأبيه برجوع ولدَيْه عليه، أو إيثاراً لأخيه بالاجتماع معه قبل إخوته، لميله إليه.

الفصل الحادي عشر من قصّة يوسف

مفاوضة إخوة يوسف أباهم لإرسال أخيهم بنيامين معهم في المرة القادمة

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾﴾

القراءات:

﴿نَكۡتَلۡ﴾:

وقرأ حمزة والكسائي، وخلف (يكتل).

﴿حَـٰفِظًا﴾: قرئ:

١- (حافظاً) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (حِفْظاً) وهي قراءة الباقين.

﴿تُؤْتُونِ﴾: قرئ:

١- (توتون) وهي قراءة ورش، وحمزة وقفاً.

٢- (تؤتوني) وهي قراءة الدوري وصلاً.

٣- (توتوني) وهي قراءة السوسي وصلاً.

٤- (تؤتوني) وهي قراءة ابن كثير.

٥- (تؤتون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب: ﴿خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾ وقرئ: حفظاً: وهما منصوبان على التّمييز، مثل قولهم: لله درّه فارساً.

﴿مَا نَبْغِى﴾: ﴿مَا﴾: استفهامية في موضع نصب؛ لأنها مفعول ﴿نَبْغِى﴾ وتقديره: أي شيء نبغي .﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦ﴾ اللام لام القسم.

﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ قال الزّمخشري: هذا استثناء متّصل، مفعول له أي لأجله، والكلام المثبت الذي هو قوله: ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦ﴾ في تأويل المنفي، ومعناه: لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم، أي لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة، وهي أن يحاط بكم.

المفردات اللغوية:

﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ حُكم بمنعه بعد هذا إن لم ترسل أخانا بنيامين.

﴿نَكْتَلْ﴾ نتمكن من اكتيال ما نحتاج إليه .﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه .﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ أي ما آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه يوسف من قبل، وقد قلتم فيه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ ثم فعلتم به ما فعلتم.

﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾ فأتوكَّل عليه وأفوض أمري إليه .﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه، ولا يجمع علي مصيبتين .﴿مَا نَبْغِى﴾ ﴿مَا﴾: استفهامية، أي: أيَّ شيء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا؟ وكانوا ذكروا له إكرامه لهم .﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ استئناف موضح لقوله: ﴿مَا نَبْغِى﴾.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ نأتي بالميرة لهم وهي الطعام، وهو معطوف على محذوف، أي ردّت إلينا، فنستظهر بها، ونمير أهلنا بالرّجوع إلى الملك .﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ من المخاوف في ذهابنا وإيابنا .﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا، أي مكيل بعير. ﴿ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل على الملك لسخائه، أو سهل لا عسر فيه لتوافر الغلال لديه.

﴿حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا﴾ حتى تعطوني عهداً .﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بأن تحلفوا به .﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ بأن تموتوا أو تغلبوا، فلا تطيقوا ذلك ولا تستطيعوا الإتيان به، وهو استثناء مفرَّغ من أعم الأحوال، والتّقدير: لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم .﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه عهدهم بذلك .﴿قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه ﴿وَكِيلٌ﴾ شهيد، ورقيب مطَّلع.

المناسبة:

الكلام وثيق الصِّلة بما قبله، فبعد أن ذكر الله تعالى مطالبة يوسف عليه السّلام إخوته بإحضار أخيه بنيامين، ذكر هنا مفاوضتهم أباهم لإنجاز المطلوب، وإبداءه مخاوفه عليه كمخاوفه القديمة التي أظهرها عندما تآمروا على أخذ يوسف عليه السّلام للصّحراء بقصد الرَّتع واللعب.

التفسير والبيان:

حينما رجع أولاد يعقوب إلى أبيهم قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم: إن عزيز مصر منع عنّا الكيل في المستقبل إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين، فإن لم ترسله لا نكتل، فأرسله معنا نكتل من الطعام بقدر عددنا، وإنّا له لحافظون من كل مكروه وسوء في الذّهاب والإياب، فلا تخف عليه، فإنه سيرجع إليك.

قال يعقوب: هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيّبونه عنّي وتحولون بيني وبينه، وقد فرّطتم في يوسف، فكيف آمنكم على أخيه؟ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ﴾ أي فإني أثق به وأتوكّل عليه وأفوض أمري إليه، ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي هو أرحم الرّاحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي وتعلّقي بولدي، وأرجو الله أن يرحمني بحفظه، وأن يردّه علي، ويجمع شملي به، إنه أرحم الرّاحمين.

وهذا دليل على موافقته على إرساله معهم، للحاجة الشّديدة إلى الطعام، وعدم ملاحظته وجود قرائن تدلّ على الحسد والحقد فيما بينهم وبين بنيامين، خلافاً لحال يوسف.

ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وأوعية طعامهم، وجدوا فيها بضاعتهم أي ثمن الطعام، ردّت إليهم، وهي التي كان يوسف أمر غلمانه بوضعها في رحالهم.

فلما وجدوها في رواحلهم قالوا: يا أبانا، ماذا نريد زيادة على هذا الإكرام وإحسان الملك إلينا، كما حدثناك، هذه دراهمنا ردّها إلينا، وإذا ذهبنا بأخينا نزداد كيل بعير بسبب حضوره. وهذا إذا جعلت ﴿مَا﴾ استفهامية، فإن كانت نافية كان المعنى: لا نبغي شيئاً آخر، هذه بضاعتنا ردّت إلينا، فهي كافية لثمن الطعام في الذّهاب الثّاني، ثم نفعل كذا وكذا من جلب الميرة وغيرها.

إننا إذا ذهبنا مع أخينا في المرّة الثَّانية وأرسلته معنا، نأتي بالميرة إلى أهلنا من مصر.

ونحفظ أخانا بنيامين بعنايتنا ورعايتنا، فلا تخف عليه.

ونزيد مكيال بعير لأجله؛ لأن عزيز مصر كان يعطي لكل رجل حمل بعير، دون زيادة ولا نقص، اقتصاداً وحسن تدبير.

وذلك الحمل الزّائد أمر يسير قليل، أو سهل لا عسر فيه على هذا الرّجل السَّخي الرّحيم في مقابلة أخذ أخينا.

قال يعقوب، وقد تذكّر ماضي يوسف: لن أرسل بنيامين معكم حتى تعاهدوني عهداً موثقاً باليمين، لتعودُنّ به على أي حال كنتم، إلا في حال يمتنع ذلك عنكم بأن تهلِكوا وتموتوا أو تُغلَبوا على أمركم وتقهروا كلكم، ولا تقدرون على تخليصه. ويلاحظ أن العهد المؤكّد باليمين يسمّى يميناً، وإن أكِّد ووثِّق بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به بغير اليمين يسمّى ميثاقاً.

فلما آتوه أي أعطوه موثقهم، أي عهدهم المؤكّد باليمين، قال يعقوب: الله على ما نقول جميعاً وكيل، أي شهيد رقيب حفيظ مطَّلع، وأفوض أمري إليه، وقد وافق على إرساله اضطراراً من أجل الميرة التي لا غنى لهم عنها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآيات على ما يأتي:

١ً - كان أولاد يعقوب فيما أخبروا به أباهم من منع الكيل صادقين، حتى يرسل معهم أخاهم، كما وعدوا عزيز مصر.

٢ً - تعهد أولاد يعقوب عليه السّلام بالمحافظة على أخيهم بنيامين، وكأنهم لم يريدوا تكرار مأساة يوسف عليه السّلام؛ لأنهم كانوا يحملون في صدورهم الحقد والحسد عليه، خلافاً لحال بنيامين.

٣ً - تعلّق إخوة يوسف بزيادة الكسب والرّبح، وطمحوا أن يأتوا مرة أخرى بطعام لهم من مصر من غير ثمن.

٤ً - كان إكرام يوسف لإخوته وردّه ثمن الطعام إليهم عاملاً مرغّباً قويّاً في عودتهم إليه مرة أخرى، مصطحبين معهم أخاهم بنيامين.

٥ً - إن يعقوب النّبي عليه السّلام كان في حديثه مع أولاده مطمئناً إلى حفظ الله ورحمته، فهو نعم الوكيل الحافظ، وهو أرحم الرّاحمين بعباده، ولا سيّما حال الضُّعفاء وكبار السّن أمثاله، فحفظ الله له خير من حفظكم إيّاه.

٦ً - تشدُّد يعقوب عليه السّلام هذه المرة مع أولاده أكثر مما حدث عند إذنه بإرسال يوسف عليه السّلام، بعد تلك التّجربة القاسية وما أعقبها من حزن شديد وألم، فطلب منهم الميثاق وهو العهد المؤكَّد باليمين على إحضاره إليه إلا في حال العذر القاهر والإحاطة بهم، قال مجاهد معناها: إلا أن تهلكوا أو تموتوا.

وقد دلّ قوله تعالى: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على أنه أجابهم إلى إرساله معهم.

٧ً - أراد أولاد يعقوب عليه السّلام تطييب نفس أبيهم بقولهم: ﴿مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا﴾ فهم حشدوا لإقناعه وتطييب نفسه كل الأسباب والبواعث المادية واستغلُّوا حاجتهم الشديدة: أخذ الطعام دون ثمن، إعالة الأهل، إضافة حمل بعير، وضموا إلى ذلك كله التّعهد بالحفظ والرِّعاية، فلم يجد بدّاً من الموافقة على إرسال بنيامين معهم.

٨ً - قوله تعالى: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ دليل على جواز الكفالة (الحمالة) بالعين والوثيقة بالنّفس (كفالة النّفس) وللعلماء فيها رأيان: رأي الجمهور: هي جائزة إذا كان المكفول به مالاً. ولا تجوز الكفالة بالحدود والقصاص في رأي المذاهب الأربعة، وأجاز الشافعية

الكفالة بالقصاص، والقذف، والتّعزير؛ لما فيها من حقّ العبد. وقال بعضهم: لا تجوز الكفالة بالنّفس، لتعذّر إحضار المكفول بنفسه، ولقوله تعالى على لسان العزيز في قصّة يوسف عليه السّلام: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

الفصل الثاني عشر من قصة يوسف
وصية يعقوب لأولاده بالدخول إلى مصر من أبواب متفرقة

﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

الإعراب:

﴿مِن شَىْءٍ﴾ إما مفعول وإما فاعل، والتقدير على المفعولية: ما كان يغني من قضاء الله شيئاً، وعلى الفاعلية: ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضائه.

البلاغة:

﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ فيه طباق السلب، وفيه إطناب: وهو زيادة اللفظ على المعنى، للتأكيد والتقرير وتمكين المعنى في النفس.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تَدْخُلُوا۟﴾ مصر. ﴿وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال

وأبهة مشتهرين في مصر بالكرامة والحظوة عند العزيز، فخاف عليهم أن يدخلوا جماعة واحدة فتصيبهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك في المرة الأولى؛ لأنهم كانوا مجهولين حينئذ. ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ أي وما أدفع عنكم بقولي ذلك شيئاً قدره الله عليكم وقضاه، وإنما ذلك شفقة، فإن الحذر لا يمنع القدر. ومن: صلة زائدة لتمكين النفي.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ أي ما الحكم إلا لله وحده، يصيبكم لا محالة إن قُضي عليكم سوء، ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ به وثقت. ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ﴾ الفاء لإفادة التسبب، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم. والواو في قوله ﴿وَعَلَيۡهِ﴾ للعطف، وقدم ﴿عَلَيۡهِ﴾ في عطف الجملة على الجملة للاختصاص.

﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ما كان يفيد رأي يعقوب واتباعهم له مما قضاه الله عليهم شيئاً، فحدث وضع الصواع في رحل بنيامين، وتضاعفت المصيبة على يعقوب.

﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ استثناء منقطع، أي ولكن حاجة في نفسه يعني شفقته عليهم وحرصه على ألا يعانوا (تصيبهم العين) وقضاها أي أظهرها، ووصى بها. ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ إن يعقوب عليم بحقائق الأمور وأن العين لا توقع ضرراً إلا بإذن الله، لتعليمنا إياه بالوحي وإقامة الحجج، ولذلك قال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ ولم يغتر بتدبيره.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ وهم الكفار. ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ سر القدر، وأنه لا يغني عنه الحذر، وأن الحكم لله. وهذا ثناء من الله على يعقوب عليه السلام.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى موافقة يعقوب على إرسال بنيامين مع إخوته إلى

مصر، ذكر هنا وصيته لأولاده لما عزموا على الخروج إلى مصر، وهي الدخول من أبواب متفرقة، ليروا مدى الاهتمام والاستقبال لكل واحد منهم حين رؤية بنيامين شقيق يوسف، أو لئلا يحسدهم الحساد، وتصيبهم العين جميعاً.

التفسير والبيان:

أمر يعقوب بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ألا يدخلوا كلهم من باب واحد، وليدخلوا من أبواب متفرقة؛ لأنهم كانوا من أهل جمال وكمال، وذلك في رأي جمهور المفسرين لئلا تصيبهم العين، فإنه خاف من العين عليهم، والعين حق أي إنها سبب حق في الظاهر قد تؤدي إلى الضرر، ولكن بإذن الله وإرادته، بدليل قوله بعدئذ: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾. أو ليروا من العزيز فرق الاستقبال بينهم وبين أخيهم بنيامين.

﴿وَمَآ أُغۡنِي﴾ أي وما أدفع عنكم بوصيتي وتدبيري من قضاء الله شيئاً؛ إذ لا يغني حَذَر من قدر، أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع، ولكنا مأمورون باتخاذ وسائل الحيطة والحذر: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٢/٤] أخذاً بالأسباب العادية الظاهرية التي لا تؤثر في الواقع شيئاً إلا بإذن الله، واستعانة بالله، وفراراً منه إليه، وليس دفعاً للقدر، وتحدياً للقضاء، فلا يملك الإنسان من أمره شيئاً، فما أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به من التفرق، وهو مصيبكم لا محالة.

وما إنفاذ الأحكام وتدبير الأمور إلا لله وحده، عليه وحده توكلت، وبه وثقت، وإليه فوضت أمري، دون حولي وقوتي، وعليه تعالى وحده فليتوكل المتوكلون، لا على أنفسهم ولا على أمثالهم من البشر.

ولما دخلوا أي أولاد يعقوب مصر، التي كان لها أربعة أبواب، من حيث أمرهم أبوهم، أي من أبواب متفرقة، ما كان رأي يعقوب ودخولهم على هذا

النحو متفرقين يفيدهم شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم، مع تفرقهم، من نسبة السرقة إليهم، وافتضاحهم بذلك، وأخذ أخيهم فداء لوجدان الصواع في رحله، وتضاعف المصيبة على أبيهم.

ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، أي مجرد شيء في نفسه أظهره، وهي شفقته عليهم، وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به.

وإنه أي يعقوب لذو علم بأن الحذر لا يمنع القدر، لتعليمنا إياه بالوحي. وقال قتادة والثوري: لذو عمل بعلمه، وهذا ثناء من الله على يعقوب عليه السلام.

ولكن أكثر الناس وهم المشركون أو الكفار لا يعلمون ذلك أي مثل ما علم يعقوب، أو لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم، فإنهم لا يعلمون كيف أرشد الله أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة. ومن تلك العلوم الأخذ بالأسباب الظاهرة وتفويض الأمر لله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ - قول يعقوب لأولاده: ﴿لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ دليل في رأي جمهور المفسرين على التحرز من العين، والعين في الظاهر حق، ومرد النتيجة في الحقيقة إلى الله وحده، وتكون العين مجرد سبب؛ قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد بسند صحيح «العين حق» أي شيء ذو أثر موجود عند الناس، وذكر النسفي: «إن العين لتدخِل الرجل القبر، والجمَل القدر» وكان ﷺ يتعوَّذ فيقول: «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة» وكان يعوِّذ الحسن والحسين فيقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامة» ويقول: وهكذا كان يعوِّذ إبراهيم إسماعيلَ وإسحاقَ صلواتُ الله عليهم.

وروى عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار، فرأيته شديد الوجع، ثم عُدْت إليه آخر النهار، فرأيته معافى، فقال: إن جبريل عليه السلام أتاني فقال فيما أخرجه أحمد عن عائشة وعبادة: «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، ومن كل عين وحاسد، الله يشفيك».

وعلى كل مسلم أعجبه شيء أن يُبَرِّك، فإنه إذا دعا بالبركة، صرف المحذور لا محالة؛ لقوله ﷺ لعامر: «ألا برَّكت» فدل على أن العين لا تضر إذا بَرَّك العائن. والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه. ويقال: إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار.

والعائن إذا أصاب بعينه ولم يبرك، يؤمر بالاغتسال، ويُجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، وقد أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعِين، وأمر بالرقية.

ومن عرف بالإصابة بالعين، منع من مداخلة الناس، دفعاً لضرره.

٢ً - دل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ على أن الحذر لا ينفع مع القدر، فدخول أولاد يعقوب مصر من أبواب متفرقة ما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء. قال ابن عباس: ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمراً قدره الله.

٣ً - الحكم لله، أي الأمر والقضاء لله وحده، وعلى المؤمن الاتكال على الله، أي الاعتماد عليه والثقة به وحده؛ لأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى.

٤ً - إن وصية يعقوب لأولاده بالدخول من أبواب متفرقة مجرد خاطر خطر بقلبه، وتحرز ظاهري، مع أنه عليم من طريق الوحي بأمر دينه، وأكثر الناس لا يعلمون ما يعلم يعقوب من أمر دينه. وقيل: المقصود بالعلم هنا العمل، أي لذو عمل بعلمه، فإن العلم أول أسباب العمل، فسمي بما هو بسببه.

٥ً - أفادت الآية أن على المسلم أن يحذِّر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم.

الفصل الثالث عشر من قصة يوسف

معرفة يوسف أخاه بنيامين واتخاذه التدابير لإبقائه لديه

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أنا).

﴿أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ :

بإثبات ألف (أنا) وصلاً قرأ نافع، وحذفها الباقون.

﴿مُؤَذِّنٌ﴾ :

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (موذن).

﴿مَّا جِئۡنَا﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (ما جينا).

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ : قرئ:

١- (نرفع درجاتِ من نشاء) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (نرفع درجاتٍ من نشاء) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ، والهاء عائد للسَّرَق، وتقديره: جزاء السَّرَق أخذ من وجد في رحله. وقوله: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ جملة هي في موضع خبر المبتدأ، أي فالاستعباد جزاء السَّرَق، وفاء: ﴿فَهُوَ﴾ متضمنة معنى الشرط أو جواب له على أن ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ شرطية، والجملة الشرطية كما هي: خبر المبتدأ الأول: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير، كأنه قيل: جزاؤه من وجد في رحله، فهو هو، إلا أنه أقام الظاهر مقام المضمر للتأكيد والمبالغة في البيان.

﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة خبر المبتدأ ﴿مَن وُجِدَ﴾ الذي هو الاسم الموصول.

البلاغة:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ فيه جناس الاشتقاق .﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ فيه أيضاً جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل .﴿فَلَا تَبۡتَئِسۡ﴾ تحزن .﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من الحسد لنا، وأمره ألا يخبرهم، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقيه عنده .﴿جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾ أعد لهم الطعام بسرعة .﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾ في الأصل: المشربة أو وعاء يسقى به، والمراد به هنا المكيال الذي كان يكال به الطعام للناس، وهو صواع الملك، فهو كان مشربة، ثم جعل صاعاً يكال به، ويقدر بكيلة مصرية١١٢من الإردب المصري، والإردب ١٩٨ لتراً، أو ١٥٦ كغ. قيل: كان من فضة، وقيل: كان من ذهب .﴿فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين .﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد، أو أعلم وأخبر، وهو يفيد الكثرة والتكرار .﴿أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ﴾ القافلة أو الجمال التي تحمل الطعام، والمراد أصحابها .﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ أيُّ شيء ضاع منكم، والفقد: غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه.

﴿صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ صاعه أو مكياله .﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ من الطعام جعلاً له. ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ﴾ بالحمل .﴿زَعِيمٞ﴾ كفيل وضامن، أؤديه إلى من ردّه.

﴿تَٱللَّهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب .﴿لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم، لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم، مما يدل على فرط أمانتهم، مثل ردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ﴾ أي قال المؤذن وأصحابه، فما جزاء السارق .﴿إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ في قولكم: ما كنا سارقين، ووجد فيكم .﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ أي عقوبة السارق استعباد أو استرقاق من وجد في رحله. ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ تأكيد لما سبق أي فأخذ السارق جزاء المسروق لا غير، وكان ذلك سنة آل يعقوب .﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين بالسرقة، وهذا تصريح منهم ليوسف بتفتيش أوعيتهم.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ ففتشها. ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين لئلا يتهم. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية أو الصواع. ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا﴾ أي مثل ذلك الكيد (أي التدبير الخفي) كدنا ليوسف، علمناه الحيلة في أخذ أخيه وأوحينا به إليه. ﴿مَا كَانَ﴾ يوسف. ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ رقيقاً من السرقة. ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ في قانون أو نظام أو حكم أو شرع ملك مصر؛ لأن جزاءه في ذلك النظام الضرب وتغريم مثلي المسروق، لا الاسترقاق. ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك، وهو أخذه بحكم أبيه، أي لم يتمكن من أخذه إلا بمشيئة الله بإلهامه سؤال إخوته، وجوابهم بنظامهم أو سنتهم. والاستثناء متصل من أعم الأحوال، ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً، أي لكن أخذه بمشيئة الله وإذنه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ بالعلم كيوسف. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من المخلوقين. ﴿عَلِيمٌ﴾ أعلم منه، حتى ينتهي إلى الله تعالى.

المناسبة:

الربط بين الآيات هنا واضح، إذ هي تعرض أجزاء ومشاهد قصة واحدة ذات حلقات متسلسلة، فبعد أن اتجه أولاد يعقوب إلى مصر لجلب الميرة، مزودين بوصية والدهم، وصلوا إلى مكان وجود العزيز الذي يتولى بيع الطعام للناس، فلما دخلوا عرف أخاه وضمه إليه.

التفسير والبيان:

حينما دخل أولاد يعقوب على يوسف في مجلسه الخاص ومنزل ضيافته، ومعهم أخوه شقيقه بنيامين، بعد أن كانوا دخلوا القصر من أبواب متفرقة، ضم إليه أخاه واختلى به، وأطلعه على شأنه، وعرّفه أنه أخوه، وقال له: لا تبتئس أي لا تأسف ولا تحزن على ما صنعوا بي، وأمره ألا يطلع إخوته على

ما أطلعه عليه من أنه أخوه، وتواطأ معه أنه سيتخذ تدبيراً يبقيه عنده معززاً مكرماً.

روي أنهم قالوا له: هذا أخونا، قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة، فبقي بنيامين وحده، فبكى وقال: لو كان أخي يوسف حياً لأجلسني معه، فقال يوسف: بقي أخوكم وحيداً، فأجلسه معه على مائدته، وجعل يواكله، وقال: أنتم عشرة، فلينزل كل اثنين منكم بيتاً، وهذا لا ثاني له، فيكون معي، فبات يوسف يضمه إليه، ويشم رائحته، حتى أصبح وسأله عن ولده، فقال: لي عشرة بنين، اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال: من يجد أخاً مثلك؟! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل (أمهما) فبكى يوسف وقام إليه وعانقه، وقال له: إني أنا أخوك يوسف، فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا في الماضي، فإن الله قد أحسن إلينا، وجمعنا على خير، ولا تعلمهم بما أعلمتك[١].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ فلما أعدَّ لهم الطعام، وحمل لهم أبعرتهم طعاماً، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية (الصواع أو المكيال، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب) في رحل أخيه بنيامين، دون علم أحد.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثم نادى منادٍ حينما عزموا على الخروج: أيتها العير أي يا أصحاب العير، إنكم قوم سارقون، فقفوا. فبهتوا وذهلوا.

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا: أي: قال إخوة يوسف للمنادي ومن معه: أيّ شيء تفقدونه؟ فأجابوهم: نفقد صاع الملك الذي يكيل به، ولمن أتى به حمل

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٤٧

بعير من القمح، وهذا يدل على أن عيرهم الإبل، وأنا به زعيم أي كفيل ضامن، وهذا من باب الجعالة والضمان والكفالة.

قال إخوة يوسف بعد اتهامهم بالسرقة: والله لقد خبرتمونا وجربتمونا في المرة الأولى وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا إليكم، وتحققتم منذ عرفتمونا، وشاهدتم سيرتنا الحسنة أنا ما جئنا لنفسد في أرض بسرقة ولا غيرها من التعدي على حقوق الناس، ولم نكن يوماً ما سارقين، فليست سجايانا تقتضي هذه الصفة.

فقال لهم فتيان يوسف: فما جزاء السارق إن كان فيكم، إن كنتم كاذبين في نفي التهمة عنكم؟ أي أيّ عقاب للسارق في شرعكم إن وجدنا فيكم من أخذه، وأنتم تدّعون البراءة؟

فأجابوهم: جزاؤه أخذ من وجد في رحله، ومثل هذا الجزاء نجزي الظالمين للناس بسرقة أموالهم في شريعتنا أن يسترقوا، وهكذا كانت شريعة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: أن السارق يدفع إلى المسروق منه، فيصير عبداً له، وهذا هو ما أراده يوسف عليه السلام.

ولهذا بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه للتورية وحتى لا يتهم، ثم استخرج السقاية من وعاء أخيه بنيامين، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ويحكمون به.

قوله: ﴿فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾ تقرير للحكم السابق وتأكيد له، بعد تأكيد ثقتهم وبراءتهم بأنفسهم.

﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي مثل ذلك الكيد وهو التدبير الخفي، كدنا ليوسف، أي دبرنا له في الخفاء وأوحينا إليه أن يفعله. وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه؛ لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وهو دليل

على جواز التوصل إلى الأغراض المشروعة بما ظاهره الحيلة إذا لم يخالف نصاً تشريعياً أو حكماً مقرراً، فهي حيلة جائزة مشروعة، لا ممنوعة محظورة، لما يترتب عليها من الخير والمصلحة، دون إلحاق ضرر بأحد، مع اطمئنان بنيامين إلى البراءة، بسبب التواطؤ السابق بينه وبين أخيه يوسف.

وسبب ذلك التدبير الخفي أن يوسف ما كان يتمكن من أخذ أخيه في حكم ملك مصر الذي لا يبيح استرقاق السارق، ولكن قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه وهو أن يستعبد السارق، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ بالعلم، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١/٥٨].

وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي ما كان ليأخذ أخاه في نظام الملك في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله، فإنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه، مما يدل على أن تلك الحيلة بإقرار الشرع، ووحي الله تعالى. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه، قال الحسن البصري: ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل. فإذا كان إخوة يوسف علماء فإن يوسف كان أعلم منهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - كانت فرحة غامرة من أفراح العمر لقاء الأخوين: يوسف وبنيامين، فضم يوسف أخاه إليه، وتعرَّف عليه بعد فراق دام أكثر من ربع قرن، وتواطأ معه على خطة إبقائه لديه.

٢ - دل قول يوسف لأخيه ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ على

التحلي بصفة العفو والتسامح، وإظهار الحب والود لإخوته، ونسيان الماضي وتجاوز أخطائهم معه في مقتبل العمر.

٣ً - كان وضع الصواع في رحل بنيامين بأمر يوسف عليه السلام تعليماً وإلهاماً ووحياً من الله، وكان إبقاء أخيه لديه عملاً بشريعة إبراهيم ويعقوب، وإلزاماً لإخوته بما حكموا به.

٤ً - لم يكن وصف أولاد يعقوب بأنهم سارقون كذباً من يوسف عليه السلام، وإنما المراد أيتها العير حالكم حال السُّرَّاق، والمعنى: إن شيئاً لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه. أو إن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه، وفصله عنهم إليه، أو إنهم سارقون باعتبار ما كان منهم حينما أخذوا يوسف من أبيه، فألقوه في الجبّ.

٥ً - دل قوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ على جواز الجعالة[1] وضمان الجعْل قبل إنجاز العمل أو قبل إتمامه. وقد أجيز للضرورة، فجاز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره، وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع بالعمل وبعده، إذا رضي بإسقاط حقه، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعالة حضور المتعاقدين، كسائر العقود؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ﴾ وبهذا كله قال الشافعي، وكذا المالكية والحنابلة، ولم يجز الحنفية الجعالة للجهالة.

ولم يكن قوله ﴿حِمۡلُ بَعِيرٖ﴾ ضمان المجهول؛ لأن حمل البعير كان معيناً

---

(١) الجعالة: التزام بعوض على شيء معلوم أو مجهول، وهو تصرف بإرادة منفردة، مثل الإعلان عن مكافأة أو جُعْل لمن يجد شيئاً ضائعاً، أو يكتشف علاجاً لمرض معين، أو لمن يتفوق في قضية علمية أو اكتشاف علمي.

معلوماً عندهم كالوَسْق (٦٠ صاعاً) فصح ضمانه، غير أنه كان بدل مال عن المسروق، وهو كفالة بما لم يجب؛ لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئاً على رد السرقة، فلعله كان يصح في شرعهم، أو كان هذا جعالة.

٦ - دل قوله: ﴿وَأَنَاْ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ على جواز الكفالة بنوعيها: الكفالة بالمال والكفالة بالنفس، وهذا مطابق للحديث النبوي الذي أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن حسان وصححه عن أبي أمامة الباهلي وغيره: «الزعيم غارم» وهو رأي المذاهب الأربعة، ولم يجز بعضهم الكفالة بالنفس لعجز الكفيل عن إحضار المكفول بنفسه.

وهل يلزم الكفيل بالنفس ضمان المال أو لا؟ قال الحنفية: لا يلزمه إن مات المكفول بنفسه؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به. وقال المالكية والليث والأوزاعي: يغرم المال، ويرجع به على المطلوب؛ لأن الكفيل يعلم أن المضمون بنفسه إنما يطلب بمال، فإذا ضمن إحضاره ولم يأته به، فكأنه فوّته عليه، فلزمه المال.

وإذا انعقدت الكفالة جاز في رأي الجمهور للدائن المكفول له أن يطالب بالمال أو الدين من شاء من المدين الأصيل أو الكفيل. ورأي مالك الأخير: ألا يطالب الكفيل إلا أن يفلس الغريم (المدين) أو يغيب؛ لأن البدء بمطالبة من عليه الحق أولى؛ إلا أن يكون معدماً، فيؤخذ الدين من الكفيل؛ لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة.

والكفالة لا تصح إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها، مما يتعلق بالذمة من الأموال، وكان الدين ثابتاً مستقراً، أي لازماً. فلا تصح الكفالة بنجوم (أقساط) الكتابة؛ لأنها ليست بدين لازم أو ثابت مستقر. وأما الحقوق التي لا يمكن لأحد القيام بها عن أحد كالحدود فلا كفالة فيها عند الأكثرين؛ لأن درء هذه الحدود مطلوب ما أمكن، ويسجن المدعى عليه الحد، حتى ينظر في

أمره. وأجازأبو يوسف ومحمد الكفالة في الحدود والقصاص؛ لجواز الكفالة بالنفس. وأجاز الشافعية كفالة تسليم النفس في الحدود الخالصة للآدمي كقصاص وحد قذف وتعزير؛ لأنها حق لآدمي، فصحت الكفالة، كسائر حقوق الآدميين المالية.

٧ً - كان استرقاق أو استعباد السارقين دِينَ يعقوب عليه السلام وحكمه، وقد فهم هذا من جواب أولاده: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ وفي الجملة معنى التوكيد، كما تقول: جزاء من سرق القطع، فهذا جزاؤه؛ لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله.

وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ.

وأما قطع يد السارق في شريعتنا فهو ناسخ لما تقدم من الشرائع، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق.

٨ً - يجوز التوصل إلى الأغراض أو الحقوق المشروعة إذا لم تخالف شريعة، ولا هدمت أصلاً. وأجاز الحنفية والشافعية الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق، لفعل يوسف بوضع الصواع في رحل أخيه، ولفعل أيوب مع امرأته: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٣٨/ ٤٤] ولأمر النبي ﷺ ببيع التمر الرديء بالدراهم، ثم شراء التمر الجيد (الجنيب) بالدراهم.

وأجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة، فإذا حال الحول لا يحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرِّق بين مجتمع، ولا أن يجمع بين متفرق.

وقال مالك: إذا فوّت من ماله شيئاً ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه، لزمته الزكاة عند الحول، أخذاً منه بقوله ﷺ: «خشيةَ الصدقة».

وقال أبو حنيفة: إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرّه؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول، ولا يتوجه إليه معنى الحديث السابق: «خشية الصدقة»[1] إلا حينئذ.

٩ً - شاء الله أن يجري على ألسنة أولاد يعقوب حكم بني إسرائيل في استرقاق السارق، مع أنه كان حكم الملك الضرب والتغريم ضعفي المسروق.

١٠ً - لله في خلقه شؤون، يعزّ قوماً ويذلّ آخرين، ويرفع من يشاء درجات بالعلم والإيمان. قال ابن عباس: يكون ذا أعلم من ذا، وذا أعلم من ذا، والله فوق كل عالم. وقال أيضاً: الله العليم، وهو فوق كل عالم. والآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات.

(١) نص الحديث الذي أخرجه البخاري عن أنس: «ولا يجمع بين متفرّق ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصدقة» (سبل السلام ٣/ ٥٩١، ط بيروت).

الفصل الرابع عشر من قصة يوسف
نقاش حادّ بين أولاد يعقوب وبين يوسف وبين أبيهم حول السرقة المزعومة

﴿ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٧٨ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧ ﴾

القراءات:

﴿لِيٓ أَبِيٓ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (لِيَ أبي).

﴿أَبِيٓ أَوۡ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أبيَ أو).

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمزة وقفاً (وسلِ القرية).

﴿وَحُزۡنِيٓ إِلَى﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (وحزنيَ إلى).

الإعراب:

﴿أَنتُمۡ شَرٌّ مَّكَانٗاۖ﴾ بدل من أسرّها .﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على المصدر، حذف فعله وأضيف إلى المفعول.

﴿ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ﴾ استفعلوا من يئس ييْأس ﴿نَجِيّٗاۖ﴾ حال من ﴿خَلَصُواْ﴾ و﴿نَجِيّٗاۖ﴾ لفظه لفظ المفرد، والمراد به الجمع، كعدو وصديق، فإنهما يوصف بهما الجمع على لفظ المفرد.

﴿مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ﴾ ﴿مَا﴾ إما مصدرية في موضع نصب بالعطف على قوله تعالى: ﴿أَبَاكُمۡ﴾ وتقديره: ألم تعلموا أن أباكم وتفريطكم، وإما أن تكون زائدة، أي ومن قبل فرطتم، مثل ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ﴾ أي فبرحمته.

﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ في موضع نصب؛ لأنه منادى مضاف، وأصله: يا أسفي، فأبدل من الكسرة فتحة، فانقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾. و﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ في موضع نصب؛ لأنه من صلة المصدر.

البلاغة:

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ بينهما طباق. ﴿شَيْخًا كَبِيرًا﴾ فيه إطناب للاستعطاف. ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية أي أهل القرية. ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق. ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ إيجاز بالحذف، أي والله لا تفتأ.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ استعار الروح وهو تنسيم الريح الطيبة النسيم، للفرج بعد الكرب، واليسر بعد الشدة.

المفردات اللغوية:

﴿إِن يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ قيل: ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام، وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شبّ أراد يعقوب انتزاعه منها، فشدت المنطقة على وسطه، ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها، فوجدها محزومة عليه، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل: كان لأبي أمه صنم من ذهب، فسرقه، وكسره، وألقاه في الجيف، لئلا يعبده. ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا﴾ لم يظهرها لهم، والضمير يعود للكلمة أو الجملة التي في قوله: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي فأسرَّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

﴿قَالَ﴾ في نفسه. ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي شر منزلة من يوسف وأخيه، لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي والله عالم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تذكرون من أمره، أو وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن أو القدر، يحبه أكثر منا، ويتسلى به عن ولده الهالك، ويحزنه فراقه، وهذا استعطاف له عليه. ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا

مَكَانَهُۥٓ﴾ استعبده بدلاً منه، فإن أباه مستأنس به. ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في أفعالك إلينا، فأتمم إحسانك، أو من المتعوِّدين الإحسان، فلا تغير عادتك. ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله ونلجأ إليه. ﴿أَن نَّأْخُذَ﴾ من أن نأخذ، ولم يقل: من سرق، تحرزاً من الكذب. ﴿إِنَّآ إِذًا﴾ إن أخذنا غيره مكانه ﴿لَّظَٰلِمُونَ﴾ في مذهبكم، لو أخذنا غيره مكانه، كنا من الظلمة.

﴿ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ يئسوا يأساً كثيراً من يوسف وإجابته إياهم، وزيادة السين والتاء للمبالغة. ﴿خَلَصُوا۟﴾ انفردوا واعتزلوا الناس. ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين متشاورين سراً، يناجي بعضهم بعضاً، وإنما وحّده لأنه مصدر أو بزنة المصدر، كما قيل: هم صديق، وجمعه أنجية كنديّ وأندية.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ سناً: روبيل أو يهوذا، أو كبيرهم في الرأي وهو شمعون. ﴿مَّوْثِقًا﴾ عهداً. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ في أخيكم، وإنما جعل حلفهم بالله موثقاً منه؛ لأنه بإذن منه وتأكيد من جهته. ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ هذا. ﴿مَا فَرَّطتُمْ﴾ قصرتم في شأنه، و﴿مَا﴾ زائدة أو مصدرية في موضع نصب بالعطف على مفعول: تعلموا، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف، أو معطوف على اسم أن، وخبره: ﴿فِى يُوسُفَ﴾. ويصح كونه مبتدأ وخبره: ﴿مِن قَبْلُ﴾ قال البيضاوي: وفيه نظر؛ لأن ﴿قَبْلُ﴾ إذا كان خبراً، أو صلة، لا يقطع عن الإضافة، حتى لا ينقص. ويصح أن تكون موصولة، أي ما فرطتموه بمعنى: ما قدمتموه في حقه من الخيانة.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ لن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ﴾ بالعودة أو الرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ أو يقضي الله لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أعدلهم؛ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ وما شهدنا عليه إلا بما تيقنا من مشاهدة الصاع في رحله واستخراجه من وعائه ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لما غاب عنا وهو

باطن الحال، حين إعطاء الموثق ﴿حَافِظِينَ﴾ أي فلا ندري أنه سرق، أو ماكنا للعواقب عالمين، فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق.

﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ واسأل أهل مصر ﴿وَالْعِيرَ﴾ أصحاب الإبل ﴿الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ وهم قوم من كنعان ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ في قولنا، فرجعوا إليه، وقالوا له ذلك ﴿سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿أَمْرًا﴾ ففعلتموه، اتهمهم لما سبق منهم من أمر يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي صبري صبر جميل ﴿أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ يوسف وأخويه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم تاركاً خطابهم ﴿يَا أَسَفَىٰ﴾ ياحزني ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ انمحق سوادهما وتبدل بياضاً من بكائه ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ عليه ﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظاً، مغموم مكروب لا يظهر كربه ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ﴾ لا تفتأ أي لا تزال تذكره تفجعاً عليه ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مشرفاً على الهلاك، لطول مرضك، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿الْهَالِكِينَ﴾ الموتى.

﴿قَالَ﴾ يعقوب لهم ﴿بَثِّي﴾ هو عظيم الحزن الذي لا يصبر عليه حتى يبث إلى الناس من البث: وهو النشر ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى غيره، فهو الذي تنفع الشكوى إليه، فخلوني وشكايتي ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أن رؤيا يوسف صدق وهو حي، وأعلم من الله أي من صنعه ورحمته فإنه لايخيب داعيه ﴿فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اطلبوا خبرهما ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾ تقنطوا ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ رحمته وفرجه.

المناسبة:

هزت السرقة أعماق نفوس أولاد يعقوب، فثار النقاش الحاد والحوار الشديد بين أولاد يعقوب أنفسهم، وبينهم وبين يوسف، وبينهم وبين أبيهم، لعودتهم إليه دون ولدين آخرين: وهما أكبر أولاده «روبيل أو يهوذا» وأصغر

أولاده وهو بنيامين. ولم يجد أبناء يعقوب سبيلاً للدفاع إلا الحجة الساذجة السطحية وهو تأكيد حادثة السرقة من أخيهم كما سرق أخوه يوسف من قبل، وقالوا: هذه الواقعة عجيبة أن (راحيل) ولدت ولدين لصين، ثم قالوا: يابني راحيل، ما أكثر البلاء علينا منكم، فقال بنيامين: ما أكثر البلاء علينا منكم، ذهبتم بأخي وضيعتموه في المفازة، ثم تقولون لي هذا الكلام، قالوا له: فكيف خرج الصواع من رحلك؟ فقال: وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم[١].

التفسير والبيان:

قال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من وعاء بنيامين، بعد أن نفوا السرقة نفياً باتاً، والتزموا على أنفسهم استعباد من وجد في رحله: إن يسرق بنيامين، فقد سرق أخوه يوسف من قبل، فهما من أصل واحد، ومرادهم التنصل إلى العزيز من التشبه بالأخوين، وتأنيب أخيهم على ما فعل.

وهذا يعني أن الطبائع والعادات والأخلاق تورث، وأن الحقد والكراهية والحسد عندهم ما يزال موجوداً لديهم.

ونسبة السرقة إلى يوسف في أصح الروايات ماروى ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعاً قال: سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده أبي أمه من ذهب وفضة، فكسره وألقاه في الطريق، فعيره بذلك إخوته. وقال سعيد بن جبير عن قتادة: كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبي أمه، فكسره. وروى محمد بن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء - فيما بلغني - أن عمته ابنة إسحاق، وكانت أكبر ولد إسحاق، وكانت عندها منطقة إسحاق، وكانوا يتوارثونها بالكبر، وكان من

---

(١) تفسير الرازي: ١٨/ ١٨٣

اختبأها ممن وليها، كان له سِلْماً لا ينازع فيه، يصنع فيه ما يشاء، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته، وكان لها به وَلَهٌ، فلم تحب أحداً حبها إياه، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات، تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام، فأتاها، فقال: ياأُخية، سلِّمي إلي يوسف، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة، قالت: فوالله، ما أنا بتاركته، ثم قالت: فدعه عندي أياماً، أنظر إليه، وأسكن عنه، لعل ذلك يسليني عنه.

فلما خرج من عندها يعقوب، عمدت إلى منطقة إسحاق، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه، ثم قالت: فقدت منطقة إسحاق عليه السلام، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت: اكشفوا أهل البيت، فكشفوهم، فوجدوها مع يوسف، فقالت: والله، إنه لي لسِلْم أصنع فيه ما شئت، فأتاها يعقوب، فأخبرته الخبر، فقال لها: أنتِ وذاكِ، إن كان فعل ذلك، فهو سِلْم لك، ما أستطيع غير ذلك، فأمسكته، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت، قال: فهو الذي يقول إخوة يوسف، حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ﴾ أي فأخفى في نفسه مقالتهم هذه، أو أخفى الجملة أو الكلمة التي بعدها وهي قوله: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾.

﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أي لم يظهر مافي نفسه من مؤاخذتهم بمقالتهم، بل صفح عنهم.

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ أي وقال لهم في نفسه دون إعلان لهم: أنتم شر مكاناً ومنزلة ممن تتهمونه بالسرقة؛ إذ إنكم سرقتم من أبيكم أخاكم، وطرحتموه في البئر، بقصد الهلاك والتخلص منه.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي والله عالم بما تذكرون وما تصفونه به.

وهذا من قبيل الإضمار قبل الذكر، وهو كثير في اللغة والقرآن والحديث.

ثم استعطفوه واستشفعوا لديه لعله يأخذ أحدهم مكانه، فالفداء أو العفو أيضاً جائز في شرعهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ﴾ أي قالوا: ياأيها العزيز، إن له أباً شيخاً هرماً متعلقاً به، فهو يحبه حباً شديداً، ويتسلى به عن ولده الذي فقده، أو هو كبير القدر والمقام جدير بالرعاية والمجاملة والعناية.

فخذ أحداً منا بدله، يكون عندك عوضاً عنه، إنا نراك من المحسنين لنا في ميرتنا وضيافتنا، أو من العادلين المنصفين، القابلين للخير، أو من عادتك الإحسان مطلقاً، فأحسن إلينا.

فأجابهم: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي نعوذ بالله معاذاً أو نستعيذ بالله أن نأخذ غير من وجدنا الصواع عنده، كما قلتم واعترفتم، ولم يقل: إلا من سرق، تحاشياً للكذب، إنا إذا أخذنا غيره كان ذلك ظلماً في مذهبكم، فهو أخذ بريء بمتهم، فلِمَ تطلبون ما عرفتم أنه ظلم. والمقصود الحقيقي من هذا الكلام بيان أن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة في ذلك، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه، كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي. وهو رد قوي لهم، متضمن الاستعاذة من رأيهم؛ لأنه ظلم. ثم جاء دور حوارهم مع بعضهم.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟﴾ أي فلما يئس إخوة يوسف من إطلاق سراح أخيهم بنيامين الذي التزموا لأبيهم برده إليه، وعاهدوا على ذلك، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم ويتشاورون في أمرهم. قال كبيرهم في السن أو في العقل والرأي وهو روبيل أو يهوذا الذي أشار بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله: إن هذا الأمر عظيم، ألم تذكروا أخذ أبيكم موثقكم لتردُّنه إليه، إلا أن يحاط بكم، أوَ لمْ تعلموا أيضاً تفريطكم في الماضي بأخيكم يوسف وإضاعته عن أبيكم، مما جعله رهين الحزن والأسى عليه؟!

﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ﴾ فلن أغادر أرض مصر أبداً، وأترك بنيامين فيها، حتى يأذن لي أبي في العودة إليه، أو يحكم الله لي بأن يمكنني من أخذ أخي أو بالخروج من مصر، وهو خير الحاكمين، فلا يحكم أبداً إلا بالحق والعدل.

هذا قراره الشخصي، وأما رأيه فيما يقولون لأبيهم فهو ﴿ٱرۡجِعُوٓاْ﴾ أي عودوا إلى أبيكم وقولوا له: يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك، فاسترقه العزيز القائم بأمر الحكم في مصر، على وفق شريعتنا التي أخبرناه بها، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه وشاهدنا من إخراج الصواع من وعاء بنيامين، وما كنا للغيب حافظين، أي وما علمنا أنه سيسرق ويسترق حين أعطيناك الموثق، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف، وفي الجملة: حقيقة الحال غير معلومة لنا، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي واسأل يا أبانا عما حدث أهل القرية التي كنا فيها وهي مصر، فقد اشتهر أمر هذه السرقة فيهم، واسأل أصحاب العير الذين كانوا يأتون بالميرة (الطعام) معنا. وهذا مبالغة منهم في إزالة التهمة عن أنفسهم؛ لأنهم مشكوك فيهم، وكانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام. ثم أكدوا صدقهم بقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق، وأخذوه بسرقته، وهذا مقال كبيرهم، ثم ذكر تعالى مقال أبيهم:

﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ﴾ أجابهم أبوهم بما يدل على عدم تصديقهم فيما قالوا، كما أجابهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ بل زينت لكم أنفسكم أمراً آخر أردتموه، وكيداً جديداً فعلتموه؟ وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم!

فأمري الاعتصام بالصبر الجميل وهو الذي لا جزع فيه ولا شكاية لأحد، وإنما أرضى بقضاء الله وقدره، وأشكو إلى الله وحده، ثم ترجى أن يرد عليه أولاده الثلاثة: يوسف وبنيامين، وروبيل الذي أقام بمصر، ينتظر أمر الله

فيه: إما أن يرضى عنه أبوه، فيأمره بالرجوع إليه، وإما أن يأخذ أخاه خفية، فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أي لعل الله الذي أطلب منه إرجاع أولادي الثلاثة أن يعيدهم إلي جميعاً، وقد كان ملهماً أن يوسف لم يمت، إنه هو العليم بحالي من الكبر والحزن، الحكيم في أفعاله وقضائه وقدره، فما بعد الشدة إلا اليسر، وما بعد الكرب إلا الفرج.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وأعرض يعقوب عن بنيه كارهاً لما قالوا ووصفوا، وقال متذكراً حزن يوسف القديم: ياحزني ويا أسفي على يوسف، والأسف: أشد الحزن والحسرة، فجدد له حزن الابنين الحزن الدفين. وهو دليل على تمادي أسفه على يوسف، وأن المصاب فيه دائم متجدد لم يُنس مع تقادم العهد.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ﴾ أي أصيبت عيناه بسبب الحزن بغشاوة بيضاء، حجبت البصر والرؤية فأصبح كظيماً أي ساكتاً لا يشكو أمره إلى مخلوق، كاظماً غيظه على أولاده. قيل: ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف، إلى حين لقائه، ثمانين عاماً، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

والجزع البالغ والحزن الشديد أمر إنساني عند الشدائد والمصائب، وهو غير مذموم شرعاً إذا اقترن بالصبر، وضبط النفس، حتى لا يخرج إلى مالا يحسن، ولقد بكى رسول ﷺ على ولده إبراهيم، وقال فيما رواه الشيخان: «إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وإنما الجزع المذموم: ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور والوجوه، وتمزيق الثياب. عن النبي ﷺ «أنه بكى على ولد بعض بناته، وهو يجود بنفسه، فقيل: يارسول الله، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال: ما نهيتكم عن البكاء، وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين: صوت عند الفرح، وصوت عند الترح».

وقال الحسن البصري حينما بكى على ولد أو غيره: «ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب».

وعندما شاهد أولاد يعقوب ما حدث لأبيهم، رقوا له، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه: والله لا تزال تذكر يوسف، حتى تصير مريضاً ضعيف القوة، أو تموت، أي إن استمر بك هذا الحال، خشينا عليك الهلاك والتلف.

فأجابهم عما قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم حزني، إنما أشكو همي الشديد وأسفي وما أنا فيه إلى الله وحده داعياً له وملتجئاً إليه، فخلوني وشكايتي، وأعلم من الله مالا تعلمون، أي أرجو منه كل خير؛ لأني أعلم من صنعه وإحسانه ورحمته وحسن ظني به أن يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب. روي أنه رأى ملك الموت في منامه، فسأله، هل قبضت روح يوسف؟ فقال: لا والله، هو حيّ فاطلبه. وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق، وأن الله لابد أن يظهرها.

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ﴾ يا أولادي اذهبوا إلى مصر، وتعرفوا أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسس يكون في الخير، والتجسس يكون في الشر، فهو قد ندبهم على الذهاب إلى مصر للتعرف على أخبار إخوتهم، وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله أي من فرجه وتنفيسه الكرب، ولا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون أي الذين يجحدون قدرته ورحمته، ويجهلون حكمة الله في عباده. أما المؤمنون فلا ييأسون من رحمة الله وتفريجه الكروب، وإزالته الشدائد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن المؤمن من الله على خير، يرجوه في البلاء، ويحمده في الرخاء».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ - لم يتغير موقف أولاد يعقوب العشرة في حال الصغر والكبر معاً، وظلوا على حقدهم وحسدهم وكراهيتهم لأخويهما: يوسف وبنيامين، وقد فهم هذا من محاولة تبرئة أنفسهم بأنهم على منهج وطريقة وسيرة تختلف عن منهج وسيرة أخويهم، فأخواهما مختصان بهذه الطريقة واحتراف السرقة؛ لأنهما من أم أخرى.

والحق أن سرقة يوسف كانت رضىً لله، وكانت على ما يبدو في حال الصغر، والصغير غير مكلف، ولم يكن وضع الصواع في رحل بنيامين منه وإنما كان من غيره.

٢ - لم يقابلهم يوسف بالإساءة والتصريح عما في نفسه، وإنما أسرّ في نفسه مقالتهم، وقولهم هو: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ وقيل: إنه أسرّ في نفسه على طريقة الإضمار قبل الذكر قوله: ﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ ثم جهر فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾.

٣ - استعطفوه لإطلاق سراح أخيهم بنيامين أو قبول الفداء عنه بأخذ أحدهم بدله، بحال أبيه الشيخ الكبير أي كبير القدر، ولم يريدوا كبير السن؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ، واستعطفوه أيضاً بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم.

وأما عرضهم أخذ البدل عنه فهو إما مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل المتهم، وإنما هو مبالغة في استنزاله، كما تقول لمن تكره فعله: اقتلني ولا تفعل كذا وكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ في استنزاله.

وإما أن يكون قولهم: ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ حقيقة، من طريق الكفالة بالنفس، ليصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف جليّة الأمر، والكفالة بالنفس جائزة على التحقيق في المذاهب الإسلامية الأربعة، حتى عند الشافعي على الراجح.

وعلى كل حال كما أن الاستعباد للسارق في شرع إسحاق ويعقوب جائز، كذلك العفو وأخذ الفداء كان جائزاً أيضاً.

٤ً - رفض يوسف عليه السلام أخذ البدل، ووصف ذلك بأنه ظلم.

٥ً - تشاور أولاد يعقوب فيما يفعلون أمام الميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم مؤكداً باليمين بالله، وتذكروا تفريطهم السابق بيوسف، فقرر أكبرهم في السن أو في الرأي والعقل وهو شمعون أو يهوذا أو روبيل البقاء في مصر، حتى يأذن له أبوه بالرجوع إليه؛ لا ستحيائه منه، أو يحكم الله له بالمضي مع أخيه إلى أبيهما. وهذا دليل على أن التناجي والمشاورة في أمر ما مطلوب شرعاً.

وقد ذكر القاضي عياض في «الشفا» أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام. إذ إن هذه الجملة تضمنت معاني كثيرة، يعبر عنها اليوم بجمل كثيرة لعقد اجتماع سري، وتشاور فيه، ومداولة فيما يجابهون به أباهم، وكيفية بيان الحادث له.

٦ً - اتفق أولاد يعقوب بمشورة كبيرهم الذي بقي في مصر على مصارحة أبيهم بما حدث من واقعة السرقة، وشهادتهم في الظاهر عليها، حيث أخرج الصواع من متاع بنيامين، وجهلهم بالمغيب، فلم يعلموا وقت أخذ الميثاق عليهم أنه يسرق، ويصير أمرهم إلى ما آل إليه، من الاستعباد أو الاسترقاق، عملاً بما هو المقرر من جزاء في شريعتهم.

وعلى كل حال فإنهم لما تفكروا في الأصوب ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على نحو ما حدثت.

٧ً - تضمنت آية ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها، فتصح شهادة المستمع والمعاين والأعمى والأخرس إذا فهمت إشارته، وكذلك تصح الشهادة على الخط إذا تيقن الشاهد أن الخط خط الكاتب أو خط فلان، فكل من حصل له العلم بشيء، جاز أن يشهد به، وإن لم يُشهده المشهود عليه، قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٨٦] وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه مسلم عن زيد بن خالد الجُهَني: «ألا أخبركم بخير الشهداء: خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها».

وقد شهد أولاد يعقوب بما رأوه حين إخراج الصواع من رحل أخيهم، فغلب على ظنهم أنه هو الذي أخذ الصواع.

وأما شهادة المرور بأن يقول: مررت بفلان فسمعته يقول كذا، فالصحيح أنه إذا استوعب القول، جاز أداء الشهادة عليه.

وإذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره، ردَّت؛ لأنه ادّعى باطلاً، فأكذبه العِيَان ظاهراً.

والخلاصة: إن الشهادة تكون بالاعتماد على الحواس الظاهرة، أما حقيقة الغيب فلا يعلمها إلا الله تعالى.

٨ً - استعان أولاد يعقوب لإقناع أبيهم بصدق قولهم بسؤال أناس من أهل مصر، وسؤال قوافل الطعام التي كانت معهم من قوم من الكنعانيين، وهذا يدل على أن كل من كان على حق، وعلم أنه قد يُظن به أنه على خلاف ماهو عليه أو يتوهم: أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه، ويصرح بالحق الذي هو

عليه، حتى لا يبقى لأحد كلام، وقد فعل هذا نبينا ﷺ - فيما رواه البخاري ومسلم - بقوله للرجلين اللذين مرّا، وهو مع صفية يردّها من المسجد: «على رِسْلكما، إنما هي صفية بنت حُيَي». فقالا: سبحان الله! وكَبُر عليهما، فقال: «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خَشيت أن يَقذف في قلوبكما شيئاً».

ثم إنهم بالغوا في التأكيد والتقرير فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ يعني سواء نسبتنا إلى التهمة، أو لم تنسبنا إليها، فنحن صادقون.

٩ً - الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيين عليهم السلام. قال يعقوب في واقعتي يوسف وبنيامين: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إلا أنه قال في واقعة يوسف: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وقال في واقعة بنيامين: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾.

١٠ - قول يعقوب ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا﴾ صادر عن علمه بالوحي أو بالإلهام أو بسؤال ملك الموت أن يوسف عليه السلام لم يمت، وإنما غاب عنه خبره. والذين تمنى إحضارهم ثلاثة: كبير أولاده ويوسف وبنيامين.

١١ - تجدد مصاب يعقوب وحزنه على يوسف بغياب ولدين آخرين هما أكبر أولاده وأصغرهم، فأسف أسفاً شديداً، والأسف: شدة الحزن على ما فات، وعَمِي فلم يعد يبصر بعينيه ست سنين من البكاء، الذي كان سببه الحزن.

ولكن الله العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة هيأ لجمع الأسرة كلها.

١٢ - إن الحزن ليس بمحظور إذا اقترن بالصبر والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره، فذلك من طبع الإنسان وعاطفته، وإنما المحظور هو السخط على القضاء والقدر، والولولة، وشق الثياب، والكلام بما لا ينبغي، قال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان: «تدمع العين، ويَحْزَن القلب، ولا نقول ما يُسخط الرب».

وبناء عليه لما سمع يعقوب عليه السلام كلام أبنائه، ضاق قلبه جداً، وأعرض عنهم، وفارقهم، ثم طلبهم أخيراً وعاد إليهم.

١٣ - أشفق أولاد يعقوب على أبيهم، ورقوا، وذكروا له مخاطر الاستمرار في حال الحزن، وهي إما المرض المضعف القوة، وإما الهلاك والموت، وهذا أمر واقعي مطابق لأحوال الناس.

١٤ - كانت شكاية يعقوب وحزنه ولجوءه بالدعاء إلى الله وحده، لا إلى أحد من الخلْق، وهذا هو المطلوب شرعاً في كل شاك حزين.

١٥ - إن نبي الله يعقوب يعلم مالا يعلم غيره من الناس بما عند الله من رحمة وإحسان وتفريج كرب، ويعلم أيضاً أن رؤيا يوسف صادقة، وأنه وزوجته وأبناءه سيسجدون له، تصديقاً لرؤياه السابقة وهو صغير.

١٦ - تيقن يعقوب عليه السلام حياة ابنه يوسف إما بالرؤيا، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه، وهو أظهر، فعاد يكلم أولاده باللطف، وطلب منهم الذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

١٧ - لا يقنط من فرج الله إلا القوم الكافرون، وهذا دليل على أن الكافر يقنط في حال الشدّة، وعلى أن القنوط من الكبائر، أما المؤمن فيرجو دائماً فرج الله تعالى.

قال الرازي: واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد

الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال، أو غير عالم بجميع المعلومات، أو ليس بكريم، بل هو بخيل، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافراً[١].

الفصل الخامس عشر من قصة يوسف

تعرّف أولاد يعقوب بيوسف في المرة الثالثة واعترافهم بخطئهم وعفوه عنهم

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

القراءات:

﴿وَجِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وجينا).

﴿أَءِنَّكَ﴾:

---

(١) تفسير الرازي: ١٨/ ١٩٩

وقرأ ابن كثير (إنك).

﴿يَتَّقِ﴾ :

وقرأ قنبل (يتقي).

الإعراب:

﴿لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ اللام: لام الابتداء، وأنت: مبتدأ، و﴿يُوسُفُ﴾: خبره، والجملة من المبتدأ والخبر: في موضع رفع خبر «إن» ويجوز أن تكون ﴿لَأَنتَ﴾ ضمير فصل على قول البصريين، أو عِماداً على قول الكوفيين.

﴿مَن يَتَّقِ﴾ ﴿مَن﴾ شرطية مبتدأ، وخبره: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. وكان الأصل أن يقال: فإن الله لا يضيع أجرهم، ليعود من الجملة إلى المبتدأ ذِكْرٌ، إلا أنه أقام المظْهَر مقام المضمر، كقول الشاعر: لا أرى الموتَ يسبق الموت شيء. أي يسبقه شيء. وهو كثير في كلام العرب. والجملة من المبتدأ والخبر خبر (إن) الأولى، والهاء فيها: ضمير الشأن والحديث. و﴿وَيَصْبِرْ﴾: مجزوم بالعطف على ﴿يَتَّقِ﴾. ومن قرأ «يتقي» على جعل ﴿مَن﴾ بمعنى «الذي» وإذا كانت بمعنى الذي، ففيها معنى الشرط، ولهذا تأتي الفاء في خبرها في الأكثر، مثل: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١٠].

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ ﴿لَا﴾: نافية للجنس، و﴿تَثْرِيبَ﴾: اسمها، و﴿عَلَيْكُمُ﴾ متعلق بالخبر المحذوف، وتقديره: لا تثريب مستقر عليكم، واليوم منصوب بالخبر المحذوف. ولا يجوز أن يتعلق أحدهما بتثريب؛ لأنه لو كان متعلّقاً به، لوجب أن يكون منوناً، كقولهم: لا خيراً من زيد.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلضُّرُّ﴾ أي شدة الجوع ﴿بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾ أي بدراهم رديئة أو زيوف،

يدفعها التجار، من أزجى الشيء: إذا دفعه برفق، كما في قوله تعالى: ﴿يُزْجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٢٤/ ٤٣].

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي فأتم لنا الكيل ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ بالمسامحة عن رداءة بضاعتنا، أو برد أخينا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يثيبهم أحسن الجزاء، والتصدق: التفضل مطلقاً، ولكنه اختص عرفاً بما يبتغى به ثواب من الله تعالى.

(ثم قال لهم) توبيخاً: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ من الضرب والبيع وغير ذلك ﴿وَأَخِيهِ﴾ فعلهم بأخيه: إفراده عن يوسف وإذلاله، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز وذلة ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ قبح أو عاقبة فعلكم، فأقدمتم عليه. وإنما قال ذلك تحريضاً لهم على التوبة وشفقة عليهم، لما رأى من عجزهم وتمسكنهم، لا معاتبة وتثريباً.

﴿قَالُوا﴾ بعد أن عرفوه، لما ظهر من شمائله ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ استفهام تقرير وإثبات، وحقق بأن ودخول اللام عليه ﴿وَهَذَا أَخِي﴾ من أبي وأمي، ذكره تعريفاً لنفسه به، وتفخيماً لشأنه ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أنعم علينا بالاجتماع والسلامة والكرامة ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ يخف الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على ما يناله من البليات، أو على الطاعات وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع الظاهر ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ موضع الضمير (أجرهم) للتنبيه على أن المحسن: من جمع بين التقوى والصبر.

﴿آثَرَكَ﴾ فضلك، واختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة وبالملك والسلطة وغيرها ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ إن مخففة من الثقيلة، أي إنا كنا، أي والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك، وآثمين في أمرك. والخاطئ: الذي يتعمد الخطيئة، والمخطئ: الذي يريد الصواب فيخطئه ويصير إلى غيره. والخطء: الذنب.

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا لوم ولا تأنيب عليكم ﴿الْيَوْمَ﴾ خصه بالذكر؛ لأنه مظنة التثريب، فغيره أولى. وهو متعلق بالتثريب، أو بالخبر المحذوف وتقديره: لا تثريب كائن أو حاصل عليكم ﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم التي اعترفوا بها حينئذ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر، ويتفضل على التائب.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ هو قميص إبراهيم الذي لبسه، حين ألقي في النار، كان في عنقه في الجبّ، فهو القميص المتوارث، أو القميص الذي كان عليه. ﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ يصر مبصراً ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ائتوني أنتم وأبي وزوجته بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

المناسبة:

الكلام مرتبط بما قبله، بتقدير محذوف، وهو أن يعقوب لما قال لبنيه: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قبلوا من أبيهم هذه النصيحة، وعادوا إلى مصر للمرة الثالثة، يبحثون عن يوسف وأخيه، بلا يأس، وإنما بأمل وجدّ في البحث، فلما التقوا مع يوسف العزيز، ورق قلبه لاستعطافهم، عرَّفهم بنفسه، وتم اجتماع الإخوة الاثني عشر.

التفسير والبيان:

فلما ذهبوا في المرة الثالثة، فدخلوا مصر، ودخلوا على يوسف عليه السلام، فقالوا مختبرين بذكر حالهم، واستعطافهم، وشكواهم إليه رقة الحال وقلة المال مما يرقق القلب: ياأيها العزيز - وكان أبوهم يرى أن هذا العزيز هو يوسف - قد أصابنا وأهلنا الضرر الشديد من الجدب والقحط والجوع وقلة الطعام، وأتينا إليك بثمن الطعام الذي نمتاره، وهو ثمن قليل أو رديء زيوف لا يروج بين التجار في الأسواق، فأتم لنا الكيل كما عودتنا من

إحسانك، وتصدَّقْ علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة، وتسامح فيها بعد أن تتغاضى عن قلتها أو رداءتها، إن الله يجزي المتصدقين أحسن الجزاء، فيخلف لهم ما ينفقون، ويضاعف الثواب لهم.

وكان القصد من هذا الكلام الرقيق والتضرع والتذلل اختبار حال العزيز، هل يرق قلبه، ويظهر نفسه، ويعلن عن شخصه؟ بعد أن ذكروا له ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام، وما لدى أبيه من الحزن لفقد ولديه.

وقد نجحوا في هذا الاستعطاف، فأخذته رقة ورأفة ورحمة على أبيه وإخوته، وهو في حال المُلْك والتصرف والسعة، فأجابهم بقوله، مستفهماً عن مدى استقباح فعلهم السابق بيوسف: هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه بنيامين؟ حيث ألقيتم يوسف في الجبّ، وعرضتموه للهلاك، وفرقتم بينه وبين أخيه، وما عاملتم به أخاه من معاملة جافّة قاسية، حال كونكم جاهلين قبح ما فعلتموه، من عقوق الوالدين، وقطيعة الرحم والقرابة، وذلك كما قال بعض السلف: كل من عصى الله فهو جاهل، وقرأ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النحل: ١٦/١١٩] .

والمراد بهذا الاستفهام التقريع والتوبيخ، ومراد يوسف تعظيم الواقعة، أي ما أعظم ما ارتكبتم بيوسف، كما يقال: هل تدري من عصيت؟ والصحيح أنه قال ﴿جَٰهِلُونَ﴾ تأنيساً لقلوبهم وبياناً لعذرهم، كأنه قال: إنما دفعكم لهذا الفعل القبيح جهالة الصبا أو الغرور، وكأنه لقنهم الحجة، كقوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٨٢/٦][1].

وهذا تذكير رقيق بذنوبهم، تمهيداً لتعريفهم بنفسه، لا معاتبة ولوماً وتوبيخاً، بعد أن حان الوقت في هذه المرة الثالثة من لقاء يوسف مع إخوته،

(١) البحر المحيط: ٥/٣٤١

وكان قد أخفى منهم نفسه في المرتين الأولين بتقدير الله وأمره، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ١٥].

فاغتنموا فرصة هذا التذكير وتساؤل العارف الخبير بأحوالهم، فسألوه سؤال المتعجب المستغرب المقرِّر المثبت أنه أخوهم يوسف: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي إنهم استفهموا استفهام تعجب من موقفه أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر، وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه، ولكنهم في هذه المرة عرفوه بقولهم ذلك، وتوسموا أنه يوسف، واستفهموه استفهام استخبار، وقيل: استفهام تقرير، وهو أولى في تقديري؛ لأنهم كانوا عرفوه بعلامات.

قال ابن عباس: إن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان في قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شِبْه الشامة، فلما قال لهم: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ﴾ رفع التاج عنه، فعرفوه، فقالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ أي إنهم قالوا: من المؤكد قطعاً أنك أنت يوسف.

﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ قال: نعم أنا يوسف المظلوم العاجز، الذي نصرني الله وقواني وصرت إلى ما ترون، وهذا أخي بنيامين الذي فرقتم بيني وبينه، ومقصوده: أن هذا أيضاً كان مظلوماً كما كنت، ثم صار منعماً عليه من قبل الله تعالى، كما ترون.

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي قد أنعم الله علينا بالاجتماع بعد الفرقة وبعد طول المدة، وأعزنا في الدنيا والآخرة. وفيه إشارة إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين؛ لأنه أخي.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ أي إن كل من يتقي الله حق التقوى فيما أمر به ونهى، ويصبر على طاعة الله وعلى المحن التي يتعرض لها، فإن الله حسبه وكافيه من كل

سوء، ومنجيه من كل مكروه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً في الدنيا والآخرة. وهذه شهادة من الله بأن يوسف من المتقين الصابرين المحسنين.

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ﴾ أجابوه إعلاناً للحق واعترافاً له بالفضل، والله لقد فضلك الله علينا، وآثرك بالعلم، والحلم، والخلق، والملك والسعة والتصرف، والنبوة أيضاً، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه، وأخطؤوا في حقه، وأعلنوا بأنهم المذنبون الخاطئون، الذين لا يعذرون.

وبعد اعتذارهم وإعلان توبتهم صفح عنهم فقال: لا لوم ولا تعيير ولا توبيخ ولا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم، وكذا فيما قبله من الأيام، وخص اليوم بالذكر؛ لأنه مظنة التثريب والعتاب.

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة، فقال: يغفر الله لكم ذنوبكم وظلمكم، وهو أرحم الراحمين لمن تاب إليه وأناب إلى طاعته.

﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ لما عرف يوسف نفسه إخوته، سألهم عن أبيهم، فقالوا: ذهب بصره، أي عمي من كثرة البكاء، فقال لهم بما عرف بالوحي: اذهبوا بقميصي هذا الذي على بدني، أو المتوارث عن أجدادي وآبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فألقوه على وجه أبي فور وصولكم إليه، يأت مبصراً (ذا بصر) كما كان، فإن الغشاوة التي ألمت به تزول بالفرح والبشرى، وذلك بفضل الله وكرمه، وأتوني بجميع أهليكم من الرجال والنساء والأولاد، روي أن أهله كانوا سبعين رجلاً وامرأة وولداً.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى مايأتي:

١ - جواز الشكوى عند الضُّرّ، أي الجوع، بل يجب على الإنسان إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره، أن يبدي حالته إلى من يرجو منه

النفع، كما يجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه؛ ولا يكون ذلك معارضاً التوكل.

وهذا مالم يكن التشكي على سبيل التسخط. ويظل الصبر والتجلّد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل؛ وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى، كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي من جميل صنعه، وغريب لطفه، وعائدته على عباده.

أما الشكوى لمن لا يؤمل منه إزالتها فهو عبث وسفه، إلا أن يكون على وجه البثّ والتسلي.

٢ً - جواز طلب الزيادة على الحق على سبيل الصدقة، والصدقة كما ذكر مجاهد لم تحرم إلا على نبينا محمد ﷺ. وروى ابن جرير أن سفيان بن عُيينة سئل: هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال: ألم تسمع قوله: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾.

٣ً - استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع؛ لأن إخوة يوسف قالوا له: ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾ فكان يوسف هو الذي يكيل. وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم؛ لأن على البائع تسليم المبيع وتمييزه عما عداه، إلا إذا باع شيئاً معيناً أو مالايحتاج إلى الكيل أو الوزن أو العدد، ولأن البائع لا يستحق الثمن إلا بعد إيفاء الحق بالكيل أو الوزن.

وكذلك أجرة النقد (فحص الدراهم التي هي الثمن) على البائع أيضاً؛ لأنه هو الذي يدّعي الرداءة، ولأن النفع يقع له، فصار الأجر عليه.

ويكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدق علي؛ لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم، لا رب غيره.

٤ً - استنباط الأحكام من فحوى الكلام وما يصحبه من إشارات، فإن يوسف وجّه لإخوته استفهاماً بمعنى التذكير والتوبيخ بقوله: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ففهموا منه أنه يوسف، فقالوا على سبيل استفهام التقرير والإثبات: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾.

ودل قوله ﴿إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ على أنهم كانوا صغاراً في وقت أخذهم ليوسف، وليسوا أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدل على أنه حسنت حالهم الآن، أي فعلتم فعلكم إذ أنتم صغار جهال.

وتعرف إخوة يوسف عليه، فتجاوب معهم وعرفهم بنفسه قائلاً: ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ أي أنا المظلوم.

قال ابن عباس: كتب يعقوب إلى يوسف بطلب ردّ ابنه، وفي الكتاب: من يعقوب صفيّ الله ابن إسحاق ذبيح[1] الله، ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر:

أما بعد، فإنا أهل بيت بلاء ومِحَن، ابتلى الله جدّي إبراهيم بنمروذ وناره، ثم ابتلى أبي إسحاق بالذبح، ثم ابتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إلي، حتى كُفَّ بصري من البكاء، وإني لم أسرق ولم ألِدْ سارقاً، والسلام.

فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله، واقشعرّ جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعِيلَ صبره، فباح بالسرّ.

وأعلن يوسف عن مزيد فضل الله عليه بقوله: ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ أي بالاجتماع بعد الفرقة، وبالعز بعد الذل، وبالنجاة والملك.

٥ً - إن من اتقى الله بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى، وصبر على المصائب وعن المعاصي، فإن الله يدخر له ثواب إحسانه العمل، ولا يضيع منه شيئاً.

(١) وهذا مؤيد لرأي القائلين بأن الذبيح إسحاق، والراجح أنه إسماعيل.

٦ً - الاعتراف بالذنب أو الخطأ سبيل الحظوة بالعفو والصفح، فإن قول إخوة يوسف: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ أي مذنبين، متضمن سؤال العفو، وقد ظفروا به.

ولا مانع من العفو عن الخطأ وإن كان عمدياً، فهو تجاوز للحق، أياً كانت صفته، وكل من اقترف ذنباً متجاوز لمنهاج الحق، واقع في الشبهة والمعصية.

٧ً - شهد الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام بصفات المتقين الصابرين المحسنين، وكفى بشهادة الحق فخراً، وهذا تعليم وتدريب ومثل عملي لنا.

٨ً - كانت عبارة يوسف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ مثلاً رائعاً في السماحة والعفو والصفح، فهو عفو لا لوم فيه ولا تعيير، وهو صفح في حال المقدرة على العقاب، وهو تنازل عن أي حق دون أي حقد أو كراهية، وأضيف إليه الدعاء بالمغفرة على الذنب والستر، والرحمة في عالم الآخرة بين يدي أرحم الراحمين. وهو لا يكون إلا عن وحي، فكان مرد الفضل في النهاية إلى الله تعالى.

واحتذى نبينا عليه الصلاة والسلام حذو أخيه يوسف عليه السلام في هذا القول العظيم يوم فتح مكة بإعلان العفو عن قريش، روى ابن مردويه عن ابن عباس، والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخذ بعُضَادتي الباب يوم فتح مكة، وقد لاذَ الناس بالبيت فقال: «الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم قال: ماذا تظنون يامعشر قريش؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قَدَرتَ؛ قال: وأنا أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ فخرجوا كأنما نُشروا من القبور».

وقال عطاء الخراساني: طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ، ألم تر قول يوسف: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ وقال يعقوب: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ﴾.

٩ - حدثت الفرحة الصغرى بعودة البصر إلى يعقوب حينما ألقي عليه قميص يوسف. وهو - في القول الأصح المروي مرفوعاً عن أنس عن النبي ﷺ، فيما ذكر القشيري - قميص إبراهيم الذي ألبسه الله أثناء إلقائه في النار من حرير الجنة، وكان كساه إسحاق، وكان إسحاق كساه يعقوب، ويعقوب علقه في عُنق يوسف؛ لما كان يخاف عليه من العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عُوفي. وهذا بإعلام الله يوسف به. وقيل: إنه قميص يوسف الذي خلعه من على بدنه، فإنه إذا ألقي على أبيه انشرح صدره، وحصل في قلبه الفرح الشديد، والفرح يقوي الروح، ويزيل الضعف عن القوى الحسية، فيقوى بصره، ويزول عنه ما غشيه بسبب البكاء، والطب يؤيد ذلك.

١٠ - تمت الفرحة الكبرى بطلب يوسف عليه السلام من إخوته إحضار جميع أسرته إلى مصر لاتخاذها داراً، وكان عددهم سبعين أو ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وامرأة.

الفصل السادس عشر من قصة يوسف

إخبار يعقوب بريح يوسف وتأييده ببشارة البشير

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أعلم).

﴿رَبِّيٓ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (ربيَ إنه).

الإعراب:

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ﴾ أن لتأكيد الربط بين شرط «لما» وهو ﴿جَآءَ﴾ وجوابها وهو ﴿أَلْقَىٰهُ﴾.

البلاغة:

﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ هذا استنكار من القوم الحاضرين مجلس يعقوب الذين أخبرهم بأن يوسف حي، وأكدوا كلامه بمؤكدات ثلاثة: القسم وإنّ واللام.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ انفصلت عن بلد مصر وجاوزت حدودها وخرجت من العريش ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره من ولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لأحس برائحة يوسف، أشعره الله برائحة القميص حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخاً[1] أي حملته إليه ريح الصبا بإذنه تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفَنَد: وهو ضعف العقل الحادث بسبب الهرم، أو الخَرَف، وجواب ﴿لَوْلَآ﴾ محذوف، تقديره: لصدقتموني، أو لقلت: إنه قريب.

﴿قَالُوا۟﴾ أي الحاضرون ﴿لَفِى ضَلَٰلِكَ﴾ خطئك، أو في إفراطك في حبه،

---

(١) الفرسخ: ٥٥٤٤ م

وإكثار ذكره، وتوقع لقائه بعد طول العهد ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ يهوذا، روي أنه قال: كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه، فأفرحه بحمل هذا إليه، وأن: زائدة ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام .﴿فَٱرْتَدَّ﴾ رجع بصيراً؛ لِمَا انتعش فيه من القوة، بسبب الفرح والبهجة.

المناسبة:

عمت الفرحة أولاد يعقوب في أرجاء مصر، بعد تعارفهم، وانتقل أثر الفرح إلى أرض كنعان في أسعد عودة من رحلتهم الثالثة إلى مصر، وأظهر الله المعجزة على يد يعقوب عليه السلام بإحساسه برائحة يوسف، وأيَّد الله ذلك الشعور ببشارة البشير ابنه الأكبر الذي اعتصم في مصر، حتى يأذن له أبوه بالرجوع بعد إبقاء أخيه بنيامين.

روى الواحدي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: أما قوله: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا﴾ فإن نمروذ الجبار، لما ألقى إبراهيم في النار، نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة، وطنفسة من الجنة، فألبسه القميص، وأجلسه على الطنفسه، وقعد معه يحدثه، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق، وكساه إسحاق يعقوب، وكساه يعقوب يوسف، فجعله في قصبة من فضة، وعلقها في عنقه، فألقي في الجب، والقميص في عنقه.

التفسير والبيان:

ولما خرجت إبل أولاد يعقوب من حدود مصر عائدة إلى أرض كنعان (فلسطين) من بلاد الشام، قال يعقوب النبي عليه السلام لمن حضره من حفدته وقومه: إني لأشم رائحة يوسف وقميصه، لولا أن تنسبوني إلى الفَنَد (الخرَف وضعف العقل) والكبر.

أخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال: لما خرجت العير، هاجت ريح، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف، فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

قال الرازي: والتحقيق أن يقال: إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات؛ لأن وصول الرائحة من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة ليعقوب عليه السلام على الأظهر أو الأقرب(١).

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ قال الحاضرون في مجلس يعقوب له: والله، إنك لفي خطئك القديم الذي طال أمده بظنك أن يوسف حي يرزق يرجى لقاؤه. قال قتادة: أي من حب يوسف، لا تنساه ولا تسلاه، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ فحينما وصل البريد، وهو ابنه يهوذا يحمل قميص يوسف، مبشراً له ببقائه حياً هو وأخوه بنيامين، ألقاه على وجه يعقوب، فانقلب فوراً بصيراً كما كان، من شدة الفرح.

قال السُّدِّي: إنما جاء به (أي يهوذا بن يعقوب) لأنه هو الذي جاء بالقميص، وهو ملطَّخ بدم كذب، فأحبّ أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص، فألقاه على وجه أبيه، فرجع بصيراً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ قال يعقوب لأولاده وحفدته ومن حوله: ألم أقل لكم حين طلبت منكم أثناء ذهابكم إلى مصر: ابحثوا عن يوسف، ولا تيأسوا من روح الله ورحمته: إني أعلم من الله تعالى بوحي منه أشياء لا تعلمونها، وأعلم أن الله سيردّ يوسف إلي. وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾ كلام مستأنف مبتدأ

---

(١) تفسير الرازي: ١٨/٢٠٨

لم يقع عليه القول، ويجوز إيقاع القول عليه وهو ما قاله لهم سابقاً: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فعندئذ قالوا لأبيهم مترفِّقين معظِّمين متوسِّلين: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾، فإنّا كنّا مذنبين عاصين لله، فقد تبنا وأنبنا وندمنا على ما فعلنا معك ومع أخوينا: يوسف وبنيامين.

أجابهم والدهم يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ في المستقبل؛ لأنّ ربِّي غفور ساتر للذّنوب، رحيم بالعباد.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - يمتاز الأنبياء عن غيرهم بأن الله تعالى يظهر على أيديهم معجزات خارقة للعادة، خارجة عن المألوف، وهذا هو الذي مكّن يعقوب من الإخبار برائحة يوسف وقميصه، قبل وصول أولاده إليه، حاملين البشارة بلقائهم الحارّ مع أخيهم يوسف عليه السّلام.

وقال ابن عباس: هاجت ريح، فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وعلى هذا القول أيضاً يكون الإحساس بالرّائحة محتاجاً إلى عناية ربّانيّة، وتأييد روحاني عميق الإدراك.

٢ً - وظهرت معجزة أخرى بشفاء يعقوب عليه السّلام بوضع القميص على وجهه، بإرادة الله تعالى وعونه، فهو إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون.

٣ً - كان كلام الحاضرين في مجلس يعقوب عليه السّلام مشوباً بالغلظة والتّهكُّم، مما لا يليق توجيهه لنبي إطلاقاً، وهو من بنيه زيادة في العقوق.

٤ً - لم يجد يعقوب عليه السّلام عنده شيئاً يعطيه مكافأة للبشير، وإنّما دعا

له قائلاً: هوّن الله عليك سكرات الموت. وهذا الدُّعاء من أعظم الجوائز وأفضل العطايا والهبات. والآية دالّة على جواز البذل والهبات عند البشائر. جاء في حديث كعب بن مالك: «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشِّرني، نزعت ثوبي، فكسوتهما إيّاه ببشارته».

وتدلّ الآية أيضاً على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغمّ والتَّرح، بتفريح الصِّبيان وإطعام الطَّعام ونحوهما، وقد نحر عمر بعد حفظه سورة البقرة جَزُوراً.

٥ً - نصر الله نبيَّه يعقوب عليه السّلام على أولاده وكل من حوله، كما ينصر أنبياءه الكرام في نهاية المطاف وفي عاقبة الأمور، وتبيّن أنّ الناس مع الأنبياء كالأقزام مع العمالقة، فلم يجد أولاد يعقوب عليه السّلام بدّاً من الاعتذار من أبيهم، وطلب الدُّعاء منه أن يغفر الله لهم؛ لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يرتفع الإثم عنه أو يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله وتسامحه وعفوه عنهم، كما عفا عنهم أخوهم يوسف.

وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلماً في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالماً له، فإنه يجب عليه أن يتحلّل منه ويطلب صفحه عنه ومسامحته عليه، ويخبره بالمظلمة وقدرها، والصَّحيح أنه لا ينفعه التّحليل المطلق دون بيان السَّبب، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قَدْر وبَالٌ، ربَّما لم تطب نفس المظلوم في التحليل منها. روى البخاري وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له مَظْلَمة لأخيه من عِرْضه أو شيء، فليحلله منه اليوم، قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح، أُخذ منه بقدر مَظْلَمته، وإن لم يكن له حسنات، أُخذ من سيِّئات صاحبه، فَحُمل عليه»، فقوله ﷺ: «أُخذ منه بقدر مظلمته» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر، مشاراً إليها مبيَّنة[1].

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/٢٦٢

٦ - لم يستعجل يعقوب عليه السّلام بطلب المغفرة لأولاده والدُّعاء لهم، وإنّما أخّر ذلك - كما قال ابن عباس - إلى السَّحَر، قال طاوس: سَحَر ليلة الجمعة، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وهذا رأي الأكثرين.

وهذا الموقف من يعقوب يختلف عن موقف يوسف عليهما السّلام، لأنّ دعاء الأول كان مؤجّلاً، ودعاء الثّاني كان في الحال. والسبب أن حال الأب حال المربِّي، فهو يريد تعظيم الذَّنب في أنفسهم، ولأنّ ذنبهم لم يكن موجَّهاً إليه مباشرة، وإنما إلى يوسف عليه السّلام وأخيه، ولأن خطأهم ذنب كبير حدثت منه أضرار كثيرة، فيحتاج إلى توبة نصوح، وندم شديد، ولا يمحى بمجرد طلب الاستغفار، ثم إن يوسف عليه السّلام كان قادراً على عقابهم وهم ضعاف، فأراد المبادرة إلى تأمينهم من خوف الانتقام منهم، وتهدئة نفوسهم، وإظهاراً للسّرور عقب المفاجأة بأنه أخوهم، وليرى الناس فضل العفو عند المقدرة، ويصبح للنّاس أسوة حسنة.

الفصل السابع عشر من قصة يوسف

لقاء أسرة يعقوب عليه السّلام في مصر

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

القراءات:

﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾:

وقرأ ابن عامر (يا أبتَ).

﴿رُءۡيَٰيَ﴾:

وقرأ السوسي (روياي).

﴿بِيٓ إِذۡ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو: (بيَ إذ).

﴿إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ﴾:

وقرأ ورش (إخوتيَ إن).

الإعراب:

﴿سُجَّدٗاۖ﴾ جمع ساجد، كشُهَّد جمع شاهد، وهو حال من واو ﴿وَخَرُّواْ﴾ وهي حال مُقَدَّرة.

البلاغة:

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ جملة دعائية للتّبرك وجعل الأمان بمشيئة الله تعالى، وهي متقدِّمة على قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾، والتّقدير: ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ المراد بأبويه أبوه وأمه أو خالته من باب التّغليب للأب، والسّجود متقدِّم على الرَّفع على السَّرير، لكن قدّم الرَّفع لفظاً للاهتمام بتعظيمه أبويه.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ في الكلام حذف، تقديره: فرحل يعقوب عليه السّلام

بأهله أجمعين، وساروا حتى تلقوا يوسف عليه السّلام .﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمّ إليه أباه وأمه، أو خالته، نزلت منزلة الأم تنزيل العمّ منزلة الأب في قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٣٣] وإسماعيل كان عماً ليعقوب عليه السّلام.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السّلام لهم .﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ سرير الملك. ﴿وَخَرُّوا۟ لَهُۥ﴾ أي أبواه وإخوته الأحد عشر .﴿سُجَّدًا﴾ سجود تحية وتكرمة له، وسجود انحناء لا سجود عبادة، ولا وضع جبهة على الأرض، فإن ذلك كان تحيتهم في زمانهم .﴿تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ﴾ مآلها وعاقبتها .﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ لم يقل من الجبّ تكرّماً، لئلا يخجل إخوته .﴿ٱلْبَدْوِ﴾ البادية .﴿نَّزَغَ﴾ أفسد ووسوس، يقال: نزغ بين الناس: أفسد بينهم بالحثّ على الشّرّ، وأصل النّزغ: النّخس، يقال: نزغ الرّائض الدّابة: إذا نخسها وحملها على الجري، ونزغه الشيطان: نخسه، ليحثّه على المعاصي .﴿لَطِيفٌ﴾ لطيف التّدبير لما يشاء؛ إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته .﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بخلقه وبوجوه المصالح والتّدابير .﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، الذي يفعل كل شيء في وقته، وعلى وجه يقتضي الحكمة.

المناسبة:

بعد أن طلب يوسف عليه السّلام من إخوته أن يأتوه بأهله أجمعين، أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان إلى مصر، فخرج يوسف عليه السّلام للقائهم، ومعه بأمر الملك أكابر دولته.

فتم لقاء الأسرة في المرّة الرّابعة من رحلات أولاد يعقوب عليه السّلام إلى مصر، ورأوا يوسف عليه السّلام في عزّ وأبهة، وتحققت رؤيا يوسف عليه السّلام بسجود إخوته الأحد عشر مع أبيه وأمه أو خالته، فتم الاجتماع بعد الفرقة، والأنس بعد الكدر.

روي أن يوسف عليه السّلام وجّه إلى أبيه جهازاً ومئتي راحلة، ليتجهّز إليه بمن معه، وخرج يوسف عليه السّلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر للقاء يعقوب نبي الله عليه السّلام.

قيل: إن يعقوب وولده دخلوا مصر، وهم اثنان وسبعون، ما بين رجل وامرأة، وخرجوا منها مع موسى، والمقاتلون منهم ست مئة ألف وخمس مئة، وبضع وسبعون رجلاً سوى الصبيان والشّيوخ.

وأقام يعقوب عليه السّلام عند ابنه يوسف عليه السّلام أربعاً وعشرين سنة، أو سبع عشرة سنة، وكانت مدّة فراقه ثماني عشرة، أو أربعين أو ثمانين سنة، وحضره الموت، فوصّى يوسف عليه السّلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه، فمضى بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وأقام بعده ثلاثاً وعشرين سنة.

التّفسير والبيان:

بناءً على طلب يوسف عليه السّلام من إخوته إحضار أهله أجمعين إليه من بلاد كنعان إلى مصر، للإقامة معه فيها، حضر أبوه وخالته وإخوته وأسرهم، فلما أخبر يوسف عليه السّلام باقترابهم، خرج لتلقِّيهم، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف عليه السّلام، لتلقي نبي الله يعقوب عليه السّلام، فلما دخلوا على يوسف عليه السّلام في أبهة سلطانه، بعد أن استقبلهم في الطريق مع جموع غفيرة، ضمّ إليه أبويه وعانقهما: وهما أبوه وأمه على القول الذي رجّحه ابن جرير، بأنها كانت حيّة، أو أبوه وخالته؛ لأن أمه قد ماتت، فتزوّج أبوه خالته.

وقال لأسرته جميعاً: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

ورفع أبويه على سرير ملكه بأن أجلسهما معه، تكريماً لهما، وسجد له

الإخوة الأحد عشر والأبوان سجود تحيّة وإكرام له، لا سجود عبادة وتقديس، وكان سجود الانحناء هو تحيّة الملوك والعظماء في زمنهم.

ويلاحظ أن في الآية حذفاً في مطلعها تقديره: فجاء يعقوب وأسرته حتى وصلوا إلى مصر، وفيها تقديم المشيئة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ على قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾ لأن القصد اصطحاب الدُّخول بالأمان والسّلامة والغنيمة، وكذلك فيها تقديم وتأخير بين الرّفع على العرش وبين السّجود، فالسّجود متقدّم على الرّفع على السّرير الملكي، لكن قدّم الرّفع، اهتماماً بتعظيم أبويه.

وحينئذٍ أعادت الذّاكرة إلى ذهن يوسف عليه السّلام رؤياه السابقة في عهد الصّغر، فقال لما رأى سجود أبويه وإخوته: يا أبتِ، هذا السّجود تأويل رؤياي القديمة حال صغري، وهي: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ وتأويل رؤياي: ما آل إليه الأمر.

إن تلك الرؤيا أصبحت حقيقة واقعة وصحيحة صدقاً؛ فإن رؤيا الأنبياء حقّ ثابت، كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده، صار سبباً لوجوب ذلك الذّبح عليه في اليقظة، فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السّلام، وحكاها ليعقوب من قبل، سبباً لوجوب ذلك السّجود.

وقد أحسن الله تعالى إلي وأفاض علي من نعمه، إذ أطلق سراحي من السّجن، ورزقني الملك، وجاء بكم من البادية، وكانوا أهل بادية وماشية وشظف عيش، فنقلكم إلى الحضر وترف المدينة.

ولم يذكر إخراجه من البئر، ترفُّعاً عن لوم إخوته، وتكريماً لهم، وحفاظاً على حيائهم، ولأن السّجن كان آخر المحن، وأخطر من السّقوط في الجبّ؛ لما فيه من اتّهام بالنِّساء، ولأنه بعد خروجه من البئر صار عبداً لا ملكاً، وصار بعد السّجن ملكاً، فكان الإخراج منه أقرب إلى الإنعام الكامل.

حدث هذا كله من بعد أن نزغ الشَّيطان، أي أفسد وأغوى بيني وبين إخوتي، وقد أضاف النّزغ إلى الشَّيطان؛ لأنه سبب الإفساد، وتكريماً لإخوته.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ أي إذا أراد أمراً قيَّض له أسباباً وقدَّره ويسّره، إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله، وقضائه وقدره، وما يختاره ويريده.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - إن العاطفة بين الولد وأبويه طبيعية فطرية، لذا كان إكرام يوسف عليه السّلام لأبويه أشدّ من إكرام إخوته، فعانقهما وضمهما إليه، وأجلسهما على سرير المُلْك معه، واكتفى بأن قال لجميع الأسرة: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

٢ - دلّ قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ على تأمين الحاكم الدّاخلين إلى بلاده من قطر آخر، وهو أمان يشمل الأنفس والأهل والأموال.

والمراد بقوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ﴾ كما ذكر ابن عباس: أقيموا بها آمنين، سمى الإقامة دخولاً لاقتران أحدهما بالآخر.

والأمان الحقيقي لا يكون إلا بمشيئة الله، لذا علقه بقوله: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٧].

٣ - أجمع المفسّرون على أنّ سجود أسرة يوسف عليه السّلام له كان سجود تحيّة وانحناء على عادتهم المألوفة في التّحية، لا سجود عبادة ولا على الأرض. وقد نسخ الله تعالى ذلك كله في شرعنا.

وبالرّغم من نسخ الانحناء في التّحية، فإن بعض المسلمين مع الأسف، لا يتنبهون لذلك، وينحنون في التّحية والسّلام، كما يفعل الغربيون الآن. روى ابن عبد البر في التّمهيد عن أنس بن مالك قال: قلنا: يا رسول الله، أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال: «لا»، قلنا: أفيعتنق بعضنا بعضاً؟ قال: «لا»، قلنا: أفيصافح بعضنا بعضاً؟ قال: «نعم».

وأمّا القيام للقادم، كما أمر النّبي ﷺ جماعة الأوس بقوله في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود عن أبي سعيد: «قوموا إلى سيِّدكم وخيركم» يعني سعد بن معاذ، فهو جائز إذا لم يؤثِّر ذلك في نفسه، فإن أثَّر فيه، وأعجب به، ورأى لنفسه حظّاً، لم يجز إعانته على ذلك؛ لقوله ﷺ: «من سرّه أن يتمثَّل له النّاس قياماً، فليتبوأ مقعده من النار».

وتجوز الإشارة بالإصبع للبعيد عنك، دون الدّاني القريب، وإذا سلّم لا ينحني، ولا أن يقبِّل مع السّلام يده، ولأن الانحناء على معنى التّواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم.

ولا بأس بالمصافحة، فقد صافح النّبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة، وأمر بها، وندب إليها، وقال فيما أخرجه ابن عدي عن ابن عمر، وهو ضعيف: «تصافحوا يذهب الغِلّ».

وروى غالب التّمار عن الشّعبي أن أصحاب النّبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا».

٤ - عدَّد يوسف عليه السّلام بعض النّعم عليه وعلى آله، منها الخروج من السّجن، ومجيء أهله من البادية في أرض كنعان، واللطف أو الرّفق الإلهي بالعباد حيث جمع الأسرة هذا الجمع الكريم الحافل السّارّ، بعد إيقاع الشّيطان الحسد بينه وبين إخوته، وتم ذلك كله بفعل الله تعالى وفضله.

٥ً - تحققت رؤيا يوسف التي رآها في عهد الصِّغر، واختلف العلماء في مقدار المدة بين تحقق الرؤيا وبين حدوثها، فقيل: ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: أربعون، وهو قول الأكثرين، ولذلك يقولون: إن تأويل الرؤيا إنّما صحّت بعد أربعين سنة.

٦ً - إذا أراد الله تعالى شيئاً هيّأ أسبابه ويسّرها، فحصول الاجتماع بين يوسف عليه السّلام وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة، وطيب العيش، وفراغ البال، كان في غاية البعد، إلا أنه تعالى لطيف بعباده؛ لأنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها، وحكيم محكم في فعله، حاكم في قضائه، حكيم في أفعاله، مبرأ عن العبث والباطل.

الفصل الثامن عشر من قصّة يوسف
دعاء جامع يتضمّن تحدُّث يوسف بنعم اللّه عليه وطلبه من ربِّه حسن الخاتمة

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

الإعراب:

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ منصوب على أنه صفة المنادى أو منادى مستقل.

المفردات اللغوية:

﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾ تأويل الكتب الإلهيّة، وتعبير الرؤيا، و﴿مِن﴾ أيضاً للتّبعيض لأنه لم يؤت كل التّأويل. ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما. ﴿أَنتَ

﴿وَلِيّ﴾ ناصري أو متولّي أمري أو منعم علي .﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من آبائي، أو بعامة الصالحين في الرّتبة، فعاش بعد ذلك أسبوعاً أو أكثر، ومات وله مئة وعشرون سنة، أو مئة وسبعة أعوام.

فتنازع المصريون في مدفنه، فجعلوه في صندوق من مرمر، ودفنوه في أعلى النيل، لتعمّ البركة جانبيه، ثم نقله موسى عليه السّلام إلى مدفن آبائه في فلسطين. أما يعقوب عليه السّلام فأقام مع يوسف أربعاً وعشرين سنة، ثم توفي وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه، فذهب به، ودفنه ثمة، وعاد وعاش بعده ثلاثاً وعشرين سنة.

المناسبة:

بعد أن حمد يوسف عليه السّلام ربّه على لطفه ونعمه، باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منَّ الله به عليه من النّبوة والملك، دعا هذا الدُّعاء، وسأل ربّه عزّ وجلّ، كما أتم نعمته عليه في الدُّنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفَّاه مسلماً، وأن يلحقه بالصَّالحين.

التفسير والبيان:

قال يوسف بعد اجتماعه بأبويه وإخوته: ربِّ قد أعطيتني ملك مصر،

وجعلتني حاكماً مطلق التّصرف فيها دون منازع ولا معارض ولا حاسد. روي أن يوسف عليه السّلام أخذ بيد يعقوب عليه السّلام، وطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الذهب والفضة، وخزائن الحلي، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح، فلما أدخله خزائن القراطيس، قال: يا بني ما أغفلك! عندك هذه القراطيس، وما كتبت إلي على ثمان مراحل، قال: نهاني جبريل عليه السّلام عنه، قال: سله عن السَّبب، قال: أنت أبسط إليه، فسأله، فقال جبريل عليه السّلام: أمرني الله تعالى بذلك؛ لقولك: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ فهلا خفتني؟!

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي الكتب السّماوية وأسرار كلامك، وتعبير الرؤيا ومصداقيتها، فتقع كما ذكرت.

و ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ﴾ للتّبعيض؛ لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدُّنيا وهو ملك مصر، وبعض التّأويل.

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنت خالق السماوات والأرض ومبدعهما.

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ﴾ أنت ناصري ومتولّي أموري وشأني كله في الدُّنيا والآخرة، فإن نعمك غمرتني في الدُّنيا، وأملي فيها في الآخرة.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أمتني على الإسلام منقاداً خاضعاً طائعاً أوامرك. قال ابن عباس: «ما تمنّى نبي قط الموت قبل يوسف عليه السّلام».

﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ اجعلني ملحقاً بالأنبياء والمرسلين، على العموم، وبآبائه على الخصوص وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، فتوفّاه الله طيّباً طاهراً بمصر، ودفن في النيل في صندوق من رخام، ثم نقل موسى عليه السّلام تابوته بعد أربع مئة سنة إلى بيت المقدس، فدفن مع آبائه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى أن سيرة الأنبياء عليهم السّلام مثل أعلى في القدوة، فإن نعم الله تعالى على يوسف عليه السّلام في الدُّنيا من إيتاء الملك وتعبير الرؤيا، لم تحجبه عن طلب مرضاة الله تعالى في الآخرة؛ لأن العبرة بحسن الخاتمة، وبما يلقاه المؤمن من نعيم خالد في الآخرة، ولأن الآخرة خير وأبقى. وبما أنه نبي لم يطلب أقلّ من مرتبة الأنبياء وكرامتهم، فسأل الله أن يجعله مع الصالحين، وهم الأنبياء والرُّسل عليهم السّلام، في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم.

أما تمني الموت فلم يكن مطلقاً، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام، أي إذا جاء أجلي توفَّني مسلماً، وهذا قول الجمهور، فاللهم اجعل وفاتنا على الإيمان.

ولا يجوز في شريعتنا تمنّي الموت، بدليل ما ثبت عند الإمام أحمد وفي الصَّحيحين عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يتمنين أحدُكم الموتَ لضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بدّ متمنّياً، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم: «لا يتمنَ أحدُكم الموتَ، ولا يَدْعُ به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمنَ عُمُره إلا خيراً».

الفصل التاسع عشر من قصّة يوسف
إثبات نبوّة محمد ﷺ
الإخبار عن المغيبات والإعراض عن التّأمل في الآيات ودعوة النَّبي إلى التوحيد

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

القراءات:

﴿لَدَيْهِمْ﴾:

وقرأ حمزة (لديهُم).

﴿وَكَأَيِّن﴾:

وقرأ ابن كثير (وكائن).

﴿سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ﴾ :

وقرأ نافع (سبيليَ أدعو).

الإعراب:

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ : مبتدأ، و﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ : خبران له.

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ۝١٠٣﴾ ﴿وَمَآ﴾ : نافية حجازية، و﴿أَكۡثَرُ﴾ : اسمها، و﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ : متعلّق بخبرها. و﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ اعتراضية .﴿بَغۡتَةً﴾ منصوب على الحال، وأصله المصدر.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ ﴿أَنَا۠﴾ : تأكيد للضمير المستتر في ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ وفي ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ لأنه حال من ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ و﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ عطف عليه، يريد: أدعو إليها أنا، ويدعو إليها من اتَّبعني. ويجوز أن يكون ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأ وخبره ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ خبر مقدّم، أي على حجة وبرهان، لا على هوى. ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿وَلَوۡ حَرَصۡتَ﴾ اعتراضية بين اسم ﴿وَمَا﴾ الحجازية وخبرها، للدّلالة على أن الهداية بيد الله وحده.

﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ﴾ على حذف مضاف، أي وما تسألهم على تبليغ القرآن الكريم من أجر.

﴿مُعۡرِضُونَ﴾ و﴿مُّشۡرِكُونَ﴾ سجع: وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه السّلام، والخطاب للرّسول ﷺ. ﴿مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ﴾ أخبار ما غاب عنك يا محمد. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ لدى إخوة يوسف عليه السّلام. ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ في كيده، أي إلقائه في الجبّ، و﴿أَجْمَعُوا﴾: عزموا عليه. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، أي لم تحضرهم، فتعرف قصّتهم، فتخبر بها، وإنما ذلك من تعليم الله تعالى لك، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ إلخ الآية دليل على صدق الإخبار بالمغيب عنك، والمعنى: هذا النّبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي؛ لأنك لم تحضر إخوة يوسف عليه السّلام حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجبّ، وهم يمكرون به وبأبيه، ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحداً سمع ذلك، فتعلّمته منه. وإنما حذف هذا الكلام استغناءً بذكره في غير هذه القصة مثل: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ١١/٤٩].

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ أي أهل مكة. ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم، وبالغت في إظهار الآيات لهم. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر. ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن الكريم. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جعل تأخذه كما يفعل حملة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما هو أي القرآن الكريم إلا عظة للعالمين من الإنس والجنّ. ﴿وَكَأَيِّن﴾ وكم من آية، والمراد بها كثير من الآيات الدّالّة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده، فالآية هنا: دليل على وجود الصانع ووحدانيته. ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ يمرّون على الآيات، أي يشاهدونها. ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها، ولا يعتبرون بها.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ﴾ حيث يقرّون بوجوده وخالقيته، أي إنه الخالق الرّازق. ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ به بعبادة الأصنام، فكانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لاشريك لك لبيك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، أو

يشركون باتِّخاذ الأحبار أرباباً من دون الله، ونسبة التَّبنِّي إليه، أو القول بالنور والظلمة. قيل: الآية في مشركي مكة، وقيل: في المنافقين، وقيل: في أهل الكتاب، والأولى حملها على العموم.

﴿غَـٰشِيَةٌ﴾ نقمة تغشاهم أو عقوبة تحيط بهم وتعمّهم أو تشملهم. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانها. ﴿هَـٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ طريقي. ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى دين الله. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ حجة واضحة ومعرفة تامة. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ ومن آمن بي. ﴿وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ﴾ أنزهه تنزيهاً عن الشُّركاء. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وما أنا من جملة المشركين، وهو من جملة سبيله أيضاً.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصة يوسف عليه السّلام، أراد الحقّ تعالى أن يثبت بها نبوّة النَّبي محمد ﷺ، عن طريق أنها إخبار بالغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، ولم يشاهده النَّبي ﷺ ولا قومه، مما يدلّ على كون القرآن كلام الله تعالى، وكون نبوّة الرّسول ﷺ حقّاً وصدقاً.

ثم ندّد الله تعالى بموقف المشركين من الإيمان بالله تعالى، فذكر أن هناك كثيراً من الآيات الدّالّة على وجود الصانع ووحدانيته، ولكن لا يلتفت إليها أولئك المشركون، وإنما يعرضون عنها.

وحسم الحقّ تعالى الموقف، فأبان أن سبيل دعوة النَّبي ﷺ هو الدّعوة إلى التّوحيد، ورفض الشّرك بمختلف أشكاله وأنواعه.

التفسير والبيان:

ذلك المذكور من قصة يوسف بدءاً من رؤياه الرؤيا وإلقائه في الجبّ إلى أن أصبح حاكم مصر الفعلي، وبيانِ موقف إخوته منه، وحال أبيهم يعقوب عليه السّلام، هو من أخبار الغيب التي لم يطّلع عليها النَّبي ﷺ ولم يرها هو وقومه،

والخطاب له، وهي وحي من الله تعالى إليه، لتثبيت فؤاده، وصبره على أذى قومه وإعراضهم عن دعوته.

والمقصد الإخبار عن الغيب، فيكون معجزاً؛ لأنه ﷺ ما طالع الكتب، ولم يتتلمذ لأحد، ولم يكن حاضراً معهم، فإخباره بهذه القصة الطويلة من غير تحريف ولا غلط إعجاز.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ بمثابة الدّليل على كونه من الغيب، أي وما كنت حاضراً عندهم، ولا مشاهداً لهم، حين عزموا على إلقائه في الجبّ، وهم يمكرون به وبأبيه، ولكنّا أعلمناك به وحياً إليك، وإنزالاً عليك، كقوله تعالى في قصّة مريم: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٤] ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّا أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٢٨/ ٤٤-٤٦] .

وبالرّغم من هذه الأخبار المعجزة التي فيها عبرة وعظة لم يؤمن أكثر الناس، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ أي وليس أكثر الناس بمصدِّقين بدعوتك ورسالتك، ولو حرصت وتهالكت على إيمانهم، لتصميمهم على الكفر وعنادهم. والمراد بالآية العموم، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١٣/ ١] . وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أراد أهل مكة. ووجه اتّصال الآية بما قبلها على قول ابن عباس: إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التّعنُّت، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها، فربّما آمنوا، فلما ذكرها أصرّوا على كفرهم، فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٦][1].

---

(١) تفسير الرّازي: ١٨/ ٢٢٣

ومعنى الحرص: طلب الشيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد، وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف؛ لأن جواب ﴿وَلَوْ﴾ لا يكون مقدّماً عليها، فلا يجوز أن يقال: قمت لو قمت.

ثم نفى تعالى أن يكون للمشركين عذر بعدم الإيمان بدعوتك فقال: ﴿وَمَا تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي ما تسأل منكري نبوّتك يا محمد على هذا النّصح والدُّعاء إلى الخير والرّشد من أجر، أي من جُعْل ولا أجرة، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً لخلقه، فما عليهم إلا الاستجابة لدعوتك؛ لأنك لا تقصد إلا اتّباع أمر ربِّك ونصحهم الخالص.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن الذي أرسلك به ربُّك إلا تذكير وموعظة لكل العالمين من الإنس والجنّ، به يتذكَّرون وبه يهتدون، وينجون به في الدُّنيا والآخرة. وهذا دلّ على عموم رسالته ﷺ.

والسَّبب في أن أكثر الناس لا يؤمنون أنهم في غفلة عن التّفكُّر في الدّلائل الدّالّة على وجود الصانع وتوحيده، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي وكم من آية دالّة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته في السماوات والأرض من كواكب ثابتة وسيّارة وجبال وبحار، ونبات وشجر، وحيوان وحي وميت، وثمار متشابهة ومختلفة في الطُّعوم والرّوائح والألوان والصِّفات، يمرّ على تلك الآيات ويشاهدها أكثرهم، وهم غافلون عنها، لا يتفكَّرون بما فيها من عبر وعظات، وكلها تشهد على وجود الله تعالى ووحدانيته.

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه واحد

والآية هنا: الدَّليل على وجود الله تعالى وتوحيده.

وأما علماء الفضاء والفلك فدأبهم الرّصد المادي كرصد الحركة أو الثَّبات، واستنباط القوانين العلمية، لكنهم لا يفكرون غالباً في الخالق الموجد، وفي عظمة المدبِّر والمقدِّر.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي وما يكاد يقرّ أكثر المشركين بوجود الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥/٣١] إلا وتراهم يقعون في الشّرك، لإشراكهم مع الله الأصنام والأوثان في العبادة.

فكل عبادة أو تقديس وتعظيم لغير الله شرك، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي منادٍ: من كان أشرك في عمل عَمِله لله، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشُّركاء عن الشِّرك».

وروى التِّرمذي وحسّنه ابن عمر: «من حلف بغير الله فقد أشرك» أي حلف بغير الله قاصداً تعظيمه مثل الله فقد أشرك.

وروى أحمد عن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جاز الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا، هل تجدون عندهم جزاء؟».

وروى أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل» ثم بيَّن للصحابة كيف يُتّقَى الشرك الخفي، فقال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه».

ثم هدد الله تعالى المشركين بالعقاب فقال: ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ أي أفأمن

هؤلاء المشركون بالله أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتشملهم، أو يأتيهم يوم القيامة فجأة، وهم لا يحسون ولا هم يشعرون بذلك، وهذا كالتأكيد لقوله: ﴿بَغْتَةً﴾.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٤٥-٤٧].

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٩٧-٩٩].

وإبهام الساعة مبعث الهيبة والخوف من الله دون وازع مشاهد أو قريب.

ثم أبان الله تعالى بعد كل تلك الأدلة هدف دعوة النبي ﷺ وثقته بها، فقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي قل يا محمد للثقلين: الإنس والجن: إن هذه الطريقة التي أتبعها، والدعوة التي أدعو إليها وهي شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أدعو إلى دين الله بها، على يقين، وحجة واضحة قاطعة، وبرهان، أدعو أنا، ويدعو إليها كل من اتبعني أي آمن بي وصدّق برسالتي. وسبحان الله أي وأنزه الله وأُجلّه وأعظمه وأقدسه من أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس الله عن ذلك علواً كبيراً: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].

وبعد أن أثبت الوحدانية لله نفى الشرك نفياً قاطعاً للرد على المشركين الذين

كانوا يقرون بوجوده ثم يشركون به في العبادة إلهاً آخر فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي أنا بريء من جميع المشركين على مختلف أنواعهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يلي:

١ - الإخبار بقصة يوسف وغيرها من قصص الأنبياء السابقين مع أقوامهم من أنباء الغيب الدالة على المعجزة: وهي كون القرآن كلام الله، وصدق النبي ﷺ في دعوته، فذلك معجزة لرسول الله ﷺ.

٢ - نزلت آية ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ تسلية للنبي ﷺ، أي حتى لو أخبرتهم بقصة يوسف، لَمَا آمنوا، أي لست تقدر على هداية من أردت هدايته.

٣ - مهمة كل نبي تبليغ الوحي المنزل عليه بإخلاص وقصد الثواب عند الله عز وجل، دون تكليف الناس بشيء من الأجر أو المقابل.

٤ - القرآن والوحي عظة وتذكرة للعالمين قاطبة، لا للعرب خاصة، إنه تذكرة لهم في دلائل التوحيد والعدل والنبوة، والمعاد والقصص، والتكاليف والعبادات، ففيه منافع عظيمة.

٥ - ما أكثر الآيات، أي الدلائل الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته، في السماوات والأرضين من نجوم وكواكب وبحار وأنهار وجبال ونباتات وأشجار، وصحارٍ شاسعات، وأحياء وأموات، وحيوان وثمرات مختلفة الطعوم والروائح والألوان والصفات. وهذه كلها أدلة محسوسة.

٦ - إيمان المشركين مزيف باطل، فهم يقرون بوجود الله خالقهم وخالق

الأشياء كلها، وهم يعبدون الأوثان. قال ابن عباس: نزلت في تلبية مشركي العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. وعنه أيضاً أنهم النصارى. وعنه أيضاً أنهم المشبِّهة الذين يشبهون الله بخلقه، آمنوا مجملاً وأشركوا مُفَصَّلاً. وقيل: نزلت في المنافقين، والأولى حملها على العموم، والمعنى كما قال الحسن ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه.

٧ً - عذاب الله وعقابه، وإتيان الساعة (يوم القيامة) يأتيان فجأة، من حيث لا يشعر الناس بهما.

٨ً - طريقة النبي ﷺ وسنته ومنهاجه، ومنهاج أتباعه المؤمنين به الدعوة إلى ما يؤدي إلى الجنة، على يقين وحق، وشعار المؤمن دائماً: سبحان الله وما أنا من المشركين، أي أنزه الله عن أي شريك، ولست من الذين يتخذون من دون الله أنداداً أي نظراء لله.

وسمي الدين سبيلاً؛ لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب، كما في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٦/١٢٥] .

الفصل العشرون من قصّة يوسف
العبرة من القصص القرآني

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

القراءات:

﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم﴾: قرئ:

١- (نُوحِي إليهِم) وهي قراءة حفص.

٢- (يُوحَى إليهُم) وهي قراءة حمزة.

٣- (يُوحَى إليهِم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿تَعۡقِلُونَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة، وأبو عمرو، والكسائي، وخلف (يعقلون).

﴿كُذِبُواْ﴾: قرئ:

١- (كذِّبوا)، وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر.

٢- (كُذِبُوا) وهي قراءة الباقين.

﴿فَنُجِّيَ﴾: قرئ:

١- (فَنُجِّيَ) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم.

٢- (فَنُنْجِي) وهي قراءة الباقين.

﴿بَأْسُنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باسنا).

﴿تَصْدِيقَ﴾:

بإشمام الصاد صوت الزاي، قرأ حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر، وهذا إضافة الصفة بعد حذف الموصوف، وتقديره: ولدار الساعة أو الحال الآخرة، وهذه الإضافة في نيّة الانفصال، ولهذا لا يستفيد المضاف التعريف من المضاف إليه.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا﴾ متعلّقة بمحذوف، دلّ عليه الكلام، كأنه قيل: وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النّصر.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ﴾ خبر كان المقدرة، أي ولكن كان ذلك تصديق الذي بين يديه وتفصيلاً، و﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ منصوبان بالعطف عليه.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة .﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الأمصار؛ لأنهم أعلم

وأحلم، بخلاف أهل البوادي لجفائهم وجهلهم. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ أهل مكة. ﴿عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ﴾ أي آخر أمرهم من إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم. ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ﴾ أي ولدار الحال القادمة أو الساعة الأخرى أو الحياة الآخرة وهي الجنة. ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ الله واتّقوا الشّرك والمعاصي، أي خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أهل مكة، فيؤمنوا.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ غاية محذوف، دلّ عليه الكلام، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً، فتراخى نصرهم. ﴿ٱسْتَيْـَٔسَ﴾ يئس، أي لا يغررهم تمادي أيامهم، فإن من قبلهم أمهلوا، حتى أيس الرُّسُل من النّصر عليهم في الدُّنيا أو من إيمانهم، لانهماكهم في الكفر. ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أيقنوا. ﴿كُذِبُواْ﴾ أي ظنّ الأُمم أنّ الرُّسل أُخلفوا ما وُعدوا به من النّصر، وعلى قراءة التّشديد، أي وظنّ الرُّسل أن القوم قد كذبوهم تكذيباً لا إيمان بعده فيما أوعدوهم. ﴿فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ وهم النَّبي والمؤمنون. ﴿بَأْسُنَا﴾ عذابنا. ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين. ﴿فِى قَصَصِهِمْ﴾ أي الرُّسل. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي اعتبار من حال إلى حال. ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ أصحاب العقول. ﴿مَا كَانَ﴾ هذا القرآن. ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ يختلق. ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب. ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ تبيين. ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدّين. ﴿وَهُدًى﴾ من الضّلالة. ﴿وَرَحْمَةً﴾ ينال بها خير الدّارين. ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدِّقونه، خصّوا بالذّكر لانتفاعهم به دون غيرهم.

المناسبة:

بعد أن أثبت القرآن الكريم نبوّة النّبي محمد ﷺ بدليل إخباره عن المغيبات، ردّ الله على منكري النّبوة، فقد كان من شبه منكري نبوّته ﷺ أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكاً، كما حكى القرآن عنهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ٤١/ ١٤].

ثم أنذر الله كفار قريش وأمثالهم بالعقاب والعذاب إن لم يؤمنوا، فإن سنّة الله في عباده واحدة أنهم إن لم يؤمنوا، حلّ بهم العذاب.

ثم ذكر تعالى أن قصة يوسف عليه السّلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوي العقول والأفكار.

التفسير والبيان:

ختمت سورة يوسف بهذه الخاتمة الدّالّة على وجوب الاتّعاظ والاعتبار بقصته المؤثرة الحادثة بين كنعان ومصر، وفي ألوان متعددة، تبتدئ بإلقائه في الجبّ، ثم صيرورته في بيت العزيز، ثم في السّجن، ثم في أعلى مناصب الحكم، وصف فيها كيد الإخوة وحسدهم، ومكر النّساء وكيدهنّ، وصبر يوسف عليه السّلام وحكمته ومهارته في إدارة الحكم، وأخلاقه وتسامحه مع إخوته، وتعظيمه أبويه.

والمعنى: وما أرسلنا يا محمد من قبلك رسلاً إلا رجالاً، لا ملائكة ولا إناثاً، وكانوا من أهل المدن لا من البوادي، وكنّا ننزل عليهم الوحي والتّشريع.

وهذا يدلّ على أن الله أرسل الرُّسل من الرِّجال، لا من النِّساء، فلم تكن امرأة قط نبيّاً ولا رسولاً، وعلى اختيار الرُّسل من أهل المدينة، فلم يبعث الله رسولاً من أهل البادية؛ لتتبعهم المدن الأخرى، ولأن أهل البادية فيهم الجهل والجفاء، وأن أهل المدن أرق طباعاً وألطف من أهل البوادي، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩/٩٧] .

قال ابن كثير: وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل، وأم موسى، ومريم بنت عمران أم عيسى نبيّات، واحتجّوا بأن الملائكة بشّرت سارة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧/٢٨] وبأنّ الملَك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السّلام، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل

عمران: ٣/ ٤٢-٤٣] وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنّ نبيّات بذلك[١].

ثم هدد الله المشركين على تكذيبهم بالرّسول ﷺ فقال متعجّباً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أفلم يَسِرْ هؤلاء المكذِّبون لك يا محمد في الأرض، فينظروا ويروا كيف كان مصير الأُمم المكذِّبة للرُّسل، كيف دمّر الله عليهم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط، وللكافرين أمثالها، فإن عاقبة الكافرين الهلاك، وعاقبة المؤمنين النّجاة.

ثم حضَّ الله تعالى على العمل لدار الآخرة والاستعداد لها واتِّقاء المهلكات فقال: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ أي إن الدار الآخرة خير للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه، فهي أفضل من هذه الدار للمشركين المكذِّبين بالرُّسل، أي وكما نجينا المؤمنين في الدُّنيا، كذلك كتبنا لهم النّجاة في الدّار الآخرة، وهي خير لهم من الدُّنيا بكثير؛ فإن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدُّنيا، وأبقى وأخلد.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي أجهلتم؟ فلا تعقلون أيها المكذِّبون بالآخرة، فإنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم.

ثم بشَّر الله نبيّه بالنّصر بإخباره أن نصره تعالى ينزل على رسله عليهم السّلام عند ضيق الحال واشتداد الأزمة وانتظار الفرج من الله تعالى في أحرج الأوقات إليه، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ فيه محذوف، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم، فبلغوا أقوامهم رسالتهم الدّاعية إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، فكذَّبوهم وتمادى أقوامهم في الطغيان والكفر والعناد، فتراخى نصرهم، حتى أيس الرُّسل من إيمانهم أو من النّصر عليهم،

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٩٦

لانهماكهم في الكفر، وظنّت (أيقنت) الأمم أن الرُّسل أُخلفوا فيما وعدوهم به من النّصر، وكذَّبوهم فيما أخبروهم به عن الله من وعد النّصر، فجاءهم نصرنا، أي أتاهم نصر الله فجأة، فنُجِّي من نشاء وهم النّبي والمؤمنون، وحلّ العقاب بالمكذِّبين الكافرين، ولا يردّ بأسنا، أي لا يمنع عقاب الله وبطشه عن القوم الذين أجرموا، فكفروا بالله وكذَّبوا رسله.

والمعنى على قراءة (كذّبوا) بالتّشديد: وظنّ الرُّسل أن القوم قد كذَّبوهم تكذيباً لا إيمان بعده فيما أوعدوهم.

وهذا تهديد ووعيد لكفار قريش وأمثالهم لعدم إيمانهم بالنّبي ﷺ.

وللآية نظائر كثيرة في القرآن الكريم منها ما اشتمل على وعد الله الرُّسل بالنّصر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١]، وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١]، ومنها استنجاز النّصر: ﴿وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٤].

ومنها بيان سبب العقاب وهو الظّلم والكفر: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧٠].

ومنها تقرير سنّة الله الواحدة في عباده وإلحاق النّظائر والأشباه بأمثالها، وأنه لا ظلم فيها ولا محاباة، فكفار قريش مثل الكفار السابقين في استحقاقهم العذاب لارتكابهم سببه وهو الكفر: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٤٣].

ونقل تفسير الآية على قراءة التّشديد: (كذّبوا) على النّحو السابق عن

عائشة، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها عروة ابن الزُّبير، وهو يسألها عن قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾ الآية: «معاذ الله لم تكن الرُّسل تظنّ ذلك بربِّها، هم أتباع الرُّسل الذين آمنوا بربِّهم وصدَّقوهم، فطال عليهم البلاء، واستأخر عنهم النّصر، حتى إذا استيأس الرُّسل ممن كذَّبهم من قومهم، وظنّت الرُّسل أنّ أتباعهم قد كذَّبوهم، جاءهم نصر الله عند ذلك». وأنكرت عائشة المعنى على قراءة التّخفيف. وقال الرّازي عن تأويل عائشة: وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية.

ونقل تفسير الآية على قراءة التّخفيف ﴿كُذِبُوا۟﴾ عن ابن عباس وابن مسعود، قال ابن عباس: «لما أيست الرُّسل أن يستجيب لهم قومهم، وظنّ قومهم أن الرُّسل قد كذَبوهم، جاءهم النصر على ذلك»، وقال ابن مسعود في آية: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كُذبوا، بالتخفيف. وهذا هو المشهور عن الجمهور[1].

والخلاصة: على قراءة التخفيف، الضمير في ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ عائد على المرسل إليهم، لتقدّمهم في الذّكر في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضّمير عائداً إلى الذين من قبلهم من مكذِّبي الرُّسل، والظّن هاهنا بمعنى التّوهم والحسبان. والمعنى: وظنّ المرسل إليهم أنهم قد كذبهم الرُّسل فيما ادَّعوه من النّبوة وفيما يوعدون به من لم يؤمن بهم من العذاب، وهذا مشهور قول ابن عباس وتأويل عبد الله ابن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد. ولا يجوز أن تكون الضّمائر في هذه القراءة على الرّسل؛ لأنهم معصومون، فلا يمكن أن يظنّ أحد منهم أنه قد كذبه من جاءه بالوحي عن الله[2].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٤٩٧ - ٤٩٨، تفسير القرطبي: ٩/ ٢٧٥

(٢) البحر المحيط: ٥/ ٣٥٤

وعلى قراءة التشديد وجهان:

الأول - أنّ الظنّ بمعنى اليقين، أي وأيقنوا أن الأُمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك، فحينئذٍ دعوا عليهم، فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال، وورود الظنّ بمعنى العلم كثير في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢/٤٦] ، أي يتيقنون ذلك.

والثاني - أن يكون الظنّ بمعنى الحسبان، والتقدير: حتى إذا استيأس الرُّسل من إيمان قومهم، فظنّ الرُّسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم، وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها، قال الرّازي: وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية(١).

وقال الزّمخشري في قراءة التخفيف: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون، أو وظنّوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم كقولهم: رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى أن مدّة التكذيب والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم، وتمادت، حتى استشعروا القنوط، وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدُّنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب(٢).

ثم ذكر الله تعالى الهدف العام من قصص القرآن، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ أي لقد كان في سرد أخبار الأنبياء المرسلين مع قومهم، وكيف نجينا المؤمنين، وأهلكنا الكافرين عبرة وعظة وذكرى لأولي العقول والأفكار الصحيحة. والاعتبار والعبرة: الانتقال والعبور من جهة إلى جهة. أما المهملون عقولهم فلا ينظرون في الأحداث ولا يستفيدون من دروس التاريخ، فلا يفيدهم النّصح.

---

(١) تفسير الرّازي: ١٨/٢٢٦ وما بعدها.

(٢) الكشّاف: ٢/١٥٧

ثم ذكر الله تعالى مشتملات القرآن فقال: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي ما كان هذا القرآن الشامل للقصة وغيرها، أو ما كان هذا القصص والحديث الذي اشتمل عليه القرآن حديثاً يختلق ويكذب من دون الله؛ لأنه كلام أعجز رواة الأخبار وحملة الحديث، وإنما هو كلام الله من طريق الوحي والتّنزيل وتصديق ما تقدّمه من الكتب السماوية كالتّوراة والإنجيل والزّبور، أي تصديق ما جاء فيها من الصَّحيح والحقّ، ونفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير، فهو مصدِّق أصولها الصَّحيحة، لا كل ما جاء فيها بعد من حكايات وأساطير لا يتقبَّلها العقل السَّليم، وهو أيضاً مهيمن عليها وحارس لها.

والقرآن أيضاً فيه تفصيل كل شيء من الحلال والحرام والمحبوب والمكروه، والأمر والنّهي، والوعد والوعيد، وصفات الله الحسنى، وقصص الأنبياء على النّحو الثابت الواقع الذي لا تحريف فيه ولا تزويق. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٨] .

والقرآن أيضاً هدى للعالمين، يهدي الناس إلى طريق الاستقامة والسَّداد، فيخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، وينقلهم من الغيّ إلى الرّشاد، ومن الضَّلال إلى السَّداد، ويرشدهم إلى الحقّ والخير والصَّلاح في الدُّنيا والدِّين.

وهو كذلك رحمة عامّة من ربِّ العالمين للمؤمنين في الدُّنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمّنت الآيات الأحكام التالية:

١ً - الأنبياء دائماً من الرِّجال، ولم يكن فيهم امرأة ولاجِنّي ولا مَلَك. وهذا ردّ على ما يروى عن النَّبي ﷺ أنه قال في حديث غير ثابت: «إنّ في النّساء أربع نبيّات: حَوَّاء، وآسية، وأُم موسى، ومريم».

٢ً - الأنبياء من أهل المدن، ولم يبعث الله نبيّاً من أهل البادية؛ لغلبة الجفاء

والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أهل الأمصار والقرى أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن البصري: لم يبعث الله نبيّاً من أهل البادية قط، ولا من النّساء، ولا من الجنّ. وقال العلماء: من شرط الرّسول: أن يكون رجلاً آدمياً مدنياً؛ وإنما قالوا: آدمياً، تحرُّزاً من قوله: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٧٢/٦] .

٣ً - على الناس قاطبة أن ينظروا بمصارع الأُمم المكذِّبة لأنبيائهم، فيعتبروا.

٤ً - آية ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم.

والمعنى أو الحكم على قراءة التخفيف ﴿كُذِبُواْ﴾ في رأي الجمهور: ظنّ القوم أنّ الرُّسل كَذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب، ولم يَصْدقُوا. أو ظنّ الأُمم أن الرُّسل قد كَذَبوا فيما وعدوا به من نصرهم.

والمعنى أو الحكم، على قراءة التّشديد (كُذِّبوا) أيقنوا أن قومهم كذبوهم، أو حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كَذّبوهم، لا أن القوم كَذَّبوا، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يُكذِّبونهم.

٥ً - في قصص الأُمم الغابرة ومنها قصة يوسف عليه السّلام وأبيه وإخوته عبرة، أي فكرة وتذكرة وعظة، لأولي العقول.

٦ً - ما كان القرآن حديثاً يفترى ويختلق ويكذب من دون الله، فهو كلام معجز لا يستطيع بشر ولو كان نبيّاً أن يأتي بمثله. وكذلك ما كانت قصّة يوسف حديثاً يفترى من دون الله تعالى.

٧ً - القرآن الكريم مصدِّق لما تقدّمه من الكتب السَّماوية من التّوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى، ومهيمن عليها وحارس لها.

٨ً - القرآن الكريم فيه تفصيل كل شيء مما يحتاج إليه العباد من الحلال والحرام، والشَّرائع والأحكام.

وهو أيضاً هداية ورحمة من الله تعالى لعباده وللمؤمنين بالغيب، وإنقاذ للبشرية من الضّلالة إلى النّور، ومن الفساد إلى النّظام والصّلاح: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝﴾ [البقرة: ٢/٢].

٩ً - يمكن توجيه الكلام إلى قصّة يوسف عليه السّلام وحدها، فيكون تعالى وصفها بصفات خمس هي:

أ - كونها عبرة لأولي الألباب.

ب - ما كان حديثاً يفترى، أي ليس لمحمد ﷺ أن يفتري؛ لأنه لم يقرأ الكتب، ولم يتتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء، وليس يكذب في نفسه؛ لأنه لا يصحّ الكذب منه، وأكّد تعالى كونه غير مفترى فقال: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي إن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التوراة وسائر الكتب الإلهية.

جـ - وتفصيل كل شيء من واقعة يوسف عليه السّلام مع أبيه وإخوته.

د - كونها هدى في الدُّنيا.

هـ - كونها سبباً لحصول الرّحمة في القيامة لقوم يؤمنون. خصّهم بالذّكر؛ لأنهم هم الذين انتفعوا به، كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرعد

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة الرّعد، للكلام فيها عن الرّعد والبرق والصّواعق وإنزال المطر من السّحاب: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٢-١٣] والمطر أو الماء سبب للحياة: حياة الأنفس البشريّة والحيوان والنّبات، والصّواعق قد تكون سبباً للإفناء، وذلك مناقض للماء الذي هو رحمة، والجمع بين النّقيضين من العجائب.

مناسبتها لما قبلها:

هناك تناسب بين سورة الرّعد وسورة يوسف في الموضوع والمقاصد ووصف القرآن، أما الموضوع فكلتاهما تضمّنتا الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم، وكيف نجّى الله المؤمنين المتّقين وأهلك الكافرين، وأما المقاصد فكل من السّورتين لإثبات توحيد الإله ووجوده، ففي سورة يوسف: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾. وفي سورة الرّعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ١٣/ ٢] . ﴿قُلْ مَن رَّبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ [الرعد: ١٣/١٦] ، وفيهما من الأدلّة على وجود الصّانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه ووحدانيته الشيء الكثير، ففي سورة يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾. وفي سورة الرَّعد آيات دالّة على قدرة الله تعالى وألوهيّته مثل الآيات [٢ - ٤]، والآيات [٨ - ١١]، والآيات [١٢ - ١٦]، والآيتان [٣٠ و٣٣].

وأما وصف القرآن فختمت به سورة يوسف: ﴿مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، وبدئت سورة الرّعد بقوله سبحانه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

ما اشتملت عليه السُّورة:

تحدثت سورة الرّعد عن مقاصد السّور المدنية التي تشبه مقاصد السّور المكيّة، وهي التّوحيد وإثبات الرِّسالة النَّبوية، والبعث والجزاء، والرّد على شبهات المشركين. وأهم ما اشتملت عليه هو ما يأتي:

١ً - بدئت السّورة بإقامة الأدلّة على وجود الله تعالى ووحدانيته، من خلق السماوات والأرض، والشَّمس والقمر، والليل والنهار، والجبال والأنهار، والزّروع والثِّمار المختلفة الطُّعوم والرّوائح والألوان، وأن الله تعالى منفرد بالخلق والإيجاد، والإحياء والإماتة، والنّفع والضر.

٢ً - إثبات البعث والجزاء في عالم القيامة، وتقرير إيقاع العذاب بالكفار في الدُّنيا.

٣ً - الإخبار عن وجود ملائكة تحفظ الإنسان وتحرسه بأمر الله تعالى.

٤ً - إيراد الأمثال للحقّ والباطل، ولمن يعبد الله وحده ولمن يعبد

الأصنام، بالسّيل والزَّبَد الذي لا فائدة فيه، وبالمعدن المذاب، فيبقي النّقي الصَّافي ويطرح الخبث الذي يطفو.

٥ً - تشبيه حال المتّقين أهل السَّعادة الصَّابرين المقيمي الصّلاة بالبصير، وحال العصاة الذين ينقضون العهد والميثاق، ويفسدون في الأرض بالأعمى.

٦ً - البشارة بجنان عدن للمتّقين، والإنذار بالنّار لناقضي العهد المفسدين في الأرض.

٧ً - بيان مهمّة الرّسول وهي الدَّعوة إلى عبادة الله وحده، وعدم الشّرك به، وتحذيره من مجاملة المشركين في دعوتهم.

٨ً - الرُّسل بشر كغيرهم من الناس، لهم أزواج وذريّة، وليست المعجزات رهن مشيئتهم، وإنما هي بإذن الله تعالى، ومهمّتهم مقصورة على التَّبليغ، أما الجزاء فإلى الله تعالى.

٩ً - إثبات ظاهرة التَّغير في الدُّنيا، مع ثبوت الأصل العام لمقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

١٠ً - الإعلام بأن الأرض ليست كاملة التّكوير، وإنما هي بيضاوية ناقصة في أحد جوانبها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾.

١١ً - إحباط مكر الكافرين بأنبيائهم في كل زمان.

١٢ً - ختمت السورة بشهادة الله لرسوله ﷺ بالنّبوة والرِّسالة، وكذا شهادة المؤمنين من أهل الكتاب بوجود أمارات النَّبي ﷺ في كتبهم. وكان في السّورة بيان مدى فرح هؤلاء بما ينزل من القرآن مصدّقاً لما عرفوه من الكتب الإلهية.

القرآن حق

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾

الإعراب:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: مبتدأ مؤخّر، ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ﴾ خبر مقدّم، ويجوز أن يكون ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ٱلۡحَقُّ﴾. ويجوز أن يكون ﴿وَٱلَّذِيٓ﴾ في موضع جر عطفاً على ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أو وصفاً للكتاب، والواو زائدة.

البلاغة:

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ إشارة بالبعيد عن القريب، للدّلالة على علوّ شأن الكتاب. وأل في ﴿ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ للتّفخيم والتّعظيم، أي الكتاب الكامل في بيانه، السّامي في إعجازه.

المفردات اللغوية:

﴿الٓمٓرۚ﴾ البدء بهذه الحروف الهجائية المقطّعة للتّنبيه على إعجاز القرآن الكريم وبيان أن نزوله من عند الله حق لا شكّ فيه، بالرّغم من كونه بلغة العرب ويتكون من حروف الكلمات التي ينطقون بها.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أي هذه الآيات آيات القرآن، والإضافة بمعنى من، أو إن الكتاب بمعنى السّورة، وتلك إشارة إلى آياتها، أي تلك الآيات آيات

السّورة الكاملة. ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ أي القرآن المنزل إليك من ربِّك عطف عام على خاص، أو عطف صفة على صفة، أو مبتدأ، وخبره ﴿ٱلۡحَقُّ﴾. ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ لا شكّ فيه، والجملة كالحجّة على الجملة الأولى، وتعريف ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أعم من أن يكون المنزل صريحاً أو ضمناً كالمثبت بالقياس وغيره مما أقرّ القرآن بحسن اتّباعه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ إما أهل مكّة، أو على العموم. ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بأنه من عند الله؛ لإخلالهم بالنّظر والتّأمل فيه.

المناسبة:

بعد أن وصف الله تعالى القرآن في آخر سورة يوسف بخمس صفات، أضاف هنا صفة أخرى وهي كونه حقّاً من عند الله تعالى.

التفسير والبيان:

آيات هذه السّورة آيات القرآن البالغ حدّ الكمال، أو تلك الآيات العظام القدر والشّأن آيات الكتاب وهو القرآن الكريم.

وكل القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربِّك حقّ لا شكّ فيه، وهو على التّفسير الأول بأن الآيات هي السّورة إجمال بعد تفصيل، أو عموم بعد خصوص، فبعد أن أثبت تعالى لهذه السّورة وصف الكمال والرّفعة، عمم هذا الحكم على القرآن جميعه.

ولكن أكثر الناس لا يصدقون بالمنزل إليك من ربِّك، ولا يقدرون ما في القرآن من سمو التّشريع والأحكام ورعاية المصالح المناسبة لكل عصر وزمان. وهذا كقوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: ١٢/١٠٣] ، أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشّقاق والنِّفاق والعناد.

وإذا كان واقع البشريّة اليوم أن أكثر سكان العالم لا يؤمنون بالقرآن

الكريم، وأن المسلمين بالنّسبة إلى غيرهم هم الْخُمْس، فيكون ذلك معجزة للقرآن الكريم الذي أخبر عن حال أكثر الناس في الماضي كأهل مكة، وفي مسيرة التاريخ، وفي الوقت الحاضر والمستقبل.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلّت الآية على أن آيات القرآن بالغة حدّ الكمال في الإعجاز والبيان، وأن القرآن الكريم حقّ منزل من عند الله تعالى لا شكّ فيه ولا ريب، باقٍ على وجه الدهر، ولكن مع الأسف حجب العناد والكفر كثيراً من الناس عن الإيمان بما جاء فيه من حِكَم بالغة، وأحكام رصينة، وتشريعات محكمة. وهذا ليس إقراراً لهم، وإنما هو على سبيل الزّجر والتّهديد.

وقد تمسّك نفاة القياس بهذه الآية، وقالوا: الحكم المستنبط بالقياس غير نازلٍ من عند الله تعالى، فهو ليس حقّاً؛ لأنه لا حقّ إلا ما أنزله الله تعالى.

ومثبتو القياس أجابوا عن ذلك بأن الحكم الثابت بالقياس نازل أيضاً من عند الله تعالى؛ لأنه تعالى لما أمر بالعمل بالقياس، كان الحكم الذي دلّ عليه القياس نازلاً من عند الله تعالى. وقد بيّنا أن تعريف ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وإن دلّ على اختصاص المنزل بكونه حقّاً، فهو أعم من المنزل صريحاً أو ضمناً، كالمثبت بالقياس وغيره، مما نطق المنزل بحسن اتّباعه.

بعض مظاهر قدرة اللّه في السماوات والأرض

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

القراءات:

﴿يُغْشِى﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يُغَشِّي).

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ﴾ : قرئ:

١- (وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ غيرُ) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ وغيرِ) وهي قراءة الباقين.

﴿يُسْقَىٰ﴾ : قرئ:

١- (يُسْقى) وهي قراءة ابن عامر، وحفص.

٢- (تُسْقى) وهي قراءة الباقين.

﴿وَنُفَضِّلُ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ويُفضل).

﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (في الأُكْل).

الإعراب:

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ الباء متعلِّقة برفع، أو بـ ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾. و﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، أي إنه ليس ثم عمد ألبتة، ويجوز أن تكون في موضع جر؛ لأنها صفة لـ ﴿عَمَدٖ﴾ أي إن ثَمَّ عَمَداً، ولكن لا ترى.

﴿وَزَرۡعٞ﴾ معطوف على ﴿وَجَنَّٰتٞ﴾، وتقديره: وفي الأرض قِطع متجاورات، وجناتٌ وزرعٌ ونخيلٌ صنوان مجتمعة من أصل واحد، ﴿وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ﴾ غير مجتمعة من أصل واحد، وعلى قراءة الجرّ (وزروعٍ) معطوف على ﴿أَعۡنَٰبٖ﴾، فتجعل الجنّات من الزّرع، وهو قليل.

البلاغة:

﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ﴾ شبّه إزالة نور النّهار بظلمة الليل بالغطاء الكثيف، واستعار لفظ ﴿يُغۡشِي﴾ من الغطاء الحسي للأمور المعنوية.

المفردات اللغوية:

﴿عَمَدٖ﴾ جمع عماد، وهو الأسطوانة، والآية تحتمل ألا عمد أصلاً، أو هناك عمد غير مرئية. ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ استواء يليق به، أو المراد منه المجاز، أي بالحفظ والتّدبير. ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلّل بالحركة المستمرة والسرعة المعينة ونحو ذلك. ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ كل منهما يسير في فلكه إلى يوم القيامة. ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ يصرف الأمر على وجه الحكمة. ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ يبين

دلالات قدرته، وهي الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر .﴿لَعَلَّكُم﴾ يا أهل مكة وأمثالكم .﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لتوقنوا وتتحققوا كمال قدرته بالبعث، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء. واليقين: العلم الثابت الذي لا شكّ فيه.

﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ بسطها طولاً وعرضاً ليتمكّن الإنسان والحيوان من السَّير عليها والانتفاع بمنافعها .﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وخلق فيها جبالاً ثوابت. ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ عطفها على الجبال مباشرة؛ لأنها أسباب تولدها ونبعها .﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلّق بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ .﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثّمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض، والأسود والأبيض، والصغير والكبير، والذكر والأنثى.

﴿يُغْشِى﴾ يغطي الليل بظلمته ضوء النهار فيطمسه، ويصير الجو مظلماً بعدما كان مضيئاً .﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور .﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دلالات على وحدانية الله تعالى .﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تلك الآيات وفي صنع الله تعالى، فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم، دبَّر أمرها، وهيأ أسبابها.

﴿قِطَعٌ﴾ أي بقاع مختلفة .﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ متلاصقات، فمنها طيب ومنها سبخ، ومنها رخو ومنها صلب، وبعضها صالح للزّرع دون الشَّجر وبعضها بالعكس، وذلك التّخصيص مع التّجاور والطّبيعة الأرضيَّة من دلائل قدرة الله تعالى .﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ بساتين .﴿صِنْوَانٌ﴾ جمع صنو، أي ونخلات يجمعها أصل واحد، وتتشعَّب فروعها .﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي ومتفرِّقات مختلفة الأُصول، وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي «عم الرَّجل صِنْو أبيه». ﴿يُسْقَىٰ﴾ أي الجنّات وما فيها .﴿ٱلْأُكُلِ﴾ ما يؤكل، فمنها الحلو ومنها الحامض، ومنها التَّمر ومنها الحبّ، وغير ذلك من الاختلاف شكلاً وقدراً

ورائحةً وطعماً؛ وهو من دلائل قدرته تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَٰتٍ﴾ لدلالات ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبَّرون ويستعملون عقولهم بالتّفكُّر.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أن أكثر النّاس لا يؤمنون، أعقبه ببيان ما يدلّ على التّوحيد والمعاد، بالاستدلال بأحوال السماوات وأحوال الشَّمس والقمر، وبأحوال الأرض: جبالها وأنهارها، وبأحوال النَّبات من زروع وثمار وأشجار مختلفة الطُّعوم والرّوائح والألوان.

وبعد أن بيَّن الله تعالى أن القرآن حقّ، بيَّن أن من أنزله قادر على الكمال، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي خلق السماوات بغير أعمدة، لا نشاهدها بالعين، فهي لا عمد لها أصلاً، وقوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ مؤكد معنى كونها بغير عمدٍ؛ لأن المراد إثبات وجود الله تعالى وقدرته، فلو كان لها أعمدة، فلا يكون في الآية دلالة على وجود الله تعالى، فهي تقوم بقدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره، وتقوم في الفضاء بإبقائه تعالى، حتى لو قيل بتوازن قانون الجاذبية بين النُّجوم والكواكب، فإن ذلك بخلق الله تعالى.

ثم استوى الله تعالى على عرشه استواء يليق به، والعرش شيء مخلوق، نؤمن به كما أخبر القرآن، وهو أعظم من السماوات والأرض، جاء في الحديث: «ما السماوات السَّبع وما فيهنّ وما بينهنّ في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة»، وفي رواية: «والعرش لا يَقْدُر قَدْره إلا الله عزّ وجلّ».

وسخّر الشَّمس والقمر، أي ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع

خلقه، من دوران وضياء، وظهور واختفاء، جاء في آيات أخرى ما يبيّن دورة الشَّمس حول نفسها، وحركة القمر حول الأرض، فقال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٦/٣٨-٤٠].

وكل من الشَّمس والقمر وغيرهما من الكواكب السَّيارة يجري لأجل مسمّى، أي لمدة معيّنة هي نهاية الدُّنيا ومجيء القيامة، أو لمدة محددة يتم فيها دورانه، فالشَّمس تتم دورتها في سنة، والقمر يتم دورته في شهر.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ أي إنّ الله تعالى يدبِّر أمر الكون ويصرفه على وفق إرادته ومقتضى حكمته، فيحيي ويميت، ويعزّ ويذلّ، ويغني ويفقر، ويهيّئ الأسباب للنّتائج والمسببات، ويُسيِّر الأفلاك في نظام دقيق ثابت لا يخطئ ولا يتغيّر.

﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي يبيِّن الدَّلائل الدّالّة على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ أي يوضح الآيات والدّلالات الدّالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه قادر على أن يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه أولّ مرة، رجاء أن تتيقّنوا وتتحقّقوا، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شكّ فيه أنّ الله قادر على البعث والإعادة، والحساب والجزاء، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا في البر أو البحر أو في أجواف الحيوان.

فالذي قدر على خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، ودبَّر نظام الكون والحياة وأُمور الخلق بدقة فائقة، لا يبعد عليه ولا يعجزه البعث الجديد، وإعادة الأرواح إلى أجسادها، ثم حساب أصحابها على ما قدّموا في دار الدُّنيا.

هذه هي الأدلّة السّماوية على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته، أتبعها بالأدلّة الأرضيّة، وهي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي والله تعالى هو الذي جعل الأرض متّسعة، منبسطة للحياة، ممتدة في الطول والعرض، ليتمكّن الإنسان والحيوان من التّنقل فيها بسهولة، والانتفاع بخيراتها النّباتية والمعدنية كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾ [النبأ: ٧٨/٦]. ولا يمنع انبساط الأرض للحياة في أجزائها أنها غير كروية أو مسطّحة في حجمها الكلي، فقد أشار القرآن الكريم لكرويتها في آياتٍ أخرى منها: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٣٩/٥] والتكوير: اللف على الجسم المستدير، فهي مبسوطة ممدودة في نظرنا لنعيش عليها.

وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، لسقاية ما فيها من الثّمرات المختلفة الألوان والأشكال والطُّعوم والرّوائح.

وجعل فيها من كل صنف من أصناف الثّمار زوجين اثنين أي ذكراً وأُنثى، فالشَّجر والزَّرع لا ينتجان الثَّمر والحبّ إلا من عضوين: ذكر وأُنثى، وجعل أيضاً من كل ثمر صنفين، إما من حيث الطَّعم كالحلو والحامض، أو من حيث اللون كالأسود والأبيض، أو الطَّبيعة كالحار والبارد.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾ [النبأ: ٧٨/ ٦-٨].

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطي الله ضوء النّهار بظلمة الليل، ويطرد ظلام الليل بنور النّهار، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١﴾ [النبأ: ٧٨/٩-١١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [النمل: ٢٧/٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٣٠/ ٢٣].

ثم نبَّه الله تعالى في ختام الآية إلى وجوب التّفكُّر في تلك الآيات السَّماوية والأرضية، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في مخلوقات الله وعجائب خلقه وآلائه وحِكَمه لدلائل وبراهين لمن يتفكّر فيها ويعتبر بعظمتها، فيستدلّ بها على وجود الله تعالى، وقدرته، وكمال علمه، وإرادته، مما لا يوجد له مثيل في الكون، وذلك يستوجب تخصيصه بالعبادة، والخضوع لسلطانه، والتزام أوامره.

ومن الآيات الأرضية اختلاف أجزاء الأرض بالطبيعة والماهية، وهي مع ذلك متجاورة فقال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، أي وفي الأرض أجزاء يجاور بعضها بعضاً، ويقرب بعضها من بعض، وهي مع تجاورها مختلفة متغايرة الخواص، فمنها طيب ينبت ما ينفع الناس، ومنها سَبِخة مالحة لا تنبت شيئاً، ومنها صالح للزّرع دون الشَّجر وبالعكس، ومنها الرّخوة ومنها الصُّلْبة، وتختلف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه صفراء، وهذه بيضاء، وهذه سوداء، وهذه مُحْجِرة، وهذه مُرْمِلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، وهي مختلفة الصِّفات، مما يدلّ على وجود الخالق المختار، الذي لا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

وفيها بساتين من أعناب، وزروع متفاوتة من حبوب مختلفة لتوفير غذاء الإنسان والحيوان، ونخيل صنوان وغير صنوان، والصِّنوان: ذوالأصول أو الجذوع المجتمعة في منبت واحد كالرّمان والتِّين وبعض النّخيل، وغير الصِّنوان: ما كان على أصل أو جذع واحد كسائر الأشجار. جاء في الحديث الصَّحيح الذي أخرجه الترمذي أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعرت أن عم الرّجل صِنْو أبيه». وقال البراء رضي الله عنه: الصِّنوان هي النّخلات في أصل واحد، وغير الصِّنوان: المتفرِّقات.

ويظهر التّفاوت العجيب في بقاع الأرض وأصناف النّبات في أن الأرض

المنبتة لها واحدة، وتسقى من ماء واحد، وتتفاوت طعومها، وتتفاضل مآكلها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في هذا التّفاوت مع وجود مصادر التّشابه لأدلّة باهرة على وجود الله ووحدانيته، لقوم يتدبّرون ويفكّرون فيها، فهذا الاختلاف في أجناس الثّمرات والزّروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها، حلاوة وحموضة ومرارة وعذوبة وتلوّناً، وهذا الاختلاف في الأزهار في ألوانها وروائحها وإبداع ورقاتها وزهرها، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة، وهو الماء والأرض، في كل ماذكر آيات لمن كان واعياً، ومن أعظم الأدلّة على وجود الخالق الفاعل المختار القادر على كل شيء، ومن قدر على الإيجاد والخلق أول مرّة فهو قادر على الإعادة والتّكوين مرّة ثانية، بل هو أهون عليه.

وختْم الآيات الثلاث بما ذكر: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على وجوب استخدام النّظر والعقل والفكر، للتّوصل إلى الاقتناع الذّاتي الحرّ بوجود الخالق ووحدانيته، وهذا الإعمال للعقل من مقاصد الإسلام، وفرائض القرآن، وأصول الدِّين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - من لطف الله بعباده ورحمته بهم وإرشاده لهم أنه أوضح لهم الأدلّة، ولفت نظرهم إلى ما يدلّ على وجوده وكمال قدرته، وعلمه، وإرادته، فتخصيص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس إلا من الله تعالى.

٢ - الأدلّة متنوعة: سماوية وأرضية، فالسّماوية ثلاثة: رفع السماوات بغير أعمدة، والاستواء على العرش، وتسخير الشّمس والقمر وتذليلهما وتطويعهما لغايات معينة في مدّة معينة لمنافع الخلق ومصالح العباد ما داموا في الدُّنيا وحتى تقوم السَّاعة، يدبِّر الله فيها الأمر، أي يصرفه على ما يريد بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار، وإنزال الوحي وبعثة الرُّسل وتكليف العباد، ويبيِّن الآيات، فمن قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة، لذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ وهذا إثبات للألوهيّة والرّبوبية والمعاد يوم القيامة، فمن كان يمكنه تدبير من فوق العرش إلى ما تحت الثَّرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن، فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن.

وأمّا الأدلة الأرضية فهي ستّة: بسط الأرض بالنّسبة للنّاظر ليمكن العيش عليها، وتثبيتها بالجبال الرّاسيات الشّامخات، وإجراء الأنهار وتفجير الينابيع، وجعل الثِّمار ذات وجهين اثنين، أي من صنفين متعارضين كالذّكر والأُنثى، والحلو والحامض، والحار والبارد، والأبيض والأسود، وتغطية الليل النّهار، وتبديد ظلمة الليل بضوء النّهار، وتفاوت ما تنتجه الأرض من حبوب وزروع وثمار وأشجار، مجتمعة ذات جذوع متعددة من منبت واحد، ومتفرِّقة ذات جذع مستقلّ بكل واحدة منها.

فكل ما ذكر يدلّ دلالة قطعيّة على أنّ الكل بتدبير الله الفاعل المؤثِّر المختار، لا بالطَّبيعة ولا بالمصادفة.

٣ - لا يفهم من آية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾، وآية: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات: ٣٠/٧٩] أنّ الأرض غير كروية، فقد ثبتت كرويتها بالأدلّة العلمية العقلية والحسيّة، ودلّت أقمار الفضاء الدّائرة حول الأرض بما لا يقبل أي شكّ أو جدل على أن الأرض كروية، وقد صرح بكرويتها

علماؤنا كالرّازي[١]، فإن المقصود أن كل قطعة من الأرض تشاهد كالسَّطح، وأما مجموعها وحجمها العظيم فهو كرة بدليل تثبيتها في الآية هنا بالجبال الرّواسي، وكذلك في آية أخرى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: ٧٨/ ٧]. وبدليل تكوير الليل على النّهار، والنّهار على الليل، والتّكوير: اللف على الجسم المستدير.

٤ً - قال القرطبي عن آية ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾: في هذا أدلّ دليل على وحدانيته تعالى وعِظَم صمديته، والإرشاد لمن ضلَّ عن معرفته؛ فإنه سبحانه نبَّه بقوله: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته، وأنه مقدور بقدرته؛ وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطَّبع (الطَّبيعة)؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتّراب والفاعل له الطَّبيعة، لما وقع الاختلاف[٢].

٥ً - الدَّعوة القويّة، بل الفريضة والإيجاب لإعمال الفكر والعقل، والاسترشاد بما في الكون من دلائل وعلامات واضحة على وجود الله تعالى، وكمال قدرته، وعلمه، ووحدانيته.

٦ً - قال الحسن البصري في آية: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾: المراد بهذه الآية المثل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشَّرِّ والإيمان والكفر، كاختلاف الثِّمار التي تسقى بماءٍ واحد.

---

(١) تفسير الرّازي: ١٩/ ٢ - ٣

(٢) تفسير القرطبي: ٩/ ٢٨١

إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب ومطالبتهم بإنزال آية مادية على النبي ﷺ

﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧ ﴾

القراءات:

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا﴾: قرئ:

١- (أئذا كنا تراباً إنا) وهي قراءة نافع، والكسائي.

٢- (إذا كنا تراباً أئنا) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (أئذا كنا تراباً أئنا) وهي قراءة الباقين.

﴿مِن قَبْلِهِمُ﴾: قرئ:

١- (من قبلهِمِ) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (من قَبلهُمُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (من قبلهِمُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ خبر مقدم ومبتدأ مؤخر، ولا بد فيه من تقدير صفة لتمكن المعنى أي فعجب أي عجب أو فعجب غريب.

﴿أَءِذَا﴾ عامل (إذا): فعل مقدر دل عليه معنى الكلام، أي: أنبعث إذا كنا تراباً؛ لأن في قوله: ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ دليلاً عليه، ولا يجوز أن يعمل فيه: ﴿كُنَّا﴾؛ لأن «إذا» مضافة إليها، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، ولأنهم لم ينكروا كونهم تراباً، وإنما أنكروا البعث بعد كونهم تراباً.

وقوله ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ إلى آخر قولهم: إما بدل مرفوع من ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وإما منصوب بالقول. والاستفهامان: ﴿أَءِذَا﴾ و﴿أَءِنَّا﴾ للتأكيد وشدة الحرص على البيان.

﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ محله النصب على الحال.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ﴿أَنتَ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿مُنذِرٌ﴾. و﴿هَادٍ﴾: معطوف على ﴿مُنذِرٌ﴾، فتكون اللام في ﴿وَلِكُلِّ﴾ متعلقة بمنذر أو بهاد، وقد فصل بين الواو والمعطوف بالجار والمجرور، وتقديره: إنما أنت منذر وهادٍ لكل قوم. ويجوز أن يكون ﴿هَادٍ﴾ مبتدأ، و﴿وَلِكُلِّ﴾: الخبر، واللام متعلقة باستقر.

البلاغة:

بين ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ و﴿ٱلْحَسَنَةِ﴾ وبين ﴿مُنذِرٌ﴾ و﴿هَادٍ﴾ طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من تكذيب الكفار لك وعبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان .﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فأعجب منه، أو فعجب غريب أو فحقيق بالعجب تكذيبهم بالبعث وإنكارهم له. والعجب: تغير النفس واندهاشها حين رؤية ما يُستبعد في العادة .﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا استفهام إنكاري، ينكرون فيه إمكان إعادة الخلق بالبعث، وفاتهم أن القادر على إنشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على إعادتهم.

﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾ جمع غُلّ: وهو طوق حديدي تشد به اليدان إلى العنق. ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ بالعذاب قبل السلامة .﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ جمع مَثُلة بوزن سمرة: وهي العقوبة، أي مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين، فما لهم لم يعتبروا بها، فلا يستهزئوا. وسميت مَثُلَة لما بين العقاب والجريمة من المماثلة، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٤٠] ومنه سمي عقاب القاتل قصاصاً، لما فيه من المماثلة. ﴿مَغۡفِرَةٖ﴾ الغفر والمغفرة: الستر، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة. ﴿عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ أي مع ظلمهم، وإلا لم يترك على ظهرها دابة. ﴿لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ لمن عصاه.

﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ﴾ هلا أنزل على محمد .﴿ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ آية حسية كقلب عصا موسى حية، وجعل يده بيضاء مشعة كالشمس، وناقة صالح. ﴿مُنذِرٞۖ﴾ مخوف الكافرين، وليس عليك إتيان الآيات، والإنذار: التخويف. ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ الهادي: الذي يرشد الناس إلى الخير والحق والصواب كالأنبياء والحكماء والعلماء، أي لكل قوم نبي يدعوهم إلى ربهم بما يعطيه إياهم من الآيات، لا بما يقترحون، وهو مدعم عادة بمعجزة من جنس ما هو الغالب عليهم.

المناسبة:

أقام الله تعالى في الآيات السابقة الأدلة السماوية والأرضية على قدرته، ليثبت للناس أن من كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة، كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته؛ لأن القادر على الأقوى الأكمل، فإنه قادر بالأولى على الأقل الأضعف: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٣٣] .

ثم حكى هنا إنكار المشركين للبعث والقيامة، وأتبعه بحكاية حماقة أخرى وهي استعجالهم العذاب، وأردفه بطلباتهم إنزال آيات حسية للتعجيز.

التفسير والبيان:

وإن تعجب أيها الرسول من تكذيب هؤلاء المشركين لك، وعبادتهم ما لا يضر وما لا ينفع من الأصنام، مع ما يشاهدونه من آيات الله تعالى ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع اعترافهم من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، إن تعجب من ذلك، فالأعجب منه والأغرب تكذيبهم بالبعث والقيامة، وقولهم: هل تمكن الإعادة بعد الفناء والبلى والصيرورة تراباً؟ وقد تكرر منهم هذا الاستفهام الإنكاري في أحد عشر موضعاً، في تسع سور من القرآن: في الرعد، والإسراء، والمؤمنون، والنحل، والعنكبوت، والسجدة، والصافات، والواقعة، والنازعات.

مع أن كل عالم وعاقل يعلم أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٣٣].

ثم حكم الله تعالى حكمه عليهم بأحكام ثلاثة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الكافرون الذين جحدوا بربهم، وكذبوا رسوله، وتمادوا في عنادهم وضلالهم؛ لأن إنكار قدرة الله تعالى إنكار له. وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة، فهو كافر.

وأولئك المقيدون بالسلاسل والأغلال يسحبون بها، قال أبو حيان: والظاهر أن الأغلال تكون حقيقية في أعناقهم كالأغلال[1]، كما قال: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: ٤٠/٧١] وهذا حقيقة، وحمل الكلام على الحقيقة أولى.

(١) البحر المحيط: ٣٦٦/٥

وهم أصحاب النار الخالدون فيها في الآخرة بقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ أي وأولئك أهل النار الملازمون لها، المستحقون دخولها، الماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤] والمراد بذلك التهديد بالعذاب المخلد المؤبد. وهذا يدل على أن العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية.

ولم يقتصر تكذيبهم الرسول على إنكار عذاب الآخرة، وإنما أنكروا أيضاً عذاب الدنيا، فقال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ أي ويستعجلك هؤلاء المكذبون بالعقوبة قبل السلامة منها والعافية من بلائها، كما قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾ [المعارج: ٧٠/ ١] قال: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٢] وقال: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: ٣٨/ ١٦] أي عجّل لنا عقابنا وحسابنا.

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم، وبعبارة أخرى: ويستعجلونك بالعقاب مستهزئين بإنذارك، والحال أنه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم من المكذبين، كالرجفة والخسف والطوفان ونحوها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس على ذنوبهم، مع أنهم يظلمون، ويخطئون بالليل والنهار، ولولا حلمه وعفوه لعجل لهم العذاب فور ارتكاب الذنب، كما قال: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٥] وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ٥٨﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٨] .

والخلاصة: إن الله يغفر للناس مع ظلمهم أنفسهم باكتساب الذنوب، أي ظالمين أنفسهم، قال ابن عباس: ليس في القرآن آية أرجى من هذه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي وإنه تعالى شديد العقاب للعصاة.

ويلاحظ أنه تعالى قرن حكم المغفرة والرحمة بأنه شديد العقاب، كما هو شأن القرآن كثيراً، ليعتدل الرجاء والخوف، وليكون الإنسان بين الأمل والحذر، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٤٧] وقال: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤٩-٥٠] وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧] ونحو ذلك من الآيات التي تجمع بين الرجاء والخوف.

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيِّب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ الآية، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه، ما هَنَأَ أحداً العيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كل أحد».

ثم ذكر الله تعالى ماطالب به المشركون النبي ﷺ من معجزة حسية كالأنبياء السابقين بقصد التعجيز والإصرار على الكفر والطعن في النبوة والتشكيك في صحتها فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي يقول المشركون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، مثل عصا موسى، وناقة صالح، ومائدة عيسى، فيجعل لنا الصفا ذهباً، وأن يزيح عنا الجبال، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً.

فرد الله عليهم الشبهة بآية أخرى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٥٩] .

أي نخشى تطبيق العقاب على المكذبين، فإن سنتنا أن من لم يؤمن بالآيات المنزلة بعد طلبها، أهلكناهم ودمرناهم بذنوبهم.

وهنا أعرض البيان عن الجواب عن قول المشركين، إلى توضيح مهمة الرسول التي أرسل بها وهي الهداية والإنذار، لا تلبية الطلبات، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ أي إنما أنت رسول عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، وأما الآيات فأمرها إلى الله، كما قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧٢].

﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ أي ولكل أمة أو قوم داع من الأنبياء، يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى الدين الحق، وسبيل الخير والرشاد، كما في آية أخرى: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٢٤].

ويصح أن يكون ﴿هَادٍ﴾ معطوفاً على ﴿مُنذِرٌۖ﴾ وفصل بينهما بقوله ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ﴾ أي أنت منذر وهادٍ لكل قوم، وبه قال عكرمة وأبو الضحى.

والخلاصة: إن الآية نزلت في المشركين والكفار الذين لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر، وانقياد الشجر، وانقلاب العصا سيفاً، ونبع الماء من بين الأصابع، وأمثال هذه، فاقترحوا عناداً آيات، كالمذكورة في الإسراء والفرقان كتفجير الينبوع والرقي في السماء والمُلْك والكنز، فقال الله لنبيه ﷺ: إنما أنت منذر تخوفهم من سوء العاقبة، وناصح كغيرك من الرسل، ليس لك الإتيان بما اقترحوا، فالاقتراح إنما هو عناد، ولم ينزل الآيات إلا إذا تحتم العذاب والاستئصال[١].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

أ - إنكار البعث والقيامة مدعاة للعجب الشديد، والله تعالى لا يتعجب،

(١) البحر المحيط: ٥/ ٣٦٧

ولا يجوز عليه التعجب؛ لأنه تغير في النفس بما تخفى أسبابه، وإنما ذكر تعالى ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون.

٢ - من أنكر البعث والقيامة، فهو كافر، لإنكاره القدرة الإلهية والعلم والصدق في الخبر، ويساق إلى جهنم بالأغلال والسلاسل، وهو خالد في النار. فهذه أوصاف ثلاثة لمنكري البعث: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

٣ - العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية: ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم، أما أهل الكبائر من المسلمين الذين يرتكبون الجرائم العظام، كالقتل وشهادة الزور وعقوق الوالدين، فلا يخلدون في النار.

٤ - طلب المشركين إنزال العقوبة لفرط إنكارهم وتكذيبهم نوع من الطيش والحماقة، وكفاهم الاعتبار بعقوبات أمثالهم المكذبين، فالمثلات أي العقوبات كثيرة. وقد تبين من هذه الآية: أن عذاب الاستئصال لا ينزل بهم إلا بالإصرار على الكفر والمعاصي.

٥ - حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

٦ - إن الله تعالى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا، وعن المذنبين إذا تابوا، وقد يعفو تعالى عن صاحب الكبيرة قبل التوبة في رأي أهل السنة؛ لأن قوله تعالى ﴿عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ﴾ أي حال اشتغالهم بالظلم، وحال الاشتغال بالظلم لا يكون المرء فيها تائباً.

قال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ﴾.

٧ - وإن الله أيضاً شديد العقاب للكافرين إذا أصروا على الكفر.

٨ً - ليست مهمة النبي ﷺ تلبية طلبات المشركين واقتراحاتهم، إنما مهمته الإنذار، أي التعليم، فهو منذر لقومه مبين لهم، ولكل قوم من قبله هادٍ ومنذر وداع.

٩ً - لكل قوم هادٍ، أي نبي يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله؛ أي عليك الإنذار، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

١٠ً - اجتمع من المشركين كما تحكي هذه الآية ثلاثة طعون: وهي أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة.

وسبب كل هذه الطعون: أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات، وقالوا: هذا كتاب مثل سائر الكتب. والإتيان بكتاب معين، لا يكون معجزاً ألبتة، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، كفلق البحر بالعصا، وقلب العصا ثعباناً.

ولا تعني هذه الآية أنه لم تظهر معجزة تصدق النبي عليه الصلاة والسلام سوى القرآن، ولعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائرالمعجزات، أو إنهم طلبوا منه معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه ﷺ كحنين الجذع، وانشقاق القمر، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل.

ويظل القرآن هو المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، فهو المناسب لزمنه، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر، جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة، وهو إحياء الموتى، وإبراء الأكمه (الأعمى الذي ولد فاقد البصر) والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول ﷺ

الفصاحة والبلاغة، جعل معجزته ما كان لائقاً بذلك الزمان، وهو فصاحة القرآن.

فإذا لم يؤمن العرب بهذه المعجزة، مع كونها أليق بطباعهم، فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى.

بعض مظاهر علم الله المحيط بكل شيء

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾:

وقرأ ابن كثير: (المتعالي).

الإعراب:

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا﴾ ﴿مَا﴾ هنا وفي بقية الآية: اسم موصول، مفعول ﴿يَعۡلَمُ﴾ والجمل الفعلية التي بعدها هي الصلات، والعائد منها كلها محذوف. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ استفهامية منصوبة بيعلم. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية.

﴿مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ﴾ ﴿مَّنۡ﴾: مبتدأ مرفوع، و﴿سَوَآءٌ﴾: خبر مقدم، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل، فهو مستوٍ.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ العامل في ﴿وَإِذَآ﴾ ما دل عليه الجواب.

البلاغة:

يوجد طباق في ﴿تَغِيضُ﴾ و﴿تَزْدَادُ﴾ وفي ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وفي ﴿أَسَرَّ﴾ و﴿جَهَرَ﴾ وفي ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ و﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ وفي ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ و﴿وَسَارِبٌ﴾ أي ظاهر.

المفردات اللغوية:

﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي حملها أو ما تحمله من كون الجنين ذكراً أو أنثى، واحداً أو متعدداً، وصفات كل، وغير ذلك ﴿تَغِيضُ﴾ تنقص من زمن أو جسم .﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي وما تنقصه وما تزداده من الجثة والمدة والعدد .﴿بِمِقْدَارٍ﴾ بقدر واحد لا يتجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٩] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين، وهيأ له أسباباً مسوقة إليه، تقتضي ذلك.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غاب، وما حضر أو شوهد. والغائب: ما غاب عن الحس، والشاهد: الحاضر المشاهد .﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن. ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كل شيء بالقهر أو بقدرته .﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ أي في علمه تعالى .﴿مُسْتَخْفٍ﴾ مستتر .﴿بِٱلَّيْلِ﴾ بظلامه .﴿وَسَارِبٌ﴾ ظاهر بارز بالنهار، بذهابه في سربه أي طريقه.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ له ملائكة تعتقب في حفظه ورعايته، أو تتعاقب على كتابة أقواله وأفعاله، جمع معقّبة، من عقَّبه: جاء عقبه، والتاء للمبالغة، لا للتأنيث، والمراد: ملائكة يتعاقبون على الإنسان بالليل والنهار .﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ قدامه .﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ ورائه أي من جوانبه .﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمره وإعانته، أو يحفظونه من بأس الله متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له، أو

يحفظونه من المضار .﴿لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنعمة أي لا يسلبهم نعمته .﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة والمعاصي .﴿سُوٓءًا﴾ عذاباً .﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ من المعقبات ولا غيرها .﴿وَمَا لَهُم﴾ لمن أراد الله بهم سوءاً .﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ أي غير الله .﴿مِن وَالٍ﴾ ناصر يمنعه عنهم، و﴿مِن﴾: زائدة، وهذا دليل على أن خلاف مراده محال.

المناسبة:

بعد أن حكى الله سبحانه إنكارالمشركين للبعث واستبعادهم له، أورد الأدلة على قدرته على ذلك بعلمه المحيط بكل شيء، فهو يعلم ما في الأجنَّة التي في البطون، ويعلم الغائب عنا والمشاهد لنا، ويعلم السر وأخفى، ويعلم جميع أجزاء الإنسان المتناثرة ومواضعها في البر والبحر وأجواف الحيوان، فيعيدها مرة أخرى.

وبعد أن حكى عن المشركين أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول ﷺ، بيَّن أنه تعالى عالم بجميع المعلومات، فيعلم من حالهم أنهم: هل طلبوا الآية الأخرى للاسترشاد، أو لأجل التعنت والعناد؟ وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات، أو يزداد إصرارهم على الكفر واستكبارهم؟.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، فهو يعلم بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، أهو ذكر أو أنثى، واحد أو متعدد، حسن أو قبيح، ذو خصائص وأوصاف، طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤] وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣٢] وقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٦] .

وإذا أمكن معرفة نوع الجنين علمياً بالتحليل مثلاً من كونه ذكراً أو أنثى، فلا يكون ذلك معارضاً الآية؛ لأن علم الله لا ينحصر به، وإنما علمه واسع محيط بكل شيء من الخواص والصفات الأخرى.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي والله يعلم ما تنقصه الأرحام وما تزداده من الجثة (سِقْطاً أو تماماً) والمدة (أقل من تسعة أشهر أو تسعة أو أكثر إلى عشرة) والعدد (واحداً أو متعدداً) والدم (إراقة حتى يخسّ الولد، وعدم إراقة حتى يتم الولد ويعظم).

والإحصاء العلمي دل على أن الجنين لا يزيد بقاؤه في بطن أمه عن ٣٠٥ أو ٣٠٨ أيام، وهناك رأي في المذهب المالكي أن عدة المطلقة سنة قمرية (٣٥٤ يوماً).

وأما ما يذكر في المذاهب لأقصى مدة الحمل (أربع سنين عند الشافعية والحنابلة، وخمس سنين عند المالكية، وسنتان عند أبي حنيفة) فمستنده الاستقراء وأخبار الناس، والناس قد يخطئون أو يتوهمون وجود الحمل في فترة زمنية ما، وليس في ذلك أي نص شرعي ثابت.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي وكل شيء عنده تعالى بأجل معين، أو بقدر واحد، لا يزيد عنه ولا ينقص، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٩] . وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه الجماعة عن أسامة بن زيد: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب».

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي يعلم كل شيء غائب عن العباد لا تدركه أبصارهم، ومشاهد لهم مرئي، ولا يخفى عليه منه شيء، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء، المتعال على كل شيء، قد أحاط بكل شيء علماً، أي شمل علمه كل شيء، وقهر كل شيء، فخضعت له الرقاب، ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

ويلاحظ أن هذه الآية استوفت بيان كمال علم الله تعالى، ففي مطلع الآية الذي هو كلام مستأنف أوضح تعالى أنه عالم بالجزئيات والمفردات، ثم ذكر أنه عالم بمقادير الأشياء وحدودها لا تتجاوزها ولا تقتصر عليها، وخصص كل حادث بوقته بعينه وبحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية، ثم أضاف أنه عالم بأشياء خفية لا يعلمها إلا هو، وهي أشياء جزئية من خفايا علمه، فهو يعلم الباطن والظاهر، والغائب: وهو ما غاب عن الحس، والشاهد: وهو ما حضر للحس، ثم ذكر أن علمه محيط بجميع الأشياء، لا فرق فيه بين الخفي السرّ أو الظاهر المعلن فقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم﴾ أي إنه تعالى محيط علمه بجميع خلقه، وإنه سواء منهم من أسرّ قوله وأخفاه أو جهر به وأعلنه، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء، كما قال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه: ٢٠/٧] وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٧/٢٥].

وقالت عائشة رضي الله عنها: سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادِلة، تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ٥٨/١].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ أي يعلم أيضاً ما هو مختف في قعر بيته في ظلام الليل، والتنصيص على هذه الحالة تنبيه على رقابة الله في كل مكان قد يظن صاحبه أنه بتواريه عن أنظار الناس، لا يطلع عليه أحد.

﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ظاهر ماش في ضوء النهار، فإن كلاهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ١٠/٦١].

ثم ذكر الله تعالى وسيلة إثبات المعلومات وخزائن المعارف والوقائع لمواجهة أصحابها بها مع علمه تعالى بكل شيء، وهي: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أي للإنسان ملائكة حفَظَة، ملائكة في الليل تعقب ملائكة النهار، وبالعكس فهم يتعاقبون على حراسته وحفظه من المضار ومراقبة أحواله، ويتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والتدوين أو الكتابة، سواء خيراً أو شراً. فالضمير عائد إلى ﴿مَّنۡ﴾ في قوله: ﴿مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ وقيل: الضمير يعود على اسم الله في عالم الغيب والشهادة.

فلهؤلاء الملائكة الحفظة وظائف، منها: حفظ الإنسان في الليل والنهار من المضارّ والحوادث بإذن الله وأمره ورعايته، ويقوم به ملائكة معينون وعددهم اثنان يحرسه أحدهما من ورائه والآخر من قدامه، ومنها حفظ الأعمال من خير أو شر، ويقوم به ملائكة آخرون، وهما اثنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، كما قال تعالى: ﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ، مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٧-١٨] فصار مجموع ملائكة كل إنسان أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، وهم حافظان وكاتبان، كما جاء في الحديث الصحيح عند البخاري: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون» وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء، وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم».

قال ابن عباس: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

ومن علم أن الملائكة الحفظة ترصد عليه أعماله وتحصي أقواله وأفعاله،

تهيَّب من مخالفة أوامر ربه، وكان حذِراً من المعاصي، حتى لا تسجل عليه، ويفاجأ بها يوم القيامة، كأنه شريط مسجل من وقت التكليف (البلوغ والعقل) إلى الوفاة.

وقوله ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي يحفظونه بأمر الله وبإذنه، فحفظهم إياه متسبب عن أمر الله لهم بذلك. أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له، وسؤالهم ربه أن يمهله، رجاء أن يتوب وينيب، كقوله: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٤٢].

ثم بيَّن الله تعالى مزيد فضله وعدله بأنه لا عقاب بدون جريمة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ﴾ أي إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم وينتقم منهم إلا بتغيير ما بأنفسهم بأن يكون منهم الظلم والمعاصي والفساد وارتكاب الشرور والآثام التي تهدم بنية المجتمع وتدمر كيان الأمم.

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا على يديه، يوشك أن يعمهم الله بعقاب».

وهذا مؤكد للآية: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥].

وواقع التاريخ الإسلامي في القرون الماضية يدل دلالة واضحة على أن الله تعالى لم يغيّر ما كان عليه حال الأمة الإسلامية من عزة ومنعة، ورفاه واستقلال، وعلم وتفوق في السياسة والاقتصاد والاجتماع، إلا بعد أن غيروا ما بأنفسهم، فحكموا بغير القرآن، وأهملوا دينهم، وتركوا سنة نبيهم، وقلدوا غيرهم، وضعفت روابط التعاون بينهم، وساءت أخلاقهم، وانتشرت الموبقات بينهم، وقد وعد الله الأرض من يصلحها بقوله: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٠٥] أي الصالحون لعمارتها،

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٧/١٢٨] .

ثم وصف تعالى قدرته المطلقة على العذاب فقال: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ أي وإذا أراد الله بقوم سوءاً من فقرأو مرض أو احتلال ونحوها من أنواع البلاء، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم، ومالهم من غير الله تعالى ناصر يلي أمورهم، ويدفع عنهم، أي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، فتلك الآلهة المزعومة لا تستحق الألوهية لعجزها عن فعل شيء نافع أو دفع أذى ضار.

وهذا يدل على أن الله قادر في أي وقت على إيقاع العذاب بالناس، فليس من العقل والحكمة في شيء استعجالهم ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايأتي:

١ - إن الله تعالى عالم بالجزئيات وبالكليات، وبالماضي والحاضر والمستقبل، وبالباطن والظاهر أو السر المخفي والمعلن المجاهر به، وبالغائب عن مسامعنا وأبصارنا والشاهد الحاضر.

٢ - استدل مالك والشافعي بآية: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ على أن الحامل تحيض، قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيض الحبالى، وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتي النساء الحوامل إذا حِضْن أن يتركن الصلاة. وقال عطاء والشعبي وغيرهما، وأبو حنيفة: لا تحيض؛ لأنه لو كانت الحامل تحيض، وكان ما تراه من الدم حيضاً، لما صح استبراء الأمة بحيض، وهو إجماع، فتماسك الحيض علامة على شغل الرحم، واسترساله علامة على براءة الرحم، فمحال أن يجتمع مع الشغل؛ لأنه لا يكون دليلاً على البراءة لو اجتمعا.

٣ً - وفي هذه الآية دليل أيضاً على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر، وله أمثال كثيرون.

وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة.

واختلف العلماء في أكثر الحمل، فقال مالك في المشهور عنه: خمس سنين، وقال الشافعي وأحمد: أربع سنين، وقال أبو حنيفة: سنتان. ولا أصل لهذه المسألة إلا الاجتهاد والرد إلى ما عُرف من أحوال النساء.

قال ابن العربي: نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر مدة الحمل تسعة أشهر[١].

٤ً - تخصيص الممكنات بخواص وأوصاف معينة دليل على كمال القدرة الإلهية، والدليل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، فكلمة بمقدار تعني عدم النقصان والزيادة، وقال قتادة: في الرزق والأجل، والمقدار: القَدْر، ويقال: ﴿بِمِقْدَارٍ﴾: قدر خروج الولد من بطن أمه، وقَدْر مكثه في بطنها إلى خروجه. قال القرطبي: وعموم الآية يتناول كل ذلك.

٥ً - الله عالم الغيب والشهادة، أي هو عالم بما غاب عن الخلق وبما شاهدوه، فالغيب: مصدر بمعنى الغائب، والشهادة: مصدر بمعنى الشاهد. وهذا تنبيه على انفراده تعالى بعلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد.

والله سبحانه الكبير أي الذي كل شيء دونه، المتعال عما يقول المشركون، المستعلي على كل شيء بقدرته وقَهْره.

(١) أحكام القرآن: ٣/ ١٠٩٧

والله تعالى يعلم ما أسرّه الإنسان من خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر، ويستوي في علم الله المستخفي بالليل والسارب بالنهار، أي يستوي في علم الله السرّ والجهر، والظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات.

٦ - للإنسان بتخصيص الله ملائكة أربعة في الليل، وأربعة في النهار، حافظان وكاتبان، وهي تتعاقب عليه ليلاً ونهاراً، وتتعقب أعماله وتتبعها بالحفظ والكتابة. قال الحسن البصري: المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر.

والمراد من قوله ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمر الله وبإذنه، وتكون ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقال الفرَّاء: في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: له معقبات من أمر الله، من بين يديه ومن خلفه يحفظونه.

وفائدة جعل الملائكة موكلين علينا بالحفظ: أنها تدعونا إلى الخيرات والطاعات، وليكون الإنسان حذِراً من المعاصي.

وفائدة كتابة أعمال العباد: قال المتكلمون: الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى، فإنه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة، وإن كان بالضد فبالضد.

٧ - لا يغير الله ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهم أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب، كما غيَّر الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم.

والمراد بالآية عند المفسرين: أنه تعالى لا يغير ما بالناس من النعم بإنزال الانتقال إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد[1].

---

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ٢٢

وهذا المعنى موجَّه للجماعة، أما الفرد فقد يتعرض للمصائب بذنوب غيره، ولا يشترط أن يتقدم منه ذنب، كما قال ﷺ، وقد سئل: أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال فيما رواه البخاري في المناقب: «نعم إذا كَثُر الخَبَثُ» أي الفسق والفجور. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٥].

٨ً - إذا أراد الله بالناس بلاء من أمراض وأسقام، فلا مردّ لبلائه وقيل: إن معنى الآية: إذا أراد الله بقوم سوءاً، أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ولا ملجأ ولا ناصر لأحد من مراد الله وعذابه.

والأولى تفسير الآية بأنه ليس للبشرية من يلي أمورها غير الله، الذي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، أما الآلهة المزعومة من أصنام وأوثان ونحوها فلا تستطيع أن تفعل شيئاً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٣].

مظاهر ألوهية الله وربوبيته وقدرته

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

الإعراب:

﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مفعولان لأجله بتقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع، أو حال من البرق أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ﴿وَالَّذِينَ﴾: اسم موصول، و﴿يَدْعُونَ﴾: صلته، وعائده محذوف أي يدعونهم، كما حذف من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٩٤] أي تدعونهم. ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ الكاف: متعلقة بصفة مصدر محذوف، أي الاستجابة كاستجابة باسط كفّيه، ويكون على هذا التقدير حرفاً فيه ضمير انتقل إليه من: كائنة. ويجوز أن يجعل الكاف اسماً، أي الاستجابة مثل استجابة باسِطِ كفّيه، ولا يكون في الكاف ضمير. ويجوز الاستثناء من الفعل المصدر والظرف والحال. ولام ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ متعلقة بباسط.

البلاغة:

يوجد طباق بين ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وبين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾.

﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ تشبيه تمثيلي، شبه حال الكافرين في دعاء الأصنام بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه بكف مبسوط. أو شبه عدم استجابة الأصنام لمن يدعونها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بعيد.

المفردات اللغوية:

﴿الْبَرْقَ﴾ شرارة ضوئية تظهر في السماء بسبب تصادم السحب السماوية ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي من أجل الإخافة من الصواعق، والطمع في المطر، وفيها مضاف محذوف، أي إرادة خوف وطمع، أو إخافة وإطماعاً، أو حال أي خائفين طامعين، وإطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق، ويطمع في الغيث.

﴿ٱلسَّحَابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالمطر، وهو جمع ثقيلة، وإنما وصف به السحاب؛ لأنه اسم جنس في معنى الجمع ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ الصوت المسموع خلال السحاب بسبب احتكاك السحب السماوية، أي إنه ينشأ عن احتراق الهواء بالشرارة ظهور البرق، الذي يحدث من تصادم سحابتين مختلفتي الشحنة الكهربائية، ثم ينشأ عن تفريغ جزء من الهواء الذي يحدثه البرق احتكاك الهواء الذي يطرده البرق وظهور الرعد.

﴿ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة وهي التي تحدث بسبب الاحتكاك الكهربائي بين كهربة السحب وكهربة الأرض عند تقارب السحب من الأرض، فتنشأ عنه صاعقة تحرق ما تقع عليه ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ﴾ أي الكفار يخاصمون النبي ﷺ في الله تعالى، والجدل: شدة الخصومة ﴿ٱلْمِحَالِ﴾ القوة أو الأخذ للأعداء.

﴿لَهُۥ﴾ تعالى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي كلمته وهي لا إله إلا الله أو الدعاء الحق، فإنه الذي يحق أن يعبد ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من غيره وهم الأصنام ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ مما يطلبونه ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء على حافة البئر، يطلب منه أن يبلغه، ليبلغ فاه بارتفاعه من البئر إليه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي بالغ فاه أبداً، فكذلك ماهم بمستجيبين لهم ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ ضياع وخسار وبطلان.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته، فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين (الإنس والجن) طوعاً حالتي الشدة والرخاء، ويسجد له الكفار كرهاً حالة الشدة والضرورة. والمنافقون من الكفار، إذ يسجدون كرهاً. ويحتمل أن يكون المراد: ينقادون لإحداث ما أراده الله فيهم من أفعاله، شاؤوا أو أبوْا، لا يقدرون أن يمتنعوا عليه.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ جمع ظل وهو الخيال المقابل للشمس الذي يظهر للشيء المادي القائم أي ويسجد ظلالهم، أو تنقاد أيضاً حيث تخضع لمشيئة الله في الامتداد والتقلص والفيء والزوال ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ جمع غداة: وهي أول النهار ﴿وَٱلْأَصَالِ﴾ جمع أصيل: وهو مابعد العصر إلى المغرب.

سبب النزول:

نزول الآية (١٣):

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾: ذكر الرواة سببين لنزول هذه الآية، أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس: أن أَرْبَدَ بن قيس وعامر بن الطُّفَيْل قدما المدينة على رسول الله ﷺ فقال عامر: يامحمد: ما تجعل إلي إن أسلمت؟ قال: لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: ليس ذلك لك ولا لقومك، فخرجا، فقال عامر: إني أَشْغَل عنك وجه محمد بالحديث، فاضربه بالسيف، فرجعا، فقال عامر: يامحمد، قم معي أكلمك، فقام معه، ووقف يكلمه، وسلَّ (أرْبَد) السيف، فلما وضع يده على قائم السيف، يبست، والتفت رسول الله ﷺ، فرآه، فانصرف عنهما، فخرجا، حتى إذا كانا بالرَّقْم (موضع) أرسل الله على أربد صاعقة، فقتلته، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾. وأما عامر فأرسل الطاعون عليه، فخرجت فيه غُدَّة كغدة الجمل، ومات في بيت سلولية.

وذكر الواحدي ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده والنسائي والبزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرّة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: اذهب فادعه لي، فقال: يارسول الله، إنه أعتى من ذلك، قال: اذهب فادعه لي، قال: فذهب إليه، فقال: يدعوك رسول الله، قال: وما الله، أمن ذهب هو، أو من فضة أو من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، وقال: وقد أخبرتك أنه أعتى من ذلك، فقال: ارجع إليه الثانية

فادعه، فرجع إليه، فعاد عليه مثل الكلام الأول، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال: ارجع إليه، فرجع الثالثة، فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينا هو يكلمني، إذ بعثت إليه سحابة حيال رأسه، فرعدت، فوقعت منها صاعقة، فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[1].

المناسبة:

بعد أن خوّف الله تعالى عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا مردَّ له، أتبعه بهذه الآيات المشتملة على أمور ثلاثة، فهي دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته، وتشبه النعم والإحسان حيناً، وتشبه العذاب والقهر والنقمة حيناً آخر.

التفسير والبيان:

الله تعالى هو الذي يسخر البرق: وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلال السحاب، بسبب تقارب سحابتين مختلفتين في الشحنة الكهربائية، ويريكم إياه تخويفاً، فيخاف منه المسافر والمزارع الذي جمع حبوبه في البيدر (الجرين) ويحذر عواقبه كل إنسان من خطف البصر، أو مجيء السيول الجارفة، وطمعاً، أي يرجو نفع المطر من كان بحاجة إليه لسقي زرعه وشجره وغسل الجو من الأتربة والرمال والدخان والميكروبات. فالناس في الظواهر العامة قسمان: إما فرح طامع بالخير بالنسبة إليه، وإما متشائم متبرم عابس لما يصيبه من شر أو ضر بالنسبة إليه.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي والله سبحانه هو الذي يوجد السحب

---

(١) أسباب النزول للواحدي ١٥٦، تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٠٥، تفسير القرطبي: ٩/ ٢٩٦ - ٢٩٨، الكشاف: ٢/ ١٦٢

المحملة المترعة بالماء، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض. قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي إن الرعد بلسان الحال لا بلسان المقال ينزه الخالق عن الشريك والعجز، ويعلن خضوعه له، وانقياده لقدرته وحكمته، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] .

وتسبح الملائكة ربهم وتنزهه عن الصاحبة والولد، من هيبته وإجلاله.

ويرسل الله الصواعق نقمة، ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم، فيقول: من صعق قبلكم الغداة، فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان».

وكل من الرعد والبرق إما بشير خير أو نذير شر، لذا أمرنا النبي ﷺ بالدعاء حين رؤيتهما، روى البخاري وأحمد عن سالم عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

ويسن عند رؤية البرق والرعد أن يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ روى مالك في موطئه عن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد، ترك الحديث، وقال: «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته». وروى أحمد عن أبي هريرة أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده». وروى أَبَان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأخذ الصاعقة ذاكراً الله عز وجل». وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة، فعلي ديته».

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ وبالرغم من هذه الأدلة الدالة على قدرة الله وألوهيته، يجادل الكفار ويشكون في عظمة الله تعالى وأنه لا إله إلا هو، قال مجاهد: جادل يهودي النبي ﷺ، وسأله عن الله تعالى: من أي شيء هو؟

وهو سبحانه شديد المحال أي شديد القوة والأخذ، والمماحلة: وهي شدة المماكرة والمكايدة لأعدائه، فيدبر لهم الحيلة لإنزال العقاب الشديد بهم من حيث لا يشعرون، يقال: تمحل لكذا: إذا تكلف استعمال الحيلة، واجتهد فيه.

وهو القادر على إنزال العذاب من فوقكم ومن تحت أرجلكم: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٥١] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/ ١٠٢].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، فإنهم لم يقتصروا على إنكار نبوته، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهية.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي لله تعالى دعوة الصدق والدعاء والتضرع، لا لغيره من الأصنام والأوثان والملائكة والبشر الذين اتُخذوا آلهة. وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما: دعوة الحق: كلمة التوحيد: لا إله إلا الله، أي لله من خلقه أن يوحّدوه ويخلصوا له.

وذكر في الكشاف وجهان للآية: الأول - إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل، أي إن دعوة الإسلام دعوة الحق المختصة به. والثاني - إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو الله عز وعلا أي إن الدعاء لله الحق الذي يسمع فيجيب[1].

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٦٢ قال أبو حيان: وهذا الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري لا يظهر؛ لأن مآله إلى تقدير: لله دعوة الله وهذا التركيب لا يصح.

وهذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله ﷺ في شأن الوعيد بالعقاب الذي هددهم به. قال أبو حيان عن ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾: والذي يظهر أن هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى الصفة، كقوله: (ولدار الآخرة) والتقدير: لله الدعوة الحق، بخلاف غيره، فإن دعوتهم باطلة، والمعنى أن الله تعالى، الدعوة له هي الدعوة الحق، وهو رد على الكفار في إثبات آلهة مع الله، فمن يدعُ الله فدعوته هي الحق، بخلاف أصنامهم التي جادلوا في الله لأجلها، فإن دعاءها باطل لا يتحصل منه شيء، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي إن الذين يدعون من دون الله الأصنام والأوثان والمعبودات الباطلة وهم المشركون، لا يجيبونهم إطلاقاً، ولا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء، ولا يحققون لهم نفعاً ولا يدفعون عنهم ضراً، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد، طالباً وصوله إلى فمه، وهو عطشان، والماء سائل لا يعقل دعاء، ولايلبي نداء، ولا يشعر به. ويلاحظ ما عليه هذا التشبيه من واقعية ومن بسط الكفين كما يبسطها الداعي إلى الله.

فهذا مثل ضربه الله ليأس عبدة غير الله من الإجابة لدعائهم، لتنبيه عقولهم وحواسهم، والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مَثَلاً بالقابض الماء باليد.
قال الشاعر:

فأصبحتُ فيما كان بيني وبينها من الودّ مثلَ القابض الماء باليد

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في خسار وضياع وبطلان، فإن دعاءهم لهم غير مجاب، كما أن دعاءهم الله تعالى بما يتعلق بالآخرة غير مجاب أيضاً. أما في الدنيا فقد يستجاب دعاء الكافر بدليل استجابة دعاء إبليس وهو رأس الكفار[٢]..

---

(١) البحر المحيط: ٥/٣٧٦

(٢) تفسير الألوسي: ١٣/١٢٥-١٢٦

ثم بيّن الله تعالى كمال قدرته وعظمته وسلطانه فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي ولله يخضع وينقاد كل شيء طوعاً من المؤمنين والملائكة في حالي الشدة والرخاء، وكرهاً من الكافرين في حال الشدة، بل كل شيء من مخلوقات الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد خاضع منقاد للخالق الذي خلقهم وأوجدهم. وكذلك تسجد لله وتخضع ظلال كل من له ظل مما ذكر في الصباح الباكر وفي آخر النهار، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص، أو لإرادة الدوام، كما هو الشأن في استعمالات العرب. والسجود لله دال على الربوبية، فلا يستحق العبادة سوى الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى مايلي:

أ - بيان كمال قدرة الله تعالى، وأن تأخير العقوبة عن العصاة ليس عن عجز، وكل ماذكر في الآية من البرق والسحاب والرعد والصواعق دلائل ملموسة على قدرة الله عز وجل، وأنه شديد القوة والأخذ، والمحال أو المماحلة: وهي المماكرة والمغالبة.

فحدوث البرق مثلاً دليل عجيب على قدرة الله تعالى؛ لأن السحاب مركب من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية ونارية، والغالب عليه الأجزاء المائية، والماء جسم بارد رطب، والنار جسم حار يابس، فتغليب النار على الماء المتضادين، لابد له من صانع مختار، يظهر الضد من الضد.

والأجزاء المائية من السحاب، سواء قيل: إنها حدثت في جو الهواء أو تصاعدت من أبخرة البحار، لابد أن يكون حدوثها بإحداث حكيم قادر محدث.

وصوت الرعد المرعب بسبب تصادم كتل الهواء نتيجة تفريغ جزء منه بالبرق دليل آخر على القدرة الإلهية.

والصواعق المخيفة المدمرة المتولدة من السحاب والتي تحدث بسبب احتكاك كهربة السحب بكهربة الأرض برهان واضح على الألوهية، ووجود موجود متعال عن النقص والإمكان.

٢ً - كل شيء في الوجود من إنسان وحيوان ونبات وجماد وجنّ وملائكة يسبح بحمده، فالرعد يسبح بحمد الله، والملائكة تسبح أيضاً بحمد الله من هيبته وإجلاله، والتسبيح: التنزيه عن الشريك والوالد والولد والصاحبة، والتقديس لله تعالى، ولكن الناس لا يفقهون تسبيح من سواهم.

٣ً - هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل الدالة على كمال قدرة الله، يجادلون في الله، ويشككون في وجوده وألوهيته، والله شديد القوة والأخذ، والعقاب، ومغالبة هؤلاء المشككين المجادلين بالباطل.

٤ً - لله الدعوة الحق، فمن يدعوه فدعوته هي الحق، أما دعاء الأصنام وأمثالها من الآلهة المزعومة دون الله فهو باطل لا يفيد شيئاً.

٥ً - الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله لا يحققون لأحد مطلباً، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لباسط كفيه إلى الماء، والماء سائل لا يشعر بأحد ولا بحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاء داعيه، فكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم، ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم.

٦ً - دل قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ على أنه يجب على كل من في السماوات والأرض أن يسجد لله إما طوعاً أو كرهاً، فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول، أو أن كل من السماوات والأرض يعترفون بعبودية الله تعالى، على ما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥/٣١].

وقيل: إن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع، وكل من

في السماوات والأرض ساجد لله بهذا المعنى؛ لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل.

٧ - دل قوله: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ على أن كل شخص، سواء كان مؤمناً أو كافراً، فإن ظله يسجد لله. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعاً، وهو طائع، وظل الكافر يسجد لله كرهاً، وهو كاره. وقيل: إن المراد من سجود الظلال أي ظلال الخلق: ميلانها من جانب إلى جانب، وتختلف طولاً وقصراً بسبب انحطاط الشمس وارتفاعها، فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب. وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر؛ لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

وحدانية الله

ومثل المؤمن والمشرك تجاه الوحدانية

﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾

القراءات:

﴿تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (يستوي الظلمات).

البلاغة:

﴿قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي الله خالق السماوات والأرض.

﴿ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ فيهما طباق.

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ فيهما استعارتان، استعار لفظ الأعمى للمشرك، والبصير للمؤمن، واستعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟﴾ أي بل أجعلوا، والهمزة للإنكار.

المفردات اللغوية:

﴿قُلْ﴾ يامحمد لقومك ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومتولي أمرهما ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إن لم يجيبوا فلا جواب غير أن تقول: الله الخالق؛ إذ لا جواب لهم سواه، ولأنه الجواب البين الذي لا يمكن المراء فيه، أو إنه لقنهم الجواب ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ أي كيف اتخذتم من غيره أصناماً تعبدونها؟ والمراد أنه ألزمهم بذلك أن اتخاذهم منكر بعيد على مقتضى العقل، والاستفهام للتوبيخ ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يقدرون على جلب نفع إليها أو دفع ضر عنها، فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه؟ وكيف تركتم مالك السماوات والأرض؟ وهو دليل ثانٍ على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء، رجاء أن يشفعوا لهم.

﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الكافر الجاهل، والمؤمن العالم العاقل ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ الكفر والإيمان؟ لا.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟﴾ بل أجعلوا، والهمزة للإنكار ﴿خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي خلق الله بخلق الشركاء، أي ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله، حتى يتشابه عليهم الخلق، فيقولوا: هؤلاء خلقوا كما خلق الله، فاستحقوا العبادة كما استحقها، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الناس، فضلاً عما يقدر عليه الخالق.

وهو استفهام إنكاري، أي ليس الأمر كذلك، ولا يستحق العبادة إلا الخالق ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالق غيره، فيشاركه في العبادة، فهو لا شريك له في الخلق، فلا شريك له في العبادة، أي إنه جعل الخلق يستوجب العبادة ويلزم منه ذلك، ثم نفاه عما سواه ليتوصل إلى الآتي وهو قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ أي هو المتوحد بالألوهية، الغالب على كل شيء.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن كل من في السماوات والأرض ساجد له، خاضع لقدرته وعظمته، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام، لإثبات الوحدانية، وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية، حتى لا يجدوا مناصاً من الاعتراف بها.

التفسير والبيان:

قل للمشركين أيها الرسول: من خالق السماوات والأرض؟ ثم أجب عنهم الجواب المتعين الذي لا مناص منه، وهو الذي يقرون به؛ لأنهم كانوا يقرون بأن الله هو الخالق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥] وقل لهم إذن: الله خالقهما وربهما ومدبرهما.

قال الزمخشري: وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم؛ لأنه إذا قال لهم: من رب السماوات والأرض؟ لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله.

ثم قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم: فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هي جمادات، وإذا كنتم مقرين بوجود الله، فما بالكم اتخذتم من دونه نصراء عاجزين وأولياء تعبدونهم، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً؟!

وإذا كانت تلك الآلهة لا تملك لنفسها النفع والضر، فهي لا تملك لعابديها

بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، فهو على نور من ربه؟ لهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾.

أي قل لهم مبيناً لهم سوء اعتقادهم: هل يتساوى الأعمى الذي لا يبصر شيئاً، والبصير الذي يدرك الحق ويهدي الأعمى إليه؟ أم هل تتساوى الظلمات والنور؟ جمع الظلمات وأفرد النور؛ لأن طريق الحق واحدة، وطرق الباطل والكفر متعددة.

والمراد: هل يمكن لأحد الحكم بتساوي الكافر والمؤمن، وتساوي الكفر والإيمان، فالكافر كالأعمى، والكفر كالظلمات، والمؤمن كالبصير، والإيمان كالنور؟

﴿أَمْ جَعَلُوا۟﴾ بل جعلوا أي جعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، وحينئذ تشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم، فحينما جعلوا لله شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق الله، تشابه ذلك عليهم، فيعبدونهم، مع أنهم لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون، فكيف يشركون في العبادة، أفمن يخلق كمن لا يخلق؟! وهذا بمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٣] .

والمراد: ليس الأمر على هذا النحو، فإنه تعالى لا يشابهه شيء، ولا يماثله شيء، ولا ندّ له، ولا وزير له، ولا ولد له ولا صاحبة، وهؤلاء المشركون عبدوا آلهة، وهم معترفون أنها مخلوقة لله، وهم عبيد له، كما صرحوا في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك» وكما أخبر القرآن عنهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٣] . وتضمن هذا الاستفهام التعجب منهم والإنكار عليهم والتهكم بهم.

وبعد أن ناقشهم تعالى في فساد اعتقادهم، وأبان عدم وجود المسوغات

لاتخاذ غير الله إلهاً معه، لعجزه وضعفه، قرر الحكم النهائي بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أي قل لهم يامحمد مبيناً وجه الحق: الله خالق كل شيء، خالقكم وخالق أصنامكم وخالق جميع المخلوقات، فإذا فكرتم تفكيراً سوياً وجدتم أن الله هو المتفرد بالخلق والإيجاد وهو المتوحد بالألوهية، المستحق للعبادة وحده، الغالب على كل شيء، فكيف تعبدون أصناماً لا تنفع ولا تضر؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية على ما يأتي:

١ً - تثبيت الحقيقة الأبدية الخالدة وهي أن الله تعالى وحده هو خالق السماوات والأرض وجميع مخلوقات الكون.

ومن له صفة الخلق والإيجاد هو المستحق للعبادة والتقديس.

٢ً - دل قوله: ﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وهو معنى آية أخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦١] أي فإذا اعترفتم بأن الله هو الخالق فلم تعبدون غيره؟ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر، وهو إلزام صحيح بالحجة القاطعة التي لا مجال لردها أو الطعن فيها.

٣ً - ضرب الله مثلاً للمشركين بالأعمى للكافر والبصير للمؤمن، وإذا كان مسلّماً لدى كل البشر ألا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق والمشرك الذي لا يبصر الحق.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للشرك والإيمان بالظلمات والنور.

٤ً - طمس الله على عقول المشركين، فلم يقتنعوا بما سبق، بل جعلوا لله

شركاء فاقدة أهم مقومات الألوهية وهو الخلق والإبداع، فهي عاجزة عن خلق أي شيء، فلا يمكن بعدئذ أن تنافس مخلوقات الله، ولو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟! والمشركون حينما اتخذوا آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله، التبس الأمر عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. وهو تهكم بهم، فإنهم في الحقيقة يرون كل شيء من خلق الله، وأن هذه الآلهة لم تخلق شيئاً، ومع هذا فإنهم يعبدونها من دون الله.

٥ً - الله خالق كل شيء، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء. والآية رد على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. والله تعالى هو الواحد قبل كل شيء، والقهار الغالب لكل شيء، الذي يغلب في مراده كل مريد، فكيف يصح بعد هذا القول بشريك لله؟!

٦ً - استدل أهل السنة بهذه الآية على خلق الأفعال، أي إن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وإن العبد لا يخلق فعل نفسه؛ لأن فعله شيء والله خالق كل شيء، وإنما يحصل منه الكسب والتوجيه واختيار ما خلق الله له.

أما المعتزلة فقالوا: إن العبد يفعل ويحدث، ولا نقول: إنه يخلق كخلق الله تعالى، وإنما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فلا يلزمهم أنهم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه.

وقال المجبرة: عين ماهو خلق الله تعالى هو كسب العبد وفعل له. وهذا عين الشرك؛ لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين، وكل شريك له حق في فعل الآخر.

مَثل الحق والباطل ومآل السعداء والأشقياء

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿يُوقِدُونَ﴾ قرئ:

١- (يوقدون) وهي قراءة: حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (توقدون) وهي قراءة الباقين.

﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: قرئ:

١- (لربّهِم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (لربّهُم) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (لربّهِمُ) وهي قراءة الباقين.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وماواهم).

﴿وَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وبيس).

الإعراب:

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ جار ومجرور، في موضع نصب على الحال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِ﴾ وتقديره: ومما يوقدون عليه كائناً أو مستقراً في النار.

﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال من ضمير ﴿يُوقِدُونَ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلقاً بيوقدون؛ لأنهم لا يوقدون في النار، وإنما يوقدون على الذهب، كائناً في النار.

﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ مبتدأ، و﴿مِثْلُهُ﴾: صفة له، وخبره إما ﴿يُوقِدُونَ﴾ أو ﴿فِي النَّارِ﴾.

﴿جُفَاءً﴾ حال من ضمير ﴿فَيَذْهَبُ﴾ عائد على الزبد ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ مبتدأ، خبره: ﴿لَوْ أَنَّ﴾.

البلاغة:

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تشبيه تمثيلي، وجه الشبه منتزع من متعدد، شبَّه فيه الحق بالماء المستقر على الأرض، وبالجوهر الصافي من المعادن، وشبّه الباطل برغوة الماء وخبث المعدن الطافي عليه لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي فسالت مياه الأودية، فهو مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه.

﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي أمثال الحق وأمثال الباطل.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟﴾ بينهما طباق السلب.

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ شبه الكافر الجاهل بالأعمى على سبيل الاستعارة.

المفردات اللغوية:

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ مطراً من السحاب أو من جانب السماء ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار، جمع واد: وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة، ثم استعمل للماء الجاري فيه، وتنكيرها؛ لإتيان المطر على التناوب بين البقاع ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع، أو بمقدار مثلها في الصغر والكبر ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾ رفعه، والزبد: ما يعلو وجه الماء من رغوة وقذر ونحوه ﴿رَّابِيًا﴾ عالياً عليه مرتفعاً فوقه ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ من جواهر الأرض وفلزاتها كالذهب والفضة والنحاس والحديد ومن: للابتداء، أو للتبعيض، والضمير للناس، وإضماره للعلم به ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ طلب زينة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ ينتفع به كالأواني إذا أذيبت، وآلات الحرب والحرث، والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي مثل زبد السيل، وهو خبثه وهو الذي ينفيه الكير ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي المذكور مثل الحق والباطل وأهل كلٍ.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من السيل وما أوقد عليه من المعادن ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يزول باطلاً مرمياً به، فالجفاء: ما يرميه الوادي من الزبد إلى جوانبه ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والمعادن ﴿فَيَمْكُثُ﴾ يبقى وينتفع به أهلها ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ زماناً، كذلك الباطل يضمحل وينمحق، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، والحق ثابت باق، أي إن الحق في إفادته وثباته كالماء النافع الذي يستقر في

الأرض، وكالمعدن الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة؛ والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله كزبد الماء أو غثائه ورغوته، وخبث المعدن وشوائبه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ يبين، لإيضاح المشتبهات.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أطاعوه، أي للمؤمنين الذين استجابوا بالطاعة لله، واللام متعلقة بيضرب ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الجنة ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ وهم الكفار ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من العذاب ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ المؤاخذ بكل ما عملوه، لا يغفر منه شيء، أو المناقشة في الحساب، بأن يحاسب الإنسان بذنبه، لا يغفر منه شيء ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مرجعهم النار ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ المستقر والفراش هي، والمخصوص بالذم محذوف.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ الهمزة للإنكار، أي فيؤمن ويستجيب كالحمزة ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب لا يؤمن بالنبي ﷺ كأبي جهل، والمراد لا يستويان، ولا يتشابهان ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى وجود دعوتين: دعوة الحق، ودعوة الباطل، وأن دعوة الله هي دعوة الحق ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل، ولما شبه تعالى المؤمن والكافر والإيمان والكفر، بالبصير والأعمى، والنور والظلمات، ذكر مثلاً آخر للإيمان والكفر، وأبان مثلاً للحق وأهله، والباطل وحزبه، فجعل مثل الحق وأهله في ثباته وبقائه بالماء النازل من السماء فينفع الأرض والناس، وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، وجعل مثل الباطل في اضمحلاله وفنائه وسرعة زواله وانعدام منفعته بزبد السيل الذي يرمي به، وزبد المعدن الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

التفسير والبيان:

اشتملت الآية الأولى على مثلين للحق وهو القرآن أو الإيمان في ثباته وبقائه ونفعه، والباطل وهو الكفر في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي أنزل الله تعالى من السحاب مطراً، فأخذ كل وادٍ بحسبه صغراً وكبراً، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها في استيعاب الإيمان سعة وضيقاً، فحمل السيل المتجمع من ذلك المطر زبداً عالياً طافياً فوقه، وهذا هو المثل الأول للحق والباطل أو الإيمان والكفر.

ثم ذكر تعالى المثل الثاني: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ أي ومثل الحق أو الإيمان كالمعدن النافع من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ونحوها الذي يستخلص من التراب والشوائب، بوساطة السبك في النار، ليجعل حلية أو آنية أو سلاحاً أو متاعاً ينتفع به، ويعلوه الخبث والشوائب الطافية عند الانصهار، وهو مثل الباطل.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي المذكور مثل الحق والباطل إذا اجتمعا، فالحق في استقراره ونفعه كالماء المستقر النافع والمعدن النقي الصافي، والباطل في زواله وعدم نفعه كالرغوة التي يقذفها السيل على جوانبه، وخبث المعدن عند انصهاره، فالباطل لا دوام له أمام الحق.

ثم ذكر الله تعالى اضمحلال الباطل وذهابه بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ أي أن الزبد الطافي فوق الماء يتبدد ويزول ويذهب في جانبي السيل، ويعلق على حافتيه، فتنسفه الرياح، وأما النافع من الماء والمعدن فيبقى مستقراً في الأرض، أما الماء فنشربه ونسقي به الزرع، وأما المعدن فنستفيد منه إما بالحلي أو بصناعة الأواني والأسلحة والأمتعة، كما قال تعالى عن الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٥].

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي إنه تعالى كما بيَّن لكم هذه الأمثال، فكذلك يضربها بيّنات، لإيضاح الفوارق بين أصول الاعتقاد الجوهرية من الإيمان والكفر، والحق والباطل.

والخلاصة: إن القرآن الكريم الذي تجسد فيه الحق ونور الإيمان مثله في إحياء القلوب به مثل الماء الذي يحيي الأرض بعد موتها، ومثل المعدن النقي الصافي الذي يحقق منافع كثيرة للناس. وأما الكفر وضلالات الشرك وباطل اعتقاد المشركين، فهو عديم النفع سريع الزوال، يتبدد فوراً، فهو كرغوة الماء وغثاء السيل الذي يضمحل وتعصف به الرياح، وخبث المعدن الذي يستبعد ويلقى جانباً.

وما ضرب هذا المثل الرائع إلا لخير الإنسان، الذي عليه أن يقدر مآل أمره، وما ينتظره من سعادة وشقاوة في المعاد، فإذا كان يوم القيامة وعرض الناس وأعمالهم على ربهم، فيزيغ الباطل ويتلاشى، وينتفع أهل الحق بالحق.

وقد ضرب الله تعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين من النار والماء، فقال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ٢/١٧] ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ٢/١٩].

وضرب سبحانه للكافرين في سورة النور مثلين، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٢٤/٣٩] والسراب يكون في شدة الحر، ثم قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النور: ٢٤/٤٠].

وجاء في السنة أمثال مشابهة، فشبَّه النبي ﷺ أحوال المنتفعين بسنته بأحوال أراضٍ ثلاث سقط عليها الماء، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكان منها طائفة قَبِلت الماء، فأنبتت الكلأ

والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تُمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به، فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» وهذا مثل مائي يشبه المثل الذي ضربه الله تعالى للمنافقين.

وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَثَلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار، يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فذلك مَثَلي ومثلكم أنا آخذ بحجَزكم عن النار، هلمَّ عن النار، فتغلبوني، فتقتحمون فيها» وهذا مثل ناري أبان فيه النبي ﷺ حرصه على إبعاد أمته من النار، وتساقط بعضهم فيها كتساقط الفراش، وهو كالمثل الذي ضربه الله للمنافقين.

ثم أبان الله تعالى مستأنفاً الكلام مصير أهل الحق وأهل الباطل، ومآل السعداء والأشقياء، ترغيباً وترهيباً، فقال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ﴾ أي الجنة للذين أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم الجزاء الحسن ونعيم الجنة والثواب العظيم، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٦] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: ١٨/ ٨٨].

﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ أي والذين لم يطيعوا الله ورسوله، لا ينفعهم في الآخرة الفداء بجميع ما في الدنيا وضِعْف ما فيها، أي لا يمكنهم في الدار الآخرة أن يفتدوا من عذابَ الله بملء الأرض ذهباً، ومثله معه. ولو كان لهم ذلك لافتدوا به، ولكن لا يتقبل الله منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، أي فداء وتوبة.

أولئك الذين لم يطيعوا الله لهم سوء العذاب في الدار الآخرة، ويناقشون على كل ما قدموه، لا يغفر منه شيء، ومن نوقش الحساب عذب، ومرجعهم إلى النار وبئس المستقر مستقرهم. وفي هذا تهويل شديد، وتخويف عظيم، لغفلتهم من اتباع أوامر ربهم، وتقربهم إليه، وانغماسهم في شهواتهم.

ثم نزل في حمزة رضي الله عنه وأبي جهل، كما ذكر ابن عباس قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ﴾ أي لا يستوي من يعلم من الناس أن المنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق الذي لا شك فيه ولا لبس فيه، بل هو كله حق، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٥] أي صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الطلب، لا يستوي من صدَّق بما جاء به محمد ﷺ، ومن لم يصدق به، وكان أعمى لا يستبصر، ولا يهتدي إلى خير، ولا يفهمه، ولو فهمه، ما انقاد له ولا صدقه، ولا اتبعه.

إنما الذي ينتفع بهذه الأمثال ويعتبر بها ويتعظ ويعقل هم أولو العقول السليمة، والأفكار الصحيحة، والآراء الرشيدة.

ونظير الآية: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيات أموراً ثلاثة:

أ - تشبيه الحق والإيمان بالماء المستقر والمعدن النقي الصافي، وتشبيه الباطل والكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية، وتنسفه الرياح، أو تشبيهه بالطافي فوق المعدن المذاب فكذلك الكفر وشبهاته وخيالاته تذهب وتضمحل، ويبقى الجوهر الصافي من الماء، والمعدن النقي.

وهذان المثلان اللذان ضربهما الله للحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، يلفتان النظر إلى عواقب الأمور.

وقيل وهو ما يروى عن ابن عباس: المراد تشبيه القرآن وما يدخل منه القلوب بالمطر، لعموم خيره وبقاء نفعه، وشبّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثلما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها.

٢ً - للطائعين أهل السعادة الذين أجابوا إلى ما دعا الله من التوحيد والنبوات الجزاء الحسن، وهو النصر في الدنيا، والنعيم المقيم غداً في الآخرة.

وللعصاة أهل الشقاوة الذين لم يجيبوا إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ، لا يتمكنون من فداء أنفسهم في الآخرة بملء الأرض ذهباً، ومثله معه، ولهم سوء العذاب، فلا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة، ومسكنهم ومقامهم النار، وبئس الفراش الذي مهدوا لأنفسهم، فهذه أربعة أنواع من العذاب والعقوبة: عدم قبول الفداء، والتعرض لسوء الحساب، ومأواهم جهنم، وبئس المهاد مهادهم أي بئس المستقر هي.

٣ً - مثل آخر للمؤمن والكافر، روي أنه نزل في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وأبي جهل أخزاه الله، فالمؤمن بالمنزل من الله على نبيه، المتحقق بصدقه، العامل بما بلغه إليه منه هو المستبصر الواعي العاقل، والكافر هو الجاهل بالدين أعمى القلب، وأولو العقول هم المتعظون المعتبرون بذلك.

أوصاف أولي الألباب السعداء وجزاؤهم

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾ إما صفة لأولي الألباب، وإما مبتدأ، خبره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾.

﴿وَمَن صَلَحَ﴾ مرفوع بالعطف على ضمير ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ المرفوع، وحَسُن العطف لوجود الفصل بضمير المفعول. ويجوز نصبه على أنه مفعول معه. ولا يجوز عطفه بالجر على ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى﴾ لأن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة حرف الجر. وأجاز الكوفيون ذلك من غير إعادة حرف الخفض.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ﴾ بدل من ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، أو مبتدأ، خبره: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾.

﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ متعلق بعليكم، أو بمحذوف، أي هذا بما صبرتم، ولا يتعلق بسلام؛ فإن الخبر فاصل، والباء: للسببية أو البدلية.

البلاغة:

﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ و﴿بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ و﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ المأخوذ عليهم، وهم في عالم الذر أو كل عهد، وهو ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا: بلى، أو ما عهده الله تعالى عليهم في كتبه .﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد، والنقض: الفك بترك الإيمان أو الفرائض، وهو تعميم بعد تخصيص .﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام، والرحم وموالاة المؤمنين، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس .﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ تمتلئ قلوبهم مهابة منه وجلالاً له. والخشية: الخوف مع العلم بمن تخشاه.

﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا، ويخشون خطر الحساب .﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على الطاعة والبلاء وعن المعصية .﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾ طلب. ﴿وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ أي طلب رضاه، لا غيره من أغراض الدنيا، كالفخر أو السمعة ونحوهما .﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة .﴿وَأَنفَقُواْ﴾ في الطاعة بعض ما رزقهم الله .﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون السيئة بالحسنة، فيجازون الإساءة بالإحسان كالأذى بالصبر، والجهل بالحلم، أو يتبعون السيئة الحسنة، فتمحوها .﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة، وهي ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إقامة يقيمون فيها .﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ أي ومن صلح، وإن لم يعملوا بعملهم، يكونون في درجاتهم تكرمة لهم، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة، والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع .﴿مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ من أبواب الجنة أو من أبواب المنازل، أول دخولهم للتهنئة .﴿سَلَٰمٌ﴾ قائلين: سلام عليكم، بشارة بدوام السلامة .﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ بصبركم في الدنيا .﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ عقباكم.

المناسبة:

هذه الآية متعلقة بما قبلها، فهي تذكر الصفات الحميدة لأولي الألباب، أو الصفات المذكورة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ ومن اتصف بهذه الصفات لهم سعادة الدنيا والآخرة.

التفسير والبيان:

يصف الله تعالى أولي الألباب من المؤمنين الذين تحققوا من نبوة النبي محمد ﷺ واعتقدوا أن ما أنزل إليه هو الحق، يصفهم بالصفات التالية:

أ - الوفاء بالعهد:

الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبية الله تعالى،

وبالمواثيق بينهم وبين ربهم، وبينهم وبين العباد. وعهد الله: كل ما قام الدليل على صحته من الأدلة العقلية والسمعية، والعهد: اسم للجنس، أي بجميع فروض الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده، ويدخل فيه التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي.

٢ - عدم نقض الميثاق:

أي لا يُخِلُّونَ بواجبات العهد والتزاماته، ولا ينقضون عهد الإيمان مع ربهم، ولا بالعقود التي يبرمونها مع الناس من بيع وشراء وسائرالمعاملات، حتى لا يكونوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، روى الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفي رواية أربع ومنها: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

فعدم نقض الميثاق في رأي الأكثرين قريب من الوفاء بالعهد، وهما مفهومان متلازمان، وإن كانا متغايرين، ونص على منع النقض لتأكيده. أو إنه تعميم بعد تخصيص. قال قتادة: إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين موضعاً في القرآن، عناية بأمره، واهتماماً بشأنه.

٣ - صلة الرحم ورعاية جميع الحقوق الواجبة لله وللعباد:

الذين يصلون كل ما أمر الله بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله، ومنها مؤازرة النبي ﷺ ونصرته في الجهاد، وحقوق العباد، ومنها صلة الرحم. جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ أن يُبْسَط له في رِزقه، ويُنْسَأ له في أثره، فليصِل رَحِمَه» ومنها الإحسان إلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف. ونص على هذا الوصف مع دخوله في الوصفين

السابقين للتأكيد، ولئلا يظن ظان أن الوفاء بالعهد مقصور على ما بين الإنسان وبين الله تعالى.

٤ - الخوف من الله:

و يخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك. والخشية: خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن يخشاه، لذا خص الله العلماء بمزيد الخشية، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٣٥/٢٨] .

٥ - الخوف من العذاب:

ويحذرون سوء الحساب في الدار الآخرة، فيخافون المناقشة في الحساب؛ لأن من نوقش الحساب عُذِّب، ويحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا؛ لأن الحساب يشمل كل صغير وكبير، ومن خاف الحساب أقبل على الطاعة، وتجنب المعصية. ويلاحظ أن الوصف الرابع إشارة إلى الخشية من الله، وهذا يقتضي خوف الجلال والمهابة والعظمة، وهذا الوصف إشارة إلى الخوف من سوء الحساب.

٦ - الصبر:

وهو حبس النفس على ما تكره: والذين صبروا على الطاعة وعن المعصية، وحال البلاء، ففعلوا الطاعات والتكاليف، وامتنعوا من المعاصي والسيئات أو المنكرات، ورضوا بالقضاء والقدر عند التعرض للمصائب، وكان صبرهم بقصد مرضاة الله عز وجل ونيل ثوابه، لا رياء ولا سمعة.

٧ - إقامة الصلاة:

والذين أقاموا الصلاة أي أدَّوْها مستكملة أركانها وشروطها التامة، مع خشوع القلب لله تعالى على الوجه المرضي.

٨ - الإنفاق في وجوه الخير:

وأنفقوا بعض ما رزقناهم في السر والجهر بحسب مقتضى الحال، فيسرُّون النفقة بينهم وبين ربهم حتى لا يكون قصدهم الرياء والسمعة، ويعلنونها أحياناً للناس إذا كانت بقصد التشجيع والتعليم والقدوة، سواء كان إنفاقاً واجباً كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء، أو مندوباً كالإنفاق على الفقراء والمساكين الأباعد.

٩ - مقابلة السيئة بالإحسان:

ويدفعون الإساءة بالإحسان كالجهل بالحلم، والأذى بالصبر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٣] ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٢] ، ويتبعون السيئة بالحسنة لمحوها، لقوله ﷺ فيما يرويه أحمد عن أبي ذر: «إذا عملت سيئة، فاعمل بجنبها حسنة تمحها» وفي رواية أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر: «وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها، وخالق الناس بخُلُق حسن».

والثابت أن المعاملة الكريمة مع المسيء وغيره أفضل وأجدى وأوقع أثراً؛ لأنها تهوّن الأمر، وتستل الأحقاد، وتكون عاقبتها أسلم.

وبعد أن وصف الله المؤمنين العقلاء بتلك الصفات الحميدة، ذكر جزاءهم بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم العقبى الحسنة والسعادة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فهو النصر على الأعداء، وأما في الآخرة فهو الجنة.

ثم أوضح هذه العقبى فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي تلك العقبى هي الجنات التي يقيمون فيها إقامة دائمة.

يدخلونها هم والصالحون المؤمنون من أزواجهم وأصولهم وفروعهم، وهو

دليل على أن سمو الدرجة يكون بالشفاعة، وأن التقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الأنساب لا تنفع، فلا تفيد الأنساب شيئاً إذا لم تقترن بالعمل الصالح، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١٠١] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/٨٨-٨٩] وقال النبي ﷺ لفاطمة في مرض موته فيما رواه الترمذي: «يا فاطمة بنت محمد، سَلِيني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً».

وتأتيهم الملائكة عند دخولهم الجنة من أبواب مختلفة قائلين لهم: سلام عليكم بصبركم، أي أمن دائم عليكم، ورحمة من ربكم، فنعم عقبى الدنيا الجنة. فقوله ﴿سَلَٰمٌ﴾ مشتمل على محذوف تقديره: ويقولون: سلام عليكم.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١ - وجوب الوفاء بالعهد: وهو يشمل كل حقوق الله وفرائضه وحقوق العباد.

٢ - تحريم نقض المواثيق الإلهية والبشرية: فإذا عقد الإنسان عهداً في طاعة الله، أو مع الناس، لم يجز نقضه.

٣ - وجوب صلة الأرحام ورعاية جميع حقوق الله وحقوق العباد، وذلك يتناول جميع الطاعات والإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم.

٤ً - الخوف من سوء الحساب: وهو الاستقصاء فيه والمناقشة، ومن نوقش الحساب عُذِّب، كما روى الشيخان عن عائشة.

٥ً - الصبر بإخلاص لله تعالى على الطاعة، وعن المعصية، وعلى الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب.

٦ً - إقامة الصلاة: وهو أداؤها بفروضها وخشوعها في مواقيتها.

٧ً - الإنفاق من بعض المال سراً وجهراً، بأداء الزكاة المفروضة والتطوع بالصدقات المندوبة في سبيل الله تعالى.

٨ً - درء السيئة بالحسنة، أي الدفع بالعمل الصالح السيِّئ من الأعمال، كالتخلق بالأخلاق الطيبة في مواجهة أذى الناس، كالحلم في وجه الجهل، والصبر في وجه الأذى، ودفع الشر بالخير، والمنكر بالمعروف، وإتباع السيئة بالحسنة لمحو أثرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/ ١١٤] وقوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر: «وأتبعِ السيئةَ الحسنة تَمْحُها، وخالقِ الناسَ بخُلُق حسن».

٩ً - للسعداء الطائعين عاقبة الآخرة: وهي الجنة بدل النار، والدار غداً داران: الجنة للمطيع، والنار للعاصي.

وجنان عدن: وسط الجنة، وسقفها عرش الرحمن، جاء في صحيح البخاري «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تُفَجَّر أنهار الجنة».

١٠ً - يدخل الجنة مع المؤمن الصالح آباؤه وأزواجه وأبناؤه إن صدقوا وصلحت أعمالهم، وإن لم يعملوا مثل أعمالهم، واشتراط العمل الصالح كاشتراط الإيمان، ولكن من فضل الله تعالى وإكرام المؤمن وثواب المطيع: سروره واجتماعه مع قراباته في الجنة، وحضور أهله معه فيها، وان دخلها كل إنسان بعمل نفسه من زاوية العدل، وبرحمة الله تعالى من ناحية الفضل.

١١ - التقييد بالصلاح بقوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ دليل على أن مجرد الأنساب لا تنفع، فلا تفيد الأنساب شيئاً إذا لم تقرن بالعمل الصالح.

١٢ - تدخل أفواج الملائكة من مختلف أبواب الجنة مهنئة المؤمنين، ومبشرة لهم بالسلامة، قائلين لهم: ﴿عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي قد سلمتم من الآفات والمحن، أو هو خبر بمعنى الدعاء، أي ندعو لكم بدوام السلامة، سلمكم الله، وهذا يتضمن الاعتراف بالعبودية. والسلام عليكم كان بصبركم على ملازمة الطاعة، ومفارقة المعصية، فنعم عاقبة الدار التي كنتم فيها، عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه، فالعقبى على هذا اسم، وهو قول ابن سَلام. أو فنعم عقبى الجنة عن النار أو عن الدنيا، وهو قول أبي عِمران الجوْني.

١٣ - استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الملَك أفضل من البشر فقال: إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والإكرام والتعظيم، فكانوا به أجل مرتبة من البشر، ولو كانوا أقل مرتبة من البشر، لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجباً علو درجاتهم وشرف مراتبهم[١].

صفات الأشقياء وجزاؤهم

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ ذكر في مقابلة الأولين الذين يوفون بعهد الله.

(١) تفسير الرازي: ١٩/٤٥ - ٤٦

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم والمعاصي وإثارة الفتن. ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ الطرد أو البعد من رحمة الله. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ العاقبة السيئة في الدار الآخرة، وهي جهنم، أو سوء عاقبة الدنيا؛ لأنه في مقابلة عقبى الدار للسعداء.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى صفات السعداء وجزاءهم الذي أعده لهم في دار الكرامة، ذكر حال الأشقياء وما هيأه لهم من عذاب النار، وأتبع الوعد بالوعيد، والثواب بالعقاب، على ما هي عليه عادة القرآن للموازنة والمقابلة، وليكون البيان كاملاً فيكون أدعى للامتثال والزجر، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

التفسير والبيان:

وصف الله تعالى الأشقياء بصفات ثلاث هي:

١ً - نقض العهد: والذين ينقضون عهد الله الذي ألزمه عباده وأمر به، سواء ما يتعلق به سبحانه من الإيمان بوحدانيته وقدرته وإرادته، والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وما أوحى لهم به، أو ما يتعلق بحقوق الناس.

ونقض العهد: بألا ينظر في الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده أصلاً، أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند، فلا يعمل بعلمه، أو بأن ينظر في الشبهة، فيعتقد خلاف الحق.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي من بعد الإقرار بصحته والالتزام به.

٢ً - قطع ما أمر الله به أن يوصل، أي قطع كل ما أوجب الله وصله، من الإيمان به وبرسله، وقطع الرحم والقرابات، وعدم صلة المؤمنين وسائر أصحاب الحقوق وعدم التعاون معهم.

٣ً - الإفساد في الأرض، أي ويفسدون في الأرض بأعمالهم الخبيثة، فيظلمون أنفسهم وغيرهم، ويدعون إلى غير دين الله، ويلحقون الظلم بالنفوس والأموال، ويرتكبون كل ما يؤدي إلى تخريب البلاد، وإثارة الفتن، وتأجيج نار الحرب والدمار.

ثم أبان تعالى ما يستحق هؤلاء من عقاب، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر يستحقون اللعنة، أي الطرد من رحمة الله والإبعاد من خيري الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي ولهم سوء العاقبة والمآل، وهو عذاب جهنم، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها، كما قال سبحانه سابقاً: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [الرعد: ١٣/ ١٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى الأحكام التالية:

١ً - تحريم نقض العهد الإلهي بالإيمان وإيتاء الحقوق، الذي أقام عليه تعالى الأدلة العقلية والسمعية، وأوجب الوفاء به في قرآنه وكتبه المنزلة على أنبيائه.

٢ً - تحريم قطع ما أمر الله بوصله من صلة الأرحام والإيمان بجميع الأنبياء، والتعاون مع المؤمنين.

٣ً - تحريم الإفساد في الأرض بالكفر وارتكاب المعاصي والظلم وإثارة الفتن، وارتكاب كل ما يؤدي إلى دمار البلاد وتخريبها، وإتلاف الأموال والحقوق واغتصابها والاعتداء عليها.

٤ً - المرتكبون لهذه المنكرات والفواحش لهم اللعنة، أي الطرد والإبعاد من الرحمة، ولهم سوء الدار، أي سوء المنقلب، وهو جهنم.

الرزق على الله والآيات بيد الله والهداية من الله لمن آمن بالله

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف.

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ معطوف على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير، وما سبق ذلك اعتراض.

﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ ﴿طُوبَىٰ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿لَهُمْ﴾، والجملة خبر المبتدأ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾. ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾: معطوف مرفوع على ﴿طُوبَىٰ﴾. وقرئ: (وَحُسْنَ مَآب) بالنصب، على أنه منادى مضاف، حذف منه حرف النداء، أي ياحسن مآب، ويجوز أن يكون ﴿طُوبَىٰ﴾ منصوباً بفعل مقدر، أي أعطاهم طوبى لهم، وأعطاهم حسن مآب، فهذا معطوف بالنصب على ماسبقه.

البلاغة:

﴿يَبْسُطُ﴾ و﴿وَيَقْدِرُ﴾ و﴿يُضِلُّ﴾ و﴿وَيَهْدِىٓ﴾ بينهما طباق.

﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ تشبيه بليغ، حذف منه أداة الشبه ووجه التشبيه، أي ما الحياة

الدنيا إلا مثل الذي يتمتع به الإنسان في منزله كالقَصْعة ونحوها، في حقارته وسرعة زواله.

المفردات اللغوية:

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه أو يعطي بقدر الكفاية فقط ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي أهل مكة فرح بطر ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا وما نالوه فيها ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم، وشيء قليل يتمتع به ويذهب، والمعنى: أن الكفار بطروا بما نالوا من الدنيا، ولم يستخدموه فيما يوصلهم إلى نعيم الآخرة، واغتروا بما هو قليل النفع سريع الزوال.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكة ﴿لَوْلَآ﴾ هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ كعصا موسى ويده، وناقة صالح ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله، فلا تغني عنه الآيات شيئاً؛ لأنه عاند وأعرض عن الحق ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ يرشد إلى دينه من رجع عن العناد وأقبل إلى الحق. والمعنى: هذا جواب فيه تعجب من قولهم، كأنه قال لهم: ما أعظم عنادكم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم، فلا سبيل إلى اهتدائهم، وإن أنزلت كل آية؛ ويهدي إليه من أناب، أي من رجع عن العناد.

﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ تسكن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي بتوحيده ووعده ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ قلوب المؤمنين، والمعنى أن قلوب المؤمنين تسكن وتستأنس بتوحيد الله وتذكر وعده، وتعتمد عليه وترجو منه، فتطمئن.

﴿طُوبَىٰ﴾ مصدر من الطيب، أي لهم العيش الطيب والنعمة والخير والسرور، والحسنى والكرامة. وقيل: هي شجرة في الجنة، يسير الراكب في ظلها مئة عام. ﴿مَـَٔابٍ﴾ مرجع ومنقلب.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك، بيَّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا؛ لأنها دار امتحان، فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم، فلا تعلق للرزق بالكفر والإيمان، فربما وسع على الكافر دون المؤمن استدارجاً له، وضيق على المؤمن دون الكافر زيادة في أجره وثوابه.

ثم ذكر تعالى مقالة للمشركين، كثر في القرآن حكايتها وهي طلب آية مادية حسية تدل على نبوة محمد ﷺ؛ لإنكارهم أن القرآن آية دالة على النبوة، فرد الله عليهم أن اقتراح الآيات على الرسل جهل.

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين المتقين وثوابهم عند الله تعالى. والتحدث عن المشركين والمؤمنين هنا مناسب لما ذكر سابقاً من بيان عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك.

التفسير والبيان:

لما ذكر الله تعالى أن للمشركين سوء الدار، ناسب ذكر حكم الرزق في الدنيا، وأنه لا تعلق له بالإيمان والكفر، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي إن الله تعالى هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، بصرف النظر عن كون الإنسان مؤمناً أو كافراً، فقد يضيق الله الرزق على المؤمن ابتلاء واختباراً، وزيادة في أجره، وقد يوسع الله الرزق على الكافر استدراجاً له وحرماناً منه في الآخرة، عدالة، فليست سعة الرزق للكافر دليلاً على الكرامة والرضا، وليس التقتير على المؤمن دليلاً على الإهانة والسخط. كما قال تعالى في شأن رزق الكافر: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٥٥-٥٦] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٢] .

ثم ذكر الله تعالى حال المشركين في حال الغنى فقال: ﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي وفرح مشركو مكة بالدنيا فرح بطر، ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما عند الله. لكن ما نعيم الدنيا بالنسبة إلى الآخرة إلا متاع زائل، وشيء قليل ذاهب، يزول بسرعة.

أخرج أحمد ومسلم والترمذي عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة.

وأخرج الترمذي عن ابن مسعود قال: «نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثَّر في جنبه، فقلنا: يارسول الله، لو اتخذنا لك، فقال: مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها».

ولما أوضح تعالى أن المشركين اغتروا بمتع الحياة الدنيا، وطمست المادة على مشاعرهم وقلوبهم، ذكر ما ترتب على الغرور والتأثر بالمادة، فطلبوا من النبي ﷺ آية واحدة مادية تدل على صدق نبوته، لعدم إيمانهم بكون القرآن معجزة مصدقة، وبرهاناً قاطعاً على ذلك؛ لأنهم قوم ماديون، لا مجال لمخاطبة العقل لديهم، والقائل: عبد الله بن أبي أمية وأصحابه، فقال تعالى حاكياً اقتراحهم: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي ويطلب أهل مكة المشركون قائلين: هلا أنزل على محمد آية أو معجزة قاهرة ظاهرة مادية مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام، كقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٥] .

والله قادر على إجابة ما سألوا، لكن جاء في الحديث: «إن الله أوحى إلى رسوله، لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجري لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة، فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يامحمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن

شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة».

ورد الله عليهم بأن إنزال الآيات لا يؤثر في هداية ولا ضلال، بل الأمر كله بيد الله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ﴾ أي ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم، فلا فائدة لكم في نزول الآيات، إن لم يرد الله هدايتكم، فمن كان على صفتكم من التصميم والعناد في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائكم، وإن أنزلت كل آية، فإن الضلال والهداية بيد الله، والله يضل من يشاء، أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات، وحرمكم الاستدلال بها، يضلكم عند نزول غيرها، ويهدي إليه من أناب، أي رجع عن العناد وأقبل على الحق أو الإسلام أو الله عز وجل، فهاء ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى واحد من المذكورات؛ على تقدير: ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه.

وللآية نظائر كثيرة منها: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ٦/١١١] ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠/١٠١] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ١٠/٩٦-٩٧].

ثم ذكر الله تعالى من يستحقون الهداية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي يهدي الله الذين صدقوا بالله ورسله، وسكنت قلوبهم إلى توحيد الله ووعده، أنساً به، واعتماداً عليه، ورجاء منه، ألا بتذكر الله، وتأمل آياته، ومعرفة كمال قدرته عن بصيرة، تطمئن قلوب المؤمنين، ويذهب القلق والاضطرب عنهم، بما وقر في تلك القلوب من نور الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٣٩/٢٣] والمؤمن إذا تذكر عقاب الله، خاف،

كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢] وإذا تذكر المؤمن وعده تعالى بالثواب والرحمة، اطمأن قلبه وهدأت نفسه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢] .

ثم أبان الله تعالى جزاء المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي للذين آمنوا وعملوا الصالحات العيش الطيب والنعمة والخير وحسن الثواب، وحسن المرجع.

والطوبى في رأي ابن عباس: الجنة، وروي عنه أنها شجرة في الجنة، ورجح القرطبي أنها شجرة في الجنة، فقال: والصحيح أنها شجرة[1]؛ للحديث المرفوع عن عتبة بن عبد السُّلمي وهو صحيح على ما ذكره السهيلي: «نعم شجرة تدعى طوبى».

وللحديث المرفوع أيضاً عن أبي سعيد الخدري فيما رواه الإمام أحمد: «طوبى: شجرة في الجنة، مسيرة مئة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام، لا يقطعها» ولا حرج على فضل الله ولا على قدرته، ففي الجنة كما ثبت في الحديث الذي أخرجه الجماعة إلا النسائي عن أبي هريرة: «فيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الآتي:

أً - الله تعالى مصدر الرزق، يوسع فيه على من يشاء، ويقتره على من يشاء، على وفق حكمته وعدله.

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ١٧، تفسير ابن كثير: ٢/ ٥١٢

٢ً - الكفار وكل أصحاب النزعات المادية يفرحون في الدنيا، ولا يعرفون غيرها، ويجهلون ما عند الله من أفضال ونعم وخيرات كثيرة.

٣ً - ليست الدنيا في جانب الآخرة إلا متاع من الأمتعة، وشيء قليل سريع الزوال.

٤ً - اقتراح الآيات على الرسل جهل، بعد أن رأوا آية واحدة تغني عن كل آية، هي القرآن، تدل على الصدق، وصحة النبوة والوحي، وكونه كلام الله.

٥ً - لا تعلق للرزق بالإيمان والكفر، فقد يرزق الله الكافر، ويحرم المؤمن، استدراجاً للأول، وابتلاء واختباراً للثاني.

٦ً - الإضلال والهداية من الله، وللإنسان دور فيهما، فالكافر هو الذي عاند وعارض ولم يؤمن، فلم يهده الله، والمؤمن هو الذي آمن وعمل الصالحات، فزاده الله هدى.

٧ً - للمؤمنين الذين يعملون الصالحات الجنة والخير والنعمة والفرح وحسن المرجع، وفي هذا ترغيب في الطاعة، وتحذير من المعصية، ومن سوء العقاب والمصير.

محمد صاحب الرسالة والرسول
وبيان عظمة القرآن وقدرة الله شاملة

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿قُرْءَانًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قراناً).

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾: قرئ:

١- (ولقدِ استهزئ) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (ولقدُ استهزئ) وهي قراءة الباقين.

﴿وَصُدُّوا۟﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر (وصَدّوا).

الإعراب:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾: جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف، أي لكان هذا القرآن. وما بعده جمل فعلية في موضع نصب؛ لأنها صفة قرآن. وجاء ﴿سُيِّرَتْ﴾ و﴿قُطِّعَتْ﴾ بلفظ التأنيث لتأنيث الجبال والأرض، وجاء ﴿كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على التذكير، لوجود الفصل الذي يتنزل منزلة إلحاق التأنيث.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ﴿تَحُلُّ﴾: إما للتأنيث، أي قارعة تحل قريباً من دارهم، وهي جملة فعلية في موضع رفع صفة: قارعة، وتقديره: قارعة حالة، وإما للخطاب، أي أو تحل أنت قريباً من دارهم، وهو معطوف على خبر ﴿وَلَا يَزَالُ﴾ أي: ولا يزال الكافرون تصيبهم بصنيعهم قارعة، أو حالاً أنت قريباً من دارهم.

البلاغة:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾: تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك وهو إرسال الرسل، أي كما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾ مضت وتقدمتها أمم ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾ تقرأ ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حيث قالوا لما أمروا بالسجود له: وما الرحمن؟ أي وهم يجحدون ببليغ الرحمة، فلم يشكروا نعمه ﴿قُلْ﴾ هم يامحمد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ مرجعي ومرجعكم.

﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي نقلت عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ شققت فجعلت

عيوناً وأنهاراً، أو تصدعت من خشية الله عند قراءته ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بأن يحيوا لما آمنوا ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي لله القدرة على كل شيء، لا لغيره، فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره، إن أوتوا ما اقترحوا، وهو إضراب عما تضمنته ﴿لَوْ﴾ من معنى النفي، أي بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك، لعلمه بأن قلوبهم لا تلين له.

﴿يَاْيْـَٔسِ﴾ المراد يعلم، وهو لغة هوازن، وهو رأي الأكثر، وقيل: هو يأس على الحقيقة، أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم، مع ما رأوا من أحوالهم، علماً منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ ﴿أَن﴾: مخففة من الثقيلة، أي إنه لو شاء الله لهدى الناس جميعاً إلى الإيمان من غير آية، ومعناه: نفي هدى بعض الناس، لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ من أهل مكة ﴿بِمَا صَنَعُوا۟﴾ بصنعهم أي كفرهم ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم بصنوف البلاء من القتل والأسر والحرب والجدب، وتفزعهم وتقلقهم ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي القارعة، ويجوز أن يكون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام، فإنه حل بجيشه قريباً من دارهم عام الحديبية، أو إنه حل مكة ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ بالنصر عليهم، أو الموت أو القيامة أو فتح مكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لا متناع الكذب في كلامه، وقد حل بالحديبية حتى أتى فتح مكة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ أي كما استهزئ بك، وهذه تسلية للنبي ﷺ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أمهلت مدة طويلة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعقوبة، أي هو واقع موقعه، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك. وهذه تسلية للنبي ﷺ ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ﴾ رقيب وحافظ عليها ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ بما عملت من خير وشر، وهو الله، كمن ليس كذلك من الأصنام، لا ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ له من هم، أي صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ﴿تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ بل تخبرون الله ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى

﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي بشريك، والاستفهام إنكار، أي لا شريك له، إذ لو كان لعلمه ﴿أَمْ﴾ بل تسمونهم شركاء ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ بظن باطل لا حقيقة له في الواقع ﴿مَكْرُهُمْ﴾ كفرهم ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ طريق الهدى ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أشد وأنكى منه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه ﴿مِن وَاقٍ﴾ مانع أو حافظ.

سبب النزول:

نزول الآية (٣١):

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾: أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس، قال: قالوا للنبي ﷺ: إن كان كما تقول، فأرنا أشياخنا الأُوَل، نكلمهم من الموتى، وافسح لنا هذه الجبال - جبال مكة التي قد ضمتنا، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية. ورواية ابن جرير وأبي الشيخ بن حيان الأنصاري عن ابن عباس أنهم قالوا: سيِّر بالقرآن الجبال، قطِّعْ بالقرآن الأرض، أخرج به موتانا، فنزلت.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي قال: قالوا للنبي ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة، حتى تتسع، فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض، كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى، كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن كنت نبياً كما تزعم، فباعد جَبَلي مكة أَخْشَبَيْها (جبلين فيها) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة، فإنها ضيقة، حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى، حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة، حتى نذهب ونجيء في ليلة، كما زعمت أنك فعلته، فنزلت هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن قص الله علينا ما طلبه المشركون من آيات تثبت نبوة محمد ﷺ، أوضح أن محمداً كغيره من الرسل مع أقوامهم، طلبوا الآيات من أنبيائهم، وأجابهم الله إلى مطلبهم، ولكنهم لم يؤمنوا، فعذبوا بعذاب الاستئصال.

ولو أرادوا آية، فقد أعطيناك هذا الكتاب، وأنت تتلوه، والله قادر على كل شيء من الإتيان بما اقترحوه، ولكنه لا يحقق المقصود. ثم هددهم الله بداهية تحل بهم، ثم أتبع ذلك بتسلية النبي ﷺ على استهزائهم به.

التفسير والبيان:

مثلما أرسلنا رسلاً في الأمم الماضية، أرسلناك يامحمد في هذه الأمة لتبلغهم رسالة الله إليهم، وما أوحيناه إليك، وقد كُذِّب الرسل من قبلك، فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، قال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [النحل: ١٦/ ٦٣] وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٤].

والخلاصة: إننا أرسلناك بكتاب تبلّغه للناس وتقرؤه عليهم، كما أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك، ولما كذّب الرسل، انظر كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ أي والحال أن هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، لا يقرون به، ولا يشكرون نعمه وفضله، وقالوا: إن له شريكاً.

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي قل لهم: إن الرحمن الذي تكفرون به،

أنا مؤمن به معترف، مقرّ له بالربوبية والألوهية، فهو متولي أمري وخالقي، وهو ربي لا إله إلا هو، لا رب غيره ولا معبود سواه.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي توكلت عليه في جميع أموري، وفوضتها إليه، ووثقت به.

﴿وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾ أي إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه، أو إليه توبتي، بمعنى قوله: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٤٠/٥٥].

ثم بيّن الله تعالى عظمة القرآن وشأنه وتفضيله على سائر الكتب المنزلة قبله، فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا﴾ [الرعد: ١٣/٣١] أي لو كان هناك في الكتب الماضية كتاب تسيَّر بتلاوته الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتشقق وتجعل أنهاراً وعيوناً، أو تكلم به الموتى في قبورها بإحيائهم بقراءته، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، بل هو الأولى لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ولأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لا شتماله على الأدلة الكونية الدالة على وجود الصانع، والأحكام والأنظمة التي تصلح البشر وتسعدهم في الدارين. والآية مثل قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٥٩/٢١].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ﴾ بل مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل الله فلا هادي له، ومن يهد الله فماله من مضل، فهو سبحانه صاحب الإرادة والأمر في إنزال الآيات، وهو القادر على كل شيء، فلو كان تحقيق طلب ما اقترحوه مناسباً مشتملاً على الحكمة والمصلحة، لأنجزه تعالى، ولكن كفى بالقرآن آية لأولي الألباب، والإرادة الإلهية لم تتعلق بغير ذلك؛ لعلمه تعالى ألّا فائدة في مجاراتهم، وأن قلوبهم لا تلين، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، فكان الإضلال والهداية مرتبطاً بنظام

السببية، أي إن الله أنزل في القرآن آيات كافية للهداية، فمن أعرض عنها ضل، فكان ترك الآيات سبباً في ضلاله.

﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَسِ﴾ أي ألم يعلم المؤمنون أن الله قادر لو شاء على هداية الناس أجمعين إلى الإيمان بالقرآن.

أو ألم ييأس الذين آمنوا من إيمان جميع الخلق، ويعلموا أو يتبينوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً إلى دينه، فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ، ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن. ثبت في الصحيح الذي رواه البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «مامن نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». والمراد: أن معجزة كل نبي انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضي عجائبه، ولا يخلَق على كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار، قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي لا تزال القوارع والبلايا من القتل والأسر، والسلب تصيب الكافرين في الدنيا بسبب تكذيبهم لك وتماديهم في الكفر، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٧].

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣١] حتى ينجز الله وعده لك فيهم، بنصرك عليهم، وهو فتح مكة كما قال ابن عباس وآخرون، أو حتى ينتهي هذا العالم بالنسبة إلى كفار آخرين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إن الله ينجز وعده الذي وعدك به، من النصر عليهم، ولا ينقض وعده لرسله بالنصر لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤٧].

ثم أنزل الله تسلية لنبيه عن استهزائهم بطلب هذه الآيات، وتخفيفاً عما كان يشق عليه من ذلك، وعن تكذيب بعض قومه، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٍ﴾ أي إن كذَّبك بعض قومك واستهزأ بك المشركون منهم، وطلبوا آيات منك عناداً ومكابرة، فاصبر على أذاهم، فلك في الرسل المتقدمين أسوة، ثم بين تعالى شأنه معهم فقال: ﴿فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أنظرتهم وأجّلتهم مدة من الزمان، ثم أوقعت بهم العذاب، فانظر كيف عقابي لهم حين عاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨/٢٢] وجاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾». والمراد بالآية أني سأنتقم من هؤلاء الكفار، كما انتقمت من أولئك المتقدمين.

ثم ذكر الله تعالى ما يكون توبيخاً لهم على موقفهم وعقلهم، وما يدعو إلى التعجب منهم فقال: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي إن الله مطلع على كل نفس، عالم بما يكسبونه من أعمال الخير أو الشر، ولا يخفى عليه خافية، قادر على كل شيء كما قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: ٦١/١٠] ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩/٦] ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾ [هود: ٦/١١] .

وبما أن الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء، فكيف يجعلون القادر العالم كمن لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، وكيف يتخذونه رباً يطلبون منه النفع ودفع الضر؟! والمراد نفي المماثلة.

ثم أكد تعالى ماسبق بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي واتخذوا شركاء لله، عبدوها معه، من أصنام وأوثان وأنداد.

ثم وبخهم مرة أخرى بقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي صفوهم لنا، وأعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم، وليسوا أهلاً للعبادة لعدم نفعهم وضرهم.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي بل أتخبرونه بشركاء معبودين لا وجود لهم؛ لأنه لو كان لهم وجود في الأرض، لعلمهم؛ لأنه لا تخفى عليه خافية. وهذا نفي لوجودهم. والاستفهام: استفهام توبيخ.

﴿أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء بظن من القول أنهم ينفعون ويضرون، أم بباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة كما قال تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٢٣] .

والخلاصة: إن آية ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ حجاج للمشركين وتوبيخ لهم وتعجيب من عقولهم، ويقصد منه نفي الدليل العقلي والدليل النقلي على استحقاق تلك الشركاء للعبادة.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ أي لا فائدة من هذا النقاش أو الحجاج معهم، فإنهم قوم زُيِّن لهم كفرهم وكيدهم: وهو ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٥] .

﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وصرفوا عن سبيل الحق وسبيل الله والدين القويم، بما زين لهم من صحة ماهم عليه.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي ومن يخذله الله لكفره وعصيانه، فماله من أحد يوفقه إلى الهداية وسلوك طريق النجاة والسعادة، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ

فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٥/٤١] وقوله سبحانه: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٣٧].

ثم ذكر الله تعالى جزاءهم فقال: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لهم عقاب شديد في الدنيا بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر والذلة والحرب، أو البلايا في أجسامهم ونحو ذلك من المصائب.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي والعذاب المدخر في الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين فيما رواه مسلم عن ابن عمر: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» لأن عذاب الدنيا مؤقت، وذاك دائم أبداً في نار، هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً.

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي ومالهم ساتر يقيهم ويحفظهم من العذاب ويحميهم، ولا شفاعة لأحد عند الله إلا بإذنه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على مايأتي:

١ً - إرسال الرسل قبل إرسال محمد ﷺ كان ظاهرة عامة، قد يؤمن بهم بعض أقوامهم، وقد يكذبهم الأكثرون، ويكفرون بالرحمن.

٢ً - كما أرسل الله رسلاً إلى أمم وأعطاهم كتباً تتلى عليهم، كذلك أعطى الله نبيه محمداً ﷺ هذا الكتاب (القرآن) وهو يتلوه عليهم، فلماذا اقترحوا غيره.

٣ً - الله هو الإله بحق الذي لا إله غيره، ولا معبود سواه، وهو واحد بذاته، وإن اختلفت صفاته، عليه يتوكل العبد ويعتمد ويثق، وإليه مرجع

العباد غداً، وعليه يتوكل المؤمن اليوم وفي كل وقت، رضىً بقضائه، وتسليماً لأمره.

٤ً - لو كان هناك كتاب سماوي يقوم بنقل الجبال من أماكنها، وتفجير الأنهار والعيون وشق الأرض، وتكليم الموتى لإحيائها، لكان هذا القرآن، ولو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم.

٥ً - ليعلم البشر أن الله لو يشاء لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات، ويروا المعجزات، وينظروا في دلائل الكون. ولكن ما شاء تعالى هداية جميع الناس.

٦ً - لا يزال الكافرون في كل زمان تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة، أو أسر أو جدب أو زلزال أو بركان، أو غيرها من العذاب والبلاء كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء قريش.

وقد تصيب من حولهم ممن هو قريب منهم، فيتأثرون بالعذاب.

٧ً - دلت آية ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ﴾ على تسلية النبي ﷺ والتبصير له على سفاهة قومه، فإن أقوام سائر الأنبياء استهزؤوا بهم، كما أن قومك يستهزئون بك. ودلت أيضاً على تهديدهم، فإنه تعالى يمهلهم مدة ليؤمن من علم الله أنه يؤمن منهم، ثم لما حق القضاء أخذهم بالعقوبة، وكما صنع بمن قبلهم يصنع بمشركي مكة، وبكل الكفار في كل زمان.

٨ً - لا مماثلة إطلاقاً بين الله تعالى النافع والضارّ بسبب فعل العبد وبين الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، فالله تعالى هو القادر على كل شيء، وهو العالم بكل شيء، وتقدير الآية: أفمن هو قائم على كل نفس بالرقابة والحفظ بما كسبت كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع؟!

٩ً - ليس للأصنام حقيقة تذكر، فلا وجود للشركاء مع الله، وما يعتمد

عليه المشركون إن هو إلا مجرد ظن لا يغني من الحق شيئاً، وباطل من القول لا يفيد شيئاً، وكل ما في الأمر أن الشيطان زين لهم سوء اعتقادهم وصدهم عن سبيل الله ودينه الحق، أو زين لهم ضلالهم وكفرهم.

١٠ً - من يخذله الله ويعلم أنه لا يهتدي، فماله من هادٍ يقدر على هدايته وتوفيقه والأخذ بيده إلى طريق النجاة والسعادة.

١١ً - للمشركين الصادّين عن الحق ودين التوحيد العذاب في الدنيا بالقتل والسبي والأسر والذم والإهانة، وغير ذلك من الأسقام والأمراض والمصائب، والعذاب الأشد في الآخرة، وليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله، ولا دافع يدفعه عنهم.

ففي الآية إخبار بأنه تعالى جمع لهم بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشق، وأنه لا دافع لهم عنه، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

صفة الجنّة وموقف أهل الكتاب من نبـوّة النّبـي ﷺ وشبهات المشركين حولها

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

القراءات:

﴿أُكُلُهَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أُكْلها).

﴿وَيُثْبِتُ﴾: قرئ:

١- (ويُثْبِت) وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، وعاصم.

٢- (ويثبّت) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ مرفوع، وخبره إما محذوف، تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الجنّة، وهو قول سيبويه، وإما قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهو قول الفرّاء.

﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال.

البلاغة:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي وظلّها دائم، حذف منه الخبر بدليل السابق.

﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمّى المقابلة.

﴿أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ فيهما جناس اشتقاق.

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ بينهما طباق.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ فيه قصر إضافي من قصر الموصوف على الصفة، أي ليس لك إلا الأمر بعبادة الله.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ من باب التّهييج والإلهاب والبعث للسّامعين على الثّبات في الدِّين والتّصلُّب فيه، وعدم التأثُّر بالشُّبهة بعد التّمسُّك بالحجة، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدّة الشّكيمة بمكان.

المفردات اللغوية:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي صفتها التي هي مثل في الغرابة. ﴿أُكُلُهَا﴾ ما يؤكل فيها. ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها ولا يفنى. ﴿وَظِلُّهَا﴾ واحد الظِّلال، فيه خبر محذوف، أي دائم لا تنسخه شمس لعدمها فيها. ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي الجنة عاقبة ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الشِّرك ومآلهم ومنتهى أمرهم. ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير، وفي ترتيب النّظمين إطماع للمتّقين وإقناط للكافرين. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب، كعبد الله ابن سَلام وأصحابه من مؤمني اليهود، ومن آمن من النّصارى، وهم ثمانون رجلاً: أربعون بنجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة، أو عامّتهم، فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم.

﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾ جمع حزب: وهو الطّائفة المتحزّبة، أي المجتمعة لشأن من الشؤون كحرب أو مكيدة ونحوهما، وهم الذين تحزّبوا عليك من المشركين واليهود، مثل كعب بن الأشرف اليهودي وأصحابه. ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم أو ما يوافق ما حرّفوه منها، وكذكر الرّحمن وما عدا القصص. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ جواب للمنكرين، أي قل لهم: إنّي أُمرت فيما أنزل إلي بأن أعبد الله وأوحّده، ولا سبيل إلى إنكاره؛ وأما ما تنكرونه مما يخالف شرائعكم فليس ببدع اختلاف الشّرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ لا إلى غيره. ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وإليه مرجعي

للجزاء، لا إلى غيره، وهذا هو القدر المتّفق عليه بين الأنبياء، وأما ما عدا ذلك من التّفاريع فمما يختلف بالأعصار والأُمم، فلا معنى لإنكارهم الاختلاف فيه.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي مثل هذا الإنزال المشتمل على أُصول الديانات المجمع عليها .﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي أنزلنا القرآن يحكم بين الناس في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة .﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، ليسهل لهم حفظه وفهمه .﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي الكفار فيما يدعونك إليه من ملّتهم على سبيل الافتراض، كالصّلاة إلى قبلتهم بعدما حوّلت عنها .﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ينسخ ذلك .﴿وَلِيٍّ﴾ ناصر .﴿وَاقٍ﴾ حافظ أو مانع من عذابه، أي مالك من أحد ينصرك، ويمنع العقاب عنك، وهو حسم لأطماعهم، وتهييج للمؤمنين على الثّبات على دينهم.

﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساءً .﴿وَذُرِّيَّةً﴾ أولاداً، كما هي لك .﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ وما صحّ له ولم يكن في وسعه .﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ تقترح عليه، وحكم يلتمس منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته وإرادته، فإنهم عبيد مربوبون لله تعالى .﴿أَجَلٍ﴾ مدة أو وقت .﴿كِتَابٌ﴾ مكتوب فيه تحديده، أي لكل وقت وأمد تحديد أو حكم معين يكتب على العباد، على ما يقتضيه استصلاحهم.

﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه .﴿وَيُثْبِتُ﴾ يبقي ما يشاء من الأحكام حسبما تقتضي حكمته، وقيل: يمحو سيئات التائب، ويثبت الحسنات مكانها .﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصل الكتب، وهو اللوح المحفوظ، وهو الذي لا يتغيّر منه شيء، وهو ما كتبه في الأزل، فما من كائن إلا وهو مكتوب فيه، أو العلم الإلهي.

سبب النّزول:

نزول الآية (٣٨):

قال الكلبي: عيّرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت: ما نرى لهذا الرّجل مهمّة إلا النّساء والنّكاح، ولو كان نبيّاً كما زعم، لشغله أمر النُّبوة عن النّساء، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شيء، لقد فرغ من الأمر، فأنزل الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾[2].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عذاب الكفار في الدُّنيا والآخرة، أتبعه بذكر ثواب المتّقين وما أعدّه للمؤمنين من جنّات النّعيم، وذلك هو شأن القرآن الكريم، إذا وصف النّار وعذابها، ذكر الجنّة ونعيمها، مثل المذكور في سورة الفرقان: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا (١٦)﴾ [الفرقان: ٢٥/١١-١٦] .

ثم ذكر تعالى فرح مؤمني أهل الكتاب بتوافق القرآن مع المنزل إليهم من ربّهم، وإنكار فئة آخرين لذلك.

---

(١) أسباب النّزول للواحدي ١٥٨

(٢) لباب النّقول في أسباب النّزول بهامش تفسير الجلالين للسيوطي ٣٣٤

ثم أورد الله تعالى شبهات المشركين لإبطال نبوّة النّبي ﷺ، كالطّعن بتعدُّد الزّوجات، وعجزه عن الإتيان بالمعجزات، فردّ الله عليهم بأن محمداً ﷺ كسائر الأنبياء له أزواج وأولاد، وأن أمر المعجزات مفوّض إلى الله تعالى، لا إلى أحد سواه، وأن إنزال العذاب محدد بأجل معيَّن، ولكل أجل كتاب، أي لكل حادث وقت معيّن.

التّفسير والبيان:

فيما نقصّه عليك، أو فيما يتلى عليك صفة الجنّة ونعتها الذي يشبه المثل في الغرابة، تلك الجنّة التي وعدها الله للمتّقين، ذات أنهار تجري في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجّرونها تفجيراً، ويوجِّهونها حيث أرادوا، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥].

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ أي ما يؤكل فيها من الفواكه والمطاعم والمشارب لا ينقطع، ولا يفنى، وكذلك ظلّها دائم لا ينسخ ولا يزول، فليس فيها شمس ولا حرّ ولا برد: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١٣]. وفي الصّحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه: قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت، فقال: «إنِّي رأيت الجنّة، فتناولت منها عنقوداً، ولوأخذته لأكلتم منه ما بقيت الدُّنيا».

وبعد وصف الجنّة بهذه الصّفات الثلاث، قال تعالى: ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي تلك الجنّة هي عاقبة ومصير أهل التّقوى، وعاقبة الكافرين النار، بسبب كفرهم وذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٠].

والمراد أن ثواب المتّقين منافع خالصة عن الشّوائب موصوفة بصفة الدّوام. والآية إطماع للمؤمنين المتّقين، وإقناط للكافرين.

ثم ذكر الله تعالى انقسام أهل الكتاب فئتين من القرآن، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ﴾ أي والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنّصارى قسمان: فالقائمون بمقتضاه يفرحون بما أنزل إليك من القرآن الكريم؛ لما في كتبهم من الشواهد على صدقه، والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢١] ، وهم جماعة من اليهود كعبد الله ابن سَلام وأصحابه، وجماعة من النّصارى وهم ثمانون رجلاً من الحبشة واليمن ونجران.

ومن الأحزاب، أي ومن جماعة أهل الكتاب الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ، مثل كعب بن الأشرف اليهودي، والسيد والعاقب أُسقفَيْ نجران وأتباعهم، من ينكر بعض ما جاءك من الحقّ، وهو ما لم يوافق شرائعهم أو ما حرّفوه منها.

وأمام هذا الانقسام في الرأي بين اليهود والنّصارى بالنّسبة إلى القرآن الكريم ذكر تعالى طريق النّجاة والسّعادة، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ أي قل يا محمد: إنّما بعثت بعبادة الله وحده لاشريك له، كما أُرسل الأنبياء من قبلي، فإلى سبيله وطاعته وعبادته أدعو الناس، وإليه وحده مرجعي ومصيري ومصيركم للجزاء والحساب.

وذلك كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦٤] .

والآية تشير إلى مبدأ التّوحيد ورفض الشّرك، كما تشير إلى مبدأ البعث والحساب والجزاء يوم القيامة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب، كذلك أنزلنا عليك القرآن الكريم محكماً لا زيغ فيه، معرباً بلسان قومك، ليسهل عليهم فهمه وحفظه. وهذا دليل على أن كل رسول أُرسل بلغة قومه، كما قال تعالى﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤] .

وأراد بالحكم: أنه يفصل بين الحقّ والباطل، ويحكم في الأمور، مبيّناً الحلال والحرام، والشّرائع والأنظمة المؤدية إلى سعادتي الدُّنيا والآخرة.

ثم قال تعالى على سبيل الافتراض: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ أي ولئن اتَّبعت آراءهم وجاملتهم، كالتّوجّه إلى قبلتهم في بيت المقدس بعد تحويلها إلى البيت الحرام، فليس لك ناصر ينصرك من الله، ولا حافظ ولا مانع يمنع عنك العقاب، وينقذك من العذاب. وهذا تعريض بهم على طريقة: (إياك أعني واسمعي يا جارة) وهو وعيد شديد لأهل العلم أن يتّبعوا سبل أهل الضَّلالة، بعدما عرفوا الدِّين الحقّ، وهو أيضاً حسم وقطع لأطماع الكفار، وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم. والخطاب للنَّبي ﷺ، والمراد: الأمة.

ثم ردّ الله تعالى على طعن المشركين على النَّبي ﷺ بتعدُّد الزّوجات، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ أي وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشراً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً، يأكلون الطَّعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزّوجات، ولهم ذريَّة وأولاد، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١٨/١١٠] ، وفي الصَّحيحين عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأُفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوّج النِّساء، فمن رغب عن سنَّتي فليس منِّي»، وروى الإمام أحمد والتِّرمذي عن أبي أيوب قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التّعطُّر، والنّكاح، والسّواك، والحناء».

أما تعدُّد زوجات النبي بعد سنّ الأربع والخمسين - وهي سنّ تضعف فيه عادة الرغبة إلى النِّساء - فكان من أجل نشر الدَّعوة الإسلامية، وما تقتضيه المصلحة في التّأليف بين القبائل العربية، وضرب المثل في الأخلاق والعدل بين الزّوجات والرّأفة ببعض النّساء تعويضاً عن زوجها الذي فقدته في الجهاد أو غيره.

ثم ردّ الله على طعنهم بعجزه عن تلبية ما اقترحوه من آيات فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾.

أي وما صحّ لرسول ولم يكن في وسعه أن يأتي قومه بمعجزة أو خارق للعادة، إلا إذا أُذن له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله عزّ وجلّ، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وقد جاءكم القرآن الكريم معجزة خالدة على ممر الزّمان، فيه تحدٍّ وإفحام يثبت كونه من عند الله تعالى.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ لكل حادث وقت معيَّن وزمن محدد، فالآيات تأتي في وقتها لحكمة وفي زمن يعلمه الله، وكل شيء عِنْده بمقدار: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٩] ، فقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدّة كتاب مكتوب، مثل قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦/٦٧] . وقال الزّمخشري: لكل وقت حكم يكتب على العباد، أي يفرض عليهم ما يقتضيه صلاحهم، والشَّرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات. فشرائع الأنبياء السَّابقين كموسى وعيسى عليهما السّلام، ثم شريعة محمد ﷺ جاءت فيما يناسب عصورها، وأعمار النّاس وآجالهم وأرزاقهم وحدوث أعمالهم لها أوقات محددة لا تتقدّم ولا تتأخَّر كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٤] .

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي ينسخ الله ما شاء وما يستصوب نسخه من الشَّرائع، ويثبت بدله ما أراد إثباته وما رأى المصلحة في إثباته، وهو

القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، أو يتركه غير منسوخ.

أو يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أصل كل كتاب، وهو اللوح المحفوظ؛ لأن كل كائن مكتوب فيه، أو عنده الذي لا يتغيّر منه شيء، أو علم الله وجميع ما يقع في صحف الملائكة لا يكون إلا موافقاً لما يثبت فيه، فهو الأُمّ لذلك.

قال ابن عمر: سمعت النَّبي ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السَّعادة والشَّقاوة والموت». وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء: الْخَلْق والْخُلُق والأجل والرّزق والسَّعادة والشَّقاوة.

قال ابن كثير: ومعنى الآية أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء[١]، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد والنّسائي وابن ماجه عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرّجل ليحرم الرِّزق بالذَّنب يصيبه، ولا يردّ القضاء إلا الدُّعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» وفي رواية الحاكم «الدعاء يرد القضاء، وإن البر يزيد في الرزق، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وثبت في الصَّحيح أن صلة الرّحم تزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إنّ الدُّعاء والقضاء ليعتلجان بين السَّماء والأرض».

والخلاصة: إن الآية عامة في جميع الأشياء، والمحو والإثبات وارد فيها، وأصل الكتاب لا يتغيَّر، واستثناء السَّعادة والشَّقاء والْخَلْق والْخُلُق والرّزق؛ لأنها أُمور لا تتغيَّر، وهي مما لا يدرك بالرّأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ عن النَّبي ﷺ، فإن صحّ فالقول به يجب[٢].

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥١٩

(٢) تفسير القرطبي: ٩/ ٣٢٩

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً - الجنّة مخلوقة أعدّها الله للمتّقين، وقال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٣] .

٢ً - ثمر الجنّة لا ينقطع، وظلّها لا يزول، وهذا ردّ على الجهميّة في زعمهم أن نعيم الجنّة يزول ويفنى.

٣ً - النّار أيضاً مخلوقة أعدّها الله للكافرين المكذّبين، قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤] .

٤ً - بعض اليهود والنّصارى كابن سَلام وسَلْمان الفارسي، والذين جاؤوا من الحبشة يفرح بالقرآن الكريم، لتصديقه كتبهم. ويفرح بذكر الرّحمن لكثرة ذكره في التّوراة.

قال أكثر العلماء: كان ذكر الرّحمن في القرآن قليلاً في أول ما نزل، فلما أسلم عبد الله بن سَلام وأصحابه، ساءهم قلّة ذكر الرّحمن في القرآن، مع كثرة ذكره في التّوراة؛ فسألوا النّبي ﷺ عن ذلك؛ فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ فقالت قريش: ما بال محمد يدعو إلى إله واحد، فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرّحمن! والله ما نعرف الرّحمن إلا رحمن اليمامة، يعنون مُسَيْلمة الكذّاب؛ فنزلت: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرّحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٥ً - ومن الأحزاب يعني مشركي مكّة، ومن لم يؤمن من اليهود والنّصارى والمجوس، أو هم العرب المتحزّبون على النّبي ﷺ، من ينكر بعض ما في القرآن

الكريم؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السماوات والأرض.

٦ - دعوة النَّبي ﷺ الناس مقصورة على الدَّعوة إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وإلى الإيمان بالبعث والحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي إلى عبادته أدعو النّاس، وأرجع في أُموري كلها.

٧ - كما أنزل الله تعالى الكتب على الرُّسل بلغاتهم، كذلك أنزل القرآن الكريم إلى النَّبي ﷺ عربيّاً، أي بلسان العرب. والمراد بالحكم: ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربي: القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحقّ والباطل ويحكم.

٨ - من اتَّبع أهواء المشركين في عبادة ما دون الله تعالى، وفي الاتِّجاه إلى غير الكعبة، بعد أن قام الدَّليل العلمي القاطع على صدق رسالة القرآن الكريم والنَّبي ﷺ، ليس له ناصر ينصره، ولا واقٍ يمنع من عذابه.

٩ - الأنبياء قاطبة بشر، يقضون ما أحلّ الله من شهوات الدُّنيا، ولهم زوجات وأولاد، وإنما التّخصيص بالوحي.

١٠ - آية ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ تدلّ على التّرغيب في النّكاح والحضّ عليه، وتنهى عن التَّبتُّل، وهو ترك النّكاح، وهذه سنّة المرسلين، كما نصَّت عليه هذه الآية، والسُّنّة واردة بمعناها، قال ﷺ فيما رواه البيهقي وهو ضعيف: «تزوّجوا فإنِّي مكاثر بكم الأُمم» وقال فيما رواه الطبراني عن أنس، وهو ضعيف: «من تزوّج فقد استكمل نصف الإيمان، فليتَّقِ الله في النّصف الباقي». ومعنى ذلك أنّ النّكاح يُعِفُّ عن الزّنى، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله ﷺ عليهما الجنّة، فقال فيما رواه الموطأ وغيره: «من وقاه الله شرَّ اثنتين، وَلَج الجنّة: ما بين لَحْييه، وما بين رجليه»، وتقدم حديث الصَّحيحين عن أنس: «إنِّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنِّي أصوم وأُفطر، وأُصلِّي وأرقد، وأتزوّج النّساء، فمن رغب عن سنّتي فليس منِّي».

١١ً - ليس للرّسول بإرادته أن يأتي بمعجزة خارقة للعادة، وإنّما ذلك بإذن الله ومشيئته.

١٢ً - لكل أجل كتاب، أي لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله تعالى. يمحو الله من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به، ويثبت ما يشاء، أي يؤخِّره إلى وقته. وعنده أصل الكتاب الذي لا يتغيَّر منه شيء، فنزول العذاب على الكفار، ونصر المؤمنين لهما وقت معيَّن مخصوص.

والمحو يشمل الأقدار، والدُّعاء يفيد في ردّ القدر، وقد يحرم الإنسان الرّزق بسبب ذنب يرتكبه، وقد يزداد عمره بصلة الرّحم وبرّ الأقارب. وقد تقدّم في الصَّحيحين عن أبي هريرة حديث: «من سرّه أن يُبْسط له في رزقه، ويُنْسأ له في أثره، فليصل رحمه».

وأُصول الأشياء لا تتغيَّر: وهي الْخَلْق والْخُلُق، والأجل والرّزق، والسَّعادة والشَّقاوة. والذي في علم الله ثابت لا يتبدَّل، مثل قيام السَّاعة، وأجل بقاء النّاس في القبور وكل ما كتب من الآجال وغيرها.

سئل ابن عباس عن أُمّ الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق، وما خَلْقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبديل في علم الله تعالى.

وقال عكرمة: يمحو ما يشاء بالتّوبة جميع الذُّنوب، ويثبت الذُّنوب حسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٠] .

والخلاصة: عقيدتنا هي أنه لا تبديل لقضاء الله تعالى، وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء. والقضاء منه ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثّابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحو. ويكون المحوُ إما بالدُّعاء أو بصلة الرّحم وبرّ الأقارب، أو بالذّنب المقترف. ويشمل المحو نسخ

الشَّرائع، فقد تنسخ شريعة بأخرى، كالنّسخ بالقرآن لما عداه، لمصلحة وحكمة تقتضيها، ونسخ التّوجّه إلى بيت المقدس وتحويل القبلة إلى الكعبة، ونحو ذلك.

والكل بقضاء الله وقدره، والأمور مرهونة بأوقاتها.

مهمة الرّسول تبليغ الشَّريعة والله شاهد له ومحاسب وحاكم بين العباد ومحبط مكر الكفار

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

القراءات:

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾: قرئ:

١- (وسيعلم الكافر) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (وسيعلم الكفّار) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿وَمَنْ﴾: إما اسم موصول، و﴿عِندَهُۥ﴾: صلته، وإما نكرة موصوفة، و﴿عِندَهُۥ﴾ الصفة. ومحله: إما الجرّ عطفاً على

لفظ المجرور في قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾، وإما الرَّفع عطفاً على موضعه؛ لأن موضعه الرَّفع؛ لأن تقديره: كفى الله. وذلك مثل: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣/٣٥] إما بالجرّ حملاً على اللفظ، أو بالرَّفع حملاً على الموضع. ﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مرفوع بالظَّرف ﴿عِندَهُۥ﴾ لأن الظَّرف إذا وقع صلة أو صفة فإنه يرفع كما يرفع الفعل. ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ محل ذلك النّصب على الحال، أي يحكم نافذاً حكمه.

البلاغة:

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ قصر إضافي من قصر الموصوف على الصفة، أي ليس لك إلا صفة التَّبليغ.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِن مَّا﴾ فيه إدغام نون. «إن» الشَّرطية في «ما» المزيدة. ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب في حياتك، وهو فعل الشَّرط، وجوابه محذوف، أي فذاك. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ ما عليك إلا البلاغ. ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ إذا صاروا إلينا، فنجازيهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ أي أهل مكة. ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي أرض الحياة التي يعيشون فيها. ﴿أَطْرَافِهَا﴾ جوانبها، والنقص منها بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ في خلقه بما يشاء. ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا رادّ ولا مبطل له، والمعقِّب: الذي يتعقَّب الشيء فيبطله بالنّقد، ويقال لصاحب الحقّ: معقّب؛ لأنه يتابع غريمه المدين بالطَّلب، والمعنى: أنه حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار، وذلك كائن لا يمكن تغييره. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ يحاسبهم عما قريب في الآخرة بعدما عذَّبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم بأنبيائهم، كما مكروا بك. والمكر: إرادة الشيء في خفية. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي لا يؤبه بتدبير دون تدبيره، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعدّ جزاءها، وهذا هو المكر «التّدبير» كله؛ لأنه يأتيهم به من حيث لا يشعرون. ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّرُ﴾ المراد به كل كافر. ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدّار الآخرة، ألهم، أم للنّبي ﷺ وأصحابه.

﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدقي. ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي المطّلع على حقيقة الكتاب الإلهي من مؤمني اليهود والنّصارى. ومن هاهنا: لابتداء الغاية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى اقتراح المشركين إنزال آيات واستعجال العذاب، ذكر هنا احتمال وقوع ما تُوعِّدوا به، وبيان أن وظيفة الرّسول ﷺ التّبليغ، وأن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت، بفتح المسلمين جوانب الأرض، وأن الله يحكم في خلقه ما يريد.

ثم أبان أنّ مكر هؤلاء المشركين ومن تقدَّمهم لا يضرّ المسلمين شيئاً، فالنّصر سيكون لهم، والهزيمة والعذاب لغيرهم.

ثم ردّ الله على اليهود الذين أنكروا رسالة النّبي ﷺ بأنه شاهد له بالصّدق، وحسبه شهادة الله ومن آمن من أهل الكتاب.

التفسير والبيان:

إن أريناك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد أعداءك المشركين وغيرهم من الخزي والنّكال في الدُّنيا، أو نتوفينّك قبل أن نريك ذلك، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربِّك، وإنما أرسلناك لتبلِّغهم رسالة الله، وقد فعلت ما أمرت به،

وليس عليك التّوصل إلى صلاحهم، فإنما علينا حسابهم وجزاؤهم على الخير والشّرّ، كقوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢١-٢٦] .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي أنسيَ هؤلاء المشركون في مكة أو شكّوا أنا نأتي الأرض، فنفتحها لك أرضاً بعد أرض، وتنتصر عليهم، وتمتد رقعة الإسلام، وتتقلّص رقعة الكفر، ويدخل النّاس في دين الله أفواجاً، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٤٤] .

وتدلّ الآية في نطاق العلم الحديث على كون الأرض مفلطحة بيضاوية، ليست كرة تامّة التّدوير، بل هي ناقصة الأطراف.

وأما في الماضي فيراد بالآية كما أوضحت ظهور الإسلام على الشّرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٧] . وقال ابن عباس: المراد موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصُّلحاء والأخيار. ولكن اللائق الرّأي الأول، كما قال الواحدي.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ أي والله يقضي القضاء المبرم، ولا يرد حكمه النّافذ، فلا رادّ لقضائه، ولا يستطيع أحد أن يطعن فيه أو يبطله أو ينقضه، ومن حكم الله تعالى أن الأرض يرثها عباده الصّالحون بالعدل والإصلاح والعمران.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي والله محاسب عباده قريباً في الآخرة، وعقابه آتٍ لا محالة، فلا تستعجل عقابهم، فإن الله معذّبهم في الآخرة بعد أن عذّبهم في الدُّنيا بالقتل والأسر والخزي والذّل والنّكال.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هذا تسلية للنّبي ﷺ على مكائد قومه، وتصبير له على أذاهم، فإن النّصر له في النّهاية حتماً، أي لقد مكر الكفار السابقون برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، وعذّبوهم، كما فعل النّمروذ بإبراهيم، وفرعون بموسى، واليهود بعيسى، وكما فعلت عاد وثمود وإخوان لوط، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتّقين، أي دبّر لهم ما أوقعهم في الهلاك بسبب ظلمهم وفسادهم.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي لا يؤبه بتدبير دون تدبيره، ولا يضرّ مكر الماكرين إلا بإذنه تعالى، ولا يؤثر إلا بمشيئته وتقديره، فلا خوف إلا منه.

وهذا كقوله تعالى في مكر المشركين بالنّبي ﷺ قبيل الهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠] ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٢٧/ ٥٠-٥٢] .

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي إنه تعالى عالم بجميع السّرائر والضّمائر، وسيجزي كل عامل بعمله، فينصر أولياءه، ويعاقب الماكرين.

وهذا وعيد شديد وتهديد لكل كافر ماكر، وتسلية للنّبي ﷺ وأمان له من مكرهم.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ أي وسيتحقق الكفار يوم القيامة لمن العاقبة المحمودة من الفريقين: المؤمنين والكافرين، حيث تكون العاقبة لأتباع الرُّسل في الدُّنيا والآخرة، ففي الدُّنيا النّصر، وفي الآخرة الجنّة.

ثم ردّ الله على منكري نبوّة النّبي ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ﴾ أي يقول الكافرون الجاحدون نبوّتك: لست رسولاً مرسلاً من عند الله، تدعو النّاس إلى عبادة الله وحده لاشريك له، وتنقذهم من الظُّلمات إلى النّور، ومن عبادة الأصنام والأوثان، إلى عبادة الله الواحد الأحد، ومن الظُّلم والفساد إلى العدل والصّلاح.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ أُسقُفٌ من اليمن، فقال له عليه الصّلاة والسّلام: «هل تجدون في الإنجيل رسولاً؟»، قال: لا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ الآية.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ قل يا محمد لهم: حسبي وكفايتي أن الله شاهد لي بصدق رسالتي، ومؤيّد دعوتي، بما أنزله علي من القرآن المعجز، ومن الآيات البيّنات الدّالّة على صدقي، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٨].

وكفاني أيضاً بعد شهادة الله شهادة علماء أهل الكتاب الذين آمنوا من اليهود والنّصارى، بما وجدوه لديهم في التّوراة والإنجيل من بشارة برسالتي، وعلامات لا تنطبق على من سواي، وهم عبد الله بن سَلام - اليهودي الأصل - وأصحابه.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحقّ ويعرفونه، منهم عبد الله بن سَلام، والجارود، وتميم الدّاري، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم.

وذلك كما دلّت آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ٢/١٤٦] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إنّ مهمّة الرّسول مقصورة على إبلاغ الرِّسالة للأمّة، وليس عليه هداهم وصلاحهم.

٢ً - الله تعالى هو الذي يحقِّق الأحداث والوقائع، فينجز الوعد والوعيد، وينزل العقاب الشَّديد متى شاء، وقد يكون ذلك في حال حياة النَّبي ﷺ أو بعد وفاته.

٣ً - الله تعالى هو المتكفِّل القائم بحساب العباد على ما قدَّموا من خير أو شرّ.

٤ً - إن امتداد رقعة الإسلام واتِّساع الفتوحات الإسلامية، وانحسار الكفر وتضييق رقعة بلاد الكافرين بيد الله تعالى وحده.

٥ً - إن الأرض ليست تامّة الكروية، وإنما هي مفلطحة بيضاوية ناقصة الأطراف والتّكوير.

٦ً - لا رادّ لقضاء الله تعالى ولا معقِّب لحكمه، ولا يستطيع أحد تعقيب حكمه بنقص أو نقض أو إبطال أو تغيير.

٧ً - الله تعالى سريع الحساب من العباد، أي الانتقام من الكافرين، سريع الثَّواب للمؤمن.

٨ً - تخيب أو تفشل كل مخططات الأعداء الكافرين ومكائدهم أمام تدبير الله تعالى، ولا يضرّ مكرهم إلا بإذنه تعالى، وفي هذا تسلية للنّبي ﷺ، وشدّ من عزيمته، وبيان أن النّصر في النّهاية له، وأنّ الدّائرة ستدور على الكفار.

٩ً - يعلم الله ما تعمل به كل نفس من خير وشرّ، فيجازي عليه.

١٠ً - سيتحقق الكفار لمن العاقبة المحمودة، أي عاقبة دار الدُّنيا ثواباً وعقاباً، أو لمن الثَّواب والعقاب في الدّار الآخرة، وهذا تهديد ووعيد.

١١ً - إن إنكار مشركي العرب واليهود رسالة النَّبي ﷺ وقولهم له: لست بنبي ولا رسول، وإنما أنت متقوِّل، لما لم يأتهم بما اقترحوا من الآيات، إن إنكارهم لا يغض من الحقيقة شيئاً، ولا يغيِّر من الواقع، وكفى بالله شهيداً على صدقه، وحسبه شهادة مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سَلام، وسلمان الفارسي، وتميم الدّاري، والنّجاشي وأصحابه.

لكن قال ابن جبير: السّورة مكيّة، وابن سَلام أسلم بالمدينة بعد هذه السُّورة، فلا يجوز أن تحمل الآية على ابن سلام، فمن عنده علم الكتاب جبريل، وهو قول ابن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضَّحّاك: هو الله تعالى.

وأما من قال: إنهم جميع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يعلم الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهد للنّبي ﷺ بصدقه. والكتاب على هذا هو القرآن الكريم[1].

ويجوز أن يكون المراد به: الذي حصل عنده علم التّوراة والإنجيل، يعني: أن كل من كان عالماً بهذين الكتابين، علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد ﷺ، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب، كان شاهداً على أنّ محمداً ﷺ رسول حقّ من عند الله تعالى[2].

---

(١) تفسير القرطبي: ٩/ ٣٣٦ - ٣٣٧

(٢) تفسير الرّازي: ١٩/ ٧٠

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ابراهيم

مكية وهي اثنتان وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة إبراهيم لاشتمالها على جزء من قصّة إبراهيم أبي الأنبياء عليه السّلام، يتعلّق بحياته في مكّة، وصلته بالعرب وإسماعيل، وأنّ إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت الحرام، وأنهما كانا يدعوان الله تعالى بالهداية، وأن إبراهيم دعا أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام، وأن يرزق زوجته وابنه إسماعيل اللذين أسكنهما في مكّة من الثّمرات، وأن يجعله هو وذريّته مقيمي الصّلاة، وذلك في الآيات [٣٥ - ٤١].

مناسبتها لما قبلها:

هذه السُّورة امتداد لما ذكر في سورة الرّعد، وتوضيح لما أجمل فيها، فكل منهما تحدّث عن القرآن، ففي سورة الرّعد ذكر تعالى أنه أنزل القرآن حكماً عربياً [الآية ٣٧]، وهنا ذكر حكمة ذلك والغاية من تنزيل القرآن، وهي إخراج الناس من الظُّلمات إلى النّور بإذن الله [الآية: ١].

وكل منهما ذكر فيه تفويض إنزال الآيات الكونية إلى الله وبإذنه، فقال تعالى في سورة الرّعد: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:

٣٨/١٣] ، وهنا ذكر ذلك على لسان الرسل: ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١١/١٤] .

وفي كليهما ذكرت الآيات الكونية من رفع السّماء بغير عمد ومدّ الأرض وتسخير الشّمس والقمر، وجعل الرّواسي في الأرض، وخلق الثّمرات المختلفة الطّعوم والألوان.

وتعرّضت السّورتان لإثبات البعث، وضرب الأمثال للحقّ والباطل، والكلام على مكر الكفار وكيدهم وعاقبته، والأمر بالتّوكّل على الله تعالى.

ما اشتملت عليه هذه السّورة:

اشتملت سورة إبراهيم على ما يأتي:

١ً - إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله وبالرّسل وبالبعث والجزاء، وإقرار التّوحيد، والتّعريف بالإله الحقّ خالق السماوات والأرض، وبيان الهدف من إنزال القرآن الكريم، وهو إخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور، واتّحاد مهمّة الرّسل ودعوتهم في أصول الاعتقاد والفضائل وعبادة الله والإنقاذ من الضّلال.

٢ً - الوعد والوعيد: ذمّ الكافرين ووعيدهم على كفرهم وتهديدهم بالعذاب الشّديد، ووعد المؤمنين على أعمالهم الطّيّبة بالجنان [الآية ٢، والآية ٢٣، والآيات ٢٨ - ٣١].

٣ً - الحديث عن إرسال الرّسل بلغات أقوامهم، لتسهيل البيان والتّفاهم [الآية ٤].

٤ً - تسلية الرّسول ﷺ ببيان ما حدث للرّسل السّابقين مع أقوامهم: قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، والتّذكير بعقابهم، كما في الآيات [٩ - ١٢]، والآيات [١٣ - ١٨].

٥ً - ابتدأ من بين قصص بعض الأنبياء المتقدّمين عليهم السّلام بمحاورة موسى لقومه ودعوته إيَّاهم لعبادة الله تعالى [الآيات ٥ - ٨].

٦ً - دعوات إبراهيم عليه السّلام بعد بناء البيت الحرام لأهل مكة بالأمان والرّزق وتعلُّق القلوب بالبيت الحرام، وتجنيبه وذريَّته عبادة الأصنام، وشكره ربّه على ما وهبه من الأولاد بعد الكبر، وتوفيقه وذريَّته لإقامة الصّلاة، وطلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين [الآيات ٣٥ - ٤١].

٧ً - بيان مشهد من مشاهد الحوار بين أهل النّار في عالم الآخرة [الآيات ١٩ - ٢٣].

٨ً - ضرب الأمثال لكلمة الحقّ والإيمان وكلمة الباطل والضَّلال بالشَّجرة الطَّيِّبة والشَّجرة الخبيثة [الآيات ٢٤ - ٢٧].

٩ً - التّذكير بأهوال القيامة وتهديد الظالمين وبيان ألوان عذابهم [الآيات: ٤٢ - ٥٢].

١٠ً - بيان الحكمة من تأخير العذاب ليوم القيامة، وهو ما ختمت به السُّورة [الآيتان: ٥١ - ٥٢].

الغاية من إنزال القرآن وذم الكافرين وكون الرسول بلسان قومه

﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ۝٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾

القراءات:

﴿صِرَٰطِ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

﴿ٱلۡحَمِيدِ ، ٱللَّهِ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (الحميدِ، اللهُ).

الإعراب:

﴿الٓر﴾ إما خبر مبتدأ محذوف تقديره: هذه الر، وإما في موضع نصب على تقدير: الزم أو اقرأ الر، وتكون جملة: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ مفسِّرة.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا كتاب. و﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾: جملة فعلية في موضع رفع صفة ﴿كِتَٰبٌ﴾. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بدل من قوله ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ بالجر بدل من قوله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ ويقرأ بالرفع، فيكون مبتدأ، وما بعده خبره، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو الله الذي له ما في السماوات. ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ نعت للكافرين.

﴿عِوَجًا﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال. وقيل: إنه مفعول (يبغون) واللام محذوفة من المفعول الأول، تقديره: ويبغون لها عوجاً.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ مرفوع على الاستئناف والاقتطاع من الأول.

البلاغة:

﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعارة، استعار الظلمات للكفر والضلال، والنور للهدى والإيمان. ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ جناس اشتقاق.

﴿فَيُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهْدِى﴾ بينهما طباق.

(الحَمِيد) و(شَدِيد) و(بَعِيْد) فيها سجع.

المفردات اللغوية:

﴿الٓر﴾ الابتداء بالحروف الهجائية في بعض السور لبيان طبيعة تكوين القرآن وأنه من جنس الحروف التي ينطق بها العرب، فهي للتحدي وبيان إعجاز القرآن، وأنه من كلام الله، بدليل العجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله، بالرغم من تكوينه من حروف اللغة العربية. ﴿كِتَٰبٌ﴾ أي هو كتاب. ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنه. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ من أنواع الضلال والكفر. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إلى الهدى والإيمان. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمره وتيسيره وتسهيله وتوفيقه. ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى طريق الغالب، المحمود المثنى عليه من نفسه ومن عباده. وإضافة الصراط إلى الله تعالى إما لأنه مقصده أو المظهر له. والتخصيص بالوصفين المذكورين للتنبيه على أنه لا يذل سالكه، ولا يخيب سابله.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً . ﴿وَوَيْلٌ﴾ هلاك وعذاب . ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون . ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان، واعتناق دين الإسلام . ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ يطلبون السبيل معوجة، أو يطلبون لها زيغاً واعوجاجاً وانحرافاً عن الحق ليقدحوا فيه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي الكافرون ضلوا عن الحق وانحرفوا عنه. ﴿بِلِسَانِ﴾ بلغة . ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾ ليفهمهم ما أتى به، ويوضح لهم ما أمروا به، فيفقهوه عنه بيسر وسرعة، ثم ينقلوه لغيرهم، فإنهم أولى الناس بالدعوة، وأحق بالإنذار.

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ فيخذله عن الإيمان . ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ بالتوفيق له . ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في ملكه، فلا يغلب على مشيئته . ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في صنعه، فلا يهدي ولا يضل إلا لحكمة.

التفسير والبيان:

هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، لتخرج الناس به مما هم فيه من ظلمات الكفر والضلال والغي والجهل، إلى نور الإيمان والهدى والرشد، بما اشتمل عليه من أصول الحكم السديد، والدعوة إلى الحياة الكريمة والمدنية والحضارة السامقة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧] وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: ٥٧/٩].

وقد دلت الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلاً من عند الله تعالى.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتوفيقه وتيسيره، فهو الهادي بإرسال نور الهداية إلى قلوبهم. لكن أسند الفعل ﴿لِتُخْرِجَ﴾ إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمبلِّغ.

﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى الطريق المستقيم، طريق الله العزيز الذي لا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله، وشرعه، وأمره ونهيه، والصادق في خبره.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى﴾ أي الإله الذي له كل ما في السماوات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً وتصريفاً وتدبيراً. وتكرار هذه الصفة كثيراً في القرآن للتنبيه على عظمة الخالق، ولإعمال النظر في المخلوقات، والإفادة منها.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي هلاك وعذاب شديد يوم القيامة لمن كفر برسالتك وجحد بوحدانية الله. وهذا وعيد شديد لهم.

ثم وصفهم الله تعالى بصفات ثلاث بقوله:

١ - ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ أي الذين يختارون الحياة الدنيا على الآخرة، ويقدمونها ويؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا، ونسوا الآخرة وتركوها.

٢ - ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ويمنعون من اتباع الرسل، ويعوقون عن الإيمان بالله، ويصرفون عن الإسلام كل من أراده.

٣ - ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاء مائلة، منحرفة عن الحق، لتوافق أهواءهم وأغراضهم، وهي في واقعها مستقيمة في نفسها لا تقبل الانحراف عن الحق. والسبيل: تذكر وتؤنث.

قال في الكشاف: الأصل في الكلام أن يقال: ويبغون لها عوجاً، فحذف الجار وأوصل الفعل.

ومن أمثلة ذلك في العصر الحديث الانصراف عن تطبيق الحدود الشرعية والقصاص، بحجة قسوتها، وعدم ملاءمتها لروح العصر، ومنافاتها للإنسانية: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾

[الكهف: ١٨/٥] . وقد أدى هذا الاتجاه إلى كثرة الجرائم، حتى إنه في كل ثانية يقع في بريطانية مثلاً خمسة عشر ألف جريمة، وأما في أمريكة فأكثر من ذلك.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ﴾ أولئك الكفار الموصوفون بتلك الصفات السابقة في ضلال بعيد كل البعد عن الحق، وفي جهل سحيق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح ولا فلاح.

وبعد أن بين تعالى مقاصد القرآن وأثره في الهداية، بيّن أنه سبيل ميسر للاهتداء به، لكونه بلغة قوم الرسول، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾ هذا من لطفه تعالى أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم، ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤١/٤٤] وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغة قومه».

﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ أي إنه بعد البيان وإقامة الحجة على الناس يكون الناس فريقين: فريق يضله الله عن وجه الهدى، لإيغاله في الكفر واجتراحه السيئات والآثام، وعناده، وفريق يهديه الله إلى الحق، ويشرح صدره للإسلام، فيتبع سبيل الرشاد. وهذا كلام مستأنف وليس بمعطوف على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين، لا للإضلال.

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ والله سبحانه القوي الذي لا يغلب، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والحكيم في صنعه وأفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك، فلا يفعل شيئاً إلا على وفق الحكمة والعلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ً - قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ دليل على أن القرآن منزل من عند الله تعالى، وأن مهمته إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والهدى والعلم، وذلك بتوفيق الله إياهم ولطفه بهم. وفيه إنعام على الرسول بتفويضه هذا المنصب العظيم، وعلى الناس لإرساله لهم من خلصهم من ظلمات الكفر، وأرشدهم إلى نور الإيمان.

٢ً - قال المعتزلة: في هذه الآية دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات ثلاث:

أحدها - إخراج الكفر من الكافر بالكتاب.

وثانيها - أنه أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول ﷺ.

وثالثها - الإخراج من الكفر بالكتاب بتلاوته عليهم ليتدبروه وينظروا فيه، فيتوصلوا إلى كونه تعالى عالماً قادراً حكيماً، وإلى أن القرآن معجزة صدق الرسول ﷺ، فيقبلوا منه كل ما أداه إليهم من الشرائع، باختيارهم.

قال أهل السنة: إن المؤثر الأول في صدور الفعل من العبد وترجيح جانب الوجود على جانب العدم هو الله تعالى.

وفعل العبد مخلوق لله تعالى؛ لقوله سبحانه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بمشيئته وتخليقه.

٣ً - طرق الكفر والجهل والبدعة كثيرة، وطريق الخير واحد؛ لأنه تعالى قال: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهو جمع، وعبر عن الإيمان والهداية بالنور، وهو لفظ مفرد.

٤ً - قدم ذكر العزيز على الحميد؛ لأن الواجب أولاً في العلم بالله: العلم بكونه تعالى قادراً، ثم العلم بكونه عالماً، ثم العلم بكونه غنياً عن الحاجات، والعزيز: هو القادر، والحميد: هو العالم الغني.

٥ً - لله ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وعبيداً واختراعاً وخلقاً، وهذا يدل على أنه تعالى غير مختص بجهة العلو ألبتة؛ لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء، وبما أن كل ما في السماوات فهو ملكه، فهو منزه عن الحصول في جهة فوقية. وأما قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٦] فالمراد به سلطانه وقدرته.

وتدل الآية أيضاً على الحصر، أي كل ما في السماوات والأرض له، لا لغيره، وهو يدل على أنه لا مالك إلا الله، ولا حاكم إلا الله عز وجل.

ولهذا عطف عليه وعيد الكفار بقوله: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ شَدِيدٍ﴾ لأنهم تركوا عبادة الله تعالى الذي هو مالك السماوات والأرض وما فيهما، إلى عبادة ما لا يملك ضراً ولا نفعاً، ويُخْلَق ولا يَخْلُق، ولا إدراك لها ولا فعل.

٦ً - استحقاق الكافرين الهلاك والعذاب في نار جهنم لصفات ثلاث: هي تفضيلهم أو إيثارهم الدنيا على الآخرة، ومنعهم الناس من الوصول إلى سبيل الله ودينه، وهو المنهج القويم والطريق المستقيم، وطلبهم لسبيل الله زيغاً وميلاً واعوجاجاً، لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم، فهم في ضلال بعيد عن الحق.

٧ً - من فضل الله وتيسيره الاهتداء بهدايته إرسال كل رسول إلى قومه بلغتهم، ليبين لهم أمر دينهم، وليفهموا منه شرائع الله، ويفقهوها عنه بيسر وسرعة، ثم ينقلوها لغيرهم.

وإرسال جميع الرسل بلغة قومهم يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل، وهو يدل على أن اللغات حاصلة بالاصطلاح، وليست توقيفية، كما ذكر الرازي.

٨ - قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ رد على القَدَرية في نفوذ المشيئة، وإخبار بأن الضلال والهداية من الله تعالى، فهو تعالى يضل من يشاء إضلاله، ويهدي من يشاء هدايته حسبما يعلم من استعداد العبد واختياره، وليس على ذلك الرسول غير التبليغ والتبيين، ولم يكلف أن يهدي، بل الهدى بيد الله على ما سبق قضاؤه.

وقال الزمخشري على طريقة الاعتزال: والمراد بالإضلال: التخلية ومنع الألطاف، وبالهداية: التوفيق واللطف، وكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان(١).

ويؤكد الرأي الأول لأهل السنة ما روي: أن أبا بكر وعمر أقبلا في جماعة من الناس، وقد ارتفعت أصواتهما، فقال ﷺ: «ما هذا؟» فقال بعضهم: يا رسول الله، يقول أبو بكر: الحسنات من الله، والسيئات من أنفسنا، ويقول عمر: كلاهما من الله، وتبع بعضهم أبا بكر، وبعضهم عمر، فتعرف الرسول ﷺ ما قاله أبو بكر، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه، ثم أقبل على عمر، فتعرف ما قاله، وعُرف البِشْر في وجهه. ثم قال: «أقضي بينكما كما قضى به إسرافيل بين جبريل وميكائيل، قال جبريل مثل مقالتك يا عمر، وقال ميكائيل مثل مقالتك يا أبا بكر، فقضاء إسرافيل: أن القدر كله خيره وشره من الله تعالى، وهذا قضائي بينكما»(٢).

ثم ذكر الرازي تأويلات ثلاثة للآية، بعد أن قال: لا يمكن حمل الآية على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد(٣):

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٧١

(٢) تفسير الرازي: ١٩/ ٨٠

(٣) المرجع السابق ٨١

الأول - أن المراد بالإضلال: هو الحكم بكونه كافراً ضالاً، كما يقال: فلان يكفّر فلاناً ويضلله، أي يحكم بكونه كافراً ضالاً.

والثاني - أن يكون الإضلال: عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار، والهداية: عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة.

والثالث - أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله، ولم يتعرض له، صار كأنه أضله، والمهتدي لما أعانه بالألطاف، صار كأنه هو الذي هداه.

والخلاصة: إنه لا إجبار على الإيمان والكفر، ولا يخلق العبد كافراً أو لا يخلق الكفر في العبد، وإنما المراد بالإضلال والهداية بيان طريقي الشر والخير، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٠] .

مهمة الرسول موسى عليه السلام ونصائحه لقومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾

الإعراب:

﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ ﴿أَنْ﴾: إما أن يكون لها موضع من الإعراب، وهو النصب، وتقديره: بأن أخرج قومك، فحذف حرف الجر، فاتصل الفعل به، وإما ألا يكون لها موضع من الإعراب، وتكون مفسّرة بمعنى أي، مثل ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟﴾ [ص: ٣٨/ ٦] .

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أتى بالواو هنا، ليدل على أن الثاني غير الأول، وحذفت في غير هذا الموضع في سورة البقرة، ليدل على البدل، وأن الثاني بعضُ الأول، أي أنه في سورة البقرة تفسير لما سبق، وهنا غير تفسير، وإنما التذبيح نوع آخر من العذاب غير الأول.

﴿إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ الجملة واقعة في جواب القسم لتقدمه على الشرط.

البلاغة:

﴿شَكَرْتُمْ﴾ ﴿كَفَرْتُمْ﴾.بينهما طباق.

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صيغة مبالغة فيهما.

﴿لَشَدِيدٌ﴾ ﴿حَمِيدٌ﴾ فيهما سجع.

المفردات اللغوية:

﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الجمهور على أنها الآيات التسع التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام، يعني

اليد والعصا وسائر معجزاته. وقيل: هي الجراد والقمل والضفادع ونحوها .﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ أي بأن أخرج، أو بمعنى أي كأن في الإرسال معنى القول .﴿قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ الكفر والجهالات. ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أُمروا به ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ عظهم. ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ وقائعه التي وقعت على الأمم السابقة، وأيام العرب: حروبها. وقيل: بنعمائه وبلائه .﴿صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر على البلاء والطاعة. ﴿شَكُورٍ﴾ أي كثير الشكر للنعم.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ واذكر حين قال موسى .﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم العذاب السيِّئ الشديد .﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ المولودين .﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ يبقونهم أحياء للذل والعار؛ لقول بعض الكهنة: إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون .﴿وَفِي ذَٰلِكُم﴾ الإنجاء أو العذاب .﴿بَلَآءٌ﴾ إنعام أو ابتلاء واختبار.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكر حين أعلم وآذن .﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي بالتوحيد والطاعة .﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ جحدتم النعمة بالكفر والمعصية، لأعذبنكم، دل عليه ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿لَغَنِيٌّ﴾ عن خلقه .﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد في ذاته، محمود في صنعه بهم، تحمده الملائكة وتنطق بنعمه المخلوقات، فما ضررتم بالكفران إلا أنفسكم، حيث حرمتموها مزيد الإنعام، وعرضتموها للعذاب الشديد.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنه أرسل محمداً ﷺ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن إرساله نعمة له ولقومه، أتبع ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام، ثم بقصص أنبياء آخرين مع أقوامهم، تنبيهاً على أن المقصود من بعثة الرسل واحد: وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتصبيراً للرسول على أذى قومه، وإرشاداً له إلى كيفية معاملتهم ومكالمتهم.

التفسير والبيان:

كما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بالآيات التسع،

وأمرناه قائلين له: أخرج قومك من الظلمات إلى النور، أي ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

وعظهم بأيام الله، أي بوقائعه التي مرت على أمم الأنبياء السابقين، وكيف نجا المؤمنون، وهلك الكافرون!!

أو ذكّرهم بنعم الله عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره، وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم الغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، وغير ذلك من النعم.

روى الإمام أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ قال: بنعم الله تعالى.

وأيام الله في عهد موسى: إما محنة وبلاء: وهي الأيام التي كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده، وإما نعمة كإنجائهم من عدوهم، وفلق البحر لهم، وإنزال المن والسلوى عليهم.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ﴾ أي إن في ذلك التذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته، وإن فيما صنعنا ببني إسرائيل حين أنقذناهم من بطش فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة، لكل كثير الصبر على الطاعة والبلاء أو الضراء، شكور في حال النعمة والرفاه والسرور. قال قتادة: نعم العبد عبد إذا ابتُلي صبر، وإذا أعطي شكر. وجاء في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضرَّاء صبَر، فكان خيراً له، وإن أصابته سرّاء، شكر، فكان خيراً له».

فعلى المسلم أن يكون صابراً شكوراً، يصبر عند البلاء والمحنة، ويشكر عند الرخاء والنعمة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ واذكر حين قال موسى لقومه: يا قوم، تذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون، وما كانوا يذيقونكم من العذاب والإذلال، ويكلفونكم من الأعمال ما لا تطيقون، وكانوا يذبحون أبناءكم المولودين الصغار، خوفاً من ظهور ولد يكون سبباً في تدمير ملك فرعون، كما فسرت الرؤيا لفرعون مصر، وكانوا يتركون الإناث أحياء ذليلات مستضعفات، وذلك من أعظم البلاء، فأنقذكم الله من عذابهم، وهذه نعمة عظيمة.

﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفيما ذكرت لكم اختبار عظيم من ربكم، سواء في حال النقمة، أو في حال النعمة، ليعرف الإنسان أيشكر أم يكفر؟! كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣٥] وقال سبحانه: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٨] .

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ واذكروا يا بني إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده لكم، وهو قوله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها.

أخرج البخاري عن أنس حديثاً فيه: «ومن أُلهم الشكر لم يحرم الزيادة».

ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦٧] .

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ أي ولئن جحدتم النعم وسترتموها، فلم تؤدوا حقها من الشكر .﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي إن عقابي أليم وقعه، شديد تأثيره وألمه، في الدنيا بزوال تلك النعم، وسلبها عنهم، وفي الآخرة بالعقاب على كفرانهم والمراد بالكفر هنا: الكفران. جاء في الحديث الثابت الذي رواه الحاكم عن ثوبان: «إن العبد ليُحرم الرزقَ بالذنب يصيبه».

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ أي وأعلن موسى مبدأ أساسياً في الدين، حينما لاحظ منهم أمارات الكفر والعناد، وهو أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الإنسان، أما الله فهو غني عن عباده، فقال: إن تجحدوا نعمة الله عليكم أنتم وجميع من في الأرض من الثقلين: الإنس والجن، فإن الله غني عن شكر عباده. وهو المحمود، وإن كفر به من كفر، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ [الزمر: ٣٩/٧] وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦٤/٦] وقال سبحانه: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٣٩/٧].

جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ - فيما يرويه عن ربه عز وجل - أنه قال: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجِنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في مُلْكي شيئاً، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، إلا كما ينقص المخْيَط إذا دخل البحر».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ً - إن المقصود من بعثة الأنبياء واحد، وهو أن يسعوا في إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلالات إلى أنوار الإيمان والهدايات.

٢ً - على الناس الاعتبار والاتعاظ بأيام الله تعالى، أي الوقائع العظيمة التي وقعت فيها، وتذكر نعم الله عليهم.

وذلك جمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فالترغيب والوعد:

أن يذكرهم النبي موسى أو غيره ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل، في سائر ما سلف من الأيام. والترهيب والوعيد: أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل، ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا، ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب.

٣ً - إن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صباراً شكوراً. ففي حال المحنة والبلية يصبر، وفي حال المنحة والعطية يشكر، وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب ألا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين: الصبر أو الشكر. روي عن النبي ﷺ أنه قال فيما رواه البيهقي عن أنس، وهو ضعيف: «الإيمان نصفان: فنصف في الصبر، ونصف في الشكر» ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٤ً - لقد تعرض بنو إسرائيل في زمن فرعون للحالتين: المحنة والنعمة، ولكنهم لم يقدروا النعمة ولم يشكروها، ولم يصبروا عند المحنة، وذلك ملحوظ من نصح موسى عليه السلام لهم حينما رأى أمارات الكفر والعناد فيهم.

٥ً - إن شكر النعمة سبب لزيادتها، وكفرانها سبب لزوالها، فالآية نص واضح في أن الشكر سبب المزيد، وأن جحود النعمة سبب النقص والزوال، فمن اشتغل بشكر نعم الله، زاده الله من نعمه، ومن كفر بنعمة الله فهو جاهل، والجهل بالله سبب لأعظم أنواع العقاب والعذاب، فالمراد بقوله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ الكفران، لا الكفر.

والشكر: هو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم، مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة.

والخلاصة: الاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة، والاشتغال بشكر النعمة يستوجب زيادتها.

٦ً - إن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران. أما المعبود المشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران.

والمراد من قول موسى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ﴾ بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات، لمنافع عائدة إلى العابد، لا لمنافع عائدة إلى المعبود، بدليل قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغني، وهو المحمود في جميع الأحوال.

بعض أخبار الرسل السابقين مع أممهم

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو: (رُسْلهم).

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (ويوخركم).

﴿سُبُلَنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (سُبْلنا).

الإعراب:

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ ﴿وَمَا﴾: استفهامية في موضع رفع مبتدأ، وخبره ﴿لَنَآ﴾ وأن في ﴿أَلَّا﴾ في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر، تقديره: وما لنا في ألا نتوكل على الله، وهو في موضع نصب على الحال، والتقدير: أيّ شيء ثبت لنا غير متوكلين.

البلاغة:

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ﴾ استفهام تقرير، وهذا من كلام موسى عليه السلام، أو كلام مستأنف أو مبتدأ من الله. ﴿نَبَؤُاْ﴾ خبر. ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح. ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ جملة اعتراضية، والمعنى: أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله، لذا قال ابن مسعود رضي الله عنه: كذب النسابون. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الحجج الواضحة على صدقهم. ﴿فَرَدُّوٓاْ﴾ أي الأمم. ﴿أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي فعضوها غيظاً مما جاءت به الرسل عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٩]. ﴿بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي في زعمكم. ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة، أي الاضطراب والقلق. ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ استفهام إنكاري، أي لا شك في توحيده، للدلائل الظاهرة عليه. ﴿فَاطِرِ﴾

خالق ومبدع على أكمل نظام. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى طاعته. ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿مِّن﴾: صلة زائدة، أو تبعيضية، والمراد على الأول: أن الإيمان أو الإسلام يغفر به ما قبله، وعلى الثاني يكون القصد هو إخراج حقوق العباد.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ بلا عذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أجل الموت. ﴿قَالُوٓاْ إِنْ﴾ أي ما. ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الأصنام. ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي برهان أو حجة ظاهرة قوية على صدقكم. ﴿إِن نَّحْنُ﴾ أي ما نحن. ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بالنبوة. ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ﴾ وما ينبغي. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمره؛ لأنا عبيد مربوبون لله تعالى، فليس في قدرتنا الإتيان بالآيات. وفيه دليل على أن النبوة عطائية، وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يثقوا به، في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم، عمموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل، وقصدوا به أنفسهم أولاً.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ أي لا مانع لنا من ذلك، ولا عذر لنا في ألا نتوكل عليه. ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ التي نعرفه بها ونعلم أن الأمور كلها بيده. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا﴾ على أذاكم، وهو جواب قسم محذوف، أكدوا به توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم الناشئ عن إيمانهم.

المناسبة:

هذا تذكير بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل، بعد تذكير موسى لقومه بما أنعم الله عليهم من نعم، ودفع عنهم من نقم، وبما وعد به تعالى الشاكرين بالزيادة، والجاحدين بالعذاب، وبأن الكفران لا يضرّ إلا أهله.

ويحتمل أن يكون المذكور هنا من تتمة كلام موسى وخطاباً منه لقومه، ليخوفهم بمثل هلاك من تقدم، وهذا رأي ابن جرير، ويحتمل أن يكون ذلك خطاباً جديداً مستأنفاً من الله لقوم موسى وغيرهم، لتذكيرهم أمر القرون

الأولى. والمقصود إنما هو العبرة بأحوال المتقدمين، وهذا حاصل على التقديرين.

إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ، وهذا قول الرازي، وقال ابن كثير: والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه، وقصصه عليهم، لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة[(١)].

التفسير والبيان:

ألم يأتكم خبر أقوام من قبلكم: وهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصي عددهم إلا الله عز وجل. وضمير الخطاب في ﴿يَأۡتِكُمۡ﴾ لأمة النبي ﷺ، وضمائر: جاءتهم رسلهم، فردوا أيديهم في أفواههم للكفار.

جاءت هؤلاء رسلهم بالمعجزات والحجج والدلائل الواضحة الباهرة القاطعة، التي تثبت صدقهم ودعواهم الرسالة عن الله، لإخراجهم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والهداية.

﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي إلا أن هؤلاء القوم عضوا أناملهم من شدة الغيظ، لما جاءهم به الرسل، أي اغتاظوا منهم وعادوهم ونفروا منهم، كما فعل العرب مع النبي ﷺ بدليل قوله سبحانه: ﴿عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ٣/١١٩] . والمراد أنهم كذبوا واستهزؤوا ولم يؤمنوا. فهو - كما قال أبو عبيدة والأخفش - مَثَل.

---

(١) تفسير الرازي: ١٩/٨٨، تفسير ابن كثير: ٢/٥٢٤

﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا﴾ أي وقالوا للرسل: إنا كفرنا بما أرسلتم به من الآيات، أي كفرنا بدلالتها على صدق رسالتكم.

وإنا لفي شك موقع في الريبة والقلق والاضطراب مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده، وترك ما سواه.

وتساءل الرازي بقوله: فإن قيل: كيف تنازلوا إلى الشك في صحة قولهم بعد تصريحهم بالكفر برسالتهم؟ ثم أجاب بأنهم أرادوا أنهم كافرون في الواقع وبنحو جازم متيقن بدعوتهم، فإن لم نكن جازمين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم.

﴿قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: أفي وجود الله شك؟! فإن الفطرة تقرّ بوجوده، ومجبولة على الإقرار به. وهل في تفرده بالألوهية ووجوب عبادته شك وهوالخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لاشريك له؟! فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تقربهم من الله زلفى.

وأما دليل الفطرة فثابت كما أخبر النبي ﷺ بقوله فيما رواه ابن عدي والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه، أو يمجّسانه».

وأما دليل الخلق فهو أمر حسي مشاهد، وهو ما نبّه إليه بقوله مباشرة: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كيف تشكون في الله، وهو خالق السماوات والأرض ومبدعهما على غير مثال سبق، وعلى هذا النظام المحكم البديع؟!

وهو تعالى عدا كونه خالقاً وهو دليل وجوده، هو كامل الرحمة لقوله: ﴿يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان الكامل به، من أجل أن يغفر لكم في الدار الآخرة ذنوبكم - على أن مِنْ صلة زائدة - أو

بعض ذنوبكم - على أن من تبعيضية - فهو يغفر الذنوب المتعلقة به، لا الذنوب التي لها صلة بحقوق العباد. وهذا هو الغرض الأول من الدعوة إلى الإيمان.

ويلاحظ أنه تعالى في كل موضع ذكر فيه مغفرة ذنوب الكفار، جاء بلفظ (من) وفي كل موضع ذكر فيه مغفرة ذنوب المؤمنين، جاء بغير لفظ (من). مثال الحالة الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ، يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٧١/٣-٤] وقوله سبحانه: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٣١] لأنه يدعوهم إلى الإيمان الذي هو أصل الدين.

ومثال الحالة الثانية: قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ٣١] وقوله عزت أسماؤه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف: ٦١/١١-١٢] لأنه بعد توافر الإيمان لا تكون المغفرة إلا إلى المعاصي.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا هو الغرض الثاني من الدعوة إلى الإيمان، وهو الإمهال والتأخير إلى وقت محدد معين في علم الله تعالى، وهو منتهى العمر، إن حدث الإيمان، وإلا عاجلكم الهلاك والعذاب بسبب الكفر.

فالإيمان يتحقق به رحمتان أو نعمتان وهما مغفرة الذنوب والإمهال إلى نهاية الأعمار.

ثم ذكر الله تعالى ردّ تلك الأمم على رسلها من نواح ثلاث هي:

أ - ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم، ولما نرَ منكم معجزة، فما أنتم إلا مثلنا في البشرية، ولا فضل لكم علينا، فلِمَ تخصصون بالنبوة دوننا، ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلاً، لبعث من جنس أفضل.

٢ - ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي وأنتم تريدون أن نترك ما وجدنا عليه آباءنا، بهذه الدعوى التي لا دليل على صحتها.

٣ - ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي فأتونا بأمر خارق نقترحه عليكم، أو بحجة ظاهرة تدلّ على صحة ادعائكم النبوة، فنحن لا نؤمن إلا بالحسّيات، أما خلق السماوات والأرض وما فيهما من عجائب، فلا نعقلهما، ولا يصلح دليلاً على صحة ما تقولون.

ثم ذكر الله ما ردّ به الأنبياء على شبهاتهم الثلاث، وهو المصادقة والتسليم للشبهتين الأولى والثانية، وإسناد الأمر إلى الله في الثالثة، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ أي قالت الرسل للأمم: ما نحن إلا بشر مثلكم كما ذكرتم، نأكل ونشرب وننام ونمشي في الأسواق ونبحث عن الرزق، ولكن الله سبحانه يتفضل على من يشاء من عباده بالرسالة والنبوة: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٤] وقد منَّ الله علينا بالرسالة.

وأما تقليدكم الآباء لمجرد كونهم آباء فهذا شيء لا يقبله العقل.

وأما طلبكم الحجة والبرهان على صدق رسالتنا، والإتيان بسلطان على وَفْق ما سألتم، بالرغم من المعجزات التي ظهرت لنا، فأمره إلى الله، ولا نتمكن من الإتيان بسلطان إلا بمشيئة الله وإرادته، ولا نقدر عليه.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي على جميع المؤمنين أن يتكلوا على الله في جميع أمورهم، لدفع شرّ عدوهم، والصبر على معاداتهم.

ثم أكدوا اعتمادهم على الله فقالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ أي وكيف لا نتوكل على الله الذي هدانا إلى سبيل المعرفة، وأرشدنا إلى طريق النجاة؟! وما يمنعنا من التوكل عليه، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ أي ولنصبرن على إيذائكم لنا بالكلام السَّيِّئ والأفعال السخيفة.

ثم مدحوا التوكل فقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليستمر وليثبت المتوكلون من المؤمنين على توكلهم على الله، وليثقوا به، وليتحملوا كل أذى في سبيله، ولا يبالوا بشيء صعب مهما كان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - على الناس الاعتبار بأحوال المتقدمين الذين كذبوا رسلهم، وسخروا منهم، واستهزؤوا بهم، فكان عاقبتهم الدمار والهلاك.

٢ً - كانت مواقف الكفار من أنبيائهم على مراتب ثلاث:

المرتبة الأولى - أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام، وحاولوا إسكات الأنبياء عن تلك الدعوى.

والمرتبة الثانية - أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة.

والمرتبة الثالثة - أنهم أخيراً وعلى الأقل صاروا شاكين مرتابين في صحة النبوة.

وكل ذلك دليل منهم على عدم الاعتراف بالنبوة.

٣ً - أقام الأنبياء الأدلة على وجود الله ووحدانيته بأن الفطرة السليمة شاهدة على ذلك، وبأن خلق السماوات والأرض على غير مثال سبق الدال على معنى الحدوث والإبداع والتسخير للمخلوقات دليل قاطع على وجود الخالق وألوهيته وتفرده بوجوب العبادة له، فلا يبقى شك لدى عاقل بوحدانية الله تعالى، بعد أن تبين وأقرت الأمم بأنه الخالق لجميع الموجودات، وبأنه يستحيل وجود شيء كدار مثلاً يتميز بالإبداع والترتيب والنظام والنقش الجميل من دون موجد عالم حكيم، وإذا كان الله هو الخالق، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له.

٤ً - الله تعالى فاطر السماوات والأرض متصف أيضاً بكمال الرحمة والكرم والجود، بدليل أن الغرض من دعوة الناس إلى الإيمان به وبتوحيده أمران: الأول - مغفرة الذنوب والخطايا والآثام، وفيها تطهير للنفس يبوئها لدخول الجنان التي لا يستحقها إلا الأطهار. والثاني - تأخير الناس إلى نهاية أعمارهم وهو الموت، فلا يعذبهم في الدنيا.

٥ً - كانت أجوبة الكفار واهية مشتملة على شبهات ثلاث:

الأولى - التساوي في الإنسانية يمنع وجود التفاضل بينهم، بأن يكون الواحد منهم رسولاً من عند الله، مطلعاً على الغيب، مخالطاً لزمرة الملائكة، والباقون غافلون عن كل هذه الأحوال، وهذا معنى قولهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

والثانية - التمسك بطريق التقليد: وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم متفقين على عبادة الأوثان، ويبعد أنهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين، وهذا معنى قولهم: ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾.

والثالثة - المعجز لا يدل على الصدق أصلاً، وإن سلِّم أنه يدل على الصدق، فإن ما جاء به الرسل أمور معتادة، وليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر، وهذا معنى قولهم: ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾.

٦ً - كان ردّ الأنبياء على تلك الشبهات الثلاث ما يأتي:

أما الشبهة الأولى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فجوابها أن التماثل في البشرية والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة؛ لأنه منصب يمنُّ الله به على من يشاء من عباده.

وأما الشبهة الثانية: وهي توافق السلف على ذلك الدين، مما يدل على كونه حقاً، فجوابها: أن التمييز بين الحق والباطل، والصدق والكذب عطية

من الله تعالى وفضل منه، ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية، وأن يحرم الجمع العظيم منها.

وأما الشبهة الثالثة: وهي أنا لا نرضى بهذه المعجزات التي أتيتم بها، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية، فالجواب عنها أن الأشياء التي طلبتموها أمور زائدة، والحكم فيها لله تعالى، فإن أظهرها فله الفضل، وإن لم يخلقها فله العدل، ولا يطلب منه شيء بعد توافر قدر الكفاية.

٧ - لا سبيل أمام الأنبياء إلا الصبر على الأذى والاعتصام بالله وتفويض الأمر إليه والتوكل التام عليه، فإن الصبر مفتاح الفرج، ومطلع الخيرات، والتوكل على الله والاعتماد على فضله محقق للنصر والفتوح.

وفائدة تكرار الأمر بالتوكل: أمر أنفسهم به أولاً ثم أمر أتباعهم به، فبعد أن أمروا أنفسهم بالتوكل على الله في قوله: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أمروا أتباعهم بذلك وقالوا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وهو يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولاً.

تهديد الكفار لرسلهم بالطرد أو الردة والوحي بأن العاقبة للأنبياء

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرِّيحُ﴾:

وقرأ نافع (الرِّياح).

الإعراب:

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ الهاء: إما عائدة على الكافر، ويكون معنى ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أي قُدّامه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ١٨/٧٩] أي قدّامهم؛ وإما عائدة على العذاب، ويكون المعنى: إن وراء هذا العذاب عذاباً غليظاً.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ﴾ في إعرابه أربعة أوجه:

الأول - أنه مبتدأ، وخبره محذوف، تقديره: فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا.

الثاني - أنه مبتدأ على تقدير حذف مضاف، والخبر: ﴿كَرَمَادٍ﴾، تقديره: مثل أعمال الذين كفروا مثل رماد.

الثالث - أنه مبتدأ أول، و﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: مبتدأ ثانٍ، و﴿كَرَمَادٍ﴾: خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول.

الرابع - أنه مبتدأ، و﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾: بدل منه، و﴿كَرَمَادٍ﴾: خبره.

﴿فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ﴿عَاصِفٍ﴾ في تقديره وجهان: إما في يوم ذي عُصُوف، كقولهم: رجل نابل ورامح أي ذو نَبْل ورمح، وإما في يوم عاصف ريحه، كقولك: مررت برجل حسنٍ وجهه، ثم يحذف الوجه إذا علم المعنى.

البلاغة:

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ استعارة لما يغشاه من كروب وشدة، فقد يوصف المغموم بأنه في حالة موت.

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ بينهما طباق.

(وَعِيد) و(عَنِيد) و(صَدِيد) و(البَعِيد) فيها سجع ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ تشبيه تمثيلي، وجه الشبه فيه: منتزع من متعدد.

المفردات اللغوية:

﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين: إما إخراجهم للرسل أو عودتهم إلى ملتهم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ لتصيرن، وتستعمل عاد بمعنى صار، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه، فغلبوا الجماعة على الواحد. ﴿فِي مِلَّتِنَا﴾ الملة: الشريعة والدين ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي أوحى إلى الرسل ﴿لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين، على إضمار القول، أو على إجراء الإيحاء مجراه؛ لأنه نوع منه.

﴿ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ٧/ ١٣٧]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ موقفي وقيامي للحساب أو مقامه بين يدي ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء أي استنصر الرسل بالله على قومهم، وقيل: واستفتح الكفار على الرسل ظناً منهم بأنهم على الحق. ﴿وَخَابَ﴾ خسر وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ كل متعاظم متكبر عن طاعة الله، معاند للحق المخالف له، مجانب له.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أي أمامه، ومن بين يديه، وبعد ذلك ينتظره ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلها ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ فيها ﴿مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ هو ما يسيل من جلود أو جوف أهل النار، مختلطاً بالقيح والدم ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ سقيته جرعة بعد جرعة، بالشدة والقهر ﴿يُسِيغُهُۥ﴾ يستطيبه أو يزدرده، لقبحه وكراهته ﴿وَيَأْتِيهِ

﴿ٱلْمَوْتُ﴾ أي تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جانب، وتغشاه أنواع الكروب والعذاب ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ بعد ذلك العذاب ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ قوي متصل، وشديد غير منقطع.

﴿مَّثَلُ﴾ صفة ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الصالحات كصلة الرحم والصدقة على الفقراء في عدم الانتفاع بها ﴿كَرَمَادٍ﴾ أثر النار بعد احتراقها ﴿عَاصِفٍ﴾ شديد الريح، أي أعمالهم كالرماد الذي عصفت به الرياح العاتية، فجعلته هباء منثوراً، لا يقدر عليه ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ أي الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ عملوا في الدنيا ﴿عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ لا يجدون له ثواباً، لعدم توافر شرطه: وهو الإيمان. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ﴾ الهلاك ﴿ٱلْبَعِيدُ﴾ الغاية في البعد عن الحق.

المناسبة:

بعد أن أرشد الله تعالى الأنبياء إلى التوكل عليه والاعتماد على حفظه وصيانته، في دفع شرور أعدائهم، ذكر موقف الكفار العصبي المبالغ في السفاهة، وهو التهديد بأحد أمرين: الإخراج والطرد من البلاد، أو العودة إلى الملة الوثنية القديمة المتوارثة، وهذا هو الشأن في كل زمان، يعتمد فيه أهل الباطل والفسق والظلم على القوة والبطش لقوتهم، ويستغلون ضعف أهل الحق لقلتهم. ولكن قدرة الله فوق كل شيء، والله غالب على أمره، فجعل العاقبة والنصر في النهاية للمتقين وأن الهزيمة للكافرين، وأعلمهم بالعذاب في الآخرة، وتلك سنة الله في خلقه مع كل الأمم والرسل.

ثم ضرب الله مثلاً لأعمال الكافرين، بالرماد الذي عصفت به الرياح الهوج، فجعلته هباء منثوراً، لعدم توافر شرطه وهو الإيمان.

التفسير والبيان:

هذا تطور طبيعي للحوار والصراع بين الرسل والأمم الكافرة، فبعد أن أفلست الأمم في مناقشتها، وهزمت حجتها أمام حجة الرسل وبيانهم، لم يجدوا سبيلاً إلا تأزم الوضع والدخول في صدام وعمل عدواني، فتوعدوا رسلهم بأحد أمرين:

إما الطرد والإخراج والنفي من البلاد، وإما العودة إلى ملتهم وشرعهم الموروث عن الآباء والأجداد، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٧/ ٨٨] وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٦] وقال سبحانه في إلجاء النبي إلى الهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٠] .

والسبب في هذا التهديد والوعيد: اغترار الكفار بقوتهم وكثرتهم، وقلة عدد المؤمنين وضعف عددهم. وأما قولهم ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ فلا يعني أن الرسل كانوا وثنيين، وإنما كانوا في ظاهر الأمر معهم، من غير إظهار مخالفة، فظن القوم أنهم كانوا على دينهم.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي فأوحى الله إلى رسله قائلاً لهم: لنهلكن الظالمين المشركين، ولنسكننكم أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم، عقوبة لهم على تهديدهم وإنذارهم بالطرد والإبعاد.

وهذا تهديد ووعد من الله للمشركين في مقابل تهديدهم الرسل، وشتان بين التهديدين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧١-١٧٣] وقال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة:

٢١/٥٨] وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥] وآيات كثيرة أخرى في المعنى.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي ذلك الموحى به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم، أي ذلك الأمر حق، لمن خاف موقفي للحساب أو مقامه بين يدي، وخاف وعيدي بالعذاب والعقاب، فخشي لقائي، واتقاني بطاعتي، وتجنب سخطي وغضبي. وهذا هو سبب النصر والوحي المذكور.

﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟﴾ أي واستنصرت الرسل بالله على أممهم أو أقوامهم، أي على أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ٨/١٩] والمراد أنهم سألوا من الله الفتح على أعدائهم، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٧/٨٩] والضمير يعود للرسل أو الأنبياء عليهم السلام.

وقيل: يعود الضمير على الكفار، أي واستفتح الكفار على الرسل، ظناً منهم بأنهم على الحق، والرسل على الباطل. وقيل: للفريقين، فإنهم كلهم سألوه أن ينصر المحق، ويهلك المبطل، كما قال تعالى في شأن استفتاح الأمم على أنفسها: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٨/٣٢] .

ولكن كانت النتيجة أن النصر للمتقين والخيبة والخسارة والهلاك للمشركين، فقال سبحانه: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي وخسر وهلك كل متكبر متعاظم عن طاعة الله، معاند للحق، منحرف عنه، كقوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق: ٥٠/٢٤-٢٦] .

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ أي أمام هذا الجبار العنيد جهنم له بالمرصاد تنتظره،

كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٧٩] أي أمامهم.

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ أي ليس له في النار شراب إلا ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم من ماء مختلط بالقيح والدم، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٧-٥٨] وهذا أي الحميم حار في غاية الحرارة، وهذا أي الغساق بارد في غاية البرد والنتن.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي يتحساه جُرْعة بعد جُرْعة، ولا يكاد يزدرده، لكراهته، وسوء طعمه ولونه وريحه، مما يدل على التألم حين ابتلاعه، كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥] وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ١٨/ ٢٩] .

﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ﴾ أي وتأتيه أسباب الموت من الشدائد وألوان العذاب من كل جهة، ولكنه لا يموت، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٦] .

﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي مؤلم صعب شديد، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر، وهو دائم غير منقطع، كما قال تعالى عن شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦٤-٦٨] .

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾

ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان: ٤٤/٤٣-٥٠] .. وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٤١-٤٤] ، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٥-٥٨] .

وبالرغم مما سيلاقيه الكفار من العذاب في نار جهنم، فإنهم يأسفون على أعمالهم الصالحة في الدنيا التي ضاعت هدراً، ولم تنفعهم في الآخرة، فضرب الله المثل لأعمالهم فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾.

أي مثل أعمالهم الصالحة كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين، يوم القيامة، إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، كمثل الرماد الذي اشتدت به الريح العاصفة، في يوم عاصف أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد، في هذا اليوم، ذلك هو الضلال البعيد، أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة، فهو مغرق في البعد عن الحق، حتى فقدوا ثوابه، لفقدهم شرط قبوله وهو الإيمان.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٣] وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١١٧] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلتنا الآيات على الفوائد التالية:

١ً - لا قيمة لتهديد الكفار رسلهم بالطرد من البلاد أو الإكراه على العودة إلى الملة القديمة، أمام تهديد الله، فالأول يتبدد، والثاني يتحقق، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده.

٢ً - استحقاق النصر على الأعداء منوط بالخوف من جلال الله وهيبته وموقفه للحساب في الآخرة، وخشيته من عذابه وبأسه ونقمته.

٣ً - سواء استفتح الرسل أو الكفار أو الفريقان، أي طلبوا الفتح والنصرة على أعدائهم، فإن النصر في النهاية للمتقين والرسل؛ لأنهم المؤمنون حق الإيمان بالله ربهم الذي يطلبون منه النصر، وتكون الخيبة والخسارة والهلاك للكافرين المتجبرين المتعاظمين عن طاعة الله، المعاندين للحق، والمجانبين له؛ لأنهم كفروا بالله، وتنكروا لطاعة الله، وانحازوا عن منهج الحق وسبيله.

٤ً - وكما يكون الهلاك للكافرين في الدنيا، يكون أمامهم العذاب في نار جهنم تنتظرهم، فمن بعد الهلاك في الدنيا، يأتي أيضاً العذاب في الآخرة.

٥ً - ماء أهل جهنم هو صديد أهل النار الذي يسيل من أجسامهم من القيح والدم، والكافر يتحساه جرعة بعد جرعة، لا مرة واحدة، لمرارته وحرارته، ويؤلم إساغته، فهو لا يكاد يسيغه، ولكن تحصل الإساغة بصعوبة، لقوله تعالى: ﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٢٠-٢١].

وتأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه، كقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ٣٩/ ١٦].

ومن أمامه عذاب شديد متواصل الآلام من غير فتور.

هذه أوصاف عذاب الكفار، في الظاهر والباطن، أولها - ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ

جهنم﴾ ثانيها - ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ، يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ وثالثها - ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ورابعها - ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾.

٦ً - لا جدوى ولا فائدة في الآخرة لأعمال الكفار الطيبة التي عملوها في الدنيا، مثل إطعام الطعام، وإغاثة الملهوف، وفعل المعروف، والصدقة، وصلة الرحم، وبر الوالدين، ولا ثواب على عمل البر في الدنيا؛ لإحباطه بالكفر، وذلك هو الخسران الكبير.

فقد ضرب الله هذه الآية مثلاً لأعمال الكفار، في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف: شدة الريح، وإنما كان ذلك؛ لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى، فلم يتوافر فيها أساس القبول وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له.

دليل وحدانية الله ووجوده وقدرته على معاد الأبدان

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾

القراءات:

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (خالق السماوات والأرض).

البلاغة:

﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر أي تعلم يامخاطب، وهو خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته، وهو استفهام تقرير، والرؤية هنا: رؤية القلب؛ لأن المعنى: ألم ينته علمك إليه؟ ﴿بِالْحَقِّ﴾ متعلق بخلق، أي بالحكمة والوجه الذي يحق أن يخلق عليه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلكم أي يخلق خلقاً آخر مكانكم، وهو مرتب على كونه خالقاً للسماوات والأرض، استدلالاً به عليه، فإن من خلق أصولهم، ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع، قادر أن يبدلهم بخلق آخر، ولم يمتنع ذلك عليه، كما قال: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ بممتنع أو متعسر، فإنه قادر لذاته، لا اختصاص له بمقدور دون مقدور، ومن هذا شأنه كان حقيقاً بأن يؤمن به ويعبد، رجاء لثوابه، وخوفاً من عقابه يوم الجزاء.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن أعمال الكفار تصير باطلة ضائعة، بيَّن أن الإبطال والإحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية، فإن الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك، وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لحكمة وصواب؟!

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السماوات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السماوات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وصحارى وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها المخاطب أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقا عليه، ومن قدر على خلقهما على هذا النحو البديع، فهو قادر على إفنائكم إذا خالفتم أوامره، والإتيان بخلق جديد سواكم على غير صفتكم، وما ذلك بممتنع أو متعذر عليه، بل هو سهل عليه.

ونظير الآية كثير في القرآن منها: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٤٦/٣٣].

ومنها: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٣٦/٧٧-٨٣].

فقه الحياة أو الأحكام:

الآية للاستدلال بها على قدرته تعالى، فمن خلق السماوات والأرض على ما يوافق الحكمة والصواب، قادر على إعادة الخلق بعد الموت، فالله هو القادر على الإفناء، كما هو قادر على إيجاد الأشياء، فلا تعصوه، فإنكم إن عصيتموه يعدمكم، ويأت بخلق جديد أفضل وأطوع منكم، إذ لو كانوا مثل الأولين، فلا فائدة في الإبدال، وما ذلك على الله بمنيع متعذر.

والمقصود أن الكفار أغرقوا في الكفر بالله، مع قيام الأدلة على قدرته وحكمته تعالى، وأنه الحقيق بالطاعة، الذي يرجى ثوابه ويخاف عقابه في دار الجزاء.

الحوار بين الأشقياء يوم العذاب والمناظرة بين الشيطان وأتباعه وظفر السعداء بالجنة

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣)﴾

القراءات:

﴿لِيَ عَلَيْكُم﴾:

وقرأ باقي السبعة (لِيْ عليكم).

﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾:

وقرأ حمزة (بمصرخيِّ).

الإعراب:

﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ فتحت الياء لإدغام ياء الجمع في ياء الإضافة، بعد حذف نون الإضافة، على لغة من يفتحها، وبقيت الفتحة على حالها، أو أن فتحها لالتقاء الساكنين على لغة من أسكنها، فياء الإضافة فيها لغتان: الفتح والإسكان. وعلى قراءة كسر الياء فهو عدول إلى الأصل، وهو الكسر، ليكون مطابقاً لكسر همزة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾.

﴿أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أن وصلتها: في موضع نصب على الاستثناء المنقطع. ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ ما: مصدرية أي بإشراككم.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ جملة فعلية في موضع نصب صفة جنات. ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ حال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهي حال مقدرة، أو حال من الضمير في ﴿خَـٰلِدِينَ﴾ فلا تكون حالاً مقدرة. أو في موضع نصب على الوصف لجنات.

والهاء والميم في ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ إما تأويل فاعل، أضيف المصدر إليه، أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام، وإما في موضع مفعول لم يسم فاعله (نائب فاعل) أي يُحيّون بالسلام، على معنى: تُحيِّيهم الملائكة بالسلام.

البلاغة:

﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ طباق السلب.

﴿أَجَزِعْنَآ﴾ و﴿صَبَرْنَا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي الخلائق، أي ظهروا بالبَراز: وهي الأرض المتسعة، أي مجتمع الناس في ذلك اليوم، ومنه امرأة بَرْزة أي تظهر للرجال، والتعبير فيه وفيما بعده بالماضي لتحقق وقوعه. ﴿ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ﴾ الأتباع، أي ضعاف الرأي والفكر. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾ المتبوعين، وهم الرؤساء الأقوياء الذين استنفروهم. ﴿تَبَعًا﴾ جمع تابع. ﴿مُّغْنُونَ﴾ دافعون. ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ من الأولى: للتبيين، والثانية: للتبعيض. ﴿لَهَدَيْنَـٰكُمْ﴾ لدعوناكم إلى الهدى. ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ ﴿مِن﴾: زائدة، و﴿مَّحِيصٍ﴾: ملجأ ومَنْجى ومَهْرب.

﴿الشَّيْطَانُ﴾ إبليس. ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لما أحكم وفرغ منه، ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ وعداً من حقه أن ينجز، أو وعداً أنجزه، وهو الوعد بالبعث والجزاء، فصدقكم الوعد. ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ وعد الباطل وهو ألا بعث ولا حساب. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ قدر إبليس تبين خُلْف وعده كالإخلاف منه. ﴿مِّن سُلْطَانٍ﴾ من: زائدة، والسلطان: القوة والقدرة والتسلط، فألجئكم على الكفر والمعاصي، وأقهركم على متابعتي. ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ لكن. ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أسرعتم إجابتي. ﴿وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ على إجابتي وإطاعتي، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم.

﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم، والمستصرخ: المستغيث. ﴿بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ﴾ بإشراككم إياي مع الله. ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين، وهو قول الله تعالى. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى ألوان عذاب الكفار في الآخرة، ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة، ذكر هنا مدى خجلهم أمام أتباعهم وافتضاحهم عندهم، وأبان هذا بصورة محاورة بين السادة والأتباع، ومناظرة بين الشيطان وأتباعه الإنس، ثم ذكر جزاء المؤمنين السعداء وظفرهم بجنان الخلد.

التفسير والبيان:

وبرزت الخلائق كلها بَرُّها وفاجرها لله الواحد القهار في موقف الحساب، واجتمعوا له في مكان متسع لا ساتر فيه، خلافاً لحال الدنيا حيث يظن الكفار والعصاة أن الله لا يراهم.

فقال الضعفاء، أي الأتباع للقادة والسادة والكبراء في العقل والتفكير،

أولئك القادة الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع الرسل: إنا كنا تابعين لكم، مقلدين في الأعمال، نأتمر بأمركم ونفعل فعلكم، فكفرنا بالله، وكذبنا الرسل متابعة لكم، فهل أنتم تدفعون عنا اليوم بعض عذاب الله، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا.

فأجابهم القادة المتبوعون متنصلين من الدفاع عنهم: لو هدانا الله لدينه الحق، ووفقنا لاتّباعه، وأرشدنا إلى الخير، لهديناكم وأرشدناكم إلى سلوك الطريق الأقوم، ولكنه لم يهدنا، فحقت كلمة العذاب على الكافرين.

ثم أعلنوا يأسهم من النجاة فقالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ﴾ أي ليس لنا خلاص ولا منجى مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه، أي إن الجزع والصبر سيّان، فلا نجاة لنا من عذاب الله تعالى.

قال ابن كثير: والظاهر أن هذه المراجعة (أي الحوار) في النار، بعد دخولهم فيها[1]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٧-٤٨] وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٧/٣٨-٣٩] وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ، رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦٧-٦٨] .

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٥٢٨

ثم ذكر الله تعالى محاورة أخرى بين الشيطان وأتباعه من الإنس، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي وقال إبليس لأتباعه الإنس، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات: إن الله وعدكم بالبعث والجزاء وعد الحق على ألسنة رسله، وكان وعداً حقاً وخبراً صدقاً، وأما أنا فوعدتكم ألا بعث ولا جزاء، ولا جنة ولا نار، فأخلفتكم موعدي، إذ لم أقل إلا باطلاً من القول وزوراً، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٢٠] وقد اتبعتموني وتركتم وعد ربكم.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي وما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة، ولا قوة ولا تسلط فيما وعدتكم به.

﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي ولكن حينما دعوتكم استجبتم لي، بمجرد ذلك.

﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ أي فلا توجهوا اللوم إلي اليوم، ولوموا أنفسكم؛ لأنكم أسرعتم إلى إجابتي باختياركم، فإن الذنب ذنبكم؛ لكونكم لم تستمعوا إلى دعاء ربكم، وقد دعاكم دعوة الحق بالحجج والبينات، فخالفتم البراهين الداعية لكم إلى الصواب.

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ما أنا بمغيثكم ولا نافعكم ولا منقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه من العذاب، وما أنتم بمغيثي ولا نافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٦] .

﴿إِنِّى كَفَرْتُ﴾ إني أنكرت أو جحدت اليوم بإشراككم إياي من قبل أي في الدنيا مع الله تعالى في الطاعة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٤] والمراد بذلك تبرؤه من الشرك وإنكاره له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ [الممتحنة: ٦٠/ ٤]

وقال سبحانه: ﴿كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [مريم: ١٩/ ٨٢].

﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ هذا في الأظهر من قول الله عز وجل، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس المحكي في القرآن قطعاً لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة، والمعنى: أنّ الكافرين في إعراضهم عن الحق، واتباعهم الباطل، لهم عذاب مؤلم.

والمقصود تنبيه الناس إلى تبرؤ الشيطان من وساوسه في الدنيا، وحضهم على الاستعداد ليوم الحساب، وتذكر أهوال الموقف.

وبعد أن أبان الله تعالى أحوال الأشقياء، أوضح أحوال السعداء، وكلا الفريقين كانوا قد برزوا للحساب والجزاء بين يدي الله، فقال: ﴿وَأُدۡخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي ويدخل الملائكةُ الذين صدقوا بالله ورسوله، وأقروا بوحدانيته، واتبعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، جنات (بساتين) فيها الأنهار الجارية في كل مكان، وهم ماكثون فيها أبداً، لا يحولون عنها ولا يزولون منها، وذلك بإذن ربهم، أي بتوفيقه وفضله وأمره.

تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم، ويحيون بعضهم بعضاً بالسلام، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٧٣] وقال سبحانه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ، سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٣-٢٤] وقال عز وجل: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٧٥] ويحييهم ربهم بالسلام: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٣٦/ ٥٨] وتحية بعضهم كما قال تعالى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾ [يونس: ١٠/ ١٠].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١ - العتاب والنزاع والخصام قائم بين أهل النار، فهذه محاورة بين القادة والأتباع تدل على عجز السادة عن تحقيق أي شيء لأتباعهم الذين اتبعوهم في الدنيا، فهم لا يستطيعون تخليص أنفسهم من عذاب الله، ولا تحقيق أي نفع لذواتهم، فبالأولى لا يتمكنون من نفع غيرهم، والكل لا يجدون مهرباً ولا ملجأ من عذاب الله وعقابه على الكفر والعصيان، وذلك سواء صبروا على العذاب أو جزعوا وضجروا.

٢ - إقرار السادة بالضلال، فدعوا أتباعهم إلى الضلال، ولو هدوا وأرشدوا لأرشدوا غيرهم، وهذا كذب منهم، كما قال تعالى حكاية عن المنافقين: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ٥٨/١٨].

٣ - أعقب الله المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس، بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس، وموضوع المناظرتين واحد: وهو تبرؤ المتبوع من التابع، ولكن الشيطان كان أصدق في هذه المحاورة من الإنسان؛ لأنه أعلن أن الله وعد الناس وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال، فوفى لهم بما وعدهم، وأما هو فوعد الناس بخلاف ذلك وأنه لا بعث ولا جزاء، فأخلف الوعد.

٤ - قال الرازي عن آية ﴿إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾: هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس؛ لأن الشيطان بيّن أنه ما أتى إلا بالوسوسة، فلولا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال، لم يكن لوسوسته تأثير ألبتة، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس[١].

(١) تفسير الرازي: ١٩/١١١

ومن المعلوم أن الملائكة والشياطين هي أجسام لطيفة، والله تعالى ركبها تركيباً عجيباً، ولا يستبعد أن تنفذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة أي في بنية الإنسان.

٥ً - للظالمين عذاب أليم، لا مرد له، جزاء ظلمهم، أي كفرهم، فالعصيان والكفر باختيارهم وكسبهم.

٦ً - للمؤمنين المتقين جنات تجري من تحتها الأنهار، بأمر ربهم، ومشيئته وتيسيره، يحيون فيها بالسلام من الله تعالى، ومن الملائكة، وتكون تحية بعضهم بعضاً هي السلام.

٧ً - كانت مواعيد الشيطان باطلة، ووعد الله هو الحق، واتبع الناس قول الشيطان بلا حجة ولا برهان، وتبرأ الشيطان منهم ومن عملهم، فليس لهم لوم عليه، إنما عليهم اللوم، وأيأسهم بأنه لا نصر عنده ولا عون ولا إغاثة، بل هو محتاج إلى من ينصره، وكفر بشركهم له في الدنيا، وهذا تنبيه لهم مما سيلقونه من العذاب.

مثال الكلمة الطيبة من السعداء
ومثال الكلمة الخبيثة من الأشقياء

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾

القراءات:

﴿أُكُلَهَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أُكْلَها).

﴿خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ﴾:

بكسر التنوين وصلاً قرأ: أبو عمرو، وعاصم، وحمزة. والباقون بضمه.

الإعراب:

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾ أو تفسير له، و﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفة للكلمة أو خبر مبتدأ محذوف، أي هي كشجرة.

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ تعجيب من حال الفريقين: السعداء والأشقياء.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ في كلٍ تشبيه مرسل مجمل.

﴿أَصْلُهَا﴾ ﴿وَفَرْعُهَا﴾ ﴿طَيِّبَةٍ﴾ و﴿خَبِيثَةٍ﴾ في كلٍ طباق.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي ألم تنظر كيف اعتمده ووضعه، والمثل: قول يشبَّه بقول بينهما مشابهة في شيء محسوس، للتوضيح والبيان ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة، والكلمة الطيبة: هي لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن، والشجرة الطيبة هي النخلة ﴿ثَابِتٌ﴾ في الأرض بالعروق ﴿وَفَرْعُهَا فِى

﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ أي أعلاها في جهة العلو ﴿تُؤۡتِيٓ﴾ تعطي ﴿أُكُلَهَا﴾ ثمرها ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾ كل وقت أقّته الله تعالى لإثمارها، أي إن كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعمله يصعد إلى السماء، ويناله ثوابه كل وقت.

﴿بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ﴾ بإرادته ﴿وَيَضۡرِبُ﴾ ويبين لأن في هذا التشبيه زيادة إفهام وتذكير ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يتعظون فيؤمنوا ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظل ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾ استئوصلت ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ استقرار ﴿بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فلا يزلّون إذا افتتنوا في دينهم، كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في موقف الحساب وعند رؤيتهم أهوال الحشر، وقيل: معناه الثبات عند سؤال القبر، فحينما يسألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبيهم، يجيبون بالصواب، كما في حديث الشيخين. ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ الكفار الذين ظلموا أنفسهم، فلا يهتدون للحق والجواب الصواب، بل يقولون: لا ندري، كما جاء في الحديث. ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه.

المناسبة:

بعد أن بيّن الله تعالى أحوال الأشقياء وما آل إليهم أمرهم من العذاب في نار جهنم، وأحوال السعداء وإدراكهم الفوز عند ربهم، ذكر مثلاً يبين حال الفريقين، وسبب التفرقة بينهما، بتشبيه المعنويات بالحسيات، لترسيخ المعاني في الأذهان، كما هو الشأن في القرآن.

التفسير والبيان:

ألم تعلم أيها المخاطب كيف اعتمد الله مثلاً ووضعه في موضعه المناسب له

وهو تشبيه الكلمة الطيبة وهي كلمة التوحيد والإسلام ودعوة القرآن، بالشجرة الطيبة وهي النخلة الموصوفة بصفات أربع هي:

١ً - كون تلك الشجرة طيبة المنظر والشكل، وطيبة الرائحة، وطيبة الثمرة، وطيبة المنفعة أي يستلذ بأكلها ويعظم الانتفاع بها.

٢ً - أصلها ثابت، أي راسخ باقٍ متمكّن في الأرض لا ينقلع.

٣ً - وفرعها في السماء، أي كاملة الحال لارتفاع أغصانها إلى الأعلى، وبعدها عن عفونات الأرض، فكانت ثمراتها نقية طيبة خالية من جميع الشوائب.

٤ً - تؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها، أي تثمر كل وقت وقَّته الله لإثمارها بإرادة ربها وإيجاده وتيسيره. ولما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة، كان ذلك في حكم الحين.

روي عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول: «لا إله إلا الله» وأن الشجرة الطيبة هي النخلة، وكذلك روي عن ابن مسعود أنها النخلة، وهو مروي عن أنس وابن عمر عن النبي ﷺ.

وحديث ابن عمر رواه البخاري، قال: «كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم - أو كالرجل المسلم - لا يتحاتّ ورقها صيفاً ولا شتاء، وتؤتي أُكُلها كل حين بإذن ربها، قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرِهْتُ أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً، قال رسول الله ﷺ: هي النخلة».

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي وهكذا يضرب الله الأمثال للناس؛ فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وعظة وتصوير للمعاني؛ لأن تشبيه المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة يرسّخ المعاني، ويزيل الخفاء والشك فيها، ويجعلها

كالأشياء الملموسة. وفي هذا لفت نظر يدعو الإنسان إلى التأمل في عظم هذا المثل، والتدبر فيه، وفهم المقصود منه.

ثم ذكر الله تعالى مثال حال كلمة الكفر، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ أي وصفة الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر أو الشرك كصفة الشجرة الخبيثة وهي شجرة الحنظل ونحوه، كما قال أنس موقوفاً فيما روى أبو بكر البزار، ومرفوعاً فيما روى ابن أبي حاتم: أن النبي ﷺ قال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾: هي الحنظلة، ووصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث هي:

١ً - إنها خبيثة الطعم أو لما فيها من المضار، أو الرائحة وهي الحنظلة، وقيل: الثوم، وقيل: الشوك.

٢ً - اجتثت من فوق الأرض، أي اقتلعت واستؤصلت، وليس لها أصل ولا عرق، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

٣ً - مالها من قرار، أي ليس لها استقرار، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية.

وهذه صفات في غاية الكمال، فالخبث وصف للمضار، والاجتثاث وعدم القرار وصف للخلو عن المنافع.

وبالموازنة يتبين الفرق بين كلمتي الحق والباطل، فكلمة الحق وهي كلمة التوحيد والإيمان قوية ثابتة نافعة للناس، وكلمة الباطل وهي كلمة الشرك أو الكفر ضعيفة ضارة ليس فيها استقرار ولا ثبات.

وأصحاب الكلمة الأولى هم المؤمنون، وأولو الكلمة الثانية هم الكافرون والعصاة.

ثم أخبر الله تعالى عن فوز أهل الكلمة الأولى بمرادهم في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ أي إن كرامة الله وثوابه ثابتان للمؤمنين في الآخرة بالقول الذي كان يصدر عنهم في الدنيا، وهو الإيمان المستقر بالحجة والبرهان في قلوبهم، والمقصود: بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى.

أو إن المراد أن الله يثبت المؤمنين في الدنيا بعدم تعرضهم للفتنة في دينهم بالرغم من التعذيب كبلال وغيره من الصحابة، فتثبيتهم به في الدنيا: أنهم إذا فتنوا في دينهم، لم يزلّوا، كما ثبَّت الذين فتنهم أصحاب الأخدود، والذين نشروا بالمناشير، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد.

وتثبيتهم في الآخرة: أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم في موقف الحساب، لم يتلعثموا، ولم تحيرهم أهوال الحشر.

وقيل وهو القول المشهور: معناه الثبات عند سؤال القبر، والمراد بالحياة الدنيا: مدة الحياة، والآخرة: يوم القيامة والحساب، روى البخاري ومسلم وأحمد وبقية الجماعة كلهم عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في القبر، شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾. وهذا مروي أيضاً عن أبي هريرة.

وروى ابن أبي شيبة الحديث المتقدم نفسه عن البراء أنه قال في الآية: التثبيت في الدنيا: إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر، فقالا له: مَنْ ربك؟ قال: ربي الله، وقالا: وما دينك؟ قال: ديني الإسلام، وقالا: وما نبيك؟ قال: نبيي محمد ﷺ.

وروى أبو داود عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه وقال: استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل».

قال الرازي: القول المشهور: إن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته إياه على الحق[١].

ثم ذكر الله تعالى مصير الكافرين بقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ أي ويمنع الله الكافرين عن الفوز بثوابه، أو يتركهم وضلالهم لعدم توافر استعدادهم للإيمان، وانزلاقهم في الأهواء والشهوات.

أو يجعلهم يترددون في الجواب ويتلعثمون إذا سئلوا في قبورهم عن دينهم ومعتقدهم؛ روى ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الكافر إذا حضره الموت، تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره، فإذا دخل قبره، أُقْعِدَ، فقيل له: من ربك؟ لم يُرجع إليهم شيئاً، وأنساه الله تعالى ذكر ربه، وإذا قيل له: من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يُرجع إليهم شيئاً، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾».

ثم أبان الله تعالى مشيئته المطلقة في الفريقين فقال: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي إن شاء هدى، وإن شاء أضل. وإضلالهم في الدنيا: أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن، وتزلُّ أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأزلّ. والضلال لسوء الاستعداد، والميل مع أهواء النفس.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى مايأتي:

أ - الكلمة الطيبة وهي الإيمان أو لا إله إلا الله، محمد رسول الله، أو

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ١٢٢

المؤمن نفسه: هي الثابتة الخالدة، الطيبة النافعة. روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتة: الإيمان عروقُها، والصلاة أصلها، والزكاة فروعها، والصيام أغصانُها، والتأذي في الله نباتُها، وحسنُ الخلُق ورقُها، والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها». والشجرة الطيبة في الأصح: هي النخلة، ذكر الغزنوي والطبراني فيما رواه ابن عمر عنه ﷺ: «مَثَل المؤمن كالنخلة، كل شيء منها ينتفع به».

٢ً - الأمثال والتشبيهات، وبخاصة تشبيه المعقول بالمحسوس، فيها ذكرى وعظة وعبرة، وإفهام وإيقاظ للمشاعر والضمائر، ولفت الأنظار، وشد الانتباه إليها.

٣ً - الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر لا قرار لها ولا ثبات، ولا جدوى ولا نفع، ولا تعتمد على حجة مقبولة أو برهان صحيح. والشجرة الخبيثة في الأصح: شجرة الحنظل، كما في حديث أنس، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

وكذلك الكافر لا حجة له، ولا ثبات، ولا خير فيه، وليس له أصل يعمل عليه.

٤ً - المقصود من الآية الدعوة إلى الإيمان، ورفض الشرك.

٥ً - يثبِّت الله المؤمنين على الحق والإيمان في الدنيا، فلا يتراجعون عنه، ويثبِّت نفوسهم، فيلهمها الصواب والنطق بالإيمان في القبر؛ لأن الموتى ما يزالون في الدنيا إلى أن يبعثوا، وكذلك يلهمها الصواب في الآخرة عند الحساب.

٦ً - يضلُّ الله الظالمين عن حجتهم في قبورهم، كما ضَلُّوا في الدنيا بكفرهم، فلا يُلقّنهم كلمة الحق، فإذا سئلوا في قبورهم قالوا: لا ندري؛

فيقول الملَك: لا دَرَيْتَ ولا تليت، وعند ذلك يضرب بالمقامع (سياط من حديد، رؤوسها معوجة) على ما ثبت في الأخبار.

٧ً - يفعل الله ما يشاء من عذاب قوم وإضلال قوم، وقيل: إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ﷺ لما وصف مُسَاءلة مُنْكر ونَكِير وما يكون من جواب الميت، قال عمر: يارسول الله، أيكون معي عقلي؟ قال: نعم، قال: كُفيتُ إذن؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

كفران النعمة واتخاذ الأنداد

وتهديد الكافرين بالتمتع بنعيم الدنيا وأمر المؤمنين بإقامة الصلاة والإنفاق

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾

القراءات:

﴿نِعْمَتَ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿وَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وبيس).

﴿لِيُضِلُّوا﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لِيَضِلُّوا).

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ﴾ :

وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي (قل لعبادي الذين).

﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لا بيعَ فيه ولا خلالَ).

الإعراب:

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿قَوْمَهُمْ﴾ : مفعول أول، و﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ : مفعول ثانٍ.

﴿جَهَنَّمَ﴾ : بدل من ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهو ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والتأنيث.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿قَوْمَهُمْ﴾ أو من ﴿جَهَنَّمَ﴾ أو منهما.

﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ جواب الأمر وهو (أقيموا) وتقديره: قل لهم: أقيموا يقيموا. ويجوز جزمه بلام مقدرة، تقديره: ليقيموا، ثم حذف الأمر؛ لتقدم لفظ الأمر. ويجوز كونه مجزوماً على أنه جواب ﴿قُل﴾ وهذا ضعيف؛ لأن الأمر للنبي بالقول ليس فيه أمر لهم بإقامة الصلاة.

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ منصوبان على المصدر، أي إنفاق سر وعلانية، أو على الحال، أي ذوي سر وعلانية، أو على الظرف، أي وقتي سر وعلانية.

البلاغة:

﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ بينهما طباق.

(البَوَار) و(القَرَار) و(النَّار) سجع مرصَّع.

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ تهديد ووعيد.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أي بدلوا شكر نعمته كفراً، بأن وضعوه مكانه، وهم كفار قريش ﴿وَأَحَلُّوا﴾ أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايعوهم في الكفر، بإضلالهم إياهم ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ دار الهلاك بحملهم على الكفر، والقوم البور: هم الهالكون كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ٤٨/١٢] ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويقاسون حرها ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ أي وبئس المقر جهنم ﴿أَندَادًا﴾ شركاء، جمع ندّ: وهو المثل والشريك والشبيه ﴿لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ وهو التوحيد أو دين الإسلام، وليس الضلال والإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد، لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بدنياكم قليلاً. ﴿مَصِيرَكُمْ﴾ مرجعكم.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خصهم بالإضافة تنويهاً لهم وتنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية. ومقول ﴿قُل﴾ محذوف، دل عليه جوابه، أي قل لعبادي الذي آمنوا: أقيموا يقيموا الصلاة ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أي وقت السر والعلانية أو ذوي سر وعلانية، أو إنفاق سر وعلانية ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ لا فداء، بأن يبيع ما يفدي به نفسه ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ مخالة، أي صداقة تنفع، وذلك اليوم هو يوم القيامة.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٨):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟﴾ قال ابن عباس: هؤلاء هم كفار مكة. وأخرج الحاكم وابن جرير والطبراني وغيرهم عن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قالا في المبدّلين: هم الأفجران من قريش: بنو المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر - أو فكفيتموهم - وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، عاد إلى وصف أحوال الكفار في هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟﴾ وهم أهل مكة، حيث أسكنهم الله تعالى حرمه الآمن، وجعل عيشهم في السعة، وبعث فيهم محمداً ﷺ، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة، وأبان أسباب وقوعهم في سوء المصير في جهنم، ثم أمرهم على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع في نعيم الدنيا، ثم أمر المؤمنين بمجاهدة النفس والهوى بالصلاة والإنفاق.

التفسير والبيان:

يدعو الله تعالى إلى التعجب من أمر كفار مكة وأمثالهم الذين وصفهم الله بصفتين هما السبب الأول في دخولهم نار جهنم وهي:

أ - ﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ أي بدلوا شكر نعمة الله كفراً، فإن شكر النعمة واجب عقلاً وشرعاً، لكنهم خرجوا على هذا الواجب، وجعلوا بدل الشكر كفراً وجحوداً. وهم كفار أهل مكة، وهو المشهور الصحيح عن ابن عباس في هذه الآية، قال ابن كثير: وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين، ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها، دخل الجنة، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

٢ - ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي وأنزلوا قومهم الذين شايعوهم في الكفر، واتبعوهم في الضلال، دار الهلاك الذي لا هلاك بعده.

ودار البوار هي جهنم مقر العذاب التي يدخلونها ويقاسون حرها، وبئس المقر جهنم.

والسبب الثاني: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي واتخذوا لله شركاء عبدوهم معه، ودعوا الناس إلى ذلك، فقالوا في الحج مثلاً: لبيك لاشريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

والسبب الثالث: ﴿لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ﴾ أي اتخذوا الأنداد أو الشركاء لتكون عاقبة أمرهم إضلال من شايعهم واتبعهم، وصرفهم عن دين الله، وإبقاءهم في مرتع الكفر. فاللام في ﴿لِّيُضِلُّوا﴾ لام العاقبة؛ لأن عبادة الأوثان سبب يؤدي إلى الضلال؛ ولأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم، أي إن المقصود لا يحصل إلا في آخر المراتب.

ثم قال تعالى مهدداً ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ أي تمتعوا بما قدرتم عليه من نعيم الدنيا، فإن جزاءكم ومرجعكم وموئلكم إلى النار، كما قال تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٤] وقال سبحانه: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس: ١٠/ ٧٠] . وسمي ذلك تمتعاً؛ لأنهم تلذذوا به، ولأنه بالنسبة إلى عقاب الآخرة تمتع ونعيم.

ونظير الآية في أمر التهديد: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٤٠] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٨].

وبعد تهديد الكفار على تمتعهم في الدنيا، أمر الله نبيه بأن يبلّغ الناس ويأمرهم بإقامة الصلاة التي هي عبادة بدنية، والإنفاق في سبيله وهو عبادة

مالية، فقال: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي يأمر الله تعالى عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وأن ينفقوا مما رزقهم الله، بأداء الزكوات، والنفقة على القرابات، والإحسان إلى الأباعد.

وإقامة الصلاة: أداؤها مستكملة أركانها وشروطها، مع المحافظة على وقتها، والخشوع لله في جميع أجزائها.

ويكون الإنفاق مما رزق في السرّ (أي في الخفية) والعلانية وهي الجهر، قال البيضاوي: والأحب إعلان الواجب (أي في النفقة) وإخفاء المتطوع به (أي المتبرع أو المتصدق به).

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾ أي وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم، من قبل أن يأتي يوم القيامة، الذي لا بيع فيه، أي لا يقبل من أحد فيه فدية، بأن تباع نفسه، ولا تفيد فيه صداقة، للصفح والعفو والتخلص من العقاب، بل هناك العدل والقسط، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحديد: ١٥/٥٧] وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢/١٢٣] وقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢/٢٥٤].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآية بيان الفرق بين فريقي الكفار والمؤمنين، أما الكافرون فاستحقوا دخول دار البوار: جهنم لأسباب ثلاثة: هي تبديلهم شكر نعمة الله عليهم كفراناً وجحوداً، واتخاذ الأنداد أي الشركاء وهي الأصنام التي عبدوها، وإضلالهم الناس عن دين الله القويم، بمعنى أن عاقبتهم إلى الإضلال والضلال، ومردهم ومرجعهم إلى عذاب جهنم.

وأما المؤمنون فلهم الجنة بسبب إقامة الصلوات الخمس المفروضة، والإنفاق في سبيل الله، بأداء الزكاة الواجبة، والتطوع بالصدقات المستحبة، بإعلان الواجب، وإخفاء التطوع، كما قال تعالى﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)﴾ [البقرة: ٢/ ٢٧١] .

ودلت الآية على أنه لاينفع يوم القيامة فداء ولاصداقة، وأن الطاعات الأساسية ثلاث: الإيمان بالله تعالى، وشغل النفس بخدمة المعبود في الصلاة، وصرف المال وبذله في طاعة الله تعالى، ليجد الإنسان ثواب ذلك الإنفاق في يوم لا مبايعة فيه ولا مخالَّة، إلا المخالة التي يشترك فيها الأخلاء في عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٦٧] .

أدلة وجود الله والتوحيد في الكون والأنفس

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

الإعراب:

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر .﴿رِزْقًا﴾ منصوب على المصدرية أو مفعول: ﴿فَأَخْرَجَ﴾ و﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ بيان له، وحال منه.

﴿دَائِبَيْنِ﴾ حال من الشمس والقمر، وذُكّر تغليباً للقمر على الشمس؛ لأن

القمر مذكر والشمس مؤنث، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث، غلّب جانب المذكر على جانب المؤنث؛ لأن التذكير هو الأصل. ﴿مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بالإضافة، على تقدير مفعول محذوف، أي وآتاكم سُؤلكم من كل ما سألتموه، مثل قوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦/٢٧] أي أوتينا من كل شيء شيئاً. ومن قرأ بالتنوين (كُلٍّ) كان المفعول ملفوظاً به، أي وآتاكم ما سألتموه من كل شيء. و﴿مَا﴾ ههنا: نكرة موصوفة، و﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾: جملة فعلية صفة لها.

البلاغة:

﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعول وفعّال.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جمع سماء، ولا نعرف حقيقتها، ولكن كل ما علا الإنسان وأظله فهو سماء، ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ الرزق: كل ما ينتفع به، ويشمل المطعوم والملبوس. ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلل أو أعد ويسّر. ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السفن. ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ بإذنه أو بمشيئته إلى حيث توجهتم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ جعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم. ﴿دَآئِبَيْنِ﴾ دائمين في الحركة أو السير، والإنارة والإصلاح، لا يفتران. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ يتعاقبان، فالليل للنوم والسكن فيه والنهار للمعاش وابتغاء الفضل. ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ أعطاكم. ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بلسان الحال، على حسب مصالحكم. ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ إنعامه، وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ لا تطيقوا حصرها. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ الكافر. ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي كثير الظلم لنفسه بالمعصية وإغفال شكرها، وكثير الكفر أو الجحود لنعمة ربه.

المناسبة:

بعد أن أوضح الله تعالى أوصاف أحوال السعداء والأشقياء، أتبعه بالأدلة

الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته ووحدانيته، ليدل على وجوب شكر الصانع الموجد لها، ويقرّع الكافرين الذين أعرضوا عن التفكر في تلك النعم.

التفسير والبيان:

يعدد الله في هذه الآيات نعمه على خلقه، ويشير إلى دلائل وجوده وقدرته، وهي عشرة أدلة.

١- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: الله هو الذي خلق السماوات سقفاً محفوظاً، وزيّنها بزينة الكواكب.

٢- وخلق الأرض فراشاً وما فيها من المنافع الكثيرة لكم أيها الناس.

٣- ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: أي السحاب مطراً أحيا به الأرض بعد موتها، وأنبت به الشجر والزرع، وأخرج به ما يحتاجه الإنسان من الأرزاق للأكل والعيش، بواسطة الثمار والزروع المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٢٠/٥٣] .

٤- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾: أي وذلل لكم السفن، بأن ألهمكم صنعها، وجعلها طافية على وجه الماء، تجري في البحر من بلد لآخر للركوب والحمل، بإذن الله ومشيئته.

٥- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾: أي فجر لكم ينابيع الأنهار، وشقَّ الأرض من مسافة إلى مسافة، للشرب وسقي الزروع والأشجار والبهائم وغيرها من المنافع.

٦-٧- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾: أي ذللهما وجعلهما

يسيران في حركة دائمة، لا يفتران ليلاً ولا نهاراً لإصلاح حياة الإنسان والنبات وغيرهما كما قال تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: ٣٦/٤٠] .

٨-٩- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: أي جعلهما يتعاقبان ويتعارضان، فمرة يطول الليل كما في الشتاء، ومرة يطول النهار كما في الصيف، ويقصر الآخر، وبالعكس، والنهار للسعي والكسب والمعاش وشؤون الدنيا، والليل للنوم والسبات والسكن فيه كما قال تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٥٤] وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ٣١/٢٩] . وقال سبحانه: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٢٨/٧٣] .

١٠- ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ أي أعطاكم أيها البشر سؤلكم من كل ما شأنه أن يسأل، ويحتاج إليه، وينتفع به، سواء سألتموه أم لم تسألوه، أو أعطاكم من كل مسؤول سألتموه شيئاً، والخطاب لجنس البشر؛ لأن الله خلق لكم ما في الأرض جميعاً، وترك استخراجها واختراع ما يكتشف منها لعقولكم بمقتضى تطور العقل البشري، وتقدم الحياة المدنية، وبالتدريج، وقد وصل الإنسان في القرن العشرين إلى قمة الاكتشاف والابتكار في مختلف المجالات، معتمداً على طاقات البخار والهواء والنفط والكهرباء والذرّة وغيرها.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أي إن أردتم تعداد نعم الله المنعم بها عليكم لا تطيقوا حصرها لكثرتها. والنعمة هنا قائمة مقام المصدر، بمعنى الإنعام، كالنفقة والإنفاق، ويدل ذلك على العموم؛ لأن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة.

والمقصود من الجملتين الأخيرتين: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ الإخبار عن عجز العباد عن تعداد النعم، فضلاً عن القيام بشكرها.

فبعد أن ذكر الله تعالى تلك النعم العظيمة، أبان أنه لم يقتصر عليها، بل أعطى عباده من المنافع ما لا يتأتى معه الإحصاء، بقوله: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ ثم ختم الكلام بقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ ليبين أنه آتى العباد من كل ما احتاجوا إليه، مما لا تصلح الأحوال والعيشة إلا به. قال طلق بن حبيب رحمه الله تعالى: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك الحمد غير مكفيّ، ولا مودَّع، ولا مستغنًى عنه ربنا» وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «الحمد لله الذي لا يُودَّى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها».

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي إن الإنسان يظلم النعمة بإغفال شكرها، شديد الكفران لها، والمراد بالإنسان هنا الجنس، فلا يراد به الواحد، بل يراد به الجمع، أي توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، يظلم النعمة بإغفال شكرها، ويكفرها بجحدها.

ويلاحظ أنه تعالى قال هنا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: ١٦/١٨] . والفرق بين الخاتمتين: أن الكلام هنا مناسب لتعداد قبائح الإنسان من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك، وأما في سورة النحل فيناسب ما ذكر في الآية من تعداد فضائل الله على الإنسان، ومنها اتصافه بالمغفرة والرحمة، تحريضاً على الرجوع إليه[1].

(١) البحر المحيط: ٥/٤٢٨-٤٢٩

وقال الرازي عن الفرق بين الآيتين: كأنه تعالى يقول: إذا حصلت النعم الكثيرة، فأنت الذي أخذتَها، وأنا الذي أعطيتُها، فحصل لك عن أخذها وصفان: وهما كونك ظلوماً كفاراً، ولي وصفان عند إعطائها، وهما كوني غفوراً رحيماً، والمقصود كأنه يقول: إن كنت ظلوماً فأنا غفور، وإن كنت كفاراً فأنا رحيم، أعلم عجزك وقصورك، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير، ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى ما يأتي:

١ً- لقد أقام الله تعالى أدلة كثيرة على وجوده وقدرته وعلمه ووحدانيته، منها هذه الأدلة العشرة التي ذكرها في الآية من خلق السماوات والأرض، وإنزال المطر من السحاب... إلخ.

٢ً- إن نعم الله تعالى على البشر لا تُعد ولا تحصى لكثرتها، ولدقة إدراكها وخفائها أحياناً، كخزائن السماوات والأرض، وعجائب تكوين الإنسان، وبخاصة دماغه وحواسه من سمع وبصر وملاحظة الصور، وغير ذلك من نعمة العافية، والإمداد بالرزق منذ كونه جنيناً في بطن أمه، إلى حين ولادته وطفولته، إلى شبابه وكهولته وشيخوخته، وتقلّبه في أنحاء الأرض، إلى موته فلقاء ربه.

٣ً- إن النعم على الإنسان من الله، فلِمَ يبدل نعمة الله بالكفر؟ وهلا استعان بها على الطاعة؟ إن من شأن الإنسان ظلم النعمة بإغفال شكرها، وكفرانها وجحودها. والإنسان: جنس، أراد به العموم، وقال بعض المفسرين: وأراد به الخصوص كأبي جهل وجميع الكفار.

---

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ١٣٠-١٣١

دعاء إبراهيم عليه السلام مستقبل البيت الحرام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

القراءات:

﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أسكنت).

الإعراب:

﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى﴾ المفعول محذوف، تقديره: أسكنت ناساً من ذريتي بواد.

﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ متعلق بأسكنت، وفصل بينهما بقوله: ﴿رَبَّنَآ﴾ لأن الفصل بالنداءِ كثير في كلامهم.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ أي واجعل من ذريتي مقيمي الصلاة، فحذف الفعل لدلالة ما قبله عليه.

البلاغة:

﴿تَبِعَنِي﴾ و﴿عَصَانِي﴾ و﴿نُخْفِي﴾ و﴿نُعْلِنُ﴾ و﴿الْأَرْضِ﴾ و﴿السَّمَاءِ﴾ بين كلٍّ طباق.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تهوي: فيه استعارة؛ لأن حقيقة الْهُوِيِّ النزول من علو إلى انخفاض، كالهبوط، والمراد: تسرع إليهم شوقاً وحباً من مكان بعيد، بعكس «تحنّ» فهو قد يكون من المقيم بالمكان.

﴿اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ﴾ عُرِّف البلد هنا، ونكّر في سورة البقرة ﴿اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦/٢] لأنه في البقرة كان دعاؤه قبل بنائها، فطلب أن تجعل بلداً آمناً، وهنا كان بعد بنائها، فطلب أن تكون بلد أمن واستقرار.

المفردات اللغوية:

﴿هَٰذَا الْبَلَدَ﴾ بلد مكة ﴿آمِنًا﴾ ذا أمن لمن فيها ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أبعدني. ﴿أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ عن أن نعبد. ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ بعبادتهم لها، فلذلك سألت منك العصمة، واستعذت بكم من إضلالهن، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية. ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ على التوحيد ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ومن عصاني دون الشرك، فإنك تقدر أن تغفر له وترحمه ابتداء، أو بعد التوفيق للتوبة. وقوله: ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ معناه حين يؤمنوا؛ لأنه أراد أن يغفر لكل كافر بعد إيمانه ما كان منه سابقاً، لكنه عليه السلام استعمل هذه العبارة التي ظاهرها أن كل ذنب فلله أن يغفره حتى الشرك، بسبب ما كان يأخذ به نفسه من القول الجميل، والنطق الحسن، وجميل الأدب.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعضها، وهو إسماعيل مع أمه هاجر. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي مكة، فإنها حجرية لا تنبت. ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرمت

التعرض له والتهاون به، أو لم يزل معظماً تهابه الجبابرة، أو منع منه الطوفان، فلم يستول عليه، ولذلك سمي عتيقاً، أي أعتق منه .﴿أَفْئِدَةً﴾ قلوباً .﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعضهم .﴿تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقاً وحباً، قال ابن عباس: لو قال: أفئدة الناس، لحنَّت إليه فارس والروم والناس كلهم. والمقصود من الدعاء لإقامة الصلاة: توفيقهم لها، أو الدعاء لهم بإقامة الصلاة .﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي بالإنبات في الوادي مع سكناهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة، فأجاب الله تعالى دعوته، فجعله حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء، حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية في يوم واحد.

﴿نُخْفِي﴾ نسرّ .﴿مِن شَيْءٍ﴾ من: زائدة أو للاستغراق، وقول ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ يحتمل أن يكون من كلامه تعالى أو كلام إبراهيم. والمقصود من قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وأرحم منا بأنفسنا، فلا حاجة لنا إلى الطلب، لكنا ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك. وتكرير النداء للمبالغة في التضرع واللجوء إلى الله تعالى، والرغبة في الإجابة. وأتى بضمير جماعة المتكلمين لأنه تقدم ذكره وذكر بنيه.

﴿وَهَبَ لِي﴾ أعطاني .﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ مع الكبر، ولد إسماعيل ولأبيه تسع وتسعون سنة، وولد إسحاق ولأبيه مئة واثنتا عشرة سنة .﴿ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي مواظباً عليها .﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيمها، وأتى بمن لإعلام الله تعالى له أن منهم كفاراً.

﴿وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ هذا قبل أن يتبين له عداوتهما لله عز وجل، وقيل: أسلمت أمه. وقيل: أراد بهما آدم وحواء .﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ يثبت ويتحقق ويوجد.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى بالأدلة المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه، وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى أصلاً، وطلب من رسوله أن يعجب من حال قومه الذين عبدوا الأصنام، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم، وأنه دعا أن يجعل مكة بلد أمان واستقرار، وأن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام، وأنه أسكن بعض ذريته عند البيت الحرام ليعبدوه وحده بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وأنه شكر الله تعالى على منحه بعد الكبر واليأس من الولد ولدين هما إسماعيل وإسحاق، وأنه طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم يوجد الحساب.

والخلاصة: إن إبراهيم عليه السلام هو القدوة والنموذج لعبادة الله عز وجل، فليقتد به من ينتمون إليه.

التفسير والبيان:

هذا تذكير من الله تعالى واحتجاج على مشركي العرب بأن مكة البلد الحرام إنما وضعت منذ القدم على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم عليه السلام تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن والاستقرار في ظل التوحيد، فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك حين دعا إبراهيم بقوله: ربِّ اجعل مكة بلداً آمناً أي ذا أمن واستقرار، لا يسفك فيه دم، ولا يظلم فيه أحد، وقد أجاب الله دعاءه فجعله آمناً للإنسان والطير والنبات، فلا يقتل فيه أحد، ولا يصاد صيده، ولا يختلى خلاه، ولا يعضد شجره، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٦٧] وقال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧].

﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾ أي وباعدني يارب وبني من عبادة الأصنام، واجعل عبادتنا خالصة لك على منهج التوحيد. هذا دليل على أنه ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. وقد استجاب الله دعاءه في بعض ذريته دون

بعض. وكان هذا الدعاء حين ترك هاجر وابنه إسماعيل، وهو رضيع، في مكة، قبل بناء البيت الحرام.

ثم ذكر أنه افتتن بعبادة الأصنام كثير من الناس فقال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ﴾ أي يا رب إن الأصنام كانت سبباً في ضلال كثير من الناس عن طريق الهدى والحق، حتى عبدوهن. وقد أضيف الإضلال إلى الأصنام؛ لأنها كانت سبباً في الضلال عند عبادتها، وذلك بطريق المجاز، فإن الأصنام جمادات لا تفعل.

﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ أي فمن صدقني في ديني واعتقادي، وسار على منهجي في الإيمان بك وبتوحيدك الخالص، فإنه مني، أي على سنتي وطريقتي، مثل «من غشنا فليس منا» أي ليس على سنتنا، ومن عصاني فلم يقبل ما دعوته إليه من التوحيد لك وعدم الشرك بك، فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة.

وهذا صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة غير الكفار؛ لأنه عليه السلام تبرأ في مقدمة هذه الآية من الكفار بقوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾، ولأنه أيضاً بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه، فإنه ليس منه، ولا يهتم بإصلاح شؤونه، ولأن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة، فكان قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ شفاعة في العصاة غير الكفار.

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الآية، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ٥/١١٨] الآية، ثم رفع يديه، ثم قال: «اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي» وبكى، فقال الله تعالى: اذهب يا جبريل إلى محمد، وربك أعلم، وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام، فأخبره رسول الله ﷺ ما قال: فقال الله تعالى: اذهب إلى محمد، فقل له: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك.

ثم دعا إبراهيم بدعاء ثان بعد بناء البيت الحرام لقوله: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾. وبعد الدعاء الأول الذي كان قبل بناء البيت، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ﴾ أي يا ربنا إني أسكنت بعض ذريتي وهم إسماعيل ومن ولد منه، بواد لا زرع فيه وهو وادي مكة، عند بيتك المحرم أي الذي حرمت التعرض له والتهاون به، وجعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده، فاجعل قلوب بعض الناس تسرع إليه شوقاً ومحبة، وتحن وتميل إلى رؤيته. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم: لو قال: أفئدة الناس، لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وارزق ذريتي من أنواع الثمار الموجودة في سائر الأقطار، ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك، وكما أنه وادٍ غير ذي زرع، فاجعل لهم ثماراً يأكلونها.

وقد استجاب الله دعاءه، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٢٨/٥٧] وتحقق فضل الله ورحمته وكرمه، فبالرغم من أنه ليس في البلد الحرام: «مكة» شجرة مثمرة، فإنه تجبى إليها ثمرات ما حولها من البلاد، من أنواع ثمار الفصول الأربعة، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي وارزقهم من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمتك، أو رجاء أن يشكروك بإقامة الصلاة وكثرة العبادة. وفيه إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو للاستعانة بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي، وهو التوصل إلى رضاك والإخلاص لك، وأنت أعلم بأحوالنا ومصالحنا، وتعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء، فلا حاجة لنا إلى الطلب، وإنما ندعوك إظهاراً لعبوديتك، وافتقاراً إلى رحمتك، واستعجالاً لنيل ما عندك.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي ولا يغيب عن الله شيء في الأرض أو في السماء، فكله مخلوق له، وهو عالم به. وهذا من كلام الله عز وجل، تصديقاً لإبراهيم عليه السلام، كقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٢٧/ ٣٤] أو من كلام إبراهيم، يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب والشهادة من شيء في كل مكان. و﴿مِن﴾ للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما.

ثم حمد إبراهيم عليه السلام ربه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر، فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى﴾ أي الحمد والشكر كله لله الذي أعطاني ومنحني الولد بعد الكبر والإياس من الولد، أعطاني ولدين هما إسماعيل وأمه هاجر وإسحاق وأمه سارّة. وقدم إسماعيل؛ لأنه كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة. وقيل: لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعاً وتسعين سنة، ولما ولد إسحاق كان سنه مئة واثنتي عشرة سنة.

وقوله: ﴿عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾ لأن المنة بهبة الولد في هذه السن أعظم؛ إذ الظفر بالحاجة وقت اليأس من أعظم النعم، ولأن الولادة في تلك السن المتقدمة كانت آية لإبراهيم.

﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ أي إن الله ربي سامع دعائي وقولي، ومجيب من دعاه، وعالم بالمقصود، سواء صرحت به أو لم أصرح. وقال هذا لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض، لا على وجه الإيضاح والتصريح.

ومناسبة قوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى﴾ لقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى﴾ هو لمراعاة الأدب الجم مع الله تعالى، فهو عليه السلام كان يريد أن يطلب من الله إعانة زوجه هاجر وابنه إسماعيل بعد موته، ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب، بل ذكر أنك يا رب تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا، ثم نوّه بحال ذريته بعد موته، فكان هذا دعاء لزوجه وابنه بالخير والمعونة بعد موته، على سبيل الرمز والتعريض.

وذلك - كما قال الرازي - يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة أفضل من الدعاء، قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن ربه أنه قال فيما رواه البخاري والبزار والبيهقي عن ابن عمر: «من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين».

ثم دعا بما يكون دليلاً على شكر الله فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي رب اجعلني مؤدياً صلاتي على أتم وجه، محافظاً عليها، مقيماً لحدودها.

واجعل بعض ذريتي كذلك مقيمي الصلاة؛ لأن ﴿وَمِن﴾ للتبعيض. وخص الصلاة بالذكر لأنها عنوان الإيمان، ووسيلة تطهير النفوس من الفحشاء والمنكر.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي اقبل يا رب دعائي، أو عبادتي في رأي ابن عباس بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ١٩/ ٤٨] . وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الجماعة وغيرهم عن النعمان بن بشير: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٠].

﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي﴾ أي ربنا استرني وتجاوز عن ذنوبي وذنوب والدي وذنوب المؤمنين كلهم يوم يثبت ويوجد الحساب فتحاسب عبادك على أعمالهم الخيرة والشريرة. قال الحسن: إن أمه كانت مؤمنة، وأما استغفاره لأبيه فكان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين أنه عدو لله، تبرأ منه، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ۝١١٤﴾ [التوبة: ٩/ ١١٤] .

ودعاء إبراهيم لنفسه لا يلزم منه صدور ذنب منه، وإنما المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى، والاعتماد على فضله وكرمه ورحمته.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - تعليمنا طلب نعمة الأمان من الله، فابتداء إبراهيم عليه السلام بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به.

٢ - مشروعية الدعاء للنفس والذرية والبلاد، بل ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

٣ - كان دعاء إبراهيم مركّزاً حول إخلاص التوحيد لله عز وجل، وتجنب عبادة الأصنام والأوثان، التي كانت سبباً في إضلال كثير من الناس، فدعاؤه جمع بين طلب أن يرزق التوحيد، وبين طلب صونه عن الشرك، وتضمن أيضاً طلب توفيقه لصالح الأعمال، وتخصيصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة.

٤ - الالتفاف حول النبي أو المصلح واجب؛ لقول إبراهيم: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾.

٥ - طلب المغفرة للعصاة غير الكفار؛ لأن الشرك أو الكفر لا يجوز بالإجماع طلب إسقاطه ومغفرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨] .

٦ - إسكان إبراهيم زوجه وابنه إسماعيل عند البيت الحرام كان لإقامة الصلاة.

وقد روى البخاري عن ابن عباس ما مفاده أن إبراهيم ترك هاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه، عند البيت، عند دَوْحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندهما جراباً، وسِقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل؛ فقالت: يا إبراهيم! أين

تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء، فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيِّعنا؛ ثم رجعت، فانطلق إبراهيم، حتى إذا كان عند الثَّنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾.

وبعد أن نفد ما في السقاء، عطشت وعطِش ابنها، فجعلت تسعى سعي المجهود بين الصفا والمروة، سبع مرات، قال النبي ﷺ: «فذلك سعي الناس بينهما» ثم سمعت وهي على المروة صوتاً، فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم، فبحث بعَقِبه أو بجناحه، حتى ظهر الماء. روى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شُرب له، إن شربتَه تشتفي به شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه، وهي هَزْمة[١] جبريل، وسُقْيا الله إسماعيل».

٧ً - لا يجوز لأحد أن يفعل فعل إبراهيم في طرح ولده وعياله بأرض مضيعة، اتكالاً على العزيز الرحيم، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله تعالى، لقوله في الحديث: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. وكان ذلك كله بوحي من الله تعالى.

٨ً - تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها؛ لأن معنى ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه.

٩ً - كان من بركة دعاء إبراهيم عليه السلام واستجابة الله له أن التعلق بالبيت الحرام وحبه والشوق إليه والحنين إلى زيارته متمكن في قلب كل مؤمن.

(١) هزمة جبريل: أي ضربها برجله فنبع الماء.

وقال ابن عباس في الآية: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً﴾ : سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكنى بمكة، فيصير بيتاً محرماً، وكل ذلك كان، والحمد لله، وأول من سكنه جُرْهم.

وأن مكة أصبحت ملتقى الأثمار والفواكه الآتية من كل الأنحاء والأمصار، وأنبت الله لهم بالطائف سائر الأشجار.

١٠ً - احتج أهل السنة بآية ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ على أن أفعال العبد مخلوقة لله تعالى، وهذا يشمل ترك المنهيات المنصوص عليه في هذه الآية: ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ وفعل المأمورات المنصوص عليه في آية: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصراً على أن الكل من خَلْق الله تعالى.

١١ً - دلَّ القرآن على أنه تعالى أعطى إبراهيم عليه السلام ولدين هما إسماعيل وإسحاق على الكبر والشيخوخة، ولم يتعرض القرآن لسن إبراهيم في ذلك الوقت، وإنما يؤخذ من روايات التاريخ.

ما يدل على وجود القيامة وأوصافها أو تأخير عذاب القيامة وأحوال المعذبين وتبدل السماوات والأرض

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾

القراءات:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: قرئ:

١- (تَحْسَبَنَّ) وهي قراءة عاصم، وابن عامر، وحمزة.

٢- (تَحْسِبَنَّ) وهي قراءة الباقين.

﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة وقفاً (يوخرهم).

﴿يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾:

وقرأ حمزة والكسائي، وخلف (يأتيهِم العذاب).

﴿لِتَزُولَ﴾:

وقرأ الكسائي (لَتزول).

الإعراب:

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ حال من ضمير ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ وتقديره: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار في هاتين الحالتين.

﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: مفعول ﴿وَأَنذِرِ﴾ الثاني ولا يجوز أن يكون ظرفاً لأنذر؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون الإنذار يوم القيامة، ولا إنذار يوم القيامة.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ فعل ماض فاعله مقدر، أي تبين لكم فعلنا بهم، ولا يجوز أن يكون ﴿كَيْفَ﴾ فاعل ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله، ولأن ﴿كَيْفَ﴾ لا يقع مُخْبَراً عنه، والفاعل يخبر عنه، وإنما ﴿كَيْفَ﴾ هنا منصوبة بقوله: ﴿فَعَلْنَا﴾.

﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ اللام لام الجحود، والفعل منصوب بتقدير «أن». و «إن» بمعنى «ما» وتقديره: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، على التصغير والتحقير لمكرهم. ومن قرأ بفتح اللام وضم آخر الفعل «لَتزولُ» كانت اللام للتأكيد، ودخلت للفرق بين «إن» المخففة من الثقيلة وبين «إن» بمعنى «ما» أي وإنه كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكان هنا تامة بمعنى وقع، والجبال: عبارة عن أمر النبي ﷺ لعظم شأنه.

﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ أي مخلف رسله وعده.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ يوم منصوب على الظرف بالمصدر قبله، وهو ﴿ٱنتِقَامٍ﴾. وما بعد ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ محذوف أي غير السماوات، لدلالة ﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ عليه.

﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾ اللام تتعلق بفعل ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ أو بفعل ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أو بمحذوف دل عليه قوله: ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ فيه تقدير، أي هذا بلاغ للناس وللإنذار؛ لأن «أن» المقدَّرة بعد اللام مع «ينذروا» في تأويل المصدر، وهو الإنذار. أو تقديره: هذا بلاغ للناس وأُنزل لينذروا به، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٧/٢].

البلاغة:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ﴾ فيه جناس الاشتقاق.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ حذف منه: «والسماوات تبدل غير السماوات» لدلالة ﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾.

﴿وَبَرَزُواْ﴾ عبر بالماضي محل المضارع «يبرزون» للدلالة على تحقق الوقوع، مثل ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١/١٦] أي فكأنه حدث ووقع، فأخبر عنه بصيغة الماضي.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ، والمراد تثبيته على ما هو

عليه من أنه مطلع على أحوالهم وأفعالهم، لا يخفى عليه خافية، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة، أو هو خطاب لكل من توهم غفلته جهلاً بصفات الله واغتراراً بإمهاله. ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخر عذابهم. ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الكافرون من أهل مكة وأمثالهم. ﴿تَشْخَصُ﴾ ترتفع فيه أبصارهم فلا تقر في أماكنها، لهول ما ترى، يقال: شخص بصر فلان، أي فتحه فلم يغمضه. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ومقبلين، وأصله الإقبال على الشيء. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعيها إلى السماء ناظرة أمامها. ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم بصرهم، بل تبقى عيونهم شاخصة لا تطرف. ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ قلوبهم خالية من العقل والفهم لفزعهم، وفرط الحيرة والدهشة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ خوِّف يا محمد الكفار. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ هو يوم القيامة، أو يوم الموت، فإنه أول أيام عذابهم. ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالكفر أو الشرك والتكذيب. ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أخِّر العذاب عنا، وردَّنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى حد من الزمان قريب، أو أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك، ونجيب دعوتك بالتوحيد. ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ الذين أرسلتهم، وهذا وما قبله جواب الأمر، ونظيره: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/ ١٠].

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾ يقال لهم توبيخاً، أي حلفتم أنكم باقون في الدنيا لا تُزالون بالموت. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ في الدنيا. ﴿مِّن زَوَالٍ﴾ ﴿مِّن﴾: زائدة، أي زوال عن الدنيا إلى الآخرة. ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي كعاد وثمود. ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من العقوبة وما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم، فلم تنزجروا. ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ بينا لكم الأمثال في القرآن فلم تعتبروا، وأنكم مثلهم في الكفر والعذاب. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ بالنبي ﷺ حيث أرادوا قتله أو تقييده أو إخراجه، وبذلوا فيه غاية

جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل .﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي علمه أو جزاؤه .﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي وما كان مكرهم، وإن عظم، معدّاً لإزالة الجبال، أي لا يعبأ به ولا يضر إلا أنفسهم، فهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتاً وتمكناً، والمراد بالجبال هنا: حقيقتها، وقيل: شرائع الإسلام المشبهة بها في القرار والثبات. ومن قرأ بفتح لام ﴿لِتَزُولَ﴾ ورفع الفعل، فتكون «إن» مخففة، والمراد تعظيم مكرهم، مثل قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٩٠] .

﴿مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ بالنصر .﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه شيء ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ قادر من الانتقام لأوليائه من أعدائه وكل من عصاه .﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ﴾ اذكر ذلك وهو يوم القيامة، فيحشر الناس على أرض بيضاء نقية، كما في حديث الصحيحين .﴿وَبَرَزُواْ﴾ خرجوا من القبور .﴿وَتَرَى﴾ تبصر يا محمد. ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكافرين .﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ أي مشدودين بعضهم مع بعض أو مع شياطينهم .﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ في القيود أو الأغلال، جمع صَفَد .﴿سَرَابِيلُهُم﴾ قُمصهم، جمع سربال وهو القميص .﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ لأنه أبلغ لاشتغال النار، والقطران: أسود منتن، تشتعل فيه النار بسرعة، يطلى به جلود أهل النار، حتى يكون طلاؤه لهم كالقُمُص، ليجتمع عليهم لذع القطران، ووحشة لونه، ونتن ريحه، مع إسراع النار في جلودهم. والقطران: دُهْن يتحلب من شجر العَرْعَر والتوت، كالزفت، تدهن به الإبل حال الجرب، ويقال له: الهنَاء، تُهْنَأُ به الإبل الجربى، أي تطلى .﴿وَتَغۡشَىٰ﴾ تعلو وتحيط بها.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَبَرَزُواْ﴾، فتجازى كل نفس مجرمة أو مطيعة بما فعلت في الدنيا من خير أو شر .﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يحاسب جميع الخلْق، في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، لحديث ورد بذلك .﴿هَٰذَا﴾ القرآن .﴿بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي أنزل لتبليغهم، وهو كفاية في

العظة والتذكير. ﴿وَلِيَعْلَمُوٓاْ﴾ بما فيه من الحجج. ﴿أَنَّمَا هُوَ﴾ أن الله إله واحد. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ وليتعظ. ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى دلائل التوحيد، وبعد أن حكى عن إبراهيم أنه طلب من الله أن يصونه من الشرك وأن يوفقه لصالح الأعمال، وأن يخصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة، ذكر ما يدل على وجود يوم القيامة بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ وما يدل على صفة يوم القيامة بقوله: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إلخ.

التفسير والبيان:

ولا تحسبن يا محمد أن الله إذا أنظر الناس وأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة، أنه غافل عنهم، مهمل لهم، لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك عليهم، ويعده عليهم عداً. والمقصود من الآية إثبات وجود يوم القيامة بطريق التنبيه على أنه تعالى سينتقم للمظلوم من الظالم.

وهو وإن كان خطاباً للنبي ﷺ صورة، فالمراد به أمته، بأسلوب «إياك أعني واسمعي ياجارة». وفيه تسلية للمؤمنين، وتهديد للظالمين بأن الله يحصي عليهم أعمالهم ويعلم بها، وسيجزيهم على ظلمهم في الوقت المناسب، فعقابهم آتٍ لا محالة؛ لأن العلم بالظلم الصادر منهم موجب لعقابهم.

ثم بيَّن الله تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بالصفات التالية:

أً - أنه تشخص فيه الأبصار، أي أنه يمهلهم ويؤخرهم ليوم شديد الهول، ومن شدة أهواله تظل الأبصار فيه مفتوحة لا تطرِف ولا تغمض، من شدة الفزع والحيرة والدهشة. ثم وصف كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر، فقال:

٢ً - ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي أنهم يأتون من قبورهم إلى المحشر مسرعين بالذل والمهانة، كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٨/٥٤] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ٢٠/١٠٨-١١١] وقال عز وجل: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٧٠/٤٣].

٣ً - ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم، ينظرون في ذل وخشوع، ولا يلتفتون إلى شيء.

٤ً - ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم، بل تظل أبصارهم شاخصة مفتوحة تديم النظر، لا يطرفون ولا يغمضون، لكثرة ماهم فيه من شدة الهول والفزع، والمراد من هذه الصفة دوام الشخوص.

٥ً - ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية لا شيء فيها من القوة، مضطربة، لكثرة الخوف. والمراد أن قلوب الكفار خالية من الخواطر؛ لعظم الحيرة، ومن كل رجاء وأمل؛ لما تحققوه من العقاب، وخالية من كل سرور؛ لكثرة الحزن.

ووقت حصول هذه الأوصاف عند المحاسبة؛ لأنه تعالى ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب.

ثم ذكر تعالى مقالة هؤلاء المعذبين حين رؤية الهول، فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي وخوّف أيها النبي الناس جميعاً من أهوال عذاب يوم القيامة، حين يقول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب هلعاً وجزعاً: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ

﴿أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي ردنا إلى الدنيا، وأمهلنا إلى وقت آخر قريب العودة إليك، نتدارك فيه ما فرطنا في الدنيا، من إجابة دعوتك إلى التوحيد وإخلاص العبادة لك، واتباع رسلك فيما أرسلتهم به، مثل قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/١٠] وكقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٩٩-١٠٠] .

فرد الله تعالى عليهم موبخاً لهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة حينما كنتم في الدنيا: أنكم إذا متم لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، أي كنتم تنكرون البعث والحساب، وتزعمون أنه لا انتقال لحياة أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ١٦/٣٨] فذوقوا هذا العذاب بذلك الإنكار.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ أي والحال أنكم أقمتم في الظلم والفساد، وصاحبتم الظالمين لأنفسهم، وسرتم سيرتهم، بالرغم من أنه تبين لكم، ورأيتم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقاب لتكذيبهم وجحودهم وصدودهم عن دعوة الحق، وعاينتم آثار عذابهم، وظهر لكم أن عاقبتهم آلت إلى الوبال والخزي والنكال، وضربنا لكم الأمثال، وهو ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على الإعادة، كما قدر على الابتداء، وقادر على التعذيب المؤجل، كما يفعل الهلاك المعجل، وذلك في كتاب الله كثير، ولكنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا، فلم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر، فكيف تطلبون العودة والتأخير للتوبة؟! وقد فات الأوان.

ثم بيّن الله تعالى تشابه أحوالهم مع أحوال السابقين، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ أي إن هؤلاء الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم لم

تتغير حالهم عن حال من سبقهم، فإنهم مكروا مكرهم جهد طاقتهم في إبطال الحق وتقرير الباطل، ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي وعند الله العلم بمكرهم، أو جزاؤهم، فكل شيء معلوم منهم، ومكتوب ومسجل عليهم، وسيجازيهم عليه الجزاء العادل، ويحاسبهم الحساب الشديد.

ثم ذكر أن عاقبة مكرهم الخسران فقال: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ أي ما كان مكرهم قادراً لإزالة آيات الله وشرائعه ومعجزاته التي هي كالجبال الراسخات، أو المعنى: أنه وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة مثل قوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: ٢٢/٧١] فمحال أن تزول الجبال بمكرهم، والمراد بالجبال آيات الله وشرائعه؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمكناً، فهذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به، ما ضر ذلك شيئاً من الجبال ولا غيرها، وإنما ضر أنفسهم، وعاد وبال ذلك عليهم. والمقصود تصغير مكرهم وتحقيره وتهوينه، فليس من شأنه إزالة الآيات وإبطال النبوات الثابتة ثبوت الجبال، والجبال لا تزول، ولكن العبارة مجاز عن تعظيم الشيء ووصفه كيف يكون.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن أيها الرسول أن الله مخلف رسله وعده، بل هو منجز لهم ما وعدهم به، والمراد تثبيت أمته على الثقة بوعد ربه بنصرهم وتعذيب الظالمين، كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: ٢١/٥٨] وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١/٤٠] وآية﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ هنا هي تقرير وتأكيد لهاتين الآيتين، أي من نصرتكم في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ أي إن الله ذو عزة وقدرة لا يعجزه ولا يمتنع عليه شيء أراده، وشاء عقوبته، وهو ذو انتقام ممن كفر به وجحده، أو

أشرك معه إلهاً آخر. وهذه خاتمة مناسبة للآية، تؤكد الحرص على إنجاز الوعد للرسل.

ثم ذكر الله تعالى وقت انتقامه فقال: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي إن الله تعالى ذو انتقام من أعدائه، ووعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، فتصبح على غير الصفة المألوفة المعروفة، وتبدل أيضاً السماوات غير السماوات، أما الأرض الحالية فتصبح كالدخان المنتشر، وأما السماوات فتتبدد كواكبها وشمسها وقمرها.

جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقيّ، ليس فيها معلم لأحد».

وروى أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن عائشة قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: على الصراط».

واختلف العلماء في تبديل الأرض والسماوات، فقيل: تبدّل أوصافها فتسيّر عن الأرض جبالها، وتفجّر بحارها وتسوّى، فلا يُرى فيها عوج ولا أمت[1]، قال ابن عباس: هي تلك الأرض، وإنما تغير. وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها.

وقيل: يخلق بدلها أرضاً وسماوات أخر، عن ابن مسعود وأنس: «يحشر الناس على أرض بيضاء، لم يخطئ عليها أحد خطيئته»[2].

والعلماء يقررون أن الأرض والكواكب كانت كتلة ملتهبة في الفضاء، ثم

---

(١) الأمت: المكان المرتفع والتلال الصغار، والانخفاض والارتفاع.

(٢) الكشاف: ٢/ ١٨٥

انفصلت عنها الشمس والكواكب السيارة، ثم الأرض، ثم الأقمار. وستنحل هذه المجموعة، وتكون سماوات غير هذه السماوات، وأرض غير هذه الأرض.

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ أي وخرجت الخلائق جميعها من قبورهم انتظاراً لحكم الله الواحد، الذي قهر كل شيء وغلبه، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ٤٠/١٦] وفي هذا تهويل وتخويف.

ولما وصف الله تعالى نفسه بكونه قهاراً، أبان عجز الناس وذلتهم أمامه، وذكر من صفاتهم:

١ - كون المجرمين مقرنين في الأصفاد، أي ترى يا محمد المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم مقيدين بعضهم إلى بعض في الأغلال أو القيود، فيجمع بين النظراء أو الأشكال، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٢] وقال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾﴾ [التكوير: ٨١/ ٧] أي تقرن نفوس المؤمنين بالحور العين، ونفوس الكافرين بالشياطين وقال: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩٤].

٢ - ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي قمصهم من القطران، والمراد أن جلود أهل النار تطلى بالقطران، حتى تصبح كالسرابيل، ليحصل بسببها أربعة أنواع من العذاب: لذع القطران وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونَتْن الريح. وأيضاً التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين.

٣ - ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي تحيط النار بأجسامهم، وإنما ذكرت الوجوه؛ لأنها أشرف الأعضاء وأعزها، مثل قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠٤] وقوله: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٤] وقوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى

ﭐلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٥٤/٤٨] .

ثم بين الله تعالى سبب الجزاء فقال: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾ أي إنه تعالى فعل كل ذلك ليجزي يوم القيامة كل شخص بما يليق بعمله وكسبه، من خير أو شر، فيعاقب المجرمين أو الكفار على كفرهم ومعصيتهم، ويثيب المؤمنين على إيمانهم وطاعتهم، كما قال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٥٣/٣١] .

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي إنه تعالى يحاسب جميع العباد بسرعة وهي في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، كما جاء في الحديث، ولا يظلم الناس ولا يزيد في عقابهم الذي يستحقونه، وهو سريع الإنجاز؛ لأنه يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: ٣١/٢٨] ، وهو سريع الإحصاء.

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغ وكفاية في الموعظة، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: ٦/١٩] أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن.

﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي ليكون منذراً لهم بالعقاب ومحذراً من العذاب، وهو معطوف على محذوف أي لينتصحوا ولينذروا بهذا البلاغ.

﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ أي وليستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي وليتذكر ويتعظ به ذوو العقول أي إن لهذا البلاغ ثلاث فوائد: وهي التخويف من عذاب الله، والاستدلال به على وجود الخالق ووحدانيته، والاتعاظ به وإصلاح شؤون الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - وجود يوم القيامة بنحو مؤكد مقطوع به، أما تأخير العذاب الشديد ليوم القيامة فلحكمة إلهية يعود نفعها إلى مصلحة العباد، كيلا يعجل بعقابهم وتترك الفرصة لهم لإصلاح أحوالهم، فليس تأخير العذاب للرضا بأفعالهم، بل سنة الله إمهال العصاة مدة. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عما ساءه من إعراض المشركين عن الإيمان بدعوته، قال ميمون بن مِهْران: هذا وعيد للظالمين، وتعزية للمظلوم.

٢ - يسيطر على يوم الحساب الحيرة والدهشة، والخوف والفزع، والاضطراب والقلق، فترى المجرمين حيارى لا تغمض أعينهم من هول ما يرونه في ذلك اليوم، ويسرعون في الخروج من القبور إلى مكان دعاء الداعي لهم بالتجمع في موقف الحساب، ناظرين من غير أن يَطْرفوا، ورافعي رؤوسهم ينظرون في ذل واستكانة، لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر، فهي شاخصة النظر، وأفئدتهم خاوية خربة ليس فيها خير ولا عقل، ولا وعي ولا فهم من شدة الخوف.

٣ - لا مناص من العذاب يوم القيامة ولا مفر منه، ولا أمل ولا رجاء في العودة إلى الدنيا لإصلاح الاعتقاد والأقوال والأفعال.

٤ - ما أكثر المواعظ والعبر وأقل الاتعاظ والاعتبار!! فقد سكن الناس في مساكن الظالمين، في بلاد ثمود ونحوها، ولم يعتبروا بمساكنهم، بعد ما تبين ما فعل الله بهم، وبعد أن ضرب الله لهم الأمثال في القرآن للعظة والعبرة.

٥ - لا جدوى من مكر الكافرين الشديد بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة، فعند الله العلم التام بمكرهم، وهو مجازيهم عليه. ومكرهم حقير

مهين لا يؤدي إلى شيء، من إزالة جبال الأرض، وإزاحة الإسلام والقرآن الثابتين ثبوت الجبال الراسيات، وقد حفظ الله رسوله ﷺ من ألوان مكرهم.

٦ً - الله تعالى منجز وعده لرسله وأوليائه لا محالة، ولن يخلف الله وعده بنصر أهل الحق وعقاب المبطلين، والله تعالى قوي غالب منتقم من أعدائه، ومن أسمائه: المنتقم الجبار.

٧ً - تتبدل الأرض والسماوات يوم القيامة، وتبدل الأرض في رأي الأكثرين: عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها. وتبدل السماوات: انتثار كواكبها وتصدعها وانشقاقها وتكوير شمسها وخسوف قمرها.

٨ً - للمجرمين في النار صفات كئيبة، فهم مقيدون بالأغلال والقيود، وتطلى جلودهم بالقَطِران، وتضرب النار وجوههم فتغشِّيها وتحيط بها وبجميع أجسادهم.

٩ً - إن حشر الناس يوم المعاد لإنصاف الخلائق وإقامة صرح العدل المطلق بينهم، ومجازاة كل امرئ بما عمل، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

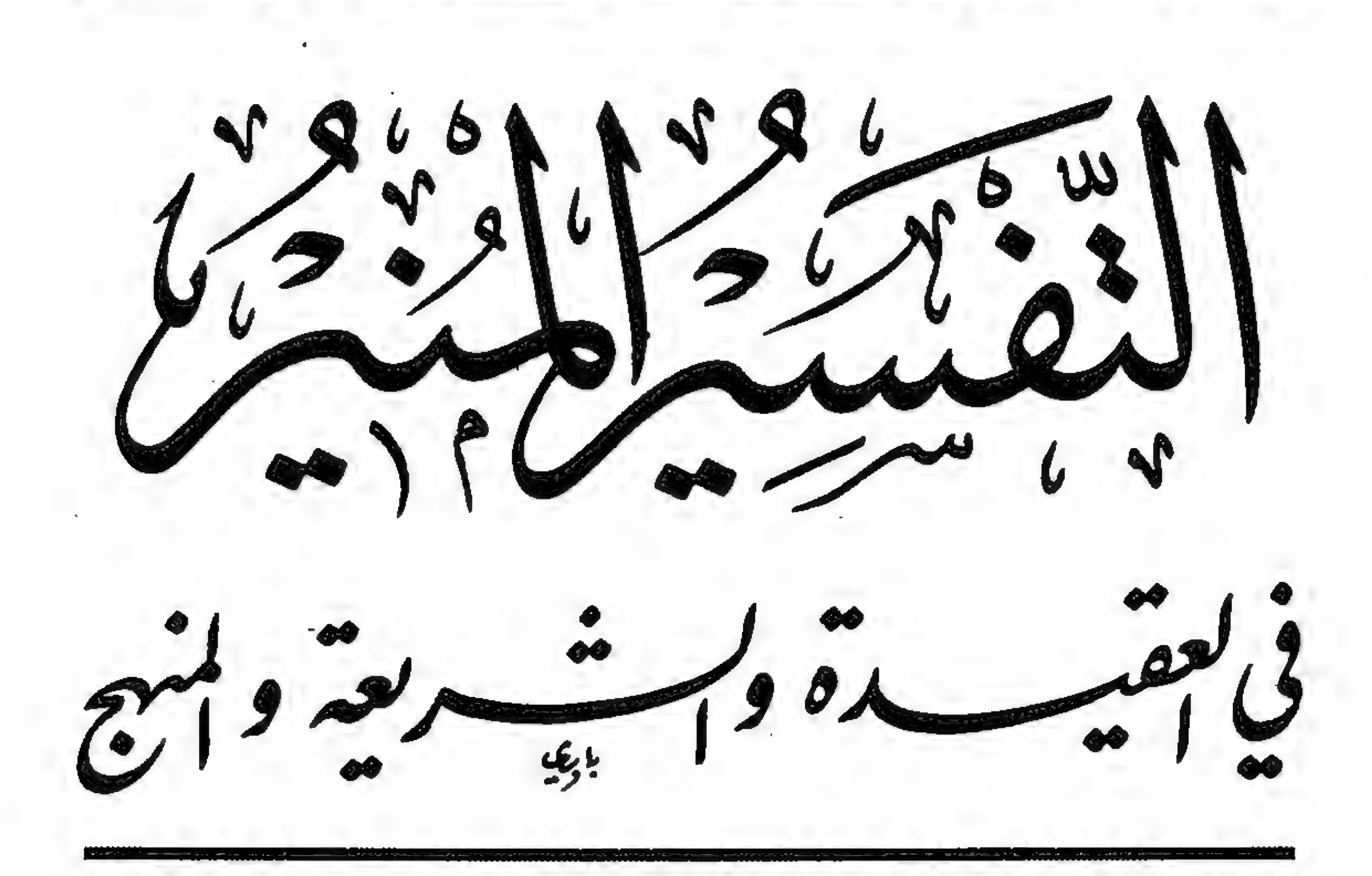
١٠ً- القرآن وما فيه من عظات تبليغ للناس وعظة، وإنذار وتخويف من عقاب الله عز وجل، ومصدر للعلم بوحدانية الله بما تضمنه من الحجج والبراهين، وموعظة يتعظ به أصحاب العقول. روى يَمان بن رِئاب أن هذه الآية ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وسئل بعضهم، هل لكتاب الله عنوان؟ فقال: نعم؛ قيل: وأين هو؟ قال: قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ إلى آخرها.

١١ً - هذه الآية الأخيرة من السورة دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله؛ لأنه تعالى بيَّن أنه إنما أنزل هذه الكتب، وإنما بعث الرسل لتذكير أولي الألباب.

١٢ً - أول هذه السورة مقرون بآخرها ومطابق له في المعنى، فأولها: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية، وآخر السورة: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ يدل على أنه تعالى ذكر هذه المواعظ والنصائح لينتفع الخلق بها، فيصيروا مؤمنين مطيعين، ويتركوا الكفر والمعصية.

انتهى الجزء الثالث عشر ولله الحمد

بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء الرابع عشر



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر

مكية، وهي تسع وتسعون آية

تسميتها:

سميت سورة الحجْر لذكر قصة أصحاب الحجر فيها، وهم ثمود، والحجر: وادٍ بين المدينة والشام.

مناسبتها لما قبلها:

هناك تناسب بين هذه السورة وسورة إبراهيم في البدء والختام والمضمون، أما البداية: فكلتا السورتين افتتحتا بوصف الكتاب المبين، وأما المضمون: ففي كليهما وصف السماوات والأرض، وإيراد جزء من قصة إبراهيم عليه السلام وبعض قصص الرسل السابقين، تسلية لرسول الله ﷺ عما تعرض له من أذى قومه بتذكيره بما تعرض له الأنبياء من قبله، ونصرة الله لهم، مع نقاش الكفار والمشركين.

وأما الخاتمة: ففي سورة إبراهيم وصف تعالى أحوال الكفار يوم القيامة بقوله: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم:

٤٨/١٤-٥٠] ثم قال هنا في هذه السورة: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم في النار، ورأوا عصاة المؤمنين والموحدين قد أخرجوا منها، تمنوا أن لو كانوا في الدنيا مسلمين. هذا مع اختتام آخر سورة إبراهيم بوصف الكتاب: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾ [إبراهيم: ٥٢/١٤] وافتتاح هذه به ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾﴾ وهذا تشابه في الأطراف بداية ونهاية[١].

ما اشتملت عليه السورة:

تتفق هذه السورة مع بيان أهداف التنزيل المكي وهي إثبات الوحدانية والنبوة والبعث والجزاء، والتذكير بمصارع الطغاة ومكذبي رسل الله الكرام، لذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد، والتهويل والتوبيخ: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

وتضمنت السورة ما يأتي:

١ً - مناقشة الكفار والمشركين الذين كذبوا بالرسل وبما أتوا به من آيات، بدءاً من أبي البشر الثاني: نوح عليه السلام إلى خاتم النبيين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠/١٥-١١].

٢ً - إيراد الأدلة والبراهين على وجود الله تعالى من خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان، ومشاهد الرياح اللواقح، والحياة والموت، والحشر والنشر: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: ١٦/١٥]

---

(١) تناسق الدرر في تناسق السور للسيوطي، طبع دمشق: ٦٢.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٥/ ١٩] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٦] ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٢] ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٣] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٥] وبيان حكمة خلق الموجودات: وهي عبادة الله وإقامة العدل وإرساء دعائم النظام في الحياة.

٣ً - إثبات صدق الوحي على النبي ﷺ: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٨-٩] .

٤ً - الإشارة لنظرية ظلمة السماء: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ١٤-١٥] .

٥ً - قصة آدم وإبليس المعبِّرة عن الطاعة والرفض، بامتثال الملائكة أمر الله بالسجود لآدم وتعظيمه، وأمر إبليس بالسجود له وعصيانه الأمر: ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ، فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٢٩-٣١] .

٦ً - وصف حال أهل الشقاوة والنار، وأهل السعادة والتقوى والجنة [٤٢ - ٤٨].

٧ً - تسلية الرسول ﷺ منعاً لليأس والقنوط بتذكيره بقصة لوط وشعيب وصالح عليهم السلام مع أقوامهم الذين دمرهم الله [قصة آل لوط: ٥٨ - ٧٧] [أصحاب الأيكة: قوم شعيب: ٧٨ - ٧٩] [أصحاب الحجر: ثمود: ٨٠ - ٨٤].

٨ً - بيان ما أنعم الله به على نبيه من إنزال القرآن [٨٧] وإهلاك أعدائه

المستهزئين [٩٥] وأمره بعدم الافتتان بتمتيع الآخرين بالدنيا، وأمره بالتواضع للمؤمنين [٨٨] والجهر بالدعوة [٩٤] والصبر والتسبيح والعبادة حتى الموت عند مضايقته باستهزاء المشركين [٩٧ - ٩٩].

والخلاصة: تضمنت السورة دلائل التوحيد، وأحوال القيامة، وصفة الأشقياء والسعداء، وبعض قصص الأنبياء، وأفضال الله على نبيه المصطفى ﷺ.

وصف القرآن وتهديد الكافرين والعصاة

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾

القراءات:

﴿وَقُرْءَانٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (قَرَان).

﴿رُّبَمَا﴾:

قرئ:

١- (رُبَمَا) وهي قراءة نافع، وعاصم.

٢- (رُبَّما) وهي قراءة الباقين.

﴿وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ﴾:

قرئ:

١- (ويلهِهِم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (ويلهِهُم) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (ويلهِهُم) وهي قراءة الباقين.

﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (يستاخرون).

الإعراب:

﴿رُّبَمَا﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد، فالتشديد على الأصل، والتخفيف لكثرة الاستعمال. و(ما) فيها كافة عن العمل، وخرجت بها عن مذهب الحرف؛ لأن (رُبَّ) حرف جر، وحرف الجر يلزم للأسماء، فلما دخلت (ما) عليها، جاز أن يقع بعدها الفعل، وصارت بمنزلة «طالما وقلّما». ولا يدخل بعد ﴿رُّبَمَا﴾ إلا الماضي، وإنما جاء ههنا المضارع بعدها، على سبيل الحكاية، ولما كان إخبار الحق تعالى متحققاً، لا شك في وجوده لتحققه، نزّل المستقبل منزلة الماضي الذي وقع ووُجد.

و ﴿رُّبَمَا﴾ معناها التقليل كرُب، وقد يراد بها الكثرة، على خلاف الأصل.

﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ مفعول في موضع نصب؛ لأنه مفعول ﴿يَوَدُّ﴾.

﴿يَأۡكُلُواْ﴾ جواب الأمر أو الطلب.

﴿وَلَهَا كِتَابٌ﴾ ﴿كِتَابٌ﴾ مبتدأ مرفوع ﴿وَلَهَا﴾ خبره، والجملة: في موضع جرّ؛ لأنها صفة .﴿قَرۡيَةٍ﴾ ويجوز حذف واو ﴿وَلَهَا﴾ نحوياً لمكان

الضمير، والأصل ألا تدخلها الواو مثل ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٠٨] ولكن لما شابهت صورتها صورة الحال، أدخلت عليها، تأكيداً للصوقها بالموصوف.

البلاغة:

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ المراد أهلها، من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحالّ.

المفردات اللغوية:

﴿الٓر﴾ إشارة لتحدي العرب بإعجاز القرآن البياني، أي هذا الكتاب كلام الله المنظوم من حروف لغتكم العربية الهجائية: ألف، ولام، وراء. ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو السورة، وكذا القرآن، أي هذه آيات الكتاب العظيم المتميز بالفصاحة الكاملة والبيان التام ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي وقرآن واضح تام البيان، لا خلل فيه، مظهر للحق من الباطل. والكتاب والقرآن المبين: الكتاب الذي وعد الله تعالى به محمداً ﷺ. وتنكير ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ للتفخيم، والمعنى: تلك آيات الكتاب الجامع لكونه كتاباً وقرآناً، فهو كامل في كونه كتاباً، وفي كونه قرآناً مفيداً للبيان.

﴿رُّبَمَا﴾ تدل على أن ما بعدها قليل الحصول، وقد تستعمل في الكثير، كما هنا، فإنه يكثر منهم تمني الإسلام، وقيل: للتقليل، فإن الأهوال تدهشهم، فلا يفيقون حتى يتمنوا ذلك إلا في أحيان قليلة. وما: كفّت دخول «رب» عن الجر، فجاز دخوله على الفعل، و«ما»: نكرة موصوفة، أي رب شيء ﴿يَوَدُّ﴾ يتمنى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين ﴿ذَرْهُمْ﴾ دعهم واتركهم يا محمد ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِهِمُ﴾ يشغلهم ﴿ٱلْأَمَلُ﴾ بطول العمر وغيره عن الإيمان ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم، وسوء صنيعهم إذا عاينوا جزاءه. والغرض إقناط الرسول ﷺ من

ارعوائهم وإيذانه بأنهم من أهل الخذلان، وأن نصحهم يعدّ اشتغالاً بما لا طائل تحته. وفيه إلزام للحجة، وتحذير عن إيثار التنعم، وما يؤدي إليه طول الأمل.

﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ ﴿مِن﴾ زائدة للتمكين ﴿قَرْيَةٍ﴾ المراد أهلها ﴿كِتَابٌ﴾ أجل ﴿مَّعْلُومٌ﴾ محدود لإهلاكها، أي لها أجل مقدر كتب في اللوح المحفوظ ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي ما يتقدم زمان أجلها، و﴿مِنْ﴾ زائدة .﴿وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ يتأخرون عنه، وتذكير هذا الفعل العائد على ﴿أُمَّةٍ﴾ للحمل على المعنى.

التفسير والبيان:

﴿الٓر﴾ هذه الحروف المقطعة قصد بها التنبيه وإشعار العرب بإعجاز القرآن البياني، وتحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة منه، لأنه نزل بلغتهم، وتكوّن من حروفها التي تتركب منها الكلمات ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي تلك الآيات من هذه السورة هي آيات الكتاب الكامل في كل شيء، وآيات القرآن المبين التام الوضوح والبيان لهذه السورة وغيرها. وتنكير كلمة ﴿وَقُرْءَانٍ﴾ للتفخيم، وقد جمع بين الوصفين: ﴿ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ للدلالة على أنه الكتاب الجامع للكمال، والغرابة في البيان، كما ذكر الزمخشري.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ﴾ أي ولكن الكفار سيندمون يوم القيامة على ماكانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين. وكلمة ﴿رُّبَمَا﴾ وإن كانت للتقليل، فهي أبلغ في التهديد. ذكر ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن كفار قريش لما عرضوا على النار، تمنوا أن لو كانوا مسلمين. قال الزجاج: الكافر كلما رأى حالاً من أحوال العذاب، ورأى حالاً من أحوال المسلم، ودّ لو كان مسلماً.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٧].

روى الطبراني عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار، ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم الإسلام، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب، فأُخِذْنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بمن كان في النار من أهل القبلة، فأخرجوا. فلما رأى ذلك من بقي من الكفار، قالوا: ياليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما خرجوا» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

ثم هددهم الله وأوعدهم بتهديد شديد ووعيد أكيد، فقال:

﴿ذَرْهُمْ﴾ أي دع يامحمد الكفار في ملاهيهم وتمتعهم بلذات دنياهم، يأكلون كما تأكل الأنعام، وتلهيهم الآمال عن التوبة والإنابة أو عن الآخرة والأجل، فسوف يعلمون عاقبة أعمالهم وأمرهم. كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٣٠] وقوله: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٤٦] ويلاحظ أن الآيات الثلاث عللت سبب إهمالهم في الدنيا، إذ لا حظَّ لهم في الآخرة.

ثم ذكر تعالى سبب تأخير عذاب الكفار إلى يوم القيامة فقال: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾ أي إن سنة الله تعالى في الأمم واحدة، وهي أنه لا يهلك أهل قرية إلا بعد قيام الحجة عليهم، وإبلاغهم طريق الرشد والحق، وانتهاء أجلهم المقرر والمقدر لهم في اللوح المحفوظ، وأنه لا يؤخر عذاب أمة حان هلاكهم عن وقته المحدد، ولا يتقدمون عن مدتهم: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٨] ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٤].

والمقصود بالآيات: أنه لو شاء الله لعجل العذاب للكفار، ولكن اقتضت حكمته إمهالهم لعلهم يتوبوا، فإن لكل أمة أجلاً معيناً، لا تأخير فيه ولا تقديم، والله تعالى يمهل ولا يهمل.

وهذا تنبيه لأهل مكة وأمثالهم وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك، كما قال ابن كثير.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى مايأتي:

١ - القرآن الكريم جامع بين صفة الكمال في كل شيء، والوضوح والبيان، فلا نقص فيه ولا خلل، ولا غموض ولا لبس، وإنما يُظهر الحق من الباطل لكل إنسان.

٢ - سيندم الكفار يوم القيامة على كفرهم، ويتمنون أن لو كانوا مسلمين في أوقات كثيرة؛ لأن ﴿رُبَمَا﴾ وإن كانت تستعمل في الأصل للقليل، إلا أنها قد تستعمل في الكثير، ومن عادة العرب أنهم إذا ذكروا التكثير، ذكروا لفظاً وضع للتقليل، ثم إن هذا التقليل أبلغ في التهديد.

٣ - يهتم الكفار عادة بالماديات، فتراهم منغمسين في الشهوات والأهواء واللذات، معتمدين على الآمال المعسولة، مغترين بالأماني الزائفة، منشغلين بالدنيا عن الطاعة والعمل للآخرة. وقد هددهم الله بتركهم في مآكلهم ومُتَعهم، وحذرهم من عاقبة صنيعهم.

والآية تدل على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدي إليه طول الأمل ليس من شأن أخلاق المؤمنين.

وورد في السنة النبوية أحاديث كثيرة في ذم الأمل مطلقاً، منها ما رواه أحمد

والشيخان والنسائي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يهرم ابن آدم، ويبقى معه اثنتان: الحرص والأمل» وفي مسند البزار عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة من الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب، وطول الأمل، والحرص على الدنيا».

وروى أحمد والطبراني والبيهقي عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل».

٤ً - لا ظلم في إهلاك الأمم الكافرة المكذِّبة للرسل، وإنما هلاكها بسبب جحودها وكفرها وتكذيبها بآيات الله ورسله.

٥ً - إن هلاك الأمم ليس عشوائياً ولا كيفياً حسب رغبات الناس، وإنما هو مقدر بتاريخ معين، ومقرر في أجل محدد، لا تأخير فيه ولا تقديم.

بعض مقالات المشركين في النبي ﷺ والرد القاطع عليها

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

القراءات: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾:

قرئ:

١- (ما نُنزِّل الملائكةَ) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (وما تَنَزَّل الملائكةُ) وهي قراءة الباقين.

﴿سُكِّرَتْ﴾ :

وقرأ ابن كثير (سُكِرَتْ).

الإعراب:

﴿لَّوْ مَا﴾ بمعنى هلا، وهي مركبة من «لو» التي معناها امتناع الشيء لامتناع غيره، و«ما» التي تسمى المغيِّرة؛ لأنها غيرت معنى «لو» من معنى امتناع الشيء لامتناع غيره، إلى معنى «هلا». مثل تركيب «لولا» صارت بمعنى «هلا» في أحد وجهيها، وبمعنى امتناع الشيء لوجود غيره.

﴿إِذًا﴾ أصلها: إذ أن ومعناه: حينئذ، فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة، فحذفوها.

﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ ﴿نَحْنُ﴾ في موضع نصب؛ لأنه تأكيد للضمير الذي هو اسم «إن» في ﴿إِنَّا﴾. ويجوز أن يكون في موضع رفع مبتدأ، و﴿نَزَّلْنَا﴾ خبره، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع رفع خبر «إن».

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ محله النصب على الحال.

ولا يجوز أن يكون ﴿نَحْنُ﴾ هنا ضمير فصل لا موضع له من الإعراب؛ لأنه ليس بعده معرفة، ولا ما يقارب المعرفة؛ لأن ما بعده جملة، وهي نكرة، فتكون صفة للنكرة، وشرط الفصل أن يكون بين معرفتين أو بين معرفة وما يقارب المعرفة .﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ ﴿وَمَا﴾ للحال، وهذا على حكاية الحال الماضية.

البلاغة:

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿مُّنظَرِينَ﴾ بينها سجع، وكذلك بين ﴿يَعْرُجُونَ﴾ و﴿مَّسْحُورُونَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ﴾ نادوا به النبي ﷺ على التهكم ﴿ٱلذِّكْرُ﴾ القرآن ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ أي إنك لتقول قول المجانين، حتى تدّعي أن الله تعالى نزل عليك الذكر أي القرآن ﴿لَّوْ مَا﴾ أي هلا، للتحضيض على فعل ما يقع بعدها ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في دعواك أو قولك: إنك نبي، وإن هذا القرآن من عند الله ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا تنزيلاً ملتبساً بالحق وملازماً له، أي بالوجه الذي قدره واقتضته حكمته، ولا حكمة في أن تأتيكم بصورة تشاهدونها، فإنه لا يزيدكم إلا لبساً وخلطاً، ولا في معاجلتكم بالعقوبة، فإن بعضكم وبعض ذريتكم سيؤمن، وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي الوحي أو العذاب ﴿إِذًا﴾ أي حين نزول الملائكة بالعذاب ﴿مُّنظَرِينَ﴾ مؤخرين.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ القرآن، وهو رد لإنكارهم واستهزائهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ من التبديل والتحريف، والزيادة والنقص، بأن جعلناه معجزاً مبايناً لكلام البشر، بحيث لا يخفى تغيير نظمه على أهل العربية، أو المراد نفي تطرق الخلل إليه أثناء بقائه بضمان الحفظ له. ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أي أرسلنا رسلاً ﴿فِى شِيَعِ﴾ فِرَق، وهي جمع شيعة: وهي الفرقة أو الجماعة المتفقة على رأي واحد، في العقيدة أو في المذهب، أو في الرأي. ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاء قومك بك، وهذا تسلية له ﷺ. ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ نُدْخله، أي مثل إدخالنا التكذيب في قلوب أولئك ندخله ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي كفار مكة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالنبي ﷺ ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي مضت سنة الله فيهم من تعذيبهم بتكذيبهم أنبياءهم، وهؤلاء مثلهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾ على هؤلاء المقترحين ﴿فَظَلُّوا۟ فِيهِ﴾ في الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾ سُدَّت ومنعت عن الإبصار ﴿مَّسْحُورُونَ﴾ قد سحرنا محمد بذلك، يخيل إلينا أننا مسحورون، والإضراب ببل دلالة على البت بأن ما يرونه لا حقيقة له، بل هو باطل خيل إليهم بنوع من السحر.

سبب النزول:

قال قتادة: القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أبي أمية، والنضر بن الحارث، ونوفل بن خويلد، والوليد بن المغيرة من صناديد قريش.

المناسبة:

بعد أن بالغ تعالى في تهديد الكفار، ذكر شبهتهم في إنكار نبوة محمد ﷺ، وإساءتهم الأدب بوصفه بالسفاهة والجنون، ثم ذكر أن عادة هؤلاء الجهال مع جميع الأنبياء على هذا النحو، فلك يامحمد أسوة بالأنبياء في الصبر على سفاهتهم وجهالتهم.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى في هذه الآيات عن بعض مقالات المشركين وشبهاتهم الصادرة عن كفرهم وعنادهم، فقالوا استهزاء وتهكماً: ياأيها الذي تدعي نزول القرآن عليك، إنك متصف بالجنون، حينما تدعونا إلى اتباعك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا، فلا نقبل دعوتك.

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ لو كنت ما تدعيه حقاً وصدقاً، فهلا تأتينا بالملائكة يشهدون لك بصدقك وصحة ما جئت به، ويؤيدونك في إنذارك، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/٧] وقال: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٢١] وحكى تعالى قول فرعون في شأن موسى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٥٣] .

فأجابهم تعالى عن المقالة الثانية بقوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي لا ننزل الملائكة إلا بحق وحكمة ومصلحة نعلمها، ولا حكمة في أن تأتيكم

عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار، وهم من غير جنسكم ولا على صورتكم فيلتبس الأمر عليكم، إذ لكل جنس هادٍ من جنسه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ٩].

﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ﴾ أي ولو نزلنا الملائكة لكان ذلك إنزالاً للهلاك والعذاب، وما أخر عنهم العذاب ساعة؛ لأن سنتنا أننا إذا أنزلنا آية كما يقترح الناس ولم يؤمنوا بها، أتبعنا ذلك بعذاب الاستئصال، فكان في إنزال الملائكة ضرراً محققاً لهم، لا نفعاً.

ثم أجابهم الله تعالى عن المقالة الأولى بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي إنه تعالى هو الذي أنزل عليه الذِّكْر وهو القرآن، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل، فقولوا: إنه مجنون، ونقول: نحن منزلو القرآن وحافظوه. وتلك خصوصية للقرآن، فإنه تعالى تكفل وحده بحفظه وصونه، على مدى الدهر، بخلاف الكتب السابقة التي أمر بحفظها الأحبار والرهبان، فعبثوا بها وغيروها وبدلوها، بل إن أصلها قد فقد وضاع، فلم يعرف لها أثر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٥/ ٤٤].

ثم قال الله تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب بعض كفار قريش: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي إنا أرسلنا قبلك رسلاً للأمم الماضية وشِيَعها وطوائفها وفِرَقها، ولكن ما أتاهم من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به وكفروا برسالته، فقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم﴾ حكاية حال ماضية؛ لأن (ما) لا تدخل على مضارع إلا وهو في معنى الحال، ولا على ماضٍ إلا وهو قريب من الحال.

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا، واستكبروا عن اتباع الهدى، فإن مثل ذلك التكذيب والكفر الذي أُدخل في قلوب المجرمين السابقين، ندخله في قلوب المجرمين الجدُد، فضمير ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائد إلى الشرك. ويصح عوده إلى الذكر (القرآن) أي مثل ذلك الإدخال ندخل القرآن ونلقيه في قلوبهم مكذباً مستهزأً به غير مقبول، حالة كونهم غير مؤمنين به أبداً.

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي مضت السنة المتبعة في الماضين، وهو أنه تعالى يهلك ويدمر كل من كذَّب رسله، ويعلم بهم، وينجي الله الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة، فلك يامحمد أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المكذبة. وبعبارة أخرى: سنفعل بالمجرمين اللاحقين كما فعلنا بالسابقين، وسننصر الرسل والمؤمنين.

ثم يخبر الله تعالى عن شدة عنادهم وتمكن كفرهم في نفوسهم ومكابرتهم للحق، فقال: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا﴾ أي لو فتحنا على هؤلاء المعاندين باباً من السماء، فجعلوا يصعدون فيه أو تصعد فيه الملائكة، لما صدقوا بذلك، بل قالوا: إنما منعت وسدت أبصارنا من الإبصار، وقد شبّه علينا، واختلطت الأمور في أذهاننا، وأصبحنا لا نرى إلا أخيلة، كالقوم المسحورين سحرنا محمد بآياته، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبًا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٧﴾ [الأنعام: ٦/٧] .

والمعنى: بلغ من عناد المشركين أنهم لو صعدوا في السماء حقيقة، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هذه أوهام وأخيلة، وقد سحرنا محمد، كما يفعل عالم السيمياء، أو المنوم المغناطيسي. وفي الآية دليل على وجود الظلام في الفضاء الخارجي.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الشريفة على مايلي:

١ً - لقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص، إلى يوم القيامة، وهو رد على اتهام المشركين زوراً وبهتاناً بأن محمداً الذي أنزل عليه هذا القرآن مجنون.

٢ً - لا فائدة من إنزال الملائكة تشهد للنبي ﷺ بصدقه في دعواه النبوة، لما فيه من اللبس عليهم، بل إلحاق الضرر بهم، وهو الهلاك أو العذاب إذا كفروا بعدئذ، ولم يمهلوا بنزوله.

٣ً - إن تكذيب الأنبياء والاستهزاء بهم عادة قديمة وظاهرة شائعة في الأمم، فكما يفعل المشركون بالنبي ﷺ، فكذلك فعل من قبلهم بالرسل.

٤ً - كما أدخل أو سلك الله الضلال والكفر والاستهزاء والشرك في قلوب المجرمين من طوائف الأقدمين، كذلك يسلكه في قلوب مشركي العرب، حتى لا يؤمنوا بمحمد ﷺ، كما لم يؤمن من قبلهم برسلهم.

وقيل: نسلك القرآن في قلوبهم، فيكذبون به، ذكر جماعة أنه قول أكثر المفسرين.

٥ً - مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء المشركين من الهلاك.

٦ً - المشركون معاندون، فلو كشف لهم أن يعاينوا أبواباً من السماء تصعد فيها الملائكة وتنزل، لقالوا: رأينا بأبصارنا مالا حقيقة له.

بعض مظاهر قدرة الله تعالى من خلق السماوات والأرض وإرسال الرياح لواقح والإحياء والإماتة والعلم الشامل والحشر

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

وقرأ حمزة، وخلف (الرِّيح).

الإعراب:

﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾ ﴿مَنِ﴾ مستثنى منصوب، ولا يجوز أن يكون بدلاً من ﴿كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾ لأنه استثناء من موجب.

﴿وَمَن لَّسْتُمْ﴾ ﴿وَمَن﴾ إما منصوب عطفاً على قوله ﴿مَعَٰيِشَ﴾ أي جعلنا لكم فيها المعايش والعبيد، أو بتقدير فعل، أي وأعشنا من لستم له برازقين، أو عطفاً على موضع ﴿لَكُمْ﴾ المنصوب بجعلنا، وإما موضعه الرفع مبتدأ، وخبره محذوف. ولا يجوز في رأي البصريين خلافاً للكوفيين عطفه على الكاف واللام في ﴿لَكُمْ﴾ لأنه لا يجوز العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار.

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ إن بمعنى «ما» و﴿مِّن﴾ زائدة، و﴿شَيْءٍ﴾ في موضع رفع مبتدأ، و﴿عِندَنَا﴾ خبر المبتدأ، و﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ مرفوع بالظرف وهو ﴿عِندَنَا﴾ لوقوعه خبراً للمبتدأ، وتقديره: وماشيء إلا عندنا خزائنه. ودخول ﴿إِلَّا﴾ أبطل عمل ﴿وَإِن﴾ على لغة من يعملها.

﴿لَوَٰقِحَ﴾ إما جمع لاقحة، أي حوامل بالسحاب؛ لأنها تسوقه، وإما أصله ملاقح، لكن أتى به على حذف الزوائد.

البلاغة:

﴿عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ استعارة تخييلية وتمثيل لكمال قدرته، شبه قدرته تعالى على كل شيء بالخزائن المودع فيها الأشياء، ويخرج منها كل شيء على وفق حكمته.

﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ بين كلٍ طباق.

﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ و﴿بِخَـٰزِنِينَ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿بُرُوجًا﴾ البروج: القصور والمنازل، وأصل البروج: الظهور، يقال: تبرجت المرأة: إذا أظهرت زينتها، والمراد هنا النجوم العظام ونجوم البروج الاثني عشر المعروفة أي منازل الشمس والقمر والكواكب السيَّارة الأخرى، وهي اثنا عشر برجاً مختلفة الهيئات والخواص، على ما دل عليه الرصد والتجربة، مع بساطة السماء، وأسماء هذه البروج: الحَمَل، الثور، الجوْزاء، والسَّرطان، والأسَد، والسُّنبلة، والميزان، والعَقْرب، والقَوْس، والجدْي، والدَّلْو، والحوت. والعرب تَعُدُّ معرفة مواقع النجوم وأبوابها من أجلّ العلوم، ويستدلون بها على الطرقات والأوقات والخصْب والجدْب. وبرج المريخ: الحَمَل والعَقْرب، والزُّهرَة: لها الثور والميزان، وعُطَارد: له الجوزاء

والسُّنبلة، والقمر: له السرطان، والشمس لها: الأسد، والمشتري له: القوس والحوت، وزُحَل له: الجدي والدلو.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي السماء بالكواكب ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ المفكرين المعتبرين، المستدلين بها على قدرة مبدعها وتوحيد صانعها ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾ منعناها بالشهب ﴿رَّجِيمٍ﴾ مرجوم بالحجارة ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ﴾ لكن من أخذ الشيء خفية أو خطفة، شبه خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى بالسرقة. واسترق السمع: تسمّعه بخفة وحذر ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ كوكب يضيء ويحرقه، أو شعلة ساطعة من النار. وأتبعه: لحقه .﴿مَدَدْنَـٰهَا﴾ بسطناها بحسب مستوى الناظر وبالنسبة إلى الناس القاطنين فيها ﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت لئلا تتحرك بأهلها ﴿مَّوْزُونٍ﴾ أي مقدّر بمقدار معين على وفق الحكمة والمصلحة.

﴿مَعَـٰيِشَ﴾ تعيشون بها من المطاعم والملابس، جمع معيشة ﴿وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ عطف على معايش أو على محل ﴿لَكُمْ﴾ والمراد به العيال والخدم والمماليك. والقصد من الآية الاستدلال بجعل الأرض ممدودة بمقدار وشكل معينين، مختلفة الأجزاء في الوضع، مشتملة على أنواع النبات والحيوان المختلفة خلقة وطبيعة، على كمال قدرته، وتناهي حكمته، وتفرده بالألوهية، والامتنان على العباد بما أنعم عليهم في ذلك ليوحدوه ويعبدوه ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي وما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه أضعاف ما وجد منه، فضرب الخزائن مثلاً لاقتداره، أو شبه مقدوراته بالأشياء المخزونة التي لا يحتاج إخراجها إلى كلفة واجتهاد. والخزائن جمع خزانة، وهي ما تحفظ فيه الأشياء النفيسة أو المهمة.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي وما نسمح بإنزاله إلا بقدر معلوم حدّه، لحكمة وعلى حسب المصالح ﴿لَوَٰقِحَ﴾ حوامل للسحاب، أو التراب، أو للقاح الشجر، كما في قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف:

٥٧/٧] وفي قولهم: ناقة لاقح أي حامل، شبه الريح التي جاءت بخير تحمل السحاب الماطر بالحامل، كما شبّه مالا يكون كذلك بالعقيم. ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ السحاب ﴿مَآءً﴾ مطراً ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ أي جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم، يقال للماء المعد لشرب الأرض أو الماشية وسقايتها به: أسقيته، وإذا سقاه ماء أو لبناً: سقيته ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي ليست خزائنه بأيديكم ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ الباقون، نرث جميع الخلق ﴿ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ﴾ من ماتوا من ذرية آدم ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ الأحياء الذين تأخروا إلى يوم القيامة، أي بقوا أحياء ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ يجمعهم لا محالة للجزاء وتوسيط الضمير ﴿هُوَ﴾ للدلالة على أنه القادر المتولي لحشرهم لا غير، وتصدير الجملة بإن لتحقيق الوعد والتنبيه على صحة الحكم ﴿حَكِيمٌ﴾ باهر الحكمة في صنعه متقن الأفعال ﴿عَلِيمٌ﴾ وسع علمه كل شيء.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى كفر الكافرين وعجز أصنامهم، ذكر كمال قدرته، وأدلة وحدانيته السماوية والأرضية، ففي السماء: البروج، والكواكب الساطعة، وفي الأرض الممدودة: الجبال الراسيات، والنباتات المقدرة بمقادير معلومة موزونة بميزان الحكمة والعلم، المشتملة على معايش الإنسان والحيوان، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٥١/ ٢٠-٢٣].

والدلائل الأرضية سبعة: بسط الأرض، الجبال الثوابت، إنبات النباتات، الإمداد بالأرزاق من الخزائن، إرسال الرياح لواقح، الإحياء والإماتة للحيوانات، خلق الإنسان.

التفسير والبيان:

ووالله لقد أوجدنا في السماء نجوماً عظاماً من الكواكب الثوابت والسيارات، وزيناها لمن تأمل النظر فيها وكرره، فيما يرى من العجائب الظاهرة، والآيات الباهرة، التي يحار الناظر فيها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٦] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٦١] .

وقال جماعة: البروج: هي منازل الشمس والقمر.

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي ومنعنا الاقتراب من السماء كل شيطان رجيم، كما قال في آية أخرى: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٧] والرجيم: المرجوم، أي المقذوف بالشهب، أو المرمي بالقول القبيح، أو الملعون المطرود.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من استرق السمع، أو أراد استراق شيء من علم الغيب الذي يتحدث به الملائكة، لحقه وأتبعه بشهاب مبين، أي بجزء منفصل من الكوكب، وهو نار مشتعلة، فأحرقه. والشهاب: شعلة نار ساطع، ويسمى الكوكب شهاباً، كما قال في آية أخرى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٧٢/ ٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٦٧/ ٥] .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت الشياطين لا تحجب عن السماوات، فكانوا يدخلونها، ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة، فيلقونها إلى الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام، منعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد رسول الله ﷺ منعوا من السماوات كلها، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع، رمي بشهاب[1].

---

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ١٦٩، الكشاف: ٢/ ١٨٨

والصحيح أن الشهاب يقتل الشياطين قبل إلقائهم الخبر، فلا تصل أخبار السماء إلى الأرض أبداً إلا بوساطة الأنبياء وملائكة الوحي. ولذلك انقطعت الكهانة ببعثة النبي ﷺ.

ثم أردف الله تعالى بيان الدلائل الأرضية بعد الدلائل السماوية على وحدانيته فقال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾ أي وجعلنا الأرض ممدودة الطول والعرض، ممهدة للانتفاع بها، في مرأى العين، وبالنسبة إلى الإنسان الذي يعيش على سطحها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الذاريات: ٥١/٤٨] فلا يعني ذلك نفي كروية الأرض؛ لأن أجزاء الكرة العظيمة تظهر كالسطح المستوي لمن يقف على جزء منها. وهذا دليل واضح على كمال قدرة الله تعالى وعظمته؛ لأن الإنسان المنتفع بها يراها منبسطة رغم تكويرها، ثابتة رغم تحركها.

﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي وجعلنا فيها جبالاً ثوابت كيلا تضطرب بالإنسان، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٦/١٥] فدلت الآيات على خلق الله الأرض وبسطها وتوسيعها وجعل الجبال الراسيات والأودية والرمال فيها.

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾ أي وأنبتنا في الأرض من الزرع والثمار المتناسبة، المقدرة بميزان معلوم، وحكمة ومصلحة، ومقدار معين، فكل نبات وزنت عناصره، وقدرت بما يحتاجه. فقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ أي مقدر بقدر معلوم، موزون بميزان الحكمة أي على وفق الحكمة والمصلحة، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ﴾ [الرعد: ١٣/٨].

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي وأعددنا لكم في الأرض أسباب المعيشة والحياة الملائمة من غذاء ودواء، ولباس وماء، ونحوها. ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي وجعلنا لكم فيها أيضاً الخدم والمماليك والدواب والأنعام التي لستم أنتم لها رازقين، وهذا يعني أن الله يرزقكم وإياهم.

والمقصود من الآيات أنه تعالى يمتن على الناس بما يسَّر لهم في الأرض من أسباب المكاسب والمعيشة، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها، والأنعام التي يأكلونها، والخدم الذين يستخدمونهم، وقد تكفل الله الخالق برزقهم، فرزقهم على خالقهم، لا عليهم، فلهم المنفعة، وعلى الله التسخير والرزق.

ثم أخبر الله تعالى أنه مالك كل شيء، وأن كل شيء سهل يسير عليه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الأصناف، من نبات ومعادن ومخلوقات لا حصر لها، فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ أي وما من شيء في هذا الكون ينتفع به الناس إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم، نعلم أنه مصلحة له، فذكر الخزائن أراد به التمثيل لا الحقيقة وهو اقتداره على كل مقدور.

ثم أوضح تعالى أسباب حصول النعم، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ أي وأرسلنا الرياح الخيرة تحمل السحب المشبعة بالرطوبة لإنزال الأمطار، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ﴾ [الأعراف: ٧/٥٧] .

وكذلك جعلنا الرياح وسيطة لتلقيح الأشجار، بنقل طلع الذكور ولقاحها إلى الإناث، ليتكون الثمر.

كما أننا جعلنا الرياح وسائل إزالة الغبار عن الأشجار، لينفذ الغذاء إلى مسامّها. قال ابن عباس: الرياح لواقح للشجر وللسحاب.

﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ أي فأنزلنا من السحاب مطراً، فأسقيناكموه أي يمكنكم أن تشربوا منه، وأسقينا به زرعكم ومواشيكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٠] وقال سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ

ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٦٨-٧٠] وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٦/١٠].

﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ أي لستم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ونجعله ينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أبقاه لكم في طول السنة، لشرب الناس والزروع والثمار والحيوان، فالتخزين يكون في السحاب وفي جوف الأرض.

ثم أخبر الله تعالى عن قدرته على بدء الخلق وإعادته فقال: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ أي ونحن نحيي الخلق من العدم، ثم نميتهم، ثم نبعثهم كلهم ليوم الجمع، ونحن نرث الأرض ومن عليها، وإلينا يرجعون: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٢٨/٨٨].

ثم أنبأنا الله تعالى عن تمام علمه بالمخلوقات أولهم وآخرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ﴾ أي والله لقد علمنا كل من تقدم وهلك من لدن آدم عليه السلام، ومن هو حي، ومن سيأتي إلى يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي وإن ربك هو الذي يجمعهم جميعاً، الأولين والآخرين، من أطاع ومن عصى، ويجازي كل نفس بما كسبت، إنه تعالى حكيم باهر الحكمة في صنعه، متقن الأفعال، واسع العلم، وسع علمه كل شيء، فهو يفعل بمقتضى الحكمة والعلم الشامل.

فقه الحياة أو الأحكام:

ذكرت الآيات دلائل التوحيد السماوية منها والأرضية، وبدأ بذكر الأدلة السماوية، وأردفها بالأدلة الأرضية، وهي ما يأتي:

١ً - خَلْق النجوم العظام والكواكب الثابتة والسيارة، وخَلْق بروج ومنازل لها، وهي اثنا عشر برجاً، معروفة في علم الفلك، قدمت ذكرها في بيان المفردات.

٢ً - حفظ السماء من مقاربة الشيطان الرجيم أي المرجوم، والرجم: الرمي بالحجارة أو باللسان سباً وشتماً، وهو أيضاً: اللعن والطرد. قال الكسائي: كل رجيم في القرآن فهو بمعنى الشتم.

ومن حاول اختطاف شيء من علم الغيب، قذف بجزء منفصل من الكوكب، مشتعل النار، فأحرقه وقتله، قبل إلقاء ما استرقه من السمع إلى غيره.

٣ً - الأرض مخلوقة ممهدة منبسطة تتناسب مع إمكان الحياة البشرية عليها، وهي مثبَّتة بالجبال الرواسي لئلا تتحرك بأهلها، وفيها من النباتات المختلفة ذات المقادير المعلومة، على وفق الحكمة والمصلحة، وفيها أيضاً أصناف المعايش من مطاعم ومشارب يعيش الناس وغيرهم بها، وفيها كذلك الدواب والأنعام ذات المنافع المتعددة، والله هو الذي يرزقها.

٤ً - الله مالك كل شيء، يوجده ويكوِّنه وينعم به على حسب مشيئته بمقدار معلوم بحسب حاجة الخلْق إليه، فما من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا وعند الله خزائنه، كالمطر المنزل من السماء، والذي به نبات كل شيء، ولكن لا ينزله إلا بمقتضى مشيئته وعلى قدر الحاجة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٢/٢٧].

٥ً - هيأ الله في الكون أسباباً للرزق والإيجاد، منها أنه جعل الرياح لواقح للسحاب والأشجار، فأنزل بها الأمطار لشرب الناس وسقاية الزروع والثمار والأشجار والدواب، وهو تعالى يخزنها في السحاب وجوف الأرض، وهو سبحانه المحيي والمميت ووارث الكون، فلا يبقى فيه أحد.

٦ً - الله تعالى عالم بجميع المخلوقات المتقدمة والمتأخرة إلى يوم القيامة، وإنه تعالى سيحشر الناس جميعاً للحساب والجزاء.

واستنبط الفقهاء من آية ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ حكمين فقهيين:

الأول - فضل أول الوقت في الصلاة، وفضل الصف الأول في صلاة الجماعة، قال النبي ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان والنسائي عن أبي هريرة: «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه، لاستهموا». وفي الصف الأول مجاورة الإمام، لكن مجاورة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هي لكبار العقول، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم وأصحاب السنن الأربع عن أبي مسعود: «لِيَلِيني منكم أولو الأحلام والنُّهى» وهذا حق ثابت لهم بأمر صاحب الشرع.

الثاني - فضل الصف الأول في القتال، لأن المتقدم باع نفسه لله تعالى، ولم يكن أحد يتقدم الحرب بين يدي رسول الله ﷺ؛ لأنه كان أشجع الناس. قال البراء: كنا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يحاذِي به، يعني النبي ﷺ.

بدء خلق الإنسان وأمر الملائكة بالسجود له وإباء إبليس وعداوه البشر

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: (المُخْلِصين).

﴿صِرَٰطٌ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ منصوب بفعل مقدر، تقديره: وخلقنا الجانَّ خلقناه، وقدّر

الفعل الناصب ليعطف جملة فعلية على جملة فعلية، هي قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾.

﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ توكيد للمعرفة بعد توكيد، وذهب بعض النحويين إلى أن ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أفاد معنى الاجتماع، أي سجدوا كلهم مجتمعين، لا متفرقين، إلا أنه يلزمه على هذا أن ينصبه على الحال.

﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ ﴿مَا﴾ مبتدأ، و﴿لَكَ﴾ خبره، وتقديره: أي شيء كائن لك ألا تكون، أي في ألا تكون، فحذفت (في) وهي متعلقة بالخبر، فانتصب موضع (أنْ).

﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾ متعلق بالظرف الذي هو ﴿لِّكُلِّ﴾، مثل قولهم: كل يوم لك درهم، فإن كل يوم منصوب بـ (لك). و﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ مرفوع بالظرف الذي هو ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾؛ لأن قوله ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ وصف لقوله: ﴿أَبْوَابٍ﴾ أي لها سبعة أبواب، كائن لكل باب منها جزء مقسوم منهم، أي من الداخلين، فحذف منها العائد إلى ﴿أَبْوَابٍ﴾ التي هي الموصوف، وحذف العائد من الصفة إلى الموصوف جائز في كلامهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ﴾ [البقرة: ٢/٤٨] [١٢٣] أي ما تجزي فيه.

المفردات اللغوية:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ آدم أو الجنس ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ طين يابس، يسمع له صلصلة، أي صوت، إذا نُقر. فإذا طبخ فهو فَخَّار ﴿حَمَإٍ﴾ طين أسود، أي تغيّر واسود من مجاورة الماء له ﴿مَّسْنُونٍ﴾ متغير الرائحة، والتقدير: أي كائن من حمأ مسنون ﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ أبا الجن وهو إبليس، أو هذا الجنس ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل خلق آدم ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ هي نار شديدة الحرارة، لا دخان لها، تنفذ من المسام وتقتل.

﴿وَإِذْ قَالَ﴾ واذكر حين قال ﴿بَشَرًا﴾ إنساناً، وسمي بذلك لظهور بشرته أي ظاهر جلده ﴿سَوَّيْتُهُۥ﴾ أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه ﴿وَنَفَخْتُ﴾ أجريت من الفم أو غيره، والمراد: إضافة عنصر الحياة في المادة القابلة لها. ﴿مِن رُّوحِى﴾ أي فصار حياً، وإضافة الروح إلى الله تشريف لآدم ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ أي فاسقطوا له ساجدين سجود تحية بالانحناء. ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ فيه تأكيدان للمبالغة في التعميم ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ هو أبو الجن، الذي كان بين الملائكة ﴿أَبَىٰٓ﴾ امتنع من أن يسجد له، والاستثناء إما منقطع متصل بقوله: ﴿أَبَىٰٓ﴾ أي لكن إبليس أبى، وإما متصل على أنه استئناف، على أنه جواب سائل قال: هلا سجد.

﴿قَالَ﴾ تعالى ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ﴾ أي ما منعك، أو أي غرض لك في ألا تكون مع الساجدين ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ لا ينبغي لي أن أسجد، واللام لتأكيد النفي، أي لا يصح مني، وينافي حالي ﴿لِبَشَرٍ﴾ جسماني كثيف، وأنا ملك روحاني ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي وهو أخسُّ العناصر، وأنا خلقتني من نار، وهي أشرف العناصر.

﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة أو من السماوات أو من زمرة الملائكة ﴿رَجِيمٌ﴾ مطرود من الخير والكرامة، وهو وعيد يتضمن الجواب عن شبهته ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾ الطرد والإبعاد ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أمهلني وأخرني ولا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي يوم بعث الناس ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ المسمى فيه أجلك عند الله، أو وقت انقراض الناس كلهم، وهو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق، كما روي عن ابن عباس. ويجوز أن يراد بالأيام الثلاثة: يوم القيامة، واختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات كما قال البيضاوي، فهو يوم الجزاء، ويوم البعث، واليوم المعلوم وقوعه عند الله، والمؤكد حدوثه في علم الناس.

﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ أي بإغوائك لي، والإغواء: الإضلال، والباء للقسم، وما: مصدرية، وجواب القسم: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ والمعنى: أقسم بإغوائك إياي لأزين لهم المعاصي في الدنيا التي هي دار الغرور ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ أي المؤمنين الذين استخلصهم الله لطاعته وطهرهم من الشوائب، وقرئ بكسر اللام، أي الذين أخلصوا لك العبادة من الرياء أو الفساد.

﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾ أي هذا حق علي أن أراعيه ﴿مُسۡتَقِيمٌ﴾ أي لا انحراف فيه، ولا عدول عنه إلى غيره. والإشارة إلى ما تضمنه الاستثناء: وهو تخلص المخلصين من إغوائه، أو الإخلاص.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ المؤمنين ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ تصديق لإبليس فيما استثناه، والمراد بيان نجاتهم من تأثير الشيطان عليهم. والسلطان: التسلط بالإغواء ﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾ الكافرين ﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أي لموعد الغاوين أو المتبعين، و﴿أَجۡمَعِينَ﴾ تأكيد للضمير، أو حال، والعامل فيها: الموعد إن جعل مصدراً على تقدير مضاف، أما إن جعل اسم مكان فإنه لا يعمل ﴿سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٍ﴾ يدخلون منها لكثرتهم، أو سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة، وهي جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. ولعل تخصيص العدد ليشمل جميع المهلكات، أو لأن أهلها سبع فرق ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنۡهُمۡ﴾ من الأتباع ﴿جُزۡءٌ مَّقۡسُومٌ﴾ نصيب أو فريق معين مفرز له.

المناسبة:

هذا هو النوع السابع من دلائل وجود الله وقدرته وتوحيده، فإنه تعالى لما استدل بتخليق الحيوانات على صحة التوحيد في الآية المتقدمة، أردفه بالاستدلال بتخليق الإنسان على هذا المطلوب نفسه.

والدليل هو أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة أنه يمتنع وجود حوادث لا أول

لها، فيجب انتهاء الحوادث إلى حادث أول، فلا بد من انتهاء الناس إلى إنسان هو أول الناس، وذلك الإنسان الأول غير مخلوق من الأبوين، فيكون مخلوقاً لا محالة بقدرة الله تعالى.

وبعد أن ذكر الله تعالى خلق الإنسان الأول، ذكر مقاله للملائكة والجن بشأنه.

التفسير والبيان:

ولقد خلق الله الإنسان الأول آدم أبا البشر من طين أو تراب يابس، فالحمأ: هو الطين، والمسنون: الأملس، والصلصال: التراب اليابس، وقيل: إنه المنتن المتغير الرائحة في الأصل. وقد بدأ الخلق أولاً من تراب، ثم من طين، ثم من صلصال، ليكون أدل على القدرة الإلهية.

وخلقنا جنس الجن من نار السموم، أي نار الريح الحارة التي لها لَفْح وتقتل من أصابته. قال ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من السموم التي خلق منها الجانّ، ثم قرأ: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ وورد عن عائشة في صحيح مسلم، وأحمد: «خلقتُ الملائكة من نور، وخَلَقتُ الجان من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِف لكم».

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ١٤-١٥] .

وفي هذا إشارة إلى برودة طبع الإنسان، وحرارة طبيعة الجن. وفي الآية تنبيه على شرف آدم عليه السلام، وطيب عنصره، وطهارة محتده، وذلك كله دليل على قدرة الله تعالى.

ثم أبان الله تعالى تشريفه لآدم عليه السلام بأمر الملائكة بالسجود له، وتخلُّف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة، حسداً وكفراً، وعناداً واستكباراً، وافتخاراً بالباطل، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ .

أي واذكر أيها الرسول لقومك حين أمرت الملائكة قبل خلق أبيكم آدم بالسجود له بعد اكتمال خلقه، وإباء إبليس عدوه من بين سائر الملائكة السجود له، قائلاً: ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/٣٣] متذرعاً بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٣٨/٧٦] وقوله: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ١٧/٦٢].

وقد تضمن دفاع إبليس وسبب امتناعه عن السجود لآدم: بأنه خير منه، فإنه خلق من النار، وآدم من الطين، وفي النار عنصر الارتفاع والسمو، وفي التراب عنصر الخمود والركود، فهي أشرف من الطين، والأعلى لا يعظم الأدنى.

وذلك قياس فاسد؛ لأن خيرية المادة لا تعني خيرية العنصر، بدليل أن الملائكة من نور، والنور خير من النار. ثم إنه عصيان أمر الخالق، وجهل بأن آدم امتاز باستعداد علمي وعملي لتلقي التكاليف وتقدم الكون.

لذا عاقبه الله بقوله: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ أي فاخرج من المنزلة التي كنت فيها من الملأ الأعلى، فإنك مرجوم، أي لعين مطرود، لعنة دائمة ملازمة له إلى يوم القيامة.

وإمعاناً في الكيد لآدم وحسداً له ولذريته طلب الإمهال إلى يوم البعث من القبور، وحشر الخلق لموقف الحساب، فأرجأه الله إلى يوم الوقت المعلوم، وهو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق.

فلما تحقق إبليس الانتظار لذلك اليوم ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي قال إبليس عاتياً متمرداً: رب بسبب إغوائك وإضلالك إياي، لأزينن في الأرض أي الدنيا لذرية آدم عليه السلام الأهواء، وأُحبِّب إليهم المعاصي، وأُرغّبهم فيها، إلا المخلصين الذين أخلصوا لك في الطاعة والعبادة. واستثنى المخلصين؛ لأنه علم أن كيده لا يعمل فيهم، ولا يقبلون منه.

فهدده تعالى وتوعده بقوله: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي هذا الطريق في العبودية أو الإخلاص طريق مستقيم، مرجعه إلي، فأجازي كل واحد بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٨٩/ ١٤] . فقوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الإخلاص طريق علي وإلي، يؤدي إلى كرامتي وثوابي، أو هذا الطريق في العبودية طريق علي مستقيم، أو هذا طريق علي تقريره وتأكيده، وهو مستقيم: حق وصدق. ومؤدى الكلام: ألا مهرب لأحد مني، كما يقال لمن يتوعده ويتهدده: طريقك علي. وقوله: مستقيم أي لا عوج فيه ولا انحراف. وهو رد لما جاء في كلام إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ١٦-١٧] .

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ أي إن عبادي المؤمنين المُخْلِصين أو غير المُخْلِصين، أو الذين قدرت لهم الهداية، لا سلطان لك على أحد منهم، ولا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن الذين اتبعوك من الضالين المشركين باختيارهم، فلك عليهم سلطان، بسبب كونهم منقادين لك في الأمر والنهي، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠٠].

ونظير الآية: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٩-١٠٠] .

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي إن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١١/ ١٧] .

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ أي لجهنم سبعة أبواب، قد خُصص لكل باب منها جزء مقسوم وعدد معلوم من أتباع إبليس، يدخلونه، لا محيد لهم عنه، وكلٌّ يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَكٍ بقدر عمله.

وفي تفسير الأبواب السبعة قولان:

قول: إنها سبع طبقات: بعضها فوق بعض، وتسمى تلك الطبقات بالدركات، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ٤/١٤٥] والسبب: أن مراتب الكفر مختلفة بالشدة والخفة، فاختلفت مراتب العذاب.

وقول آخر: إنها سبعة أقسام، ولكل قسم باب، أولها كما ذكر ابن جريج: جهنم، ثم لظى، ثم الحطَمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. الأولى كما ذكر الضحاك: للعصاة الموحدين، والثانية: لليهود، والثالثة: للنصارى، والرابعة: للصابئين، والخامسة: للمجوس، والسادسة: للمشركين، والسابعة: للمنافقين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أفادت الآيات ما يأتي:

١ً - خلق الله آدم عليه السلام الإنسان الأول من طين يابس، مما يدل على القدرة الإلهية.

وخلق الجانَّ من قبل خلق آدم من نار جهنم أو من الريح الحارة التي تقتل، أو من نار لا دخان لها. ورد في صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال:

«لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، وينظر ما هو، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك»[١].

٢ً - كرم الله الأصل الإنساني، فأمر الملائكة بالسجود له سجود تحية وتكريم، لا سجود عبادة، ولله أن يفضل من يريد، ففضل الأنبياء على الملائكة، وامتحنهم الله بالسجود له تعريضاً لهم للثواب الجزيل.

٣ً - سجد الملائكة له كلهم أجمعون إلا إبليس رفض وأبى، وإبليس ليس من جملة الملائكة: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥٠] .

وهذا الاستثناء دليل للشافعي في جواز استثناء غير الجنس من الجنس، مثل: لفلان علي دينار إلا ثوباً أو عشرة أثواب إلا رطل حنطة، سواء المكيلات والموزونات والقيميات. وأجاز مالك وأبو حنيفة رضي الله عنهما استثناء المكيل من الموزون، والموزون من المكيل، كاستثناء الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم، ولم يجيزا استثناء القيميات من المكيلات أو الموزونات، كالمثالين المذكورين في بيان مذهب الشافعي، ويلزم المقرّ جميع المبلغ.

٤ً - سئل إبليس عن سبب امتناعه من السجود، فأجاب بأنه مخلوق من عنصر وهو النار أشرف من التراب.

٥ً - كان عقاب إبليس الطرد من السماوات أو من جنة عدن أو من جملة الملائكة، وملازمة اللعنة له إلى يوم القيامة.

٦ً - سأل إبليس تأخير عذابه، زيادة في بلائه، كالآيس من السلامة، وأراد الإنظار إلى يوم يبعثون: ألا يموت؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا

(١) أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات، أو لا يملك دفع الوسواس عنه.

بعده، فأجله الله تعالى إلى الوقت المعلوم: وهو النفخة الأولى، حين تموت الخلائق.

٧ - صمم إبليس على مدى الحياة إغواء بني آدم وإضلالهم عن طريق الهدى، إلا المؤمنين سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين، فلا سلطان له عليهم في أن يلقيهم في ذنب يمنعهم عفو الله، وهم الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم.

٨ - قول الله: ﴿هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ على سبيل الوعيد والتهديد، كقولك لمن تهدده: طريقك علي، ومصيرك إلي، ومعنى الكلام: هذا أي طريق العبودية طريق مرجعه إلي، فأجازي كلاً بعمله.

٩ - استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ و﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ دليل على جواز استثناء القليل من الكثير، والكثير من القليل، مثل: علي عشرة إلا درهماً، أو عشرة إلا تسعة. وقال ابن حنبل: لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه، وأما استثناء الأكثر من الجملة فلا يصح.

١٠ - إن جهنم موعد إبليس ومن اتبعه. ولجهنم سبعة أطباق، طبق فوق طبق، لكل طبقة حظ معلوم. وجهنم أعلى الدركات، وهي مختصة بالعصاة من أمة محمد ﷺ. والمنافقون في الدرك الأسفل من النار.

جزاء المتقين يوم القيامة

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

القراءات:

﴿وَعُيُونٍ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (وعِيُون).

﴿وَعُيُونٍ ، ٱدْخُلُوهَا﴾ :

كسر التنوين وصلاً: أبو عمرو، وابن ذكوان، وعاصم، وحمزة. وضمه الباقون.

الإعراب:

﴿إِخْوَانًا﴾ حال من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أو من واو ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أو من الضمير في ﴿ءَامِنِينَ﴾.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ حال أيضاً.

البلاغة:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي يقال لهم: ادخلوها.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ﴿جَنَّـٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ أنهار جارية ﴿بِسَلَـٰمٍ﴾ أي سالمين من المخاوف والآفات ﴿ءَامِنِينَ﴾ من كل فزع ﴿غِلٍّ﴾ حقد وحسد دفين في القلب ﴿سُرُرٍ﴾ جمع سرير، وهو المجلس العالي عن الأرض ﴿مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض لدوران الأسرّة بهم ﴿نَصَبٌ﴾ تعب وإعياء ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبداً.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٥):

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: أخرج الثعلبي عن سلمان الفارسي أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فرّ ثلاثة أيام هارباً من الخوف، لا

يعقل، فجيء به للنبي ﷺ، فسأله فقال: يارسول الله، أنزلت هذه الآية: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فوالذي بعثك بالحق، لقد قطّعت قلبي، فأنزل الله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾.

نزول الآية (٤٧):

﴿وَنَزَعْنَا﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم، وبني عدي، وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابّوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل علي يسخن يده، فيكمد بها خاصرة أبي بكر، فنزلت هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم، أتبعه ببيان حال السعداء من أهل النعيم المقيم الذين لا سلطان لإبليس عليهم، وهم المتقون.

التفسير والبيان:

إن المتقين الذين اتقوا عذاب الله ومعاصيه، وأطاعوا أوامره، واجتنبوا نواهيه، فلم يتأثروا بسلطان إبليس ووساوسه، هم في جنات أي بساتين ذات ثمار دائمة وظلال وارفة، وتتفجر من حولهم عيون هي أنهار أربعة: من ماء، ولبن، وخمر غير مسكرة، وعسل مصفى، خاصة بهم أو عامة، دون تنافس أو نزاع عليها، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٤٧/ ١٥].

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يقال لهم: ادخلوها سالمين من الآفات، مسلّماً عليكم، آمنين من كل خوف وفزع. ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ ونزع الله كل مافي صدورهم في الدنيا من حقد وعداوة، وضغينة وحسد، حالة كونهم إخواناً متحابين متصافين، جالسين على سرر متقابلين، لا ينظر الواحد منهم إلا لوجه أخيه، ولا ينظر إلى ظهره، فهم في رفعة وكرامة.

والمراد: أن الله طهر قلوبهم من معكّرات الدنيا، فلا تحاسد، ولا تباغض، ولا تدابر، ولا غيبة ولا نميمة، ولا تنازع، وألقي فيها التوادّ والتحابّ والتصافي؛ لأن خصائص المادة زالت بالموت في الدنيا.

جاء في الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «يخلُص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا، أُذن لهم في دخول الجنة».

وروى ابن جرير وابن المنذر عن أبي حبيبة مولى لطلحة قال: دخل عمران ابن طلحة على علي رضي الله عنه، بعدما فرغ من أصحاب الجمَل، فرحَّب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فقال رجلان إلى ناحية البساط: الله أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس، وتكونون إخواناً؟! فقال علي رضي الله عنه: قُوما أبعد أرض وأسحقها، فمن هم إذن، إن لم أكن أنا وطلحة؟.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في تلك الجنات تعب ولا مشقة ولا أذى، إذ لا حاجة لهم إلى السعي والكدح، لتيسير كل ما يشتهون أمامهم دون جهد. جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قَصَب، لا صَخَبَ فيه، ولا نَصَبَ».

﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي وهم ماكثون فيها، خالدون فيها أبداً، لا

يُخرجون منها ولا يُحوَّلون عنها. جاء في الحديث الثابت: «يقال: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحّوا فلا تمرضوا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تقيموا فلا تطغوا أبداً». وقال الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: ١٨/ ١٠٨].

والخلاصة: إن مقومات النعيم والثواب والمنافع ثلاثة: الاقتران بالاطمئنان والاحترام، وهو قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾، والصفاء من شوائب الضرر والمعكرات الروحية كالحقد والحسد، والجسمية كالإعياء والمشقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا﴾ ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾ والدوام والخلود بلا زوال، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[1].

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ - إن جزاء المتقين الذين اتقوا الفواحش والشرك جنات أي بساتين وعيون هي الأنهار الأربعة: ماء وخمر ولبن وعسل. ويقال لهم: ادخلوها بسلامة من كل داء وآفة، آمنين من الموت والعذاب، والعزل والزوال، فهم في احترام وتعظيم. والقول الحق الصحيح وهو قول جمهور الصحابة والتابعين أن المراد بالمتقين: الذين اتقوا الشرك بالله تعالى والكفر به. وقال المعتزلة: هم الذين اتقوا جميع المعاصي.

٢ - لا يتعرض أهل الجنة لشيء من الأضرار والمؤذيات، فهم في خلوص من شوائبها الروحانية كالحقد وغيره، والجسمانية كالتعب والمرض، وهم في نعمة وكرامة لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض، تواصلاً وتحابباً.

---

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ١٩٣

٣ - إن نعيم الجنة دائم لا يزول، وإن أهلها باقون: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٥] ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥٤] .

٤ - الجنات أربع والعيون أربع، أما عدد الجنات فلقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٤٦] ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦٢] . وأما العيون فهي أربعة أيضاً وهي المذكورة في الآية المتقدمة: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

المغفرة والعذاب

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿عِبَادِىٓ أَنِّىٓ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: (عباديَ أني).

البلاغة:

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ يوجد مقابلة بين العذاب والمغفرة، وبين الرحمة والعذاب.

المفردات اللغوية:

﴿نَبِّئْ﴾ أخبر يا محمد .﴿ٱلْغَفُورُ﴾ للمؤمنين .﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم .﴿وَأَنَّ عَذَابِى﴾ للعصاة .﴿ٱلْأَلِيمُ﴾ المؤلم.

قال البيضاوي: وفي ذكره المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالمغفرة والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده.

سبب النزول:

أخرج الطبراني عن عبد الله بن الزبير قال: مرّ رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه يضحكون، فقال: «أتضحكون، وذِكْر الجنة والنار بين أيديكم، فنزلت هذه الآية: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾».

وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: اطلع علينا رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: «لا أراكم تضحكون، ثم أدبر ثم رجع القَهْقرى، فقال: إني خرجت حتى إذا كنت عند الحِجْر، جاء جبريل، فقال: يا محمد، إن الله يقول: لِمَ تُقْنِط عبادي: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾». وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ الآية: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبَخَع نفسه».

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال المتقين في الآية المتقدمة، ذكر أحوال غير المتقين في هذه الآية، فقال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ وهو إخبار عن سنة الله في عباده أنه غفار لذنوب التائبين المنيبين إلى ربهم، ومعذّب بعذاب مؤلم من أصروا على المعاصي ولم يتوبوا منها.

التفسير والبيان:

أخبر يا محمد عبادي أني ذو مغفرة ورحمة، وذو عذاب أليم. وهذا دال على

مقامي الرجاء والخوف. فالله تعالى يستر ذنوب من تاب وأناب، فلا يفضحهم ولا يعاقبهم، ويرحمهم فلا يعذبهم بعد توبتهم. وهذا يشمل المؤمن الطائع والعاصي.

وأخبرهم أيضاً بأن عذابي لمن أصرّ على الكفر والمعاصي ولم يتب منها هو العذاب المؤلم الشديد الوجع. وهذا تهديد وتحذير من اقتراف المعاصي.

ففي الآية كغيرها من الآيات الكثيرة جمع بين التبشير والتحذير، والترغيب والترهيب، ليكون الناس بين حالي الرجاء والخوف.

أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن قتادة أنه قال في قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ﴾ الآية: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله، لما تورّع من حرام، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله، لبَخَع نفسه».

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مئة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر كل الذي عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار».

ورواية مسلم هي: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنِط من رحمته أحد».

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآية دليل آخر على وسطية الإسلام، فينبغي للإنسان أن يذكّر نفسه وغيره، فيخوِّف ويرجِّي، ويكون الخوف في حال الصحة أغلب عليه منه في حال المرض، فهو في حال دائمة بين الخوف والرجاء؛ لأن القنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوسطها.

فالله تعالى وسعت رحمته كل شيء، وهو كثير المغفرة لمن تاب وأناب، ولكنه أيضاً لتحقيق التوازن وقمع الفاحشة والمنكر والشرك شديد العذاب لمن أصرّ على معصيته، ومات قبل التوبة والإنابة، وذلك هو العدل المطلق.

وكل من اعترف بالعبودية ظهر في حقه كون الله غفوراً رحيماً، ومن أنكر ذلك، كان مستوجباً للعقاب الأليم؛ لأنه كما يقول الأصوليون: ترتيب الحكم على الوصف يشعر بكون ذلك الوصف علة لذلك الحكم أو «تعليق الحكم بالمشتق يؤذن بعلية ما منه الاشتقاق». فقد وصفهم بكونهم عباداً له، ثم ذكر عقيب هذا الوصف: الحكم بكونه غفوراً رحيماً.

قال الرازي: وفي الآية لطائف:

إحداها - أنه أضاف العباد إلى نفسه بقوله: ﴿عِبَادِىٓ﴾ وهذا تشريف عظيم.

وثانيها - لما ذكر الرحمة والمغفرة بالغ في التأكيد بألفاظ ثلاثة هي: ﴿أَنِّىٓ﴾ و﴿أَنَا﴾ وإدخال الألف واللام على قوله: ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾. ولما ذكر العذاب لم يقل: إني أنا المعذب، وما وصف نفسه بذلك، بل قال: ﴿وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

وثالثها - أنه أمر رسوله بأن يبلغهم هذا المعنى، فكأنه أشهد رسوله على نفسه في التزام المغفرة والرحمة.

ورابعها - أنه لما قال: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِىٓ﴾ كان معناه: نبئ كل من كان معترفاً بعبوديتي، وهذا يدخل فيه المؤمن المطيع والمؤمن العاصي. وكل ذلك يدل على تغليب جانب الرحمة من الله تعالى[١].

---

(١) تفسير الفخر الرازي: ١٩/ ١٩٤ - ١٩٥

قصة ضيف إبراهيم وإخبارهم بإهلاك قوم لوط

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

القراءات:

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾:

وقرأ حمزة (نَبْشُرك).

﴿تُبَشِّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَبْشُرون) وهي قراءة نافع.

٢- (تبشرونِّ) وهي قراءة ابن كثير.

٣- (تُبشِّرون) وهي قراءة الباقين.

﴿يَقْنَطُ﴾:

وقرأ أبو عمرو، والكسائي (يَقْنِط).

﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (لَمُنْجُوهم).

﴿جِئْنَاكَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (جيناك).

﴿فَأَسْرِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير (فاسْر).

﴿بَنَاتِيَ﴾:

وقرأ نافع (بَناتِيَ).

الإعراب:

﴿فَبِمَ﴾ هي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب، أي فبأي أعجوبة تبشروني؟

﴿تُبَشِّرُونَ﴾ فتحت النون؛ لأنها نون الجمع، قياساً على فتحها في جمع الاسم، نحو الزيدونَ، كما كسرت النون بعد ضمير الفاعل إذا كان مثنى في

نحو (تفعلانِ) قياساً على كسرها في تثنية الاسم، نحو «الزيدانِ» حملاً للفرع على الأصل. و﴿تُبَشِّرُونَ﴾ هنا فعل متعدٍ، والمفعول محذوف.

وقرئ: ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بنون خفيفة مكسورة، وأصله: تبشرونني، فاجتمع حرفان متحركان من جنس واحد، وهما نون الوقاية ونون الإعراب، فحذف إحداهما تخفيفاً، وحذفت ياء الإضافة وبقيت الكسرة قبلها تدل عليها.

وقرئ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ بنون مشددة مكسورة، ولما استثقل اجتماع النونين المتحركتين، سكّن النون الأولى، وأدغمها في الثانية، قياساً على كل حرفين متحركين من جنس واحد في كلمة واحدة. ثم حذفت الياء وبقيت الكسرة قبلها تدل عليها.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ منصوب؛ لأنه استثناء منقطع؛ لأن (أتباع لوط) ليسوا من القوم المجرمين. و﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ منصوب على الاستثناء من آل لوط. وهذا الاستثناء يدل على أن الاستثناء من الإيجاب نفي ومن النفي إيجاب؛ لأنه استثنى آل لوط من المجرمين، فلم يدخلوا في الإهلاك، ثم استثنى من آل لوط ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ فدخلت في الهلاك.

﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ لما دخلت اللام علقت الفعل عن العمل، مثل: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٦٣/١] .

﴿أَنَّ دَابِرَ﴾ منصوب على البدل من موضع ﴿ذَٰلِكَ﴾ إن جعل الأمر عطف بيان، أو بدل من ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ إن كان ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بدلاً من ﴿ذَٰلِكَ﴾. و﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾. وعامل الحال معنى الإضافة: ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من المضامّة والممازجة.

﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عن ضيافة العالمين، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف، أي لعمرك قسمي.

البلاغة:

﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أسند فعل التقدير إلى الملائكة مجازاً وهو لله وحده، لما لهم من القرب.

﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾ كناية عن عذاب الاستئصال.

﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ ﴿لِلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ فيها سجع، وكذا في ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾

المفردات اللغوية:

﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ أخبرهم وهو معطوف على ما سبق وهو: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ وفي العطف تحقيق لهما ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ هم ملائكة اثنا عشر أو عشرة أو ثلاثة، منهم جبريل، بشروه بالولد، وبهلاك قوم لوط. وكلمة ضيف تستعمل بلفظ واحد للمفرد والمثنى والجمع والمؤنث والمذكر. ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي نسلم عليك سلاماً، أو سلمنا سلاماً. ﴿وَجِلُونَ﴾ خائفون فزعون. ﴿لَا تَوۡجَلۡ﴾ لا تخف. ﴿إِنَّا﴾ رسل ربك. ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ استئناف في معنى التعليل للنهي عن الوجل. ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ أي ذي علم كثير إذا بلغ، هو إسحاق، لقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ [هود: ١١/٧١].

﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾ بالولد. ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ حال، أي مع مسّه إياي. ﴿فَبِمَ﴾ فبأي شيء. ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب. ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بالأمر المحقق الذي لا شك فيه، أي بالصدق أو باليقين. ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ الآيسين من الولد للكبر. ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾ أي لا يقنط. ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ الكافرون الذي لا يعرفون

كمال قدرته تعالى وسعة رحمته، أو البعيدون عن الحق. ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ ما شأنكم وحالكم؟ والخطب: الأمر الخطير. ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين، هم قوم لوط، وأرسلنا لإهلاكهم. ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ لمخلّصوهم مما هم فيه؛ لإيمانهم. ﴿قَدَّرْنَآ﴾ قضينا وكتبنا، والتقدير: جعل الشيء على مقدار معين، وأسند الملائكة التقدير لأنفسهم مع أنه هو فعل الله تعالى، لما لهم من القرب والاختصاص به.

﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ الباقين في العذاب؛ أي بقيت امرأته في العذاب لكفرها. ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ﴾ أي لوطاً. ﴿قَالَ﴾ لوط لهم. ﴿مُّنكَرُونَ﴾ أي لا أعرفكم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ﴾ أي قومك. ﴿يَمْتَرُونَ﴾ يشكّون، وهو العذاب. ﴿لَصَـٰدِقُونَ﴾ في قولنا.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ اذهب بهم ليلاً. ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ بجزء أو طائفة من الليل. ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ امش خلفهم أو على إثرهم. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم، أو يطلع على أحوالهم، فيرى من الهول ما لا يطيقه، أو فيصيبه ما أصابهم. ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ إلى حيث أمركم الله، وهو الشام أو مصر، ففيه تعدية الفعل: ﴿وَٱمْضُوا۟﴾ إلى حيث، وتعدية: ﴿تُؤْمَرُونَ﴾ إلى ضميره المحذوف. ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ أوحينا إلى لوط. ﴿أَنَّ دَابِرَ﴾ آخر. ﴿مَقْطُوعٌ﴾ مهلَك مستأصَل. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ حال، أي يتم استئصالهم في الصباح، أي عند طلوع الصبح.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ مدينة سدوم، وهي مدينة قوم لوط، أي جاء قوم لوط لما أخبروا أن في بيت لوط مرداً حساناً وهم الملائكة. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ حال، طمعاً في فعل الفاحشة بهم، والاستبشار: إظهار السرور. ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ في ضيفي، والفضيحة: إظهار ما يوجب العار، فإن من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في اقتراف الفاحشة. ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ ولا تذلون

بسببهم، والخزي: الذل والهوان أي لا تلحقوا بي ذلاً بقصدكم إياهم، بفعل الفاحشة بهم، أو لا تخجلوني فيهم، من الخزاية وهو الحياء.

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي عن إضافتهم أو إجارة أحد منهم، أو لم تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل غريب، وكان لوط يمنعهم عنه بقدر وُسْعه. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ﴾ يعني نساء القوم، فإن نبي كل أمة بمنزلة أبيهم، أو هؤلاء بناتي فتزوجوهن. ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي قضاء الوطر. ﴿لَعَمْرُكَ﴾ يكون بفتح العين حال القسم، وهو قسم من الله تعالى بحياة المخاطب وهو النبي ﷺ، أي وحياتك، والعمر: بفتح العين وضمها: الحياة. ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ غوايتهم. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون. ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ صيحة جبريل، وهي الصاعقة، قال ابن جرير: وكل شيء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة. ﴿مُشْرِقِينَ﴾ وقت شروق الشمس، أي داخلين في وقت الشروق.

﴿عَٰلِيَهَا﴾ أي قراهم. ﴿سَافِلَهَا﴾ بأن رفعها جبريل إلى السماء وأسقطها مقلوبة إلى الأرض، فصارت منقلبة بهم. ﴿سِجِّيلٍ﴾ طين متحجر، طبخ بالنار، وهو لفظ معرَّب. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَأَيَٰتٍ﴾ دلالات على وحدانية الله. ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ للناظرين المتفكرين المعتبرين. ﴿وَإِنَّهَا﴾ قرى قوم لوط. ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ على طريق قومك قريش إلى الشام، بنحو واضح لم تندرس آثارها، يمر بها الناس ويرون آثارها، أفلا يعتبرون بها. ﴿لَأَيَةً﴾ لعبرة. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسله.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى دلائل التوحيد، وأحوال القيامة، وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغباً في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذراً عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء. وكان ذكر هذه القصص تفصيلاً للوعد والوعيد، فبدأ أولاً

بقصة إبراهيم عليه السلام للبشارة بغلام عليم، ثم ذكر إهلاك قوم لوط، لاقترافهم جريمة فاحشة ما سبقهم بها أحد من العالمين.

التفسير والبيان:

وأخبرهم يا محمد عن ضيوف إبراهيم المكرّمين، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، فقالوا حين دخلوا عليه: سلاماً، أي سلاماً من الآفات والآلام والمخاوف. وكان إبراهيم عليه السلام يكنى: أبا الضيفان.

فقال إبراهيم للضيوف: إنا خائفون منكم؛ لدخولهم عليه بلا إذن، أو لما رأى أيديهم لا تمتد إلى ما قربه إليهم من الضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ (المشوي بالحجارة المحماة). وهذا يعني أنهم يبيتون شراً، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ١١/ ٧٠] .

فأجابوه بقولهم: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخفْ، وفي سورة هُودٍ: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ١١/ ٧٠] فهذا تعليل النهي عن الوجل في تلك السورة، وأما هنا فعللوا ذلك بقولهم: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي أتينا لبشارتك بميلاد غلام ذي علم وفطنة وفهم لدين الله؛ لأنه سيكون نبياً، وهو إسحاق عليه السلام، كما تقدم في سورة هود [٧١] وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١١٢] .

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ أجاب إبراهيم متعجباً من مجيء ولد حال كبره وكبر زوجته، ومتحققاً من الوعد، أبشرتموني بذلك بعد أن أصابني الكِبَر، فبأي أعجوبة تبشروني، أو إنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة، فبأي شيء تبشرونِ؟ يعني لا تبشرونني في الحقيقة بشيء؛ لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء.

فأجابوه مؤكدين لما بشروه به: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي قال ضيوف

إبراهيم له: بشرناك بما هو حق ثابت؛ إذ هو صنع الله ووعده الذي لا يتخلف، فلا تكن من القانطين اليائسين، فالذي أوجد الإنسان من التراب من غير أب وأم قادر على إيجاده من أي شيء، كأبوين عجوزين، أي إن إبراهيم استعظم نعمة الله عليه في وقت غير مألوف عادة، لا أنه استبعد ما هو داخل في نطاق القدرة الإلهية.

فأجابهم ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ﴾ أي أجاب إبراهيم الضيوف بأنه ليس يقنط، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك، ولا ييأس من رحمة الله إلا الضالون: أي المخطئون طريق الصواب، كما قال يعقوب: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٧].

ثم بعد تأكد إبراهيم الخليل عليه السلام من هذه البشرى وعلمه أنهم ملائكة، وذهاب الروع عنه، سألهم عن أمرهم بسبب مجيئهم مختفين: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾ أي قال لهم: فما شأنكم وما الأمر الذي أرسلتم به غير البشرى أيها الملائكة المرسلون؟ كأنه فهم من قرائن الأحوال أن لهم مهمة أصلية غير البشرى؛ لأن البشرى كما حدث لزكريا ومريم يكفيها واحد.

فأجابوه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ أي قالوا له: إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين مشركين هم قوم لوط، الذين يتعاطون المنكر، ويأتون الرجال شهوة من دون النساء، لنهلكهم.

ثم أخبروه أنهم سينجّون آل لوط جميعهم من بينهم إلا امرأته التي كانت متواطئة مع قومها، فإنها من الغابرين، أي الباقين مع الكفرة الهالكين، فإنا مخلصوهم أجمعين من ذلك العذاب: عذاب الاستئصال، إلا امرأة لوط، قضى الله عليها أن تكون مع المهلكين، لإعانتهم على مقاصدهم الخبيثة.

وقد أضاف الملائكة التقدير في قولهم: ﴿قَدَّرۡنَآ﴾ إلى أنفسهم، مع أنه لله تعالى، لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى، كما يقول خاصة الملك: دبَّرنا كذا وأمرنا بكذا، والآمر هو الملك، وليس هم.

ثم بدأت قصة الدمار والعذاب ومجيئهم إلى لوط عليه السلام ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي لما انتهت مهمة الملائكة مع إبراهيم فبشروه بالولد، وأخبروه بأنهم مرسلون لعذاب قوم مجرمين، ذهبوا بعدئذ إلى لوط وآله في صورة شباب حسان الوجوه، في بلدهم (سدوم) ولم يعرف لوط وقومه أنهم ملائكة الله، كما لم يعرفهم إبراهيم بادئ ذي بدء، فقال لهم لوط: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي إنكم قوم غير معروفين لدي، تنكركم نفسي، وأخاف أن تباغتوني بشر، فمن أي الأقوام أنتم؟! كما جاء في آية أخرى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ١١/٧٧] . وقيل: أنكر حالتهم، وخاف عليهم من إساءة قومه، لما رآهم شباناً مُرْداً حسان الوجوه.

فأجابوه ﴿بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي قالت الملائكة له: جئناك بما يسرّك، وهو عذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، ويكذبونك فيه قبل مجيئه.

ثم أكدوا ما ذكروه بقولهم: ﴿وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالأمر المحقق واليقين والأمر الثابت الذي لا شك فيه، وهو عذاب قوم لوط، وهذا مثل قوله تعالى﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ١٥/٨] .

﴿وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ﴾ وهذا تأكيد آخر، أي وإنا لصادقون فيما أخبرناك به، من هلاكهم ونجاتك مع أتباعك المؤمنين.

وإنما وصفوا مهمتهم بهذا الوصف، ولم يصرحوا بعذابهم، لإفادة تحقق عذابهم، وإثبات صدقه عليه السلام فيما دعاهم إليه.

ثم جاءت مرحلة التنفيذ وبيان خطة النجاة للوط وأتباعه، فقالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي فسر بأهلك بعد مضي جزء من الليل، وأهله: ابنتاه فقط ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ﴾ أي وامش وراء أهلك ليكون أحفظ لهم.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم، فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما أصابهم من العذاب والنكال، حتى لا يرق قلبه لهم.

وأكدوا النهي بقوله: ﴿وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي سيروا بأمر ربكم غير ملتفتين إلى ما وراءكم، إلى الشام، كما قال ابن عباس، أو حيث يوجهكم جبريل الذي أمرهم أن يمضوا إلى قرية معينة، لم يعمل أهلها مثل عمل قوم لوط.

وأوحى الله إليه أن التنفيذ سريع الحصول فقال: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ أي وأوحينا إليه أو تقدمنا إليه أن أمر هلاكهم مقضي قضاء مبرماً، وأن آخر هؤلاء وأولهم مستأصل وقت الصباح، كقوله في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ١١/ ٨١] . فقوله: ﴿دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني آخرهم، أي يستأصلون عن آخرهم، حتى لا يبقى منهم أحد.

ثم ذكر الله تعالى في ثنايا القصة ما عزم عليه قوم لوط من الإساءة لهؤلاء الضيوف، فقال: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي جاء قوم لوط أهل سدوم، حين علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، مستبشرين بهم فرحين، أملاً في ارتكاب الفاحشة معهم. وهذا جرم فظيع، وأمر مستهجن، ينافي الأعراف والأذواق السليمة من إكرام الغريب والإحسان إليه.

قيل: إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن، اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط. وقيل: إن امرأة لوط أخبرتهم بذلك. وعلى أي حال قال القوم: نزل بلوط ثلاثة من المرْد، ما رأينا قط أصبح وجهاً، ولا أحسن شكلاً منهم، فذهبوا إلى دار لوط.

فقال لهم لوط جملتين مؤثِّرتين، الأولى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ أي هؤلاء ضيوف، فلا تفضحوني فيهم، أي بارتكاب ما يؤدي إلى العار معهم، والضيف يجب إكرامه، فإذا قصدتموهم بالسوء، كان ذلك إهانة لي.

والثانية مؤكدة للأولى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾ أي وخافوا عذاب الله، ولا تخزون أي ولا تذلوني بإذلال ضيفي، ولا توقعوني في الخزي (أي الهوان) والعار، بالإساءة إليهم.

فأجابوه: ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ أي ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة، ونهيناك أن تضيف أحداً.

فأجابهم ﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي قال لوط لقومه مرشداً لهم: تزوجوا النساء اللاتي أباحهن الله لكم، وتجنبوا إتيان الرجال، إن كنتم فاعلين ما آمركم به، منتهين إلى أمري. والمراد ببناته: نساء قومه؛ لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم، كما قال تعالى في حق نبينا ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦/٣٣] وفي قراءة أُبَيّ: وهو أب لهم. وقيل: المراد بناته من صلبه، أي التزوج بهن.

وهذا كله، وهم غافلون عما يراد بهم، ويحيط بهم من البلاء، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر، لهذا قال تعالى لمحمد ﷺ أو قالت الملائكة للوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أقسم بحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا أيها الرسول - وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع - إنهم في غوايتهم يتحيرون، فلا يلتفتون إلى نصيحتك، ولا يميزون بين الخطأ والصواب. و﴿سَكْرَتِهِمْ﴾ ضلالتهم، و﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون أو يلعبون.

قال ابن عباس: ما خلق الله وما ذرأ، وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره.

ثم أخبر الله تعالى عن نوع عذابهم فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي فنزل فيهم صيحة جبريل عليه السلام: وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها، فقوله ﴿مُشْرِقِينَ﴾ أي داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس. وكان ابتداؤها من الصبح وانتهاؤها حين الشروق، لذا قال أولاً ﴿مُصْبِحِينَ﴾ ثم قال هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾.

وأخذ الصيحة: قهرها لهم وتمكنها منهم، وقد أدت بهم إلى رفع بلادهم إلى عنان السماء، ثم قلبها وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم. والصيحة: صوت شديد مهلك من السماء.

وهذا ما تضمنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي جعلنا عالي المدينة وهو ما على وجه الأرض سافلها أي في أعماقها، فانقلبت عليهم، وأنزل تعالى عليهم حجارة من طين متحجر طبخ بالنار.

يظهر مما سبق أن الآية ذكرت أنه تعالى عذبهم بثلاثة أنواع من العذاب هي:

١ - الصيحة الهائلة المنكرة.

٢ - أنه جعل عاليها سافلها.

٣ - أنه أمطر عليهم حجارة من سجيل.

ثم ذكر تعالى العبرة من تلك القصة، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ أي إن في ذلك العذاب الواقع بقوم لوط لدلالات للمتأملين المتفرِّسين، الذين يتعظون بالأحداث، ويتفهمون ما يكون لأهل الكفر والفواحش من عقاب أليم.

وبالمناسبة: روى البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير، وابن أبي حاتم وأبو نعيم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

ثم وجّه تعالى أنظار أهل مكة وأمثالهم إلى الاعتبار بما حدث فقال: ﴿وَإِنَّهَا

لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ أي وإن مدينة سَدُوم التي أصابها هذا العذاب لبطريق واضح، لا تخفى على المسافرين المارّين بها، فآثارها ما تزال باقية إلى اليوم، في الطريق من الحجاز إلى الشام، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِالَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٣٧-١٣٨] . فقوله: ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي بطريق واضح.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار، وإنجاءنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله، أي إن المنتفعين حقاً من مغزى القصة هم المؤمنون الذين يدركون أن العذاب انتقام من الله لأنبيائه. أما غير المؤمنين بالله، فينسبون الدمار للطبيعة والشؤون الأرضية.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت القصة إلى ما يأتي:

١ً - تعليم أدب الضيف بالتحية والسلام حين القدوم على الآخرين.

٢ً - وصف أحاسيس المضيف ومخاوفه حين تقديم الطعام لضيفه وامتناعهم عن الأكل.

٣ً - كانت بشارة الملائكة لإبراهيم بولادة إسحاق سبباً في طرد مخاوفه وإشعاره بالأمن والسلامة.

٤ً - كان استفهام إبراهيم الخليل استفهام تعجب من مخالفة العادة، وحصول الولد حال الشيخوخة التامة من الأبوين معاً، ولم يكن استفهامه استبعاد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر؛ لأن إنكار قدرة الله تعالى حينئذ كفر.

٥ً - أكد الملائكة البشارة، وأنها حق ثابت لا خلف فيه، وأن الولد لابد منه، ثم نهوه عن القنوط واليأس. ويلاحظ أن نهي الإنسان عن الشيء لا يدل على كون المنهي فاعلاً للمنهي عنه، كما في قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٨].

وقد نفى إبراهيم القنوط عن نفسه قائلاً ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب. وهذا يعني أنه استبعد الولد لكِبر سنه، لا أنه قنط من رحمة الله تعالى.

٦ً - لا خلاف في اللغة العربية في أن الاستثناء من النفي إثبات، ومن الإثبات نفي، فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ، إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ استثنى آل لوط من القوم المجرمين، فهم ناجون، ثم استثنى امرأته من آل لوط، فهي هالكة.

٧ً - لم يعرف لوط وآله أن الضيوف ملائكة، كما لم يكن إبراهيم قد عرفهم. وقيل: كانوا شباباً، ورأى جمالاً، فخاف عليهم من فتنة قومه، فهذا هو الإنكار في قوله ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

٨ً - ليس محموداً إطالة المكث أو النظر إلى آثار القوم الذين دمرهم الله، ويسن الإسراع حين المرور في تلك الديار؛ لأنها أماكن غضب ولعنة.

٩ً - نهى الله تعالى لوطاً وأتباعه عن الالتفات أثناء نزول العذاب بقوم لوط، حتى لا تأخذهم الشفقة عليهم، وليجدّوا في السير، ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح.

١٠ً - كان تصميم قوم لوط على ارتكاب الفاحشة مع هؤلاء الضيوف دليلاً مادياً آخر على فحشهم وكفرهم وضلالهم.

١١ً - قول لوط عليه السلام: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ سواء كنّ

بناته الصلبيات أو نساء قومه: إرشاد إلى الشيء المباح غير الحرام، أي فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام. ويكفر من فهم غير ذلك؛ لأن الزنى حرام في كل الملل والأديان، ولا يقره نبي قط ولو للضرورة.

١٢ً - قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾: قال القاضي عياض وابن العربي فيه: أجمع أهل التفسير في هذا: أنه قسم من الله جل جلاله بمدة حياة محمد ﷺ، تشريفاً له، وأن قومه من قريش في سكرتهم أي في ضلالتهم يعمهون وفي حيرتهم يترددون.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى قوم لوط، أنهم كانوا في سكرتهم يعمهون، وأن الملائكة قالت له ﴿لَعَمْرُكَ﴾.

ويكره لدى كثير من العلماء أن يقول الإنسان: لعمري؛ لأن معناه: وحياتي، فهو حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال. وقال الإمام أحمد: من أقسم بالنبي ﷺ لزمته الكفارة.

١٣ً - كان عقاب قوم لوط بالصيحة وقلب بلدهم عاليها سافلها، وإمطار حجارة من سجيل أي طين متحجر مطبوخ بالنار عليهم.

١٤ً - إن في هذه القصة لعبرة وعظة للمؤمنين الصادقين. والآثار المادية لديار قوم لوط في طريق الشام خير شاهد وأصدق دليل للمتعظين. هذا.. ولم يجز المالكية القضاء بالتوسم والتفرس، فذلك دليل غير متيقن، فلا يترتب عليه حكم.

قصة أصحاب الأيكة (قوم شعيب) وأصحاب الحجْر (ثمود)

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

القراءات:

﴿بُيُوتًا﴾ :

قرئ:

١- (بُيُوتاً) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتاً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَإِن كَانَ﴾ ﴿وَإِن﴾ هنا: مخففة من الثقيلة، ومعنى إن ولام ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ للتوكيد.

البلاغة:

﴿ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: الغيضة: وهي الشجر الكثير الملتف بعضه على بعض، وهي بقرب مدين .﴿لَظَٰلِمِينَ﴾ بتكذيبهم شعيباً .﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بأن أهلكناهم بشدة الحر .﴿وَإِنَّهُمَا﴾ قرى قوم لوط والأيكة .﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي لبطريق واضح. والإمام: ما يؤتم به، سمي به الطريق؛ لأنه يُؤتَم ويتَّبع.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ﴾ هم ثمود، والحجر: واد بين المدينة والشام، كانوا يسكنونه، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً، ومنه حِجْر الكعبة. ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي كذب أصحاب الحجر صالحاً، وعبر بالجمع عن المفرد؛ لأنه تكذيب لباقي الرسل، لاشتراكهم في المجيء بالتوحيد.

﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هي الناقة التي فيها آيات كثيرة، كعظم خلقها، وكثرة لبنها، وكثرة شربها، أو المراد آيات الكتاب المنزل على نبيهم .﴿مُعْرِضِينَ﴾ لا يتفكرون فيها .﴿مُصْبِحِينَ﴾ وقت الصباح .﴿أَغْنَىٰ﴾ دفع .﴿عَنْهُم﴾ العذاب .﴿مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من بناء البيوت الوثيقة والحصون وجمع الأموال .﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي خلقاً ملتبساً بالحق، ملازماً له، لا يلائم استمرار الفساد، ودوام الشرور ﴿لَءَاتِيَةٌ﴾ لا محالة، فيجازي كل أحد بعمله .﴿فَٱصْفَحِ﴾ يا محمد عن قومك. ﴿ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ أعرض عنهم إعراضاً لا جزع فيه، أو لا تعجل بالانتقام منهم، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم .﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾ لكل شيء، خلقك وخلقهم، وبيده أمرك وأمرهم .﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم فهو حقيق بأن تكل إليه الأمر.

المناسبة:

هذه هي القصة الثالثة والرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة، فأولها: قصة آدم وإبليس، وثانيها: قصة إبراهيم ولوط، وثالثها: هذه القصة

- قصة أصحاب الأيكة، وهم قوم شعيب عليه السلام، كانوا أصحاب غياض (أشجار متشابكة كثيرة) فكذبوا شعيباً، فأهلكهم الله تعالى بعذاب يوم الظلة، أي الصيحة وقت الصباح، لشركهم بالله، ونقصهم المكاييل والموازين. ورابعها: قصة صالح مع قومه، كان في الناقة آيات كثيرة كخروجها من الصخرة وعظم خلقها، وظهور نتاجها عند خروجها، وكثرة لبنها.

والهدف من إيراد هذه القصص كما بينا الترغيب في الطاعة الموجبة للفوز بالجنان، والتحذير من المعصية المؤدية لعذاب النيران، وتسلية النبي ﷺ بها عن تكذيب قومه له.

وأما مناسبة قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فهو أنه تعالى لما ذكر أنه أهلك الكفار، فكأنه قيل: الإهلاك والتعذيب كيف يليق بالرحيم؟ فأجاب عنه بأني إنما خلقت الخلق ليكونوا مشتغلين بالعبادة والطاعة، فاذا تركوها وأعرضوا عنها، وجب في الحكمة إهلاكهم وتطهير وجه الأرض منهم. أو إن المراد من هذه الآية تصبير الله تعالى محمداً عليه السلام على سفاهة قومه، فإنه إذا عرف أن الأنبياء السابقين عاملتهم أممهم بمثل هذه المعاملات الفاسدة، سهل عليه تحمل السفاهات من قومه.

التفسير والبيان:

أي إن أصحاب الأيكة وهم قوم شعيب ظالمون، بسبب شركهم بالله، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة، وقد كانوا قريبي الزمان من قوم لوط بعدهم، ومجاورين لهم في المكان، لذا لما أنذر شعيب قومه قال: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ١١/٨٩] .

والأيكة: الشجر الملتف.

روى ابن مردويه وابن عساكر عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مدين وأصحاب الأيكة أمّتان بعث الله إليهما شعيباً».

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ أي فعاقبناهم جزاء كفرهم ومعاصيهم، عاقبنا أهل الأيكة بيوم الظلة: وهو إصابتهم بحر شديد سبعة أيام، لا ظل فيه، ثم أرسلت عليهم سحابة، فجلسوا تحتها، فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم. وعاقبنا أهل مدين بالصيحة.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أي وإن كلاً من قرى قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة لبطريق واضح يسلكه الناس في سفرهم من الحجاز إلى الشام. والإمام: ما يؤتم به، وجعل الطريق إماماً لأنه يُؤَمّ ويُتّبع حتى يصل إلى الموضع الذي يريده.

ثم ذكر تعالى قصة أصحاب الحجر وهم ثمود، فقال: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ أي ولقد كذبت ثمود صالحاً نبيهم عليه السلام، ومن كذب رسولاً فقد كذب بجميع المرسلين، لاتفاق أصول دعوتهم في التوحيد وعبادة الله وأمهات الفضائل، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ أي وآتيناهم وأعطيناهم من الآيات والدلائل ما يدلهم على صدق نبوة صالح عليه السلام، كالناقة التي أخرجها الله من صخرة صماء بدعاء صالح، فأعرضوا عنها وعقروها ولم يعتبروا بها، فكانت تسرح في بلادهم، لها شِرْب يوم من نهر صغير ولهم شرب يوم آخر، ولبنها كثير كان يكفي القبيلة.

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾ أي وكانت لهم بيوت نحتوها في الجبال وأصبحوا بها آمنين من الأعداء، من غير خوف، لقوة إحكامها، وهي ما تزال مشاهدة بوادي الحجْر الذي مرّ به رسول الله ﷺ، وهو ذاهب إلى تبوك، فقنّع رأسه، وأسرع دابته، وقال لأصحابه - فيما رواه البخاري وغيره عن ابن عمر -: «لا

تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا، خشية أن يصيبكم ما أصابهم».

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ أي لما عَتَوْا وبغوا وعقروا الناقة، أخذتهم صيحة الهلاك في وقت الصباح من اليوم الرابع من موعد العذاب، كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ [هود: ١١/ ٦٥] .

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ أي فما نفعتهم تلك الأموال لما جاء أمر ربك، وما دفعت عنهم ذلك العذاب، ولم يستفيدوا من مكاسبهم وهي ما كانوا ينحتونه من البيوت في الجبال، وما كانوا يستغلونه من الزروع والثمار، التي ضنوا بمائها عن الناقة، حتى عقروها، لئلا تضيق عليهم في المياه، بل أصبحوا هَلْكى جاثمين.

ولما أخبر الله تعالى عن إهلاك الكفار، فكأن شخصاً تساءل، كيف يليق التعذيب والإهلاك بالرحيم الكريم؟ فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي وما خلقنا هذه المخلوقات في السماء والأرض وما بينهما إلا بالحق، أي بالعدل والحكمة، لا ظلماً، ولا باطلاً ولا عبثاً، ليكون الخلق مشتغلين بالعبادة والطاعة، فإذا تركوها وأعرضوا عنها، وجب في مقتضى العدل والحكمة إهلاكهم وتطهير الأرض منهم. وفي هذا إشارة إلى أن تعذيب المكذبين للنبي ﷺ في الآخرة هو حق وعدل وحكمة ومصلحة للبشر أنفسهم.

﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ أي وإن يوم القيامة آت لا ريب فيه، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وفي هذا تهديد للعصاة، وترغيب للطائعين.

﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ أي فأعرض يا محمد عن المشركين، واحتمل ما

تَلْقى منهم من أذى إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء، وهذا مخالقة للناس بخلق حسن، فهو غير منسوخ. والشائع أن هذا الصفح قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ.

قال الرازي: كون الصفح منسوخاً بآية السيف بعيد؛ لأن المقصود من ذلك أن يُظهر الخلق الحسن والعفو والصفح، فكيف يصير منسوخاً[١]؟!

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾ أي إن ربك كثير الخلْق، خلَق كل شيء، واسع العلم، عليم بكل شيء، وهذا تقرير للمعاد، وإنه تعالى قادر على إقامة الساعة، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه خلق شيء، العليم بما تبدد من الأجساد، وتفرق في سائر أنحاء الأرض، فالجميع صائرون إليه، محاسبون بين يديه.

فقه الحياة أو الأحكام:

هاتان قصتان من قصص الأمم البائدة الظالمة المكذِّبة لرسلها، تهزّ أعماق البشر، وتحرِّك مشاعرهم، وتوقظ ضرورة الصحوة والمبادرة إلى ساحة الإيمان وصلاح الأعمال.

فلقد كذب أصحاب الأيكة (قوم شعيب) رسولهم شعيباً، مع أنهم كانوا يرفلون بالنعم والخيرات الكثيرة المغدقة، فكانوا أصحاب غياض[٢] ورياض وشجر مثمر.

وظلت بحكمة الله تعالى آثار مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة ماثلة مشاهدة قائمة، ليعتبر بهما من يمرّ عليهما.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٠٦/١٩

(٢) الأيكة: الغيضة، وهي جماعة الشجر، والجمع: الأَيْك.

وكذلك كَذَّب أصحاب الحجْر (ديار ثمود بين المدينة وتبوك) نبيهم صالحاً، فلم يؤمنوا برسالته، ومن كذب نبياً فقد كذب الأنبياء كلهم؛ لأنهم على دين واحد في الأصول، فلا يجوز التفريق بينهم.

وكان عقاب هؤلاء المكذبين وهو التدمير والإبادة والهلاك التام عبرة للمعتبرين، ومثار تفكير وعظة للمتفكرين، فما أغنت عنهم الأموال والحصون في الجبال وقوة الأجسام. والله الخالق للسماوات والأرض قادر على البعث والمعاد والقيامة لإقامة العدل بين الخلائق وحساب الناس أجمعين.

وقد استنبط العلماء من الآيات في ضوء السنة ما يأتي:

١ً - كراهة دخول مواطن العذاب، ومثلها دخول مقابر الكفار، فإن دخل الإنسان إلى تلك المواضع والمقابر، فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي ﷺ مما ذكر سابقاً من الاعتبار والخوف والإسراع، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تَدْخلوا أرض بابل، فإنها ملعونة».

وهناك روايات أخرى لحديث ابن عمر عند البخاري وهي: أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجْر في غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها، ولا يستقوا منها، فقالوا: قد عَجَنَّا واستقينا، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهْرِيقوا الماء، وأن يطرحوا ذلك العجين.

وفي لفظ آخر: إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر - أرض ثمود، فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يُهرِيقوا ما استقوا، ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي تَرِدها الناقة.

٢ً - عدم جواز الانتفاع بماء السخط، فراراً من سخط الله؛ لأن النبي ﷺ أمر بإهراق ماء بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به، وتقديمه علفاً للإبل. وهذا ينطبق على الماء النجس وما يعجن به.

٣ً - قال مالك: إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم؛ إذ لا تكليف عليها. وكذلك قال في العسل النجس: إنه يعلفه النحل.

٤ً - أمر رسول الله ﷺ بعلف ما عجن بهذا الماء الإبل، ولم يأمر بطرحه، كما أمر في لحوم الحمُر الإنسية يوم خيبر، فدل على أن لحم الحمير أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس.

٥ً - يجوز للرجل حمل النجاسة إلى كلابه ليأكلوها؛ لأمره ﷺ بعلف الإبل العجين.

٦ً - جواز التبرك بآثار الأنبياء والصالحين، وإن تقادمت أعصارهم وخفيت آثارهم؛ لأمره ﷺ أن يستقوا من بئر الناقة.

٧ً - منع بعض العلماء الصلاة في موضع العذاب، وقال: لا تجوز الصلاة فيها؛ لأنها دار سخط، وبقعة غضب. فلا يجوز التيمم بترابها، ولا الوضوء من مائها، ولا الصلاة فيها. وقد روى الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ نهى أن يصلى في سبعة مواطن: في المزبلة، والمجزرة، والمقبرة، وقارعة الطريق، وفي الحمام، وفي معاطن الإبل، وفوق بيت الله».

وزاد المالكية: الدار المغصوبة، والكنيسة والبِيعة، والبيت الذي فيه تماثيل، والأرض المغصوبة، أو موضعاً تستقبل فيه نائماً أو وجه إنسان، أو جداراً عليه نجاسة.

لكن أجمع العلماء على جواز التيمم في الموضع الطاهر من مقبرة المشركين، وجواز الصلاة في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر. وقال مالك: لا يصلى على بساط فيه تماثيل إلا من ضرورة.

والممنوع مما ذكر مستثنى من قوله ﷺ فيما رواه الشيخان والنسائي عن جابر: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

٨ً - لا يصلى في البستان (الحائط) الذي يلقى فيه النتن والعَذِرة لإصلاحه، حتى يسقى ثلاث مرات، لما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الحائط يلقى فيه العَذِرة والنتن، قال: «إذا سقي ثلاث مرات فصلِّ فيه».

أفضال الله تعالى على نبيه المصطفى ﷺ

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (والقران).

﴿إِنِّىٓ أَنَا﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أنا).

﴿فَٱصْدَعْ﴾:

بإشمام الصاد صوت الزاي قرأ: حمزة والكسائي، وخلف. والباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ الكاف متعلقة بقوله: ﴿ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾، أو متعلقة بقوله: ﴿أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، أي أنذركم من العذاب ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ وهم الذين اقتسموا طرق مكة وعقابها، يمنعون الناس عن استماع كلام النبي ﷺ.

﴿عِضِينَ﴾ أي جعلوه أعضاء، حين آمنوا ببعض، وكفروا ببعض، و﴿عِضِينَ﴾ جمع عِضة.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ما: إما اسم موصول بمعنى الذي، و﴿تُؤْمَرُ﴾ صلته، وعائده محذوف تقديره: فاصدع بالذي تؤمر به، كما حذف من قوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٤١] أي بعثه الله، ومثل: أمرتك الخير أي أمرتك بالخير، وإما أن تكون «ما» مصدرية، أي فاصدع بالأمر. ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ﴾: صفة، وقيل: مبتدأ، ولتضمنه معنى الشرط دخلت الفاء في خبره وهو ﴿فَسَوْفَ﴾.

البلاغة:

﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ عطف عام وهو القرآن على خاص وهو الفاتحة. ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه استعارة تبعية، شبَّه خفض الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقة في كلٍ، واستعير اسم المشبّه به للمشبَّه.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلْمَثَانِى﴾ جمع مثنى، من التثنية وهو التكرير والإعادة، والسبع المثاني: هي الفاتحة، كما قال ﷺ في حديث رواه الشيخان؛ لأنها تثنى في كل ركعة، وآياتها سبع ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ لا تطمح ببصرك إلى ما عند غيرك من حطام الدنيا. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً. ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾

ألن جانبك، والمراد به: التواضع واللين، مأخوذ من خفض الطائر جناحه على فرخه: إذا غطاه وضمه إليه. ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ من عذاب الله أن ينزل عليكم و﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ المخوّف بعقاب الله من لم يؤمن به. ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ البيّن الإنذار، أي أنذركم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم إن لم تؤمنوا.

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ العذاب. ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ هم الاثنا عشر الذين اقتسموا مداخل مكة أيام الموسم، لينفروا الناس عن الإيمان بالرسول ﷺ، فأهلكهم الله تعالى يوم بدر. وقيل: هم أهل الكتاب (اليهود والنصارى).

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ حيث قال المشركون عناداً: بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، أو قسموه إلى شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين. وإذا كان المراد أهل الكتاب فالقرآن: كتبهم المنزلة عليهم، آمنوا ببعض كتبهم، وكفروا ببعض، فيكون ذلك تسلية للنبي ﷺ.

﴿عِضِينَ﴾ أجزاء، جمع عضة بمعنى الكذب، أي جعلوه مفترى، أو آمنوا ببعض وكفروا ببعض. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ سؤال توبيخ عن التقسيم أو النسبة إلى السحر، فيجازيهم عليه، أو هو عام في كل ما فعلوا من الكفر والمعاصي. فليس المقصود بالسؤال سؤال استخبار واستعلام؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، فيقول لهم: لِمَ عصيتم القرآن، وما حجتكم فيه؟ هذا قول ابن عباس. وقال عكرمة: إن القيامة مواطن، فمرة يكون هناك سؤال وكلام كما في هذه الآية، ومرة لا يكون هناك سؤال وكلام، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٣٩].

﴿فَٱصْدَعْ﴾ يا محمد. ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ به أي اجهر وأمضه، من صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهاراً. ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ بك، بإهلاكنا كلاً منهم بآفة، وهم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعدي بن قيس، والأسود

ابن عبد المطلب، والأسود بن عبد يغوث. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم في الدارين. ﴿وَلَقَدْ﴾ للتحقيق. ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي ينقبض حسرة وحزناً. ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من الاستهزاء والتكذيب. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي قل: سبحانه وبحمده، أي التسبيح مقترناً بالحمد. ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ المصلين. ﴿ٱلْيَقِينُ﴾ الموت. روي أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا حَزَبه أمر فزع إلى الصلاة.

سبب النزول:

نزول الآية (٩٥):

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ﴾: أخرج البزار والطبراني عن أنس بن مالك قال: مر النبي ﷺ على أناس بمكة، فجعلوا يغمزون في قفاه، ويقولون: هذا الذي يزعم أنه نبي، ومعه جبريل، فغمز جبريل بأصبعه، فوقع مثل الظفر في أجسادهم، فصارت قروحاً حتى نتنوا، فلم يستطع أحد أن يدنو منهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

المناسبة:

لما صبّر الله تعالى محمداً على أذى قومه، وأمره بأن يصفح الصفح الجميل، أتبع ذلك بذكر النعم العظيمة التي خص الله تعالى محمداً ﷺ بها؛ لأن الإنسان إذا تذكر كثرة نعم الله عليه، سهل عليه الصفح والتجاوز.

التفسير والبيان:

وتالله لقد أعطيناك وأنزلنا عليك أيها الرسول السبع المثاني والقرآن العظيم، والسبع المثاني: هي سورة الفاتحة، ذات الآيات السبع، التي تُثْنَى وتكرر في كل ركعات الصلاة، والبسملة هي الآية السابعة، وقد خصكم الله بها. روى البخاري حديثين في تفسير السبع المثاني، الأول عن أبي سعيد بن المعلى، والثاني عن أبي هريرة.

أما حديث أبي سعيد فقال: «مرّ بي النبي ﷺ، وأنا أصلّي، فدعاني، فلم آته حتى صليت، فأتيته فقال: ما منعك أن تأتيني؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤] ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أَخرُج من المسجد؟ فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكَّرتُه فقال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وأما حديث أبي هريرة فقال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن: هي السبع المثاني، والقرآن العظيم».

وقيل: السبع المثاني: هي السبع الطوال: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، والتوبة؛ لتكرار القصص والأحكام والحدود وتثنيتها فيها.

وقيل: المراد بالسبع المثاني: جميع القرآن، ويكون العطف من باب الترادف، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٣] فهو مثاني من وجه ومتشابه من وجه.

والراجح أن تفسير البخاري نص في أن الفاتحة: السبع المثاني. ولا مانع - كما قال ابن كثير - من وصف غيرها بذلك، لما فيها من هذه الصفة، كما لا ينافي وصف القرآن بكماله بذلك أيضاً، والآية نزلت في مسجد قباء، فلا تنافي، فإن ذكر الشيء لا ينفي ذكر ما عداه إذا اشتركا في تلك الصفة[١].

ثم رتب تعالى على هذا العطاء العظيم قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ أي لا تطمح أيها الرسول - والخطاب لأمته - إلى ما متعنا به الأغنياء من زينة الحياة الدنيا، فمن وراء ذلك عقاب شديد، واستغن بما آتاك الله من القرآن العظيم

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٥٧

عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية. والمقصود: فاخر بما أوحي إليك، وقدِّر عظمة نعمته عليك، ولا تنظر إلى الدنيا وزينتها، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية، لنفتنهم فيه، فلا تغبطهم بما هم فيه، ولا تتحسر عليهم في تكذيبهم لك، ومخالفتهم دينك، وإذا كنت في نعمة عظمى، هانت أمامها بقية النعم وكانت حقيرة. وهذا دليل على أن القرآن ثروة كبرى وخير وفلاح. ونظير الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ [طه: ٢٠/١٣١] .

قال أبو بكر رضي الله عنه: من أوتي القرآن، فرأى أن أحداً أوتي من الدنيا أفضل مما أُوتي، فقد صغّر عظيماً، وعظّم صغيراً.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا تتأسف على المشركين إذا لم يؤمنوا، ليتقوى بهم الإسلام، ويعتز بهم المسلمون. وقيل: المعنى: لا تحزن على ما متعوا به في الدنيا، فلك في الآخرة أفضل منه.

وبعد النهي عن الالتفات لأغنياء الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال:

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ألن جانبك وتواضع للمؤمنين، ولا تجافهم ولا تقس عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩] .

ثم وجهه تعالى لوظيفته، وهي الإنذار فقال: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ﴾ أي وقل يا محمد للناس: إني منذر ومخوِّف من عذاب أليم، بسبب التكذيب والتمادي في الغي، كما حل بالأمم المتقدمة المكذبة لرسلها، وما أحاط بهم من انتقام وعذاب.

جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما مَثَلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قومه، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العُرْيان، فالنَّجاءَ النجاءَ، فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا وانطلقوا على مَهَلهم، فنجَوْا، وكذَّبه طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيشُ، فأهلكهم واجتاحَهم، فذلك مَثَلُ من أطاعني واتَّبع ما جئتُ به، ومَثَلُ من عصاني وكذَّب ما جئت به من الحق».

﴿كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾ هناك رأيان في تعلق قوله: ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾[1].

أحدهما - أن يتعلق بقوله ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أي أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا التوراة والإنجيل على أهل الكتاب (اليهود والنصارى) من قبلك، وهم المقتسمون الذين اقتسموا القرآن إلى أجزاء، فآمنوا ببعضه الموافق للتوراة والإنجيل، وكفروا ببعضه المخالف لهما، فاقتسموه إلى حق وباطل. وهذا مروي عند البخاري وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس.

والثاني - أن يتعلق بقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾ أي وأنذر قريشاً بالعذاب مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين - يعني اليهود - وهو ما جرى على قريظة والنضير، فجعل المتوقع بمنزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون، وقد كان.

فكل من هذين الرأيين جعل المقتسمين من أهل الكتاب، والمقتسم هو القرآن. ويجوز أن يراد بالقرآن كتبهم التي يقرؤونها، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض، ويكون هذا من باب التسلية للنبي ﷺ حيث قال قومه عن القرآن؛ إنه سحر، أو شعر، أو كهانة.

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٩٥

وهناك وجه ثالث مروي أيضاً عن ابن عباس، جعله الرازي هو القول الأول، حيث قال ابن عباس: هم الذين اقتسموا طرق مكة، يصدون الناس عن الإيمان برسول الله ﷺ، ويقرب عددهم من أربعين. وقال مقاتل بن سليمان: كانوا ستة عشر رجلاً، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاقتسموا عقبات مكة وطرقها يقولون لمن يسلكها: لا تغتروا بالخارج منا، والمدعي للنبوة، فإنه مجنون، وكانوا ينفرون الناس عنه، بأنه ساحر، أو كاهن. أو شاعر، فأنزل الله تعالى بهم خزياً، فماتوا شر ميتة، والمعنى: أنذرتكم مثل ما نزل بالمقتسمين[1].

فالمقتسمون: هم القرشيون.

وبعد هذا الإنذار أقسم الله تعالى بذاته العلية على وقوع الحساب على الأعمال، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي فوالله لنسألن جميع الكفار سؤال توبيخ وتأنيب لهم عن أقوالهم وأعمالهم، وسنجازيهم عليها الجزاء الأوفى. فسر أبو العالية الآية فقال: يسأل العباد كلهم عن خَلَّتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وعما أجابوا به المرسلين.

وروى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معاذ، إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى كُحل عينيه، وعن فُتات الطينة بأصبعه، فلا أُلفينَّك يوم القيامة، وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك».

وإذا كانت هذه مهمتك أيها النبي وهو الإنذار وأن الحساب محقق، فما عليك إلا الجهر بدعوتك، فقد انتهت مرحلة الإسرار في الدعوة، فقال: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي فاجهر بتبليغ دعوتك للجميع، وواجه بها المشركين، ولا تأبه بهم، فإن الله عاصمك وحافظك منهم، وأعرض عن المشركين، أي

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ٢١١ وما بعدها.

بلغ ما أنزل إليك من ربك، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾ هذا تأمين رباني وعصمة وصون، أي إنا كفيناك شر المستهزئين بك، المجاهدين في عداوتك، الساخرين منك ومن القرآن، وهم جماعة ذوو قوة وشوكة من المشركين، وهم خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث.

قال جبريل لرسول الله ﷺ: أمرت أن أكفيكهم، فأومأ إلى عقب الوليد، فتعلق بثوبه سهم، فأبى تعظماً نزعه، فأصاب عرقاً في عقبه فمات. وأومأ إلى أخمص العاص بن وائل، فمات بشوكة دخلت فيه، وأشار إلى عيني الأسود ابن المطلب فعمي، وأشار إلى أنف ابن الحارث بن قيس فامتخط قيحاً فمات، وأشار إلى الأسود بن عبد يغوث، وهو قاعد في أصل شجرة، فأصيب بداء، فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك حتى مات[1].

وكان هؤلاء المستهزئون مشركين، لذا وصفهم الله بقوله: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ أي الذين يتخذون إلهاً آخر مع الله، فيشركون به من لا يضر ولا ينفع.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم ومآل شركهم ونتيجة كفرهم. وهذا تهديد ووعيد لهم بسوء المصير، لعلهم يرتدعون ويؤمنون.

ثم سلّى الله نبيه عما يصيبه من أذى المشركين فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي وإنا لنعلم يا محمد أنك تتأذى من سخرية المشركين وشركهم، ويحصل لك ضيق صدر وانقباض، فلا يثنينك ذلك عن إبلاغ رسالة الله،

---

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ٢١٥، تفسير القرطبي: ١٠/ ٦٢، تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٥٩

وتوكل عليه، فإنه كافيك وناصرك عليهم، والجأ إليه لإزالة الانقباض والجزع. ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

أي فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة، وداوم على ذلك حتى يأتيك اليقين، أي الموت، وسمي الموت باليقين؛ لأنه أمر متيقن، والدليل لهذا التأويل: قوله تعالى حكاية عن أهل النار: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ٤٣-٤٧] أي الموت.

وهذا دليل على أن علاج ضيق الصدر هو التسبيح والتقديس والتحميد والإكثار من الصلاة، وأن العبادة كالصلاة واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً، فيصلي بحسب حاله، كما ثبت في صحيح البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب».

وهو دليل أيضاً على تخطئة بعض الملاحدة القائلين بأن المراد باليقين: المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة، سقط عنه التكليف عندهم، وهذا - كما قال ابن كثير - كفر وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد الناس، وأكثرهم عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة.

وكان ﷺ إذا حَزَبه أمر، واشتد عليه خَطْب، فَزِع إلى الصلاة. روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار، أكفِك آخره».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - القرآن العظيم هو النعمة العظمى على النبي ﷺ وعلى المسلمين لا يقاس بها أي شيء آخر من مال أو ثروة أو غير ذلك.

٢ - الفاتحة سورة من القرآن خصصت بالذكر لفضلها ومزيتها، لاشتمالها على أصول الإسلام، بل هي أفضل سور القرآن لسببين:

الأول - إفرادها بالذكر مع كونها جزءاً من القرآن، مما يدل على مزيد الشرف والفضيلة.

الثاني - أنه تعالى لما أنزلها مرتين، دل ذلك على زيادة فضلها وشرفها. وإنها نزلت مرة بمكة في أوائل ما نزل من القرآن، ومرة بالمدينة.

٣ - لا يطمح بصر المؤمن إلى زخارف الدنيا، وعنده معارف المَوْلَى عز وجل، قال ﷺ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: «ليس منا من لم يتغنَّ بالقرآن» أي من لم يستغن به.

٤ - قال بعضهم: هذه الآية تقتضي الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام، وإقبال العبد على مولاه. والحق أنه ليس في دين محمد الرهبانية، والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية، كما كان في دين عيسى، وإنما الإسلام دين الحنيفية السمحة ودين الفطرة ودين الوسطية الذي يجمع بين الروح والمادة، والاشتغال للحياتين معاً الدنيا والآخرة، واستيفاء حظوظ الجسد المباحة مع الرجوع إلى الله بقلب سليم.

٥ - على المؤمن أن يكون بعيداً من المشركين، ولا يحزن إن لم يؤمنوا، قريباً من المؤمنين، متواضعاً لهم، محباً لهم، ولو كانوا فقراء.

٦ً - مهمة النبي ﷺ وكل مؤمن عالم بعده التبليغ لرسالة الله لجميع الخلق، والإنذار بالعذاب من الكفر والعصيان. وقد كانت دعوة النبي ﷺ في بادئ الأمر سرِّية، ثم صارت جهرية بهذه الآية: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

٧ً - العذاب مقرر على المقتسمين لكتاب الله، بأن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعضه الآخر، سواء أكانوا من أهل الكتاب (اليهود والنصارى) أم من مشركي قريش.

٨ً - الآية: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ بعمومها تدل على سؤال الجميع من الناس، كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب. والظاهر أن الكافر يسأل، لقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٤] وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٨٨/ ٢٥-٢٦] .

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٨] وقوله: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٣٩] وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٤] وقوله: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٥] فذلك في أحوال خاصة بيوم القيامة؛ لأن للقيامة مواطن، فموطن يكون فيه سؤال وكلام، وموطن لا يكون ذلك فيه. قال عكرمة: القيامة مواطن، يسأل في بعضها ولا يسأل في بعضها.

وقال ابن عباس: لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام، هل عملتم كذا وكذا؛ لأن الله عالم بكل شيء، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ، فيقول لهم: لِمَ عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟[1].

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٦١

٩ً - تكفلت عناية الله ورعايته بصون النبي ﷺ وحمايته من أذى المشركين بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم، فقد برأك الله عما يقولون.

قال بعضهم: هذا منسوخ بآية القتال، قال الرازي: وهو ضعيف؛ لأن معنى هذا الإعراض ترك المبالاة بهم، فلا يكون منسوخاً[١].

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله؛ فان الله كافيك من آذاك، كما كفاك المستهزئين. وصفة المستهزئين: الشرك، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

١٠ً - التسبيح والتحميد والصلاة علاج الهموم والأحزان، وطريق الخروج من الأزمات والمآزق والكروب. وغاية القرب من الله تعالى حال السجود، كما قال ﷺ فيما رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة: «أقرب ما يكون العبد من ربه، وهو ساجد، فأخلصوا الدعاء» لذا خص السجود هنا بالذكر بقوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

١١ً - المسلم مطالب على سبيل الفرضية بالعبادة التي هي الصلاة على الدوام حتى يأتيه الموت، ما لم يغلب الغشيان أو فقد الذاكرة على عقله، والإسلام سمح سهل، فعليه أداء الصلاة بأي كيفية يستطيعها، ولا تسقط عنه أصلاً إلا في حال الغيبوبة، ويحاسب على كل فريضة تركها أو أهملها عمداً، كما قال العبد الصالح عيسى عليه السلام: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٣١].

---

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ٢١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النحل

مكية، وهي مئة وثمان وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة النحل، لاشتمالها في الآيتين [٦٨-٦٩]: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ على قصة النحل التي ألهمها الله امتصاص الأزهار والثمار، وتكوين العسل الذي فيه شفاء للناس، وتلك قصة عجيبة مثيرة للتفكير والتأمل في عجيب صنع الله تعالى، والاستدلال بهذا الصنع على وجود الله سبحانه.

وسميت أيضاً سورة «النِّعَم» لتعداد نعم الله الكثيرة فيها على العباد[١].

ارتباطها بالسورة التي قبلها:

إن آخر سورة الحجر شديد الارتباط بأول هذه السورة، فإن قوله تعالى في آخر السورة السابقة: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ يدل على إثبات الحشر يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه في الدنيا، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ يدل على ذكر الموت، وكل من هاتين الآيتين ظاهر المناسبة لقوله هنا في أول السورة: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ إلا أنه في الحجر أتى

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/ ٦٥

بقوله: ﴿يَأْتِيَكَ﴾ بلفظ المضارع، وهنا ﴿أَتَىٰٓ﴾ بلفظ الماضي؛ لأن المراد بالماضي هنا: أنه بمنزلة الآتي الواقع، وإن كان منتظراً، لقرب وقوعه وتحقق مجيئه.

وكذلك ترتبط هذه السورة بسورة إبراهيم؛ لأنه تعالى ذكر هناك فتنة الميت، وما يحصل عندها من الثبات أو الإضلال، وذكر هنا ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وما يحصل عقب ذلك من النعيم أو العذاب. وذكر أيضاً النعيم في سورة إبراهيم، وقال بعده: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٤] وكررت الآية نفسها هنا [١٨] وذكر هنا أنواع النِّعم المختلفة.

ما اشتملت عليه السورة:

تضمنت هذه السورة الكلام على أصول العقيدة وهي الألوهية والوحدانية، والبعث والحشر والنشور، فبدأت بإثبات الحشر والبعث واقتراب الساعة ودنوها، معبراً تعالى بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع قطعاً، مثل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١] وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ٥٤/١] وكل ذلك يدل على أن إخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة.

ثم أثبتت الوحي الذي كان ينكره المشركون كما أنكروا البعث، وأنهم كانوا يستعجلون الرسول ﷺ أن يأتيهم العذاب الذي هددهم به.

ثم تحدثت السورة عن أدلة القدرة الإلهية في هذا الكون الدالة على وحدانية الله من خلق السماوات والأرض، وما فيهما من كواكب ونجوم، وجبال وبحار، وسهول ووديان، ومياه وأنهار، ونباتات وحيوانات، وأسماك ولآلئ بحرية وبواخر تجري في البحر، ورياح لواقح ومسيرة للفلك، ودعت إلى التأمل في منافع المطر والأنعام وثمرات النخيل والأعناب، ومهمة النحل، وخلق

الإنسان ثم إماتته، والمفاضلة بين الناس في الرزق، وطيران الطيور، وتهيئة المساكن، وغير ذلك.

وأوضحت السورة نعم الله تعالى الكثيرة المتتابعة، وذكّرت الناس بنتيجة الكفر بها، وعدم القيام بشكرها، وإعداد أبواب جهنم للكفار خالدين فيها، وإعداد جنات عدن للمتقين الذين أحسنوا العمل في الدنيا. وأبانت فضل الله سبحانه بإرسال الرسل في كل الأمم، وحصرت مهمتهم الموحدة بالأمر بعبادة الله واجتناب الطاغوت.

وأبانت السورة مهمة خطيرة للأنبياء في عالم القيامة وهي الشهادة على الأمم بإبلاغهم الدعوة الحقة إلى دين الله، وعدم الإذن للكافرين في الكلام، ورفض قبول أعذارهم.

ثم ذكر تعالى أجمع آية في القرآن وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠] وأعقبها بالأمر بالوفاء بالعهود والوعود، وتحريم نقضها، وتعظيم شروطها وبنودها، وعدم اتخاذ الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق وسيلة للخداع والمكر.

ثم أمر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن، والتصريح بانعدام سلطانه وتأثيره على المؤمنين المتقين المتوكلين على ربهم، وبيان أن سلطانه على المشركين.

وأوضح سبحانه أن هذا القرآن نزل به روح القدس على قلب النبي ﷺ، فهو كلام الله، لا كلام بشر عربي أو أعجمي.

وفي السورة ضرب الأمثال لإثبات التوحيد ودحض الشرك والأنداد من دون الله والكفر بأنعم الله، ورفع الحرج عمن نطق بالكفر كرهاً، وقلبه مطمئن بالإيمان، وإعطاء كل نفس حق الدفاع عن نفسها يوم القيامة، وجزاء كل إنسان بما عمل.

وفي أواخر السورة عقب الحديث عن الأنعام بيان ما حرمه الله منها، وزجر العلماء عن الإفتاء بالتحريم أو بالتحليل دون دليل، ومقارنة ذلك بما حرمه تعالى على اليهود بسبب ظلمهم.

ثم ختمت السورة بمدح إبراهيم بسبب ثباته على التوحيد الخالص، وأمر النبي ﷺ باتباع ملته، ثم أمره بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وقصره العقاب على المثل دون تجاوز ذلك، والأمر بالصبر على المصائب والأحزان، والاعتماد على عون الله للمتقين المحسنين.

إثبات البعث والوحي

﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

القراءات:

﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عما تشركون).

﴿يُنَزِّلُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (يُنْزِل).

الإعراب:

﴿أَتَىٰٓ﴾ بمعنى يأتي، أقام الماضي مقام المستقبل، لتحقيق إثبات الأمر وصدقه. وقد يقام المستقبل مقام الماضي، مثل قول الشاعر:

وإذا مررت بقبره فانحر له كُوَم الهجان وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخا دم وذبائح

أي فلقد كان. ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ الضمير إما أن يعود على الله وإما أن يعود على العذاب، وكلاهما متلازم.

﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾ إما بدل من قوله ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ وإما منصوب بتقدير حذف حرف الجر، أي بأن أنذروا، فحذف الباء، فاتصل الفعلُ به.

البلاغة:

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فيه التفات عن الغيبة إلى خطاب المستعجلين.

المفردات اللغوية:

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ قرب ودنا، أي إن الأمر الموعود به بمنزلة الآتي المتحقق من حيث إنه واجب الوقوع، فلا تستعجلوا وقوعه فإنه لا خير لكم فيه ولا خلاص لكم عنه وإنه واقع لا محالة. ويقال في العادة لما يجب وقوعه: قد أتى، وقد وقع. و﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تعذيبه الكافرين وعقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له عن الشريك. ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ أي جبريل ﴿بِٱلرُّوحِ﴾ الوحي أو القرآن، فإنه يحيي القلوب الميتة بالجهل، أو يقوم في الدين مقام الروح في الجسد ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ بأمره وإرادته ﴿أَنْ﴾ مفسرة ﴿أَنذِرُوٓاْ﴾ خوِّفوا بالعذاب ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ خافوا عقابي، لمخالفة أمري وعبادة غيري.

سبب النزول:

كان المشركون يستعجلون ما أوعدهم الرسول ﷺ من قيام الساعة، أو إهلاك الله تعالى إياهم، كما فعل يوم بدر استهزاء وتكذيباً، ويقولون: إن صح ما يقوله فالأصنام تشفع لنا وتخلصنا منه فنزلت. أخرج ابن مردويه عن

ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ ذعر أصحاب رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ فسكنوا.

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوايد الزهد، وابن جرير، وابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص قال لما نزلت: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ قاموا، فنزلت: ﴿فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾.

فموضوع الآية الأولى إعلان أن الأمر الموعود به وهو قيام الساعة متحقق حادث لا محالة، وأنه تعالى منزه عن الشريك والولد. وموضوع الآية الثانية الإخبار بأن نزول الوحي بوساطة الملائكة، والتنبيه على التوحيد الذي هو منتهى كمال القوة العلمية، والأمر بالتقوى الذي هو أقصى كمال القوة العملية، وأن النبوة عطائية. والمراد من قوله: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ معرفة الحق لذاته، وأما المراد من قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ فهو معرفة الخير لأجل العمل به.

التفسير والبيان:

كان الكفار يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم استهزاء وتكذيباً بالوعد، فقيل لهم: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾.

فلما أكثر ﷺ من تهديد الكفار بعذاب الدنيا وعذاب الآخرة، ولم يروا شيئاً، نسبوه إلى الكذب، فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ أي قد حصل أمر الله وحكمه ووجد من الأزل إلى الأبد، وتحقق بنزول العذاب، إلا أن المأمور به والمحكوم به إنما لم يحصل ولم ينفَّذ؛ لأنه تعالى خصص حصوله بوقت معين، فلا تستعجلوه، ولا تطلبوا حصوله قبل مجيء ذلك الوقت، أي إن الحكم صدر مع وقف التنفيذ في أمد معين.

وكذلك لما أكثر ﷺ من تهديدهم بقيام الساعة أجيبوا بأنه قد اقتربت الساعة ودنت، معبراً عن المستقبل بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع

لا محالة، كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ٥٤/١] وقوله سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ٢١/١] أي إن أمر الله بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظراً، فلا تستعجلوه قبل حضور الوقت المقدّر في علمه تعالى، أي قرب ما تباعد، فلا تتعجلوا وقوعه.

وهذا تهديد للكفار وإعلام لهم بقرب عذابهم وهلاكهم.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾ تبرأ الله تعالى وتنزه وتقدس عما ينسبون له من الشريك والولد وعبادتهم ما سواه من الأوثان والأنداد. وهذا إبطال لما عقدوا عليه الآمال من شفاعة الأصنام.

ولما كان استعجال العذاب وقيام القيامة تكذيباً للنبي واستهزاء به وبوعده، وهو كفر، قرن تعالى النهي عن الاستعجال بإثبات التنزيه له عن الشرك والشركاء، وهو رأس الكفر.

ثم أجاب الله تعالى عن شبهة ثالثة تتعلق بتكذيب النبوة والنبي، فقال: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي ينزل تعالى الملائكة بالوحي على من يريد من عباده الذين اصطفاهم واختارهم للرسالة. وعبر عن الوحي بالروح؛ لأنه يحيي موات القلوب كما تحيي الروح موات الأبدان، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ٦/١٢٢]. واستعمال الروح بمعنى الوحي شائع في القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٤٢/٥٢].

وقوله: ﴿مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ هم الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ٦/١٢٤] وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٥] وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ٤٠/ ١٥] . وهذا رد لقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣١] .

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ١٦/ ٢] يعني أن التنزيل والنزول للوحي لا يكونان إلا بأمره تعالى، كما حكى عن الملائكة: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ١٩/ ٦٤] فلا يستطيع الملائكة فعل شيء إلا بأمر الله تعالى وإذنه.

ودلت الآية على أن الوحي من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بوساطة الملائكة.

ثم بيّن تعالى مهمة الرسل فقال: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟﴾ أي لينذروا الناس الكفرة ويعلموهم أنه لا إله إلا الله، فاتقوا عقابي لمن خالف أمري وعبد غيري.

فقه الحياة أو الأحكام:

أجابت الآيات عن شبهات ثلاث للمشركين: قيام الساعة ونزول العذاب، والشرك والشركاء، والنبوة والوحي.

أما الموضوع الأول: فقد أعلن تعالى أن قيام الساعة ونزول العذاب والهلاك متحقق كائن لا محالة، ولكنه مرتبط بوقت معين مقدر في علم الله تعالى، وهو أمر قريب، فلا داعي للاستعجال بوقوعه، والتعجيل بحدوثه.

وأما الموضوع الثاني: فقد نزه الله تعالى نفسه عن الشرك والإشراك، وعن الشريك والولد وعن الأوثان والأنداد، وعما يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة، لقولهم: لا يقدر أحد على بعث الأموات، فوصفوه بالعجز الذي لا يوصف به إلا المخلوق. والتنزيه يتضمن إثبات القدرة المطلقة لله، والوحدانية التامة، واستحقاق العبادة المستقلة به المخلصة له، وإبطال مازعموه من شفاعة الأصنام.

وأما الموضوع الثالث: فقد أبان تعالى أنه الذي ينزل بالروح، أي بالوحي وهو النبوة، على من اختارهم الله للنبوة، من طريق الملائكة، ولا يحدث شيء من تنزل الوحي إلا بأمره وإذنه تعالى، وختمت الآية بالتحذير من عبادة الأوثان، والإنذار بأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فليتقوا عقاب الله إذا خالفوا أمره وعبدوا غيره.

وأفادت الآية كما لا حظنا أن وصول الوحي من الله تعالى إلى الأنبياء لا يكون إلا بالملائكة، كما قال تعالى في آخر سورة البقرة: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٥] فبدأ بذكر الله سبحانه، ثم أتبعه بذكر الملائكة؛ لأنهم هم الذين يتلقون الوحي من الله ابتداء من غير وساطة، وذلك الوحي هو الكتب، والملائكة يوصلون الوحي إلى الأنبياء والرسل، فكان الترتيب متناسباً متدرجاً موضحاً رتبة الملائكة والأنبياء(١).

أدلة وجود الله ووحدانيته

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾

(١) تفسير الرازي: ١٩/ ٢٢٠

القراءات:

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (عما تشركون).

﴿لَرَءُوفٌ﴾:

قرئ:

١- (لرؤوف) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص.

٢- (لرؤف) وهي قراءة الباقين.

﴿قَصْدُ﴾:

بإشمام الصاد صوت الزاي، قرأ: حمزة، والكسائي، وخلف.

وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

الإعراب:

﴿بَالِغِيهِ﴾ الهاء في موضع جر بالإضافة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ هذه الأسماء كلها معطوفة بالنصب على قوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ وتقديره: وخلق الخيل والبغال والحمير.

﴿وَزِينَةً﴾ إما منصوب بفعل مقدر، أي وجعلها زينة، وإما منصوب على أنه مفعول لأجله، أي لزينة.

البلاغة:

﴿خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ﴿لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ قدم الظرف مراعاة للفاصلة آخر الآيات.

﴿تُرِيحُونَ﴾ ﴿تَسْرَحُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي أوجد السماوات والأرض محقاً على مقدار وشكل وأوضاع وصفات مختلفة، وقدّرها وخصصها بحكمته ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاظم عما يشركون به من الأصنام، وهذا يدل على أنه تعالى ليس من قبيل الأجرام المادية ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ المراد مادة التلقيح التي تكون سبباً للحمل ﴿خَصِيمٌ﴾ مناظر مجادل شديد الخصومة ﴿مُّبِينٌ﴾ مظهر للحجة قائل: من يحيي العظام وهي رميم؟ روي أن أُبي بن خلَف أتى النبي ﷺ بعظم رميم، وقال: يامحمد، أترى أن الله تعالى يحيي هذا بعد ما قد رمَّ؟ فنزلت .﴿دِفْءٌ﴾ ما تستدفئون به من الكساء والرداء من أشعارها وأصوافها ﴿وَمَنَافِعُ﴾ من النسل والدر والركوب.

﴿جَمَالٌ﴾ زينة في أعين الناس، والمراد جمال الصورة وتركيب الخلقة ﴿تُرِيحُونَ﴾ تردونها بالعشي من المرعى إلى مَراحها (حظيرتها) ﴿تَسْرَحُونَ﴾ تُخرجونها بالغداة (صباحاً) إلى المرعى ﴿أَثْقَالَكُمْ﴾ أحمالكم ﴿لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ﴾ لم تكونوا واصلين إليه على غير الإبل إلا بجهد الأنفس أو بالمشقة الزائدة ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بكم حيث خلقها لكم .﴿وَزِينَةً﴾ أي لتتزينوا بها زينة ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الأشياء العجيبة الغريبة.

﴿قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي بيان الطريق المستقيم ﴿جَائِرٌ﴾ حائد أو مائل عن الاستقامة ﴿وَلَوْ شَاءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَاكُمْ﴾ إلى قصد السبيل هداية مستلزمة للاهتداء ﴿أَجْمَعِينَ﴾ فتهتدون إليه باختيار منكم.

سبب النزول:

نزول الآية (٤):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ : نزلت الآية في أُبي بن خلَف الجمحي حين جاء بعظم رميم إلى رسول الله ﷺ فقال: يامحمد، أترى الله يحيي هذا بعدما رمَّ؟ ونظير الآية قوله تعالى في سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ إلى آخر السورة.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنه منزه عن الشريك والولد، وأنه الإله الواحد، وأمر بإخلاص العبادة له، ذكرأدلة وجود الإله الصانع الواحد وكمال قدرته وحكمته، وهي خمسة: خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان، وخلق الأنعام، وخلق النبات، وخلق العناصرالأربعة. والأخيران هما موضوع الآيات التالية.

التفسير والبيان:

خلق الله تعالى وأبدع العالم العلوي وهو السماوات، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت، وذلك مخلوق بالحق، أي على أساس من الحكمة والتقدير المحكم، لا عبثاً، وانفرد بخلقه ذلك، فتنزه الله عن المعين والشريك، لعجز ما سواه عن خلق شيء، فلا يستحق العبادة إلا هو، فقوله ﴿وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه نفسه عن شرك من عبد معه غيره، فهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له، فيستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

ثم ذكر الله تعالى خلق جنس الإنسان من نطفة، أي مهينة ضعيفة، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَـةٍ﴾ أي خلق الإنسان من ماء مهين ضعيف، فلما استقل وكبر، إذا هو يخاصم ربه تعالى، ويكذبه وهو إنما خلق ليكون عبداً، لا

ضداً، وخلق من شيء ضعيف، فتراه يجادل ويقول: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٣٦/٧٨] . ونظير الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٤-٥٥] .

روي أن المراد بالآية أُبي بن خلف الجمحَي، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم، فقال: أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رمَّ؟ وفي هذا أيضاً نزل ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧٧] .

ثم امتن الله تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، فقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ﴾ أي وخلق الله لكم الأنعام ذات المصالح والمنافع المختلفة لكم، من أصواف وأوبار وأشعار للبس والأثاث (أو الفراش) ومن ألبان للشرب، ونسل للأكل.

ولكم في هذه الأنعام جمال، أي زينة حين الرواح: وهو وقت رجوعها عشاء من المراعي، ووقت السّروح: وهو وقت الغدوة والذهاب من مُراحها إلى مسارحها أو المرعى. وخص تعالى هذين الوقتين بالذكر لاهتمام الرعاة بهما حين الذهاب والإياب، وفي ذلك مفاخرة بالقطيع، وقدم الرَّواح على السُّروح؛ لأن الفائدة فيه أتم، لمجيئها شبعانة، فتدر الحليب، وتملأ النفس سروراً، والعين متعة، فهي عنصر للغذاء وأداة إنتاج في الاقتصاد.

وجمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة والتركيب والصورة.

وكذلك هي أداة عمل وركوب وحمل أمتعة، فقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي وهي أيضاً تحمل أمتعتكم الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها من بلد إلى آخر لا تبلغونه إلا بمشقة شديدة، مثل الحج والعمرة والجهاد والتجارة ونحو ذلك من أنواع الاستعمال ركوباً وتحميلاً، كما قال

تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٢١-٢٢] وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [غافر: ٤٠/ ٧٩-٨٠].

وتظل الأنعام ثروة اقتصادية في كل زمان ومكان، ونعمة كبرى، لذا ختم تعالى الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم كثير الرأفة والرحمة بعباده، فقد جعلها لهم مصدر رزق وخير كبير، وأداة منافع وجلب مصالح، كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٧١-٧٢].

وامتن الله تعالى على الناس بثروة حيوانية أخرى هي: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ﴾ وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضاً، وجعلها للركوب والزينة بها أي تتزينون بها، مع منافع أخرى.

ثم جاء دور الامتنان بوسائل النقل والمواصلات الحديثة: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي ويخلق لكم غير هذه الحيوانات من وسائل النقل كالقطارات والسيارات والسفن والطائرات وغيرها.

ثم في هذا العالم السماوي والأرضي والحيواني، يرشد تعالى إلى الطريق السوي من الطرق المعنوية الدينية والحياتية فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي وعلى الله فضلاً وتكرماً بيان الطريق الواضح الموصل إلى الحق والخير، بإقامة الأدلة وإنزال الكتب وإرسال الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٣] وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٤١].

وكثيراً - كما قال ابن كثير - مايقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية، كقوله تعالى في الحج: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢/١٩٧] وقوله سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٧/٢٦].

ثم قال سبحانه محذراً من متاهات الطرق: ﴿جَآئِرٌ﴾ أي ومن الطرق أو السبل طريق جائر حائد عن الاستقامة، مؤد إلى الضلال والزيغ عن الحق. وسبيل الاستقامة هو الإسلام، والجائر منها غيره من الأديان، لنسخها بالإسلام، ولأن الإسلام دين التوحيد والفطرة الذي ارتضاه لعباده، كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠/ ٣٠].

ثم أخبر الله تعالى أن الهداية بقدرته ومشيئته تعالى فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قال المعتزلة: ولو شاء لهداكم جميعاً جبراً وقسراً وإلجاءً. وقال أهل السنة: الله قادر على هداية جميع الناس، مافي ذلك أدنى شك، وإنما المراد بالآية: أنه تعالى بيَّن السبيل القاصد المستقيم والجائر، وهدى قوماً يستحقون الهداية، وقد اختاروا الهدى، وأضل قوماً اختاروا الضلالة لأنفسهم. والهداية نوعان: هداية دلالة وإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٩٠/١٠] وهداية توفيق ورعاية كما في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ١/٦] وقوله هنا: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ١٠/٩٩] وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١/١١٨-١١٩].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى مايأتي:

١ً - إن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان دليل واضح على قدرة الله تعالى ووجوده ووحدانيته.

لكن تعدى الإنسان طوره، وتجاوز حدوده، فناكد وجادل، وكذب ربه وخاصمه في قدرته.

٢ً - وكذلك خلق الأنعام بما فيها من منافع امتن الله بها على الإنسان دليل آخر على قدرة الله وتوحيده.

ودل قوله ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ على مشروعية لباس الصوف، وقد لبسه رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، كموسى وغيره.

ومنافع الأنعام كثيرة لا نكاد نجد لها شبيهاً، ففيها منفعة الأجسام ذاتها بأكل لحومها، ومنفعة نتاجها بالدر واللبن والنسل، ومنفعة ما تستر به من أوبار وأصواف وأشعار، ومنفعة ظهورها للركوب وحمل الأثقال والنقل من بلد إلى آخر، ومنفعة قواها بالحرث، فالبقرة لا يحمل عليها ولا تركب، وإنما هي للحرث وللأكل والنسل واللبن، فحق على الإنسان شكر هذه النعمة، ومقابلتها بالعبادة لله تعالى الذي خلقها وسخرها للناس.

ودلت هذه الآية على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها، ولكن بقدر المعتاد وقدر ما تحتمله من غير إسراف في الحمل، مع الرفق في السير. وقد أمر النبي ﷺ بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سافرتم في الخِصْب، فأعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم في السنة فبادروا بها نِقْيها[1]».

---

(١) السنة: القحط ويبس نبات الأرض، والنِّقي: المخ، والمعنى: أسرعوا في السير بالإبل، لتصلوا إلى المقصد، وفيها بقية من قوتها، لعدم وجود ما يقويها على السير في الأرض الجدبة.

وهذا دليل الرفق بالحيوان.

٣ - كذلك الدواب الأخرى التي خلقها الله وهي الخيل والبغال والحمير دليل آخر على القدرة الإلهية، ومزيد فضل الله تعالى، قال العلماء: ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها، رحمةً منه تعالى لنا، وما ملَكه الإنسانُ وجاز له تسخيره من الحيوان، فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم.

واختلف العلماء فيمن اكترى دابة بأجر معلوم إلى موضع معين، فتعدى وتجاوز ذلك المكان، ثم رجع إلى المكان المأذون له فيه، فقال أبو حنيفة: لصاحبها الأجرة المسماة، ولا أجر له فيما لم يسمٍّ؛ لأنه خالف فهو ضامن إذا هلكت الدابة.

وقال الشافعي وفقهاء المدينة السبعة: على المستأجر الكراء المسمى، وكراء المثل فيما جاوز ذلك، ولو عطبت لزمته قيمتها.

وقال أحمد: عليه الكراء والضمان.

وقال ابن القاسم تلميذ مالك: إذا عطبت الدابة في حال التجاوز، فلصاحبها كراؤه الأول، وله الخيار في أخذ كراء الزائد بالغاً ما بلغ، أو قيمة الدابة يوم التعدي.

واستدل بالآية مالك وأبو حنيفة وغيرهما على تحريم لحوم الخيل؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ فجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل، ولا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لما نص على الركوب والزينة، دل على أن ماعداه بخلافه. أما في الأنعام فقال: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها.

ويؤيده حديث أحمد وأبي داود والنسائي والدارقطني وغيرهم عن خالد بن

الوليد أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وكل ذي ناب من السباع أو مِخْلَب من الطير. وهو لفظ الدارقطني.

قال القرطبي المالكي: الصحيح الذي يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة؛ أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحمُر، والسورة مكية، وأي حاجة كانت إلى تجديد تحريم لحوم الحمُر عام خيبر، وقد ثبت في الأخبار تحليل الخيل على ما يأتي. وأيضاً لما ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم مافيها، وهو حمل الأثقال والأكل، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحاً به، وقد تُركب ويحرث بها.

وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، وثبت ذلك في السنة، روى مسلم من حديث جابر قال: نهى رسول الله ﷺ يوم خَيْبر عن لحوم الحمُر الأهلية وأذن في لحوم الخيل. وقال النَّسائي عن جابر: أطعمنا رسول الله ﷺ يوم خيبر لحوم الخيل، ونهانا عن لحوم الحمُر[١].

واستدل جمهور العلماء بالآية أيضاً على أن الخيل لا زكاة فيها؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحه منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل.

وقال أبو حنيفة: إن كانت إناثاً كلها، أو ذكوراً وإناثاً، ففي كل فرس دينار إذا كانت سائمة، وإن شاء قوّمها، فأخرج عن كل مئتي درهم خمسة دراهم. واحتج بأثر عن النبي ﷺ أنه قال: «في الخيل السائمة في كل فرس دينار» لكنه كما قال الدارقطني: تفرد به ضعيف جداً، ومن دونه ضعفاء.

٤ - لم ينقطع فضل الله وكرمه، فقد خلق لنا غير الأنعام والدواب فقال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا يشمل كل وسائل النقل والركوب الحديثة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/٧٦ - ٧٧

٥ - على الله تفضلاً وكرماً بيان السبيل المستقيم وهو الإسلام، وحذر من اتباع السبل الجائرة الحائدة عن الحق من الملل والأهواء الأخرى. والهداية بمشيئة الله تعالى، والتوفيق للهداية مقرون باختيار الإنسان لها.

أدلة أخرى لإثبات الألوهية والوحدانية

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌ﴾:

قرئ:

١-(والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ) وهي قراءة ابن عامر.

٢- (والشمسَ والقمرَ والنجومُ مسخراتٌ) وهي قراءة حفص.

٣- (والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخراتٍ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ بالنصب عطفاً على ما قبله، ومن قرأ بالرفع فهو مبتدأ، و﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ خبره.

﴿وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ مبتدأ وخبر، ومن قرأ بالنصب فهو حال.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ﴾ معطوف بالجر على ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي إن في ذلك وما ذرأ لكم، أو معطوف على ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ أي وسخر لكم ما خلق لكم فيها من حيوان ونبات .﴿مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ ﴿مُخۡتَلِفًا﴾ حال.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ في موضع نصب على أنه مفعول لأجله، أي كراهة أن تميد بكم، أو لئلا تميد بكم، والوجه الأول أوجه؛ لأن حذف المضاف أكثر من حذف «لا».

﴿وَعَلَٰمَٰتٖ﴾ منصوب بالعطف على قوله ﴿سَخَّرَ﴾ أي سخر الليل والنهار وعلامات، أو منصوب بتقدير: خَلَق، أي وخلق لكم علامات.

المفردات اللغوية:

﴿تُسِيمُونَ﴾ أي تَرْعَوْن دوابكم، والسوم: الرعي، ومنه الإبل السائمة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾ أي إن في ذلك المذكور لعلامة دالة على وحدانيته تعالى ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنعه، فيؤمنون، ويستدلون على وجود الصانع وحكمته، فإن من تأمل الحبة تقع في الأرض، ثم يخرج منها الزرع أو الشجر، ثم ينمو منها الأوراق والأزهار والثمار ذات الأجسام والأشكال المختلفة، مع اتحاد المواد، علم أن ذلك ليس إلا بفعل فاعل مختار مقدّس عن منازعة الأضداد والأنداد والشركاء.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ بأن هيأها لمنافعكم ﴿بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾ بإرادته ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ يتدبرون ﴿ذَرَأَ﴾ خلق ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من حيوان ونبات وغير

ذلك ﴿أَلْوَٰنُهُۥٓ﴾ أشكاله وأصنافه ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ يتعظون ﴿سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ ذلّله للركوب والاصطياد والغوص فيه ﴿لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو السمك ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ هي اللؤلؤ والمرجان ﴿وَتَرَى﴾ تبصر ﴿ٱلْفُلْكَ﴾ السفن ﴿مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ تمخر الماء، أي تشقه بجريها فيه، مقبلة مدبرة بريح واحدة ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟﴾ تطلبوا، معطوف على ﴿لِتَأْكُلُوا۟﴾ ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ تعالى بالتجارة ﴿تَشْكُرُونَ﴾ تعرفون نعم الله، فتقومون بحقها.

﴿رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ أي لئلا تتحرك بكم، أو خوف أن تضطرب يميناً وشمالاً بكم، والميد: الحركة والاضطراب يميناً وشمالاً ﴿وَسُبُلًا﴾ طرقاً ﴿تَهْتَدُونَ﴾ إلى مقاصدكم.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ أمارات ومعالم تستدلون بها على الطرق نهاراً، كالجبال والسهول .﴿وَبِٱلنَّجْمِ﴾ أي النجوم ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الطرق والقبلة ليلاً.

المناسبة:

هذه الآيات تتمة لأدلة إثبات وجود الله وتوحيده، ذكر منها هنا خلق النبات وأحواله، وأحوال العناصر الأربعة (الماء والتراب والنار والهواء) أما الماء فيشمل المطر والبحر والأنهار، وأما التراب فيفهم من كلمة الأرض، وأما الحرارة فمن الشمس، وأما الهواء فهو أساس حياة الإنسان والحيوان والنبات، وكان واسطة تسيير الفلك في البحار.

التفسير والبيان:

تتابع الآيات التنبيه إلى أدلة أخرى لإثبات الذات الإلهية من حركة الكون وعالم النبات، والبحار، والجبال، وبدأ بعالم النبات الذي يتسبب بإنزال المطر من السماءِ، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إي إن الذي خلَق السماواتِ والأرضَ والإنسان والأنعام والدواب، هو الذي هيّأ ظروف

الحياة للإنسان بإنزال المطر من السماء، فجعله عذباً زُلالاً يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحاً أجاجاً، وأخرج به شجراً ترعون فيه أنعامكم، وأنبت به لكم زرعاً وزيتوناً ونخيلاً وأعناباً، ومن كل الثمرات على اختلاف أصنافها وألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها، رزقاً لكم تستطيعون به تحقيق قوام الحياة، والمراد بالشجر هنا: النبات مطلقاً، سواء كان له ساق أم لا، كما نقل عن الزجاج، وهو حقيقة في الأول ويستعمل في الثاني بمعنى الكلأ؛ لأنه الذي يعلف.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي في ذلك المذكور كله من إنزال الماء والإنبات لدلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله، لقوم يتعظون ويتفكرون في تلك الأدلة؛ لأنه لا مبدع ولا موجد لها غير الله الخالق الأحد، المستحق للتمجيد والعبادة، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل: ٢٧/ ٦٠].

ثم نبّه الله تعالى على آياته الكونية العظام، ممتناً بنعمه عليكم، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ أي وصير لكم ما ينفعكم من تعاقب الليل والنهار للنوم والاستراحة والسعي وكسب المنافع وقضاء المصالح، ودوران الشمس والقمر للإنارة وانتفاع الإنسان والحيوان والنبات بالحرارة والضوء ومعرفة عدد السنين والشهور، وتزيين السماء بالنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السماوات، نوراً وضياء، ليهتدى بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه بنظام دقيق وحركة مقدرة، لا زيادة فيها ولا نقص، وكل ذلك خاضع لسلطان الله وقهره، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/ ٥٤].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ إن في المذكور كله دلالات على قدرته تعالى الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله كلامه، ويفهمون حججه.

والسبب في ختم الآية السابقة بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وختم هذه الآية بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأن دلالة الأدلة السماوية العلوية على قدرة الله ووحدانيته ظاهرة لا تحتاج إلا لمجرّد العقل دون تأمل، وأما الأدلة الأرضية من الزرع والنخيل وغيرها فتحتاج في دلالتها على إثبات وجود الله إلى تفكر وتأمل وتدبر.

وبعد أن نبّه الله تعالى على معالم السماء، نبّه على ما خلق في الأرض من عجائب فقال: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من أشياء مختلفة الألوان والأشكال والمنافع والخواص من نباتات ومعادن وجمادات وحيوانات.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي إن في المذكور جميعه لدلالات على قدرة الله، لقوم يذكّرون آلاء الله ونعمه، فيشكرونه عليها، وختمت هذه الآية الثالثة بالتذكر بعد ختم الأولى بالتفكر والثانية بالتعقل؛ للتنبيه على أن المؤثر فيما وجد في الأرض هو الفاعل المختار الحكيم وهو الله سبحانه وتعالى.

وبعد أن احتجّ تعالى على إثبات الإله أولاً بأجرام السماوات، وثانياً ببدن الإنسان ونفسه، وثالثاً بعجائب خِلْقة الحيوانات، ورابعاً بعجائب طبائع النباتات، ذكر خامساً الاستدلال على وجود الصانع بعجائب أحوال العناصر، مبتدئاً بعنصر الماء، فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي والله تعالى يمتن على عباده أيضاً بتذليله البحر لهم، وتيسيره للركوب فيه، وإباحته السّمك حيّاً وميتاً، في الحلّ والإحرام، وخلقه اللآلئ والجواهر النفيسة فيه، وتيسير استخراج العباد له من قراره، حليةً يلبسونها، وكذا الاستفادة من المرجان الذي ينبت في قيعانه:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٢٢] ، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره، أي تشقه وتجتازه من بلد إلى آخر، ولتبتغوا من فضله، أي ولتطلبوا فضل الله ورزقه بالتجارة فيه، ولتشكروا نعمه وإحسانه عليكم بما يسّره لكم في البحار.

وفي وصف اللحم بالطراوة بيان قدرة الله في إخراج العذب من المالح، ويدل أيضاً على أنه يطلب أكله بسرعة؛ لأنه يتسارع إليه الفساد.

ثم ذكر الله تعالى بعض النعم التي خلقها في الأرض فقال: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ وهي نعم ثلاث:

الأولى - تثبيت الأرض بالجبال الرواسي، أي الثوابت لتقرّ ولا تضطرب أثناء دورانها بما عليها من كائنات حيّة، كما قال تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٧٩/ ٣٢] .

الثانية - إجراء الأنهار على وجه الأرض، ففيها حياة الأنفس والنبات والحيوان. وذكرها بعد الجبال؛ لأن أكثر الأنهار إنما تتفجر منابعها من الجبال. وتلك الأنهار كثيرة في العالم، منها القصير والغزير والطويل ومنها غير ذلك، وتتجه يميناً أو يساراً، أو جنوباً أو شمالاً، أو شرقاً أو غرباً. والأودية التي تحدث أحياناً ترفد تلك الأنهار.

الثالثة - إيجاد السبل وهي الطرق والمسالك التي تسهل العبور والانتقال من أرض إلى أخرى، ومن بلد إلى بلد غيره، بل ومن جبل إلى سهل، كما قال تعالى في صفة الجبال: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٣١] .

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لتهتدوا بتلك السُّبل إلى مآربكم ومقاصدكم.

﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ أي وأظهر في الأرض علامات مخصوصة ومعالم معينة تؤدي

إلى المقصود، فالعلامات: هي معالم الطرق، وهي الأشياء التي بها يهتدى، وهي الجبال والرياح ونحوها يستدل بها المسافرون برّاً وبحراً، ومن كثرت أسفاره لطلب المال أو غيره مثل قريش، كان علمه بمنافع الاهتداء بالنجوم أوفى وأتم.

﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي والناس يهتدون في ظلام الليل بالنّجوم. وهذا يومئ إلى علم النّجوم أو الفلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

أفادتنا الآيات فوائد عديدة هي:

١ً - الله تعالى هو منزل المطر بقدرته وحكمته، والمطر: ماء عذب صالح للشرب، ينبت الله به أشجاراً وعروشاً وكروماً ونباتاً ومراعي للأنعام، والماء سبب الحياة البشرية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٠]. وفي ذلك الإنزال والإنبات دلالة على قدرة الله ووجوده ووحدانيته لقوم يتأملون ويتفكرون.

٢ً - والله سبحانه سخّر لعباده الليل والنهار للسكون والأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ [القصص: ٢٨/٧٣]، وسخّر أيضاً الشمس والقمر والنّجوم مذللات لمعرفة الأوقات، ونضج الثمار والزروع، والاهتداء بالنجوم في الظلمات.

٣ً - والله عزّ وجلّ سخّر ما ذرأ (خلق) في الأرض لكم، فما ذرأه الله سبحانه مسخّر مذلّل كالدّواب والأنعام والأشجار وغيرها. هذا مع العلم بأن بعض المخلوقات غير مذلل لنا، بدليل ما رواه مالك في الموطأ عن كعب الأحبار قال: لولا كلمات أقولهن لجعلتني يهودُ حماراً، فقيل له: وما هنّ؟ فقال: أعوذ بوجه الله العظيم الذي ليس شيء أعظم منه، وبكلمات الله

التامات التي لا يجاوزهنّ برٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلها ما علمت منها وما لم أعلم، من شرّ ما خلق وبَرَأ وذَرَأ.

٤ - إن في اختلاف ألوان المخلوقات لعبرة لقوم يذكَّرون أي يتّعظون ويعلمون أن في تسخير هذه الكائنات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره.

٥ - والله سبحانه أنعم علينا بتسخير البحر لتناول اللحوم (الأسماك) واستخراج اللؤلؤ والمرجان، وللركوب، والتجارة، وللدفاع عن البلاد من أذى محتل وعدوان مستعمر. وتسخير البحر: هو تمكين البشر من التّصرف فيه وتذليله بالرّكوب والتّجارة وغير ذلك.

ويلاحظ أن الحنفية لا يجيزون أكل السمك الطافي على سطح ماء البحر أو النهر، لقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٥/ ٣]، ولحديث ضعيف أخرجه أبو داود وابن ماجه عن جابر عن النّبي ﷺ: «ما نَضَب عنه الماء فكلوا، وما لفظه فكلوا، وما طفا فلا تأكلوا».

وأباح الجمهور أكل الطافي، لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة: ٥/ ٩٦]، ولحديث أبي هريرة عند أحمد ومالك وأصحاب السنن الأربعة وابن أبي شيبة عن البحر «هو الطّهور ماؤه، الحلُّ ميتته».

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لو حلف لا يأكل اللحم، فأكل لحم السّمك، لا يحنث؛ لأنه ليس بلحم عرفاً. وقال الجمهور: إنه يحنث؛ لأنه تعالى نصّ على كونه لحماً في هذه الآية، وليس فوق بيان الله بيان.

وبما أن الله تعالى امتن على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حرّم الله تعالى على الرِّجال الذهب

والحرير، روي في صحيح الشيخين عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تلبسوا الحرير، فإنه من لبسه في الدُّنيا، لم يلبسه في الآخرة».

وجمهور العلماء على تحريم اتِّخاذ الرجال خاتم الذهب، ويجوز لهم التّختم بخاتم الفضة؛ لأنه ﷺ اتَّخذ خاتماً من فضة، فاتَّخذ الناس خواتيم الفضة، وقال: «إني اتَّخذت خاتماً من ورِق، ونقشت فيه: محمد رسول الله، فلا ينقشن أحد على نقشه». وهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه.

ومن حلف ألا يلبس حليّاً، فلبس لؤلؤاً لم يحنث عند أبي حنيفة، عملاً بالعرف والعادة، والأيمان تختص بالعرف.

٦ً - والله تعالى جعل في الأرض نعماً ثلاثاً تستحق الشكر هي إلقاء الجبال الرواسي فيها لئلا تميد وتضطرب، وإجراء الأنهار، وجعل السُّبل والطُّرق منافذ عبور وانتقال بأمان. قال القرطبي: وفي هذه الآية: أدل دليل على استعمال الأسباب، وقد كان الله قادراً على تسكينها دون الجبال.

وجعل تعالى في الأرض علامات، أي معالم الطرق بالنهار، وجعل النّجوم وسائل اهتداء إلى المقاصد.

خواص الألوهية

الخَلْق وعلم السّر والعلن والحياة الأبديّة

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأٓخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة الباقين.

﴿يَدۡعُونَ﴾:

وهي قراءة عاصم، وقرأ الباقون (تدعون).

الإعراب:

﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٍ﴾ خبر ثانٍ، أي هم مخلوقون أموات. ويجوز أن ترفع ﴿أَمۡوَٰتٌ﴾ على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم أموات. ﴿أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾ استفهام عن الزمان بمعنى (متى)، و﴿أَيَّانَ﴾: مبني لتضمنه معنى الحرف، وهو همزة الاستفهام، وبني على حركة لالتقاء الساكنين، وهي الفتحة؛ لأنها أخف الحركات.

البلاغة:

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ بينهما طباق السلب. ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

﴿تُسِرُّونَ﴾ و﴿تُعۡلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٍ﴾ و﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ فيهما إطناب تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام.

﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ بينهما جناس ناقص.

المفردات اللغوية:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ هو الله سبحانه وتعالى. ﴿كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ كل ما عبد من دون الله تعالى من الملائكة وعيسى والأصنام. وغلّب فيه أولو العلم منهم، وأجريت الأصنام مجرى أولي العلم؛ لأنهم سموها آلهة، ومن حقّ الإله أن يعلم. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون، فتعرفوا فساد ذلك، فإنه لجلائه كالحاصل للعقل الذي يستحضره بأدنى تذكُّر والتفات. والمراد بالآية إنكار التسوية بين الخالق والمخلوق، بعد إقامة الدلائل المتكاثرة على كمال قدرة الله تعالى وتناهي حكمته وتفرده بالخلق.

﴿لَا تُحْصُوهَا﴾ لا تضبطوها، فضلاً عن أن تطيقوا شكرها. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث ينعم عليكم مع تقصيركم وعصيانكم. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أي من عقائدكم وأعمالكم، وهو وعيد وتزييف للشرك باعتبار العلم.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهم الأصنام. ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ينحتون ويصورون من الحجارة وغيرها، فهي مفتقرة الوجود إلى التخليق، والإله ينبغي أن يكون واجب الوجود. ﴿أَمْوَاتٌ﴾ لا روح فيهم. ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ تأكيد. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ لا يعلمون، أي الأصنام. ﴿أَيَّانَ﴾ وقت. ﴿يُبْعَثُونَ﴾ أي لا يشعرون بزمان بعثهم أو بعث عبدتهم الخلق، فكيف يعبدون؟ إذ لا يكون إلهاً إلا الخالق الحيّ العالم بالغيب، المقدّر للثواب والعقاب، وفيه تنبيه على أن البعث من توابع التكليف.

﴿إِلَٰهُكُمْ﴾ المستحقّ للعبادة منكم ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لا نظير له في ذاته ولا في صفاته، وهو الله تعالى، وهذا تكرير للمدَّعى بعد إقامة الحجج. ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ جاحدة للوحدانية. ﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ متكبّرون عن الإيمان بها. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقّاً. ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم بذلك. ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي يعاقبهم.

المناسبة:

بعد ذكر الدلائل الدّالة على وجود الإله القادر الحكيم، مع بيان أنواع نعم الله تعالى، ذكر الله تعالى خواص الألوهية: وهي الخلق والإبداع، وعلم السّرّ والعلن، والحياة الدائمة، مما يدلّ على أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، ويدلّ على إبطال عبادة غير الله تعالى، ثم ذكر تعالى أسباب الإشراك: وهي تحجر القلوب وإنكار التوحيد، فبقي أصحابه على الجهل والضّلال، علماً بأن أشدّ القبح عبادة تلك الأصنام الجمادات المحضة، التي ليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار.

التفسير والبيان:

نبّه الله تعالى في هذه الآيات على عظمته، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً، بل هي مخلوقة، فقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ﴾ أي أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها، كمن لا يخلق، بل لا يقدر على شيء من الخلق أصلاً، أفلا تذكّرون أي تعتبرون وتتعظون؟! فإن معرفة ذلك لا تحتاج إلى تدبُّر وتفكُّر ونظر. والاستفهام إنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير. ونظير الآية: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ [لقمان: ٣١/ ١١].

ثم نبههم تعالى على كثرة نعمه وإحسانه إليهم ليرشدهم إلى أن العبادة لا تليق إلا بالمنعم الأعظم، فقال: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾ أي وإن أردتم حساب نعم الله وضبطها، لا تستطيعوا إحصاءها وضبط عددها، فنعم الله كثيرة دائمة، والعقل عاجز عن الإحاطة بها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ﴾ أي إنه تعالى كثير المغفرة يتجاوز عنكم وعن تقصيركم في الشّكر، رحيم بكم فينعم عليكم مع استحقاقكم للحرمان بسبب الإشراك والكفر، فلو طالبكم بشكر جميع نعمه، لعجزتم عن القيام بذلك، ولو عذّبكم

لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم، يغفر الكثير، ويجازي على اليسير، ومهما عمل الإنسان من الطاعات فلن يقابل نعمة واحدة من نعم الله تعالى.

والخلاصة: إنه تعالى بعد أن بيّن بالآية المتقدّمة: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ﴾ أن الاشتغال بعبادة غير الله باطل وخطأ، بيّن بهذه الآية: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ أن العبد لا يمكنه الإتيان بعبادة الله وشكر نعمه على وجه أتم.

وبعد أن أبطل عبادة الأصنام لعجزها عن الْخَلْق والإنعام، أبطل عبادتها بوجه آخر وهو كونها جمادات لا تعلم شيئاً، فقال: ﴿ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ أي والله يعلم الضمائر والسرائر، كما يعلم الظواهر، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، فهو عالم الغيب والشّهادة، والظّاهر والباطن.

ثم وصف تعالى الأصنام بما يجردها عن أهلية العبادة، ليدلّ على غباء المشركين صراحة، فقال ذاكراً ثلاثة أوصاف:

١ً - ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ﴾ أي إن الأوثان والأصنام لا يخلُقون شيئاً، بل هي مخلوقة، كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٩٥-٩٦] .

٢ً - ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها ولا حياة لها أصلاً، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، فلا تفيدكم شيئاً.

فقوله تعالى: ﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ لبيان أنه لا يعقب موتها حياة، وذلك أعرق في موتها، فهي ليست كبعض المواد التي يمكن طروء الحياة عليها، كالنّطف التي ينشئها الله حيواناً، وأجساد الحيوان التي تبعث بعد موتها.

أما الإله فهو الحيّ الذي لا يطرأ عليه موت أصلاً، فبان الفرق بينهما وهو أن الإله دائم الحياة، والأصنام دائمة الموت.

٣ - ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي وتلك الأصنام لا تدري متى يبعث عَبَدَتها ومتى تقوم الساعة؟ فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء، وهو خالق كل شيء. وعبَّر عن الأصنام كما يعبّر عن الآدميين لزعمهم أنها تعقل عنهم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على حسب زعمهم.

وهذا إيماء إلى أن البعث من لوازم التكليف، للجزاء على العمل من خير أو شرّ، وتصريح بأن من لوازم الألوهية معرفة يوم القيامة، وهو تهكُّم بالمشركين الذين لا يحسنون الفهم والتّقدير.

وبعد هدم عبادة الأصنام، صرّح تعالى بالمطلوب فقال: ﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ أي إن إلهكم أيها الناس إله واحد، لا إله إلا هو، ومعبودكم الذي يستحقّ العبادة والطاعة بحقّ هو الإله المعبود الواحد. ثم ذكر سبب شركهم وإنكارهم التوحيد، فقال تعالى:

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي فالذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها ولا يصدِّقون بها، ولا يؤمنون بالوحدانية قلوبهم منكرة للتّوحيد، وهم مستكبرون عن الإقرار بالوحدانية وعن عبادة الله، فلا يرغبون في حصول الثواب، ولا يرهبون من الوقوع في العقاب.

والمعنى أن الكافرين تنكر قلوبهم الوحدانية، كما قال تعالى واصفاً تعجبهم منها: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٣٨/ ٥] . وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٣٩/ ٤٥] .

ثم هددهم تعالى وأوعدهم على أعمالهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ أي حقّاً، إنّ ربّك يعلم ما يسرّ هؤلاء المشركون وما يعلنون، ويعلم إصرارهم على كفرهم، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء، إنه لا يحبّ المستكبرين عن

التوحيد وهم المشركون، بل وكل مستكبر، أي يعاقبهم ويجازيهم. وهذا الوعيد يتناول كل المتكبِّرين.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات مناقشة حادّة مع المشركين، فيها إنكار لعبادتهم الأصنام، وتهكُّم بهم، وبيان فساد تفكيرهم وسوء تقديرهم، وسوء صنيعهم، وصدودهم عن الحقّ، وإعلان تصميمهم على الكفر والشّرك.

وأول فساد في تفكيرهم أن الأصنام مخلوقة وعاجزة عن خلق غيرها، فهي لا تضرّ ولا تنفع، فكيف تتخذ آلهة؟!

ومن كان قادراً على خلق الأشياء، كان بالعبادة أحقّ ممن هو مخلوق لا يضرّ ولا ينفع.

والفساد الثاني أنهم ينكرون نعم الله وإحسانه لهم، وأبسط مبادئ التدين والأخلاق مقابلة النعمة وشكرها، وهم لم يشكروها.

والفساد الثالث أن الأصنام جمادات لا تعلم شيئاً، فكيف توصف بالألوهية؟ والإله ينبغي أن يكون عالماً بالسّرائر والظواهر، محيطاً بأحوال العابدين، حتى يلبي مطلبهم، ويجازي مقصرهم ومسيئهم.

ثم صرّح تعالى بأوصاف الأصنام الثلاثة المناقضة تماماً لمن يستحقّ وصفه بالألوهية والعبادة والطاعة، وهي العجز عن خلق شيء، وكونهم أمواتاً غير أحياء، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أي هي جمادات فكيف تعبدونها وأنتم أفضل منها بالحياة، وكونهم - أي الأصنام - يجهلون وقت البعث وقيام الساعة للحساب والجزاء على الأعمال.

والألوهية الحقّة بعد بيان استحالة الإشراك بالله تعالى هي ألوهية الله

الواحد الأحد الفرد الصّمد، المعبود الواحد الذي لا ربَّ غيره، ولا معبود سواه.

أما المشركون الذين لا يؤمنون بالآخرة فلا يقبلون الوعظ ولا التّذكير، ولوآمنوا بالآخرة حقّاً لآمنوا بوحدانية الله، ولكنهم قوم متكبّرون متعظمون عن قبول الحقّ.

والله حقّاً يعلم ما يسرّون من القول والعمل وما يعلنون، فيجازيهم على أفعالهم، إنه لا يحبّ المستكبرين أبداً، أي لا يثيبهم ولا يثني عليهم.

صفات المستكبرين

إنكار المشركين الوحي المنزل والنّبوة وجزاؤهم

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بكسرة خالصة.

﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾:

وقرأ نافع: (تشاقُّونِ).

﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾:

وقرأ حمزة وخلف: (يتوفاهم).

﴿فَلَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فلبيس).

الإعراب:

﴿مَّاذَآ أَنزَلَ﴾ (ما) اسم استفهام مبتدأ، و(ذا) خبره، و﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾: صلته، والعائد محذوف تقديره: أنزله، فحذف تخفيفاً. ولما كان السؤال مرفوعاً رفع ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على تقدير مبتدأ محذوف، أي هو أساطير الأولين. وأما قوله الآتي: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾ فالجواب منصوب؛ لأن السؤال منصوب، لأن ﴿مَاذَآ﴾ بمنزلة كلمة واحدة، أي أيّ شيء أنزل ربّكم، وهي في موضع نصب بـ ﴿أَنزَلَ﴾. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال. ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حال أيضاً.

البلاغة:

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ استعارة تمثيلية، شبَّه حال الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً ثم انهدم عليهم وأهلكهم، ووجه الشَّبه أنّ ما ظنّوه سبباً لحمايتهم، كان سبباً في فنائهم.

المفردات اللغوية:

﴿أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمد. ﴿أَسَٰطِيرُ﴾ أكاذيب وأباطيل وتُرَّهات.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الغابرين القدماء، قالوا ذلك إضلالاً للناس، وقد نزلت الآية في النّضر بن الحارث، ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ في عاقبة أمرهم .﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ ذنوبهم. ﴿كَامِلَةً﴾ لم يكفَّر منها شيء .﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي وبعض أوزار من يضلونهم؛ لأنهم دعوهم إلى الضلال فاتَّبعوهم، فاشتركوا في الإثم؛ لتسببهم في إضلالهم، والأصح أن ﴿مِن﴾ للجنس لا للتبعيض، أي فعليهم مثل أوزار تابعيهم .﴿سَآءَ﴾ بئس .﴿مَا يَزِرُونَ﴾ يحملونه حملهم هذا.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول، أي يضلون من لا يعلم أنهم ضُلال، أو حال من الفاعل أي وهم جاهلون .﴿لِيَحْمِلُوٓاْ﴾ اللام لام الصيرورة؛ لأنهم لم يصفوا القرآن بكونه أساطير الأولين، لأجل أن يحملوا الأوزار، ولكن لَمَّا كان عاقبتهم ذلك حسن ذكر هذه اللام.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهو نمروذ بن كنعان، بنى صرحاً طويلاً ببابل، سمكه خمسة آلاف ذراع، ليصعد منه إلى السماء، ليقاتل أهلها. والمكر: صرف غيرك عما يريده بحيلة، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات. والمقصود بالآية: المبالغة في وصف وعيد أولئك الكفار .﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أهلكه وأفناه، فأرسل عليه الريح والزلزلة، فهدمته من الأساس، كما يقال: أتى عليه الدهر، و﴿فَأَتَى﴾: قصد، و﴿ٱلْقَوَاعِدِ﴾: الدعائم، جمع قاعدة .﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ أي وهم تحته، و﴿فَخَرَّ﴾: سقط .﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ من جهة لا تخطر ببالهم، أي من جهة لا يحتسبون ولا يتوقّعون. وقيل: هذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرُّسل.

﴿يُخْزِيهِمْ﴾ يذلّهم أو يعذِّبهم بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٢] .﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ أي ويقول

الله لهم على لسان الملائكة توبيخاً: أين شركائي بزعمكم؟ ﴿تُشَٰٓقُّونَ﴾ تعادون المؤمنين وتنازعون الأنبياء في شأنهم .﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي ويقول الأنبياء والمؤمنون العلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التوحيد، فيشاقونهم ويتكبرون عليهم، أو يقول الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ﴾ الذلّة والعذاب على الكافرين، وفائدة قولهم: إظهار الشماتة بهم وزيادة الإهانة، وإيراده بقصد وعظ من سمعه.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بالكفر .﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ : ﴿ٱلسَّلَمَ﴾ : الاستسلام والخضوع، والمعنى: انقادوا واستسلموا عند الموت، وأقرّوا لله بالرّبوبية، أو سالموا حين عاينوا الموت .﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ أي قائلين: ما كنّا نعمل من كفران أو شرك، وعدوان .﴿بَلَىٰٓ﴾ نعم، أي فتجيبهم الملائكة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو يجازيكم عليه .﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي ليدخل كل صنف بابه المعدّ له. وقيل: ﴿أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أصناف عذابها. ﴿مَثْوَى﴾ مأوى، والمثوى: مكان الإقامة.

المناسبة:

بعد أن ذكرالله تعالى أدلّة التوحيد وأدلة بطلان عبادة الأصنام، أعقب ذلك ببيان شبهات منكري النّبوة، وأولها الطعن في القرآن الذي احتج النّبي ﷺ على صحة نبوّته بأنه معجزة، فقالوا: أساطير الأولين، وليس هو من جنس المعجزات، فأهلكهم الله في الدُّنيا، وسيعاقبهم في الآخرة بما فعلوا، فيقولون مستسلمين حين رؤية العذاب: ما كنّا نعمل من سوء، أي كفر وشرك وعدوان.

التفسير والبيان:

تذكر هذه الآيات شبهات منكري النّبوة التي هي صفات المكذّبين المستكبرين.

الشّبهة الأولى[١] - طعنهم في القرآن بأنه أساطير الأولين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ لما احتجّ رسول الله ﷺ على صحّة نبوّته بكون القرآن معجزة، طعنوا في القرآن، وقالوا: إنه أساطير الأولين، وليس هو من جنس المعجزات.

ومعنى الآية: وإذا قيل لهؤلاء المستكبرين المكذِّبين الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين: أي شيء أنزل ربّكم؟ قالوا معرضين عن الجواب: لم ينزل شيئاً، إنما هذا الكلام الذي يتلى علينا أساطير أي أكاذيب وخرافات مأخوذة من كتب المتقدمين، كما حكى تعالى عنهم في آية أخرى﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٥] أي يفترون على الرّسول بأقوال متضادّة مختلفة باطلة.

والسائل: إما واحد من المسلمين أو من كلام بعضهم لبعض أو النّضر بن الحارث أو قول المقتسمين الذين اقتسموا مداخل مكة، ينفِّرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحجيج عما أنزل على محمد ﷺ.

هذا عن القرآن، أما عن النّبي ﷺ فكانوا يقولون: ساحر وشاعر وكاهن ومجنون، ثم استقرّ أمرهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي، الذي حكى عنه القرآن قراره: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٧٤/١٨-٢٤] ، أي ينقل ويحكى، فتفرقوا متفقين على قوله.

ثم أبان تعالى مصير قولهم: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً﴾ هذه لام العاقبة

(١) الشّبهة الثانية ستأتي في الآية (٣٣)، والشّبهة الثالثة في الآية (٣٥)، والشّبهة الرابعة في الآية (٣٨).

أو الصيرورة، مثل: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢٨/٨] .

والمعنى: إنما قالوا ذلك ليتحملوا أوزارهم وآثامهم كاملة يوم القيامة وأوزار الذين يتبعونهم جهلاً بغير علم فلا يعلمون أنهم ضُلال، واقتداءً بهم في الضَّلال، أي ليصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم، وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتدائهم بهم. والمراد بقوله تعالى: ﴿كَامِلَةً﴾ أنه لا ينقص منها شيء. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ على رأي الزّمخشري: حال من المفعول، أي يضلّون من لا يعلم أنهم ضُلال، وعلى رأي الرّازي: حال من الفاعل، أي إن هؤلاء الرؤساء يضلّون غيرهم جهلاً منهم بما يستحقونه من العذاب الشديد على ذلك الإضلال.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس شيئاً يحملونه من الذنب ذلك الذي يفعلون.

ونظير الآية: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٣] .

وأوضحت السّنة سبب تحملهم آثام من قلّدوهم، فقال ﷺ - فيما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السّنن الأربعة عن أبي هريرة -: «من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثلُ أجور من تبعه، لا ينقصُ ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة، كان عليه من الإثم مثلُ آثام من تبعه، لا ينقُص ذلك من آثامهم شيئاً».

ثم أبان الله تعالى وجود الشَّبه بين الكفار القدامى والجدد في الجرم والعقاب فقال: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي قد كاد لدين الله ورسله من تقدّمهم من الأُمم، واحتالوا بمختلف الوسائل لإطفاء نور الله فأهلكهم الله تعالى في الدُّنيا، بأن دمّر مبانيهم من قواعدها، وسقط عليهم السَّقف من

فوقهم، وأبطل كيدهم، وأحبط أعمالهم، وأطبق عليهم العذاب من كل جانب، ومن حيث لا يحسّون بمجيئه ولا يتوقّعون، فاعتبروا يا أهل مكة وأمثالكم. وهذا كله تمثيل لصورة العذاب، ومضمونه إهلاكهم من الله تعالى.

وسبب قوله: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ مع أن السّقف لا يكون إلا من فوق هو تأكيد سقوط السقف، وشدّة إطباق العذاب وسقوطه عليهم وهم تحته.

ومعنى إتيان الله: إتيان أمره. وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ أي من جهة القواعد أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم، وهذا مقابل لقوله تعالى: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ ليفيد إحاطة العذاب من أعلى ومن أسفل. وقوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من حيث لا يحتسبون ولا يتوقّعون.

وأكثر المفسّرين على أن المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ﴾ هو نمروذ بن كنعان، بنى صرحاً عظيماً ببابل طوله خمسة آلاف ذراع.

هذا عذابهم في الدُّنيا، وأما في الآخرة فهو ما قاله تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي وفي يوم القيامة يخزيهم، أي يظهر فضائحهم وما تخبئه نفوسهم فيجعله علانية، ويذلّهم بعذاب الخزي، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٢] .

ويقول لهم الرّبّ تبارك وتعالى بوساطة الملائكة تقريعاً لهم وتوبيخاً: أين شركائي في زعمكم واعتقادكم؟ أين آلهتكم التي عبدتموها من دوني؟ أين تلك الآلهة التي كنتم تشاقون أي تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم؟ أحضروهم ليدفعوا عنكم العذاب: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٩٣] ، ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ١٠] .

فلا يجيب أحد، ويسكتون عن الاعتذار، وتظهر عليهم الحجة الدامغة، ويتبين أنه لاشركاء ولا وجود لهم.

ثم ذكر الله تعالى مقال الذين أوتوا العلم من الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وهم سادة الدُّنيا والآخرة، والمخبرون عن الحقّ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أي قال العلماء المقرّون بالتوحيد: إن الذّل والفضيحة والعذاب والهوان محيط اليوم بالكافرين الذين كفروا بالله، وأشركوا به ما لا يضرّهم ولا ينفعهم.

وهؤلاء هم الذين بقوا على كفرهم حتى الموت، فتتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم، حالة كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والمعاصي والتعريض للعذاب.

وكانت حالهم أيضاً: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ﴾ أي فلما حضرهم الموت وعاينوا العذاب، أظهروا السمع والطاعة والانقياد، قائلين: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾ أي ما كنّا مُشْركين بربّنا أحداً، كما حكى تعالى عنهم يوم المعاد: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنعام: ٦/٢٣] .

فكذَّبهم الله في قولهم: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ﴾ أي لقد عملتم السّوء كله وأعظمه وأقبحه، والله عليم بأعمالكم، فلا فائدة في إنكاركم والله يجازيكم على أفعالكم.

﴿فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ أي فادخلوا في جهنم، وذوقوا عذاب إشراككم بربّكم وعقاب معاصيكم، وأنتم خالدون ماكثون فيها إلى الأبد، وبئس المقرّ والمقام دار الهوان، لمن كان متكبّراً عن آيات الله تعالى واتّباع رسله.

وهم في عذاب دائم دون موت كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٥/٣٦] ، وفي ديمومة من العذاب في جميع الوقت، كما قال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٠/٤٦] .

فقه الحياة أو الأحكام:

تتضمن الآيات جواباً عن شبهة المشركين حول القرآن ووصفه بأنه أساطير

الأولين، وليس معجزة، وليس هو من تنزيل ربّنا. ولم يكن جوابهم هنا كما تبين سابقاً بالحجة الدامغة، وإنما جوابهم هو استحقاقهم العذاب الشديد، فاقتصر على محض الوعيد ولم يجب عن شبهتهم؛ لأنه تعالى بيَّن كون القرآن الكريم معجزاً بطريقين:

الأول - أنه ﷺ تحدّاهم بكل القرآن، أو بعشر سور، أو بسورة واحدة، أو بحديث واحد، وعجزوا عن المعارضة، وذلك يدلّ على كونه معجزاً.

الثاني - أنه تعالى حكى هذه الشبهة بعينها في آية أخرى وهي: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وأبطلها بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إن القرآن مشتمل على الإخبار عن المغيبات، وهذا لا يكون إلا من العالم بأسرار السماوات والأرض[١].

فهم يتحملون نتيجة آثامهم وذنوبهم تحمُّلاً كاملاً، لا ينقص منه شيء لنكبة أصابتهم في الدُّنيا بكفرهم، كما أنهم يتحمَّلون مثل أوزار تابعيهم، وذلك بسبب كفرهم وإضلالهم غيرهم، جهلاً منهم بما يلزمهم من الآثام، إذ لو علموا لما أضلّوا، فبئس الوزر الذي يحملونه.

وعقابهم في الدُّنيا يشبه عقاب عمالقة الكفر الذين تقدموهم مثل النُّمروذ ابن كَنْعان وقومه، أرادوا صعود السّماء وقتال أهله، فبنوا الصرح ليصعدوا منه، فخرّ عليهم، إما بزلزلة أو ريح، فخرَّبته. وكان عقابهم إبطال مكرهم وتدبيرهم وإهلاكهم عن بكرة أبيهم.

وعقابهم أيضاً في الآخرة هو الذّل والهوان والفضيحة بالعذاب الأليم بسبب كفرهم، مع التقريع والتوبيخ والاستهزاء بهم، وبيان عدم وجود الشركاء لله تعالى أصلاً.

---

(١) تفسير الرّازي: ٢٠/١٩

وكل من العقابين لاستمرارهم على الكفر إلى حين الموت، فإذا أقرّوا حينئذٍ بالرّبوبية لله، وانقادوا عند الموت، فلا ينفعهم ذلك، والله عليم بأعمال الكفار.

وهذه الآية دليل على أنه لا يخرج كافر ولا منافق من الدّنيا حتى ينقاد ويستسلم، ويخضع ويذلّ، ولكن لا تنفعهم حينئذٍ توبة ولا إيمان، كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٤٠/ ٨٥] .

ويقال لهم عند الموت: ﴿فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الآية، يدخل كل طائفة من باب، ويستقرّ في طبقة أو درك من طبقات ودركات جهنم، فبئس مقام المتكبرين الذين تكبروا في الدُّنيا دار التكليف عن الإيمان وعن عبادة الله تعالى، كما وصفهم ربّنا سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ٣٥] .

صفات المتقين

إيمان المتقين بالوحي المنزل وجزاؤهم

﴿۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وبكسرة خالصة قرأ الباقون.

﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾:

وقرأ حمزة، وخلف (يتوفاهم).

الإعراب:

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل، أو مبتدأ، وخبره: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ أو خبر مبتدأ محذوف، أو هو المخصوص بالمدح اسم: نعم.

﴿طَيِّبِينَ﴾ حال منصوب من الهاء والميم في ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ وهو العامل فيها. ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ﴾ نعت لقوله ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

البلاغة:

﴿قَالُواْ خَيۡرٗا﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي قالوا: أنزل خيراً. والسبب في نصب ﴿خَيۡرٗا﴾ هنا، مع أنه رفع ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ في جواب المشركين: هو كما قال الزمخشري بيان الفرق بين جواب المؤمن المقر وجواب الجاحد، يعني لما سئل المؤمنون لم يتلعثموا وأجابوا عن السؤال جواباً بيناً مفعولاً للإنزال فقالوا: خيراً، والمشركون عدلوا عن السؤال وأعرضوا عن الجواب فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإنزال في شيء.

المفردات اللغوية:

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ الشرك، يعني المؤمنين. ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ بالإيمان. ﴿حَسَنَةٞ﴾ مكافأة في الدنيا أو حياة طيبة. ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي الجنة. ﴿خَيۡرٞ﴾ من الدنيا وما فيها، أو لثوابهم في الآخرة خير منها، وهو وعد للمتقين جزاء قولهم وإيمانهم. ﴿وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ دار الآخرة.

﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ من أنواع المشتهيات. وفي تقديم الظرف تنبيه على أن الإنسان لا يجد جميع ما يريده إلا في الجنة. ﴿كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء يجزيهم.

﴿طَيِّبِينَ﴾ طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي؛ لأنه في مقابلة ﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾. ﴿يَقُولُونَ﴾ يقول الملائكة لهم عند الموت: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت، جاءه مَلَك، فقال: السلام عليك يا ولي الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة. ويقال لهم في الآخرة: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أحوال المكذبين بالقرآن المنزل وبالوحي من قولهم: أساطير الأولين، وتحمل أوزارهم وأوزار أتباعهم، وتوفي الملائكة لهم ظالمي أنفسهم، وإلقائهم السَّلَم في الآخرة والإقرار بربوبية الله، أتبعه ببيان أوصاف المؤمنين الذين يؤمنون بالمنزل، وما أعده لهم في الدنيا والآخرة من منازل الخيرات ودرجات السعادات في جنات عدن، حتى تتم المقارنة بين وعد هؤلاء، ووعيد أولئك.

روي أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي ﷺ، فإذا جاء الوافد المقتسمين طرق مكة للحيلولة بين القادمين وبين الإيمان بالنبي، قالوا له ما قالوا سابقاً، وإذا جاء المؤمنين قالوا له ذلك.

روى ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: اجتمعت قريش، فقالوا: إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله، فانظروا ناساً من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم، فابعثوهم في كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين، فمن جاء يريده فردوه عنه، فخرج ناس في كل طريق، فكان إذا أقبل الرجل وافداً لقومه ينظر ما يقول محمد، ووصل إليهم، قال أحدهم: أنا فلان بن فلان، فيعرّفه نسبه، ويقول له: أنا أخبرك عن محمد: إنه رجل كذاب، لم يتّبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد، ومن لا خير فيهم، وأما شيوخ قومه وخيارهم، فمفارقون له، فيرجع الوافد، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد، فقالوا له مثل ذلك، قال: بئس الوافد لقومي، إن كنت جئت، حتى إذا بلغت مسيرة يوم، رجعت قبل أن ألقى هذا الرجل، وأنظر ما يقول، وآتي قومي ببيان أمره، فيدخل مكة، فيلقى المؤمنين، فيسألهم ماذا يقول محمد؟ فيقولون: خيراً.

التفسير والبيان:

تتميز الأشياء بأضدادها، فأخبر الله تعالى عن السعداء المؤمنين إثر الإخبار عن الأشقياء المشركين، ليتضح الفرق، وتتجلى أسس العدل. فسئل الذين اتقوا الكفر والمعاصي وخافوا الله: ماذا أنزل ربكم؟ قالوا: أنزل خيراً أي رحمة وبركة لمن اتبعه وآمن به وبرسوله.

والسائل: هم الوافدون على المسلمين في أيام المواسم والأسواق، فكان الرجل يأتي مكة، فيسأل المشركين عن محمد وأمره، فيقولون: إنه ساحر وكاهن وكذاب، فيأتي المؤمنين، ويسألهم عن محمد وما أنزل الله عليه، فيقولون: أنزل خيراً.

ثم أخبر تعالى عما وعد هؤلاء المؤمنين في مقابل وعيد المشركين السابق، فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه، وأحسنوا العمل في الدنيا، أحسن الله إليه عمله في الدنيا والآخرة.

فلهم في الدنيا مثوبة حسنة من عند الله بالنصر والفتح والعزة، وفي الآخرة بنعيم الجنة وما فيها من خير.

ثم أعلمنا الله تعالى بأن دار الآخرة خير من الحياة الدنيا، والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا.

ونظير صدر الآية: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/ ٩٧].

ونظير آخر الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [القصص: ٢٨/ ٨٠] وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٨] وقوله: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ [الضحى: ٩٣/ ٤] وقوله: ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١٧].

ثم وصف الدار الآخرة بقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ، جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي لنعم دار المتقين دار الآخرة، وهي جنات عدنٍ أي إقامة تجري بين أشجارها وقصورها الأنهار، ونعيمها دائم ميسر غير ممنوع: ﴿لَهُمْ مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي للمحسنين في الدنيا ما يتمنون ويطلبون في الجنات، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧١] وقال سبحانه: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/ ٣٢-٣٣].

وهذا جزاء التقوى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الطيب، يجزي الله كل من آمن به واتقاه، وتجنب الكفر والمعاصي، وأحسن عمله. وهذا حث على ملازمة التقوى.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المتقين عند الاحتضار في موازاة أو مقابلة حال المشركين: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فقال﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي الذين تقبض أرواحهم الملائكة طاهرين طيبين من الشرك والمعصية وكل سوء. وكلمة ﴿طَيِّبِينَ﴾ كما قال الرازي: كلمة مختصرة جامعة للمعاني الكثيرة، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أمروا به، واجتنابهم كل ما نهوا عنه، واتصافهم بالأخلاق الفاضلة، والتبرؤ عن الأخلاق المذمومة، والتوجه إلى حضرة القدس، وعدم الانهماك في الشهوات واللذات الجسدية، فيطيب للملائكة قبض أرواحهم. وأكثر المفسرين على أن هذا التوفي هو قبض الأرواح.

وتسلِّم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة عند قبض الأرواح، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠-٣٢].

ومضمون تحية الملائكة هو: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي تقول الملائكة لهم: سلام عليكم من الله، وأمان لا خوف، وراحة لا مكروه، ادخلوا الجنة التي أعدها لكم ربكم بسبب أعمالكم. والمراد من هذه التحية: البشارة بدخول الجنة بعد البعث. ولما بشرتهم الملائكة بالجنة، صارت الجنة كأنها دارهم، وكأنهم فيها، فقولهم: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي هي خاصة لكم، كأنكم فيها.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات مثل واضح لأسلوب القرآن في بيان المتقابلات المتعاكسة، فبعد أن أبان تعالى حال المشركين وجزاءهم في الدنيا والآخرة، أعقبه ببيان حال المؤمنين الأتقياء.

فهم يؤمنون ويصدقون تصديقاً جازماً بصدق النبوة، وصحة ما أنزل الله من القرآن على نبيه المصطفى ﷺ.

فيكون جزاؤهم أحسن من عملهم: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/ ٦٠] فلهم في الدنيا الجزاء الأفضل من النصر والفتح والغنيمة والعزة، ولهم في الآخرة الحسنة أي الجنة، فمن أطاع الله فله الجنة غداً، وما ينالون في الآخرة من ثواب الجنة خير وأعظم من دار الدنيا، لفنائها وبقاء الآخرة، ولنعم دار المتقين: الآخرة، وهي جنات عدن التي يدخلونها، وتجري في رياضها الأنهار، ولهم فيها ما يشاؤون مما تمنوه وأرادوه، ومثل هذا الجزاء يجزي الله المتقين، وهكذا يكون جزاء التقوى.

ويطيب للملائكة قبض أرواح هؤلاء الأتقياء، ويسلمون عليهم، مبشرين لهم بالجنة؛ لأن السلام أمان. قال ابن مسعود: إذا جاء ملَك الموت يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وقال مجاهد: إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده، لتقرّ عينه.

وتقول لهم أيضاً: أبشروا بدخول الجنة بما عملتم في الدنيا من الصالحات.

والخلاصة: إنه يصدر من الملائكة سلام، وبشارة بالجنة، وبدأ بالسلام لأنه أمان واطمئنان عام، وأتبعه بأمر خاص وهو البشارة.

تهديد المشركين على تماديهم في الباطل

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿أَن تَأْتِيَهُمُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أن يأتيهم).

المفردات اللغوية:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر الكفار المارّ ذكرهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم. ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ هو عذاب الاستئصال، أو يوم القيامة المشتمل على العذاب. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب فعل الذين من قبلهم من الأمم، كذبوا رسلهم، فأهلكوا. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بإهلاكهم بغير ذنب. ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بالكفر.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي جزاؤها على حذف المضاف، أو تسمية الجزاء باسم سيئات الأعمال. ﴿وَحَاقَ﴾ نزل أو أحاط بهم، وخص في الاستعمال بإحاطة الشر. ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي أحاط بهم جزاء استهزائهم.

المناسبة:

مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر طعن الكفار في القرآن بقولهم: أساطير الأولين، ثم أتبع ذلك بوعيدهم وتهديدهم، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به ووصفه بالخيرية، أردف ذلك ببيان أن أولئك الكفار لا يرتدعون عن حالهم إلا أن تأتيهم الملائكة بالتهديد بقبض أرواحهم، أو أمر الله بعذاب الاستئصال[١]. ثم نبّه تعالى إلى تشابه الكفار قديماً وحديثاً في الشرك والتكذيب، وتعرضهم للهلاك جزاء فعلهم.

والخلاصة: إن هذه الآية: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ هي الشبهة الثانية لمنكري النبوة، فإنهم طلبوا من النبي ﷺ أن ينزل الله تعالى ملكاً من السماء يشهد على صدقه في ادعاء النبوة، فقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ في التصديق بنبوتك إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك؟[٢].

التفسير والبيان:

يهدد الله تعالى المشركين على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا، فيقول: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظر كفار مكة وأمثالهم في التصديق بنبوة النبي محمد ﷺ إلا أن تأتيهم الملائكة شاهدين بذلك، أو هل ينتظر هؤلاء الكفار الذين طعنوا في القرآن بأنه أساطير الأولين إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم؟

﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي أو أن يأتيهم أمر ربك بعذاب الاستئصال في

(١) البحر المحيط: ٥/٤٨٩

(٢) تفسير الرازي: ٢٠/٢٦

الدنيا كإرسال الصواعق أو الخسف، أو أن يأتي أمر ربك بيوم القيامة، وما يعاينونه من الأهوال، فهم لا ينزجرون عن الكفر إلا بمثل هذه الأمور.

والمقصود: حثهم على الإيمان بالله ورسوله قبل أن ينزل بهم أمر لا مرد لهم فيه.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي هكذا تمادى الذين من قبلهم من المشركين في شركهم، حتى ذاقوا بأس الله، وحل بهم العذاب والنكال.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي إن ما وقع بهم من العذاب لم يكن بظلم من الله؛ لأنه تعالى أعذر إليهم، وأقام حججه عليهم، بإرسال رسله وإنزال كتبه، ولكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل والتكذيب بما جاؤوا به، فعوقبوا، وجوزوا بسوء عملهم، وأحاط بهم من العذاب الأليم ما كانوا به يستهزئون، أي يسخرون من الرسل حين توعدوهم بعقاب الله.

فيقال لهم يوم القيامة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور: ١٤/٥٢].

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات جواب عن الشبهة الثانية لمنكري النبوة الذين طلبوا إنزال مَلَك من السماء يشهد على صدق محمد في ادعاء النبوة.

والجواب يدل على إصرارهم على الكفر وتماديهم في الباطل وعزوفهم عن الحق، فهم ما ينتظرون إلا أحد أمرين: أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم، أو يأتي أمر الله بالعذاب من القتل كيوم بدر، أو الزلزلة والخسف في الدنيا. وقيل: المراد يوم القيامة.

والواقع أن القوم لم ينتظروا هذه الأشياء؛ لأنهم ما آمنوا بها، فاستحقوا العقاب، وكانت عاقبتهم العذاب.

ولما أصروا على الكفر، أتاهم أمر الله فهلكوا، وما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم، كما فعل بأسلافهم، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك.

لقد فعل الذين من قبلهم مثلما فعلوا، فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم، وجزاء خبيث أعمالهم، وعقاب استهزائهم.

احتجاج الكفار بالقدر وإنكارهم البعث وتشابه مهمة الرسل

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾:

قرئ:

١ - (أنِ اعبُدُوا) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (أنُ اعبدوا) وهي قراءة الباقين.

﴿لَا يَهۡدِى﴾:

قرئ:

١- (لا يَهْدِي) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (لا يُهْدى) وهي قراءة الباقين.

﴿كُن فَيَكُونُ﴾:

وقرأ ابن عامر، والكسائي (كن فيكونَ).

الإعراب:

﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ مرتفع بالظرف، لاعتماد الظرف على حرف الاستفهام.

﴿يَهۡدِى﴾ فيه ضمير يعود إلى اسم ﴿إِن﴾ و﴿مَن﴾ منصوب بيهدي وتقديره: إن الله لا يهدي هو من يُضِلّ. ومن قرأ (يُهْدَى) كان ﴿مَن﴾ في موضع رفع؛ لأنه نائب فاعل. وفي ﴿يُضِلُّ﴾ ضمير يعود على اسم ﴿إِن﴾ ومفعول ﴿يُضِلُّ﴾ محذوف، أي إن الله لا يَهدي من يُضله الله.

﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا﴾ ﴿أَن نَّقُولَ﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة:

﴿مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍ﴾ ﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍ﴾ فيهما إطناب.

﴿مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ ﴿لَا يَهۡدِى مَن يُضِلُّ﴾ بين كلٍ من الجملتين طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ من أهل مكة ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ قال البيضاوي: إنما قالوا ذلك استهزاء ومنعاً للبعثة والتكليف، متمسكين بأن ما شاء الله يجب، ومالم يشأ يمتنع. وهذا نظير آية أخرى: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨/٦] وهذا احتجاج بالقدر، وهي حجة باطلة داحضة، باتفاق العقلاء والعلماء، كما قال ابن تيمية، لهذا رد الله عليهم هنا بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ وفي سورة الأنعام [١٤٨] بقوله: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ والراجح أنهم لم يقولوا ذلك استهزاء، وإنما اعتراضاً على الله تعالى. والرد عليهم أن الله تعالى يفعل في ملكه ما يشاء ولا يجوز الاعتراض عليه، ولبعثة الرسل فائدة: وهي الأمر بعبادة الله والنهي عن عبادة الطاغوت، وأما علم الله بالشيء فلا اطلاع لنا عليه.

﴿وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ من البحائر والسوائب، أي فإشراكنا وتحريمنا بمشيئة الله، فهو راض به ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ فأشركوا بالله وكذبوا رسله فيما جاؤوا به، وحرموا حلاله، وهو جواب عن الشبهتين المتقدمتين. ﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي فما على الرسل إلا الإبلاغ البيِّن، وليس عليهم الهداية، ولكنه يؤدي إلى الهدى على سبيل التوسط، وما شاء الله وقوعه إنما يجب وقوعه لا مطلقاً، بل بأسباب قدّرها له.

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ كما بعثناك في هؤلاء المشركين، أي إن البعثة - كما قال البيضاوي - أمر جرت به السنة الإلهية في الأمم كلها، سبباً لهدى من أراد اهتداءه، وزيادة الضلال لمن أراد إضلاله، كالغذاء الصالح، فإنه ينفع المزاج السوي ويقويه، ويضر المنحرف ويفنيه. وهو دليل على أن الله تعالى آمر أبداً في جميع الأمم بالإيمان وناه عن الكفر.

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي بأن اعبدوا الله، أي وحّدوه، ﴿وَاجْتَنِبُوا﴾ أي اتركوا الأوثان أن تعبدوها، وهو أمر بعبادة الله تعالى واجتناب الطاغوت. والطاغوت: كل ماعبد من دون الله، والمراد: اجتنبوا ما يدعو إليه مما نهى عنه الشرع، ويشمل الطاغوت الشيطان والكاهن والصنم وكل من دعا إلى ضلال.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ فآمن، بأن وفقهم للإيمان بإرشادهم ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي وجبت عليه الضلالة في علم الله فلم يؤمن، بأن لم يوفقهم ولم يرد هداهم. ووجبت أي ثبتت بالقضاء الأزلي السابق؛ لإصراره على الكفر والعناد.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي يامعشر قريش ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ رسلهم من الهلاك، مثل عاد وثمود وغيرهم، لعلكم تعتبرون ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ يامحمد ﴿عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ وقد أضلهم الله، لا تقدر على ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ﴾ هذا معنى من حقت عليه الضلالة، أي من يريد ضلاله، ولكنه لم يأمره به، وإنما على العكس أمره وأمر العالم كله بالإيمان ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ مانعين من عذاب الله، بأن ينصرهم بدفع العذاب عنهم.

﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غاية اجتهادهم فيها ﴿بَلَىٰ﴾ يبعثهم ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدران مؤكدان لنفسهما منصوبان بفعلهما المقدر، أي وعد ذلك وحقه حقاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ أي أهل مكة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك أي إنهم مبعوثون، إما لعدم علمهم بمقتضى الحكمة التي يراعيها الله عادة، وإما لقصر نظرهم على المألوف، فيتوهمون امتناعه.

﴿لِيُبَيِّنَ﴾ متعلق بقوله: يبعثهم المقدر، أي يبعثهم ليبين ﴿لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مع المؤمنين، من أمر الدين الحق، بتعذيبهم وإثابة المؤمنين ﴿أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في إنكار البعث المميز بين الحق والباطل والمحق

والمبطل بالثواب والعقاب ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أردنا إيجاده ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكون. وهذه الآية: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ لتقرير القدرة على البعث وبيان إمكانه؛ لأن تكوين الله تعالى بمحض قدرته ومشيئته، ولا يتوقف على سبق المواد والمدد، وإلا لزم التسلسل، فكما أمكن له تكوين الأشياء ابتداء بلا سبق مادة، يمكن له تكوينها مرة أخرى.

سبب النزول:

نزول الآية (٣٨):

﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ قال الربيع بن أنس، عن أبي العالية: كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين، فأتاه يتقاضاه، فكان فيما تكلم به: والذي أرجوه بعد الموت، فقال المشرك: وإنك لتزعم أنك لتبعث بعد الموت؟! فأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

المناسبة:

في هذه الآيات شبهتان، أما آيات ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ فهي الشبهة الثالثة لمنكري النبوة بعد إيراد الشبهتين المتقدمتين، وتقريرها: أنهم تمسكوا بصحة القول بالجبر على الطعن في النبوة، فقالوا: لو شاء الله الإيمان لحصل الإيمان، سواء جئت أم لم تجئ، ولو شاء الله الكفر، فإنه يحصل الكفر، سواء جئت أو لم تجئ، وإذا كان الأمر كذلك، فالكل من الله، ولا فائدة في مجيئك وإرسالك، فكان القول بالنبوة باطلاً.

وأما آيات: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ فهي الشبهة الرابعة لمنكري النبوة، ومفادها أنهم قالوا: الاعتقاد بالبعث والحشر والنشر باطل، فكان القول بالنبوة باطلاً من وجهين:

الأول - إن محمداً كان داعياً إلى التصديق بالمعاد، فإذا بطل ذلك، ثبت أنه كان داعياً إلى القول الباطل، فهو ليس رسولاً صادقاً.

الثاني - إنه يقرر نبوة نفسه ووجوب طاعته، بناء على الترغيب في الثواب والترهيب من العقاب، وإذا بطل ذلك، بطلت نبوته.

ورد الله عليهم مقالهم كله بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم القديمة، وما على الرسل إلا التبليغ، وليس عليهم الهداية، والله تعالى لا يجبر أحداً على الهداية أو الضلالة، وإنما يختار الإنسان لنفسه ما يريد، والله سبحانه خلق للناس قدرة الاختيار بقوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فلا يصح الاحتجاج بمشيئته تعالى، بعد أن خلق لهم من الاختيار ما يكفي.

التفسير والبيان:

أجاب الله تعالى في هذه الآيات عن شبهتين للكفار منكري النبوة، الأولى منهما هي الشبهة الثالثة لهم المتضمنة اغترارهم بما هم فيه من الإشراك واعتذارهم الواهي محتجين بالقدر: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي وقال المشركون بالله عبدة الأصنام والأوثان، معتذرين عن شركهم، محتجين بالقدر بقولهم: ما نعبد هذه الأصنام إلا بمشيئة الله، فلو شاء الله ما عبدناهم، ولا حرَّمنا هذه المحرّمات من البحائر والسوائب والوصائل[1] ونحو ذلك مما ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم، مالم ينزل به سلطاناً، ما حرمناها إلا برضا الله، ولو كان تعالى كارهاً لما فعلنا، لأنكره علينا بالعقوبة، ولما مكننا منه.

وهذه الشبهة هي عين ما حكى الله تعالى عنهم في سورة الأنعام في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ [الأنعام: ٦/١٤٨] .

(١) سبق تفسيرها في آية: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ٥/ ١٠٣].

وقصدهم من ذلك - كما ذكر الشوكاني في فتح القدير - الطعن في الرسالة، أي لو كان ما قاله الرسول حقاً آتياً من الله من منع عبادة غير الله، ومنع تحريم مالم يحرمه الله، لم يقع منا ما يخالف ما أراده الله منا، فإنه قد شاء ذلك، وما شاءه كان وما لم يشأ لم يكن، فلما عبدنا غيره وحرمنا مالم يحرمه، دل على أن فعلنا مطابق لمراده وموافق لمشيئته، وهم في الحقيقة لا يقرون بذلك، ولكنهم قصدوا الطعن على الرسل.

ورد الله تعالى عليهم شبهتهم بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي إن ذلك ليس جديداً في الاعتقاد الفاسد، فمثل قولهم حدث ممن قبلهم من الأمم حين كذبوا الرسل، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، فهؤلاء سلكوا سبيل أسلافهم في تكذيب الرسل واتباع الضلال.

﴿فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي فهم مخطئون فيما يقولون، وليس الأمر كما يزعمون أنه تعالى لم ينكره عليهم، بل قد أنكره عليهم أشد الإنكار، ونهاهم عنه أشد النهي، وأرسل في كل أمة أو قرن أو طائفة من الناس رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن عبادة ماسواه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ١٦/٣٦] .

فمنهم من هداه الله ووفقه فآمن وامتثل، ومنهم من أعرض وتنكر، فحقت عليه الضلالة وكلمة العذاب لإصراره على الكفر والعصيان.

وما على الرسل الذين أمروا بتبليغ رسالات ربهم إلا إبلاغ الرسالة والوحي وإيضاح طريق الحق، ومنه أن مشيئته تعالى تتوجه بالهداية لمن تعلق بها، كما قال: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩١/٨-١٠] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩] .

وليس من وظيفة هؤلاء الرسل إلجاء الناس إلى الإيمان، فذلك ليس من شأنهم، ولا هو من الحكمة.

أي إن الثواب والعقاب مرتبطان بأمرين: مشيئة الله تعالى، واتجاه العبد إلى تحصيل الأسباب المؤدية إلى النجاة أو الهلاك. وهداية الله نوعان: هداية إرشاد ودلالة، وهذا ما يقوم به الرسل والكتب المنزلة عليهم، وهداية توفيق وعون، وهذا متعلق بسلوك العبد أصل طريق الهداية والإيمان، فمن آمن زاده الله توفيقاً إلى الخير، ومن ضل وكفر وأعرض أضله الله وأبعده عن جادة الحق والخير. ثم إن أمر الله جميع الناس بالإيمان غير إرادته ومشيئته.

ثم أبان الله تعالى عموم بعثة الرسل لكل الأمم فقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ أي إن سنته تعالى في خلقه إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله، ونهيهم عن عبادة الطاغوت: وهو كل ما عبد من دون الله من الأوثان والأصنام والكواكب والشيطان وغيرها، فلقد أرسل في كل أمة رسولاً منذ حدث الشرك في قوم نوح، وكان نوح عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي كانت دعوته عامة للإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كان يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٥] وقوله: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٤٥].

فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٍ﴾.

والخلاصة: إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية غير مرادة؛ لأنه تعالى نهى الناس عن الكفر على ألسنة رسله. وأما المشيئة الكونية وهي تمكين بعض الناس من الكفر وتقديره لهم على وفق اختيارهم، فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك حكمة بالغة[1].

(١) تفسير ابن كثير: ٢/٥٦٩

ثم إنه تعالى أنكر على الكفرة المكذبين بإنزال العقوبة عليهم في الدنيا بعد إنذار الرسل فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي فبعض الناس هداهم الله ووفقهم لتصديق الرسل، ففازوا ونجوا، ومنهم من كفر بالله وكذبوا رسله، فعاقبهم الله تعالى.

﴿فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل، وكذب الحق، كعاد وثمود، كيف أهلكهم الله بذنوبهم: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ٤٧/ ١٠] فانظروا كيف كان مصير المكذبين رسلهم، لتعتبروا بعاقبتهم.

ثم خصص الله الخطاب برسوله مسلياً له عما يقابله قومه من جحود فقال: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ﴾ أي إن تحرص يامحمد على هداية قومك، فلا ينفعهم حرصك إذا كان الله قد أراد إضلالهم بسوء اختيارهم، كما قال سبحانه ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٥/ ٤١] وقال تعالى حكاية لقول نوح لقومه: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ [هود: ١١/ ٣٤] وقال عزّ وجلّ لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٦].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي وليس لمن اختاروا الضلالة ناصرون ينقذونهم من عذاب الله وعقابه؛ لأن أساس الحساب على الإيمان والكفر الاختيار، لا الإكراه والإلجاء.

ثم ذكر تعالى الشبهة الرابعة لمنكري النبوة، فقالوا: اعتقاد البعث والحشر والنشر باطل، فكان القول بالنبوة باطلاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي حلف المشركون، واجتهدوا في الحلف، وأغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت، أي إنهم استبعدوا البعث، وكذبوا الرسل في إخبارهم إياهم به؛ لأن الميت يفنى ويزول.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: بلى سيكون ذلك، ووعد به وعداً حقاً لا بد منه، ولكن أكثر الناس لجهلهم بقدرة الله خالفوا الرسل ووقعوا في الكفر.

وحكمة الله في المعاد هي ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي ليبين للناس الحق فيما يختلفون فيه من كل شيء، ويقيم العدل المطلق فيميز الخبيث من الطيب، والطائع من العاصي، والظالم من المظلوم، ويجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي وليعلم الكافرون علم اليقين الذين أنكروا البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقوالهم: لا يبعث الله من يموت، وتقول لهم زبانية النار: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ١٤-١٦] .

وناسب الكلام في البعث أنه تعالى أخبر عن قدرته على ما يشاء، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ أي إنا إذا أردنا شيئاً من الخلق والإعادة والبعث للأموات والمعاد، فإنما يتم بالأمر به مرة واحدة، فيكون كما يشاء الله، دون عناء ولا تردد، ولا بطء ولا تكلف، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٥٠] وقال: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ١٦/ ٧٧] وقال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٨] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٢] .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - إن بعثة الرسل في كل الأمم عامة شاملة، وهدفها واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الطاغوت أي ترك كل معبود دون الله، كالشيطان والكاهن والصنم، وكذا كل من دعا إلى الضلال.

٢ً - الناس أمام دعوة الرسل فريقان: فريق أرشده الله إلى دينه وعبادته، وفريق أضله الله في قضائه السابق حتى مات على الكفر، وكل من الفريقين اختار لنفسه ما يحلو، وعلم الله واسع محيط بكل شيء، علم الله من كل فريق ما سيختار، فكان قضاؤه السابق مطابقاً لما سيحدث، وعلم الله لا يتغير. وسنة الله قديمة مع العباد، وهي أنه يأمر الكل بالإيمان، وينهاهم عن الكفر، ثم يخلق الإيمان في فريق، والكفر في فريق، حسبما علم من توجه العبد إلى منحاه.

٣ً - العاقل من يعتبر ويتعظ بما حل بفريق الضالين المكذبين، كيف آل أمرهم إلى الدمار والخراب والعذاب والهلاك.

٤ً - لا جدوى ولا فائدة من حرص النبي ﷺ أو غيره على هداية أحد بجهده وتصميمه إن سبق في علم الله الضلالة له، فإنه تعالى لا يرشد من أضله، بعد أن ضل سواء السبيل.

وليس للضالين من ناصرين ولا من شافعين ولا من رفاق ينقذونهم من العذاب الذي استحقوه على ضلالهم وكفرهم.

٥ً - الكل يعجب من حماقة المشركين وجهلهم حينما يغلظون الأيمان ويؤكدون القسم بأن الله لا يبعث من يموت. لذا رد الله عليهم بأن البعث حق مؤكد لا شك فيه، ولا بد من وقوعه، وإن كان أكثر الناس يجهلون أنهم مبعوثون.

٦ً - الحكمة من البعث والمعاد واضحة وهي إظهار الله الحق فيما يختلف

فيه الناس من أمر البعث وكل شيء، وإعلام الكافرين بالبعث الذين أقسموا على إنكاره أنهم كانوا كاذبين في أيمانهم وأقسامهم: لا يبعث الله من يموت.

٧ً - لله القدرة المطلقة الهائلة، فإذا أراد أن يبعث من يموت فلا تعب عليه ولا نصب في إحيائهم، ولا في غير ذلك مما يحدثه في الكون؛ لأنه إنما يقول له: كن فيكون.

جزاء المهاجرين وبشرية الرسل ومهمة النبي ﷺ في بيان القرآن، وتهديد الكافرين

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾

القراءات:

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، وحمزة وقفاً (فَسَلوا).

﴿لَرَءُوفٌ﴾:

قرئ:

١- (لرؤوف) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وحفص.

٢- (لرؤف) وهي قراءة الباقين.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (أو لم تروا).

﴿يَتَفَيَّؤُا﴾ :

وقرأ أبو عمرو: (تتفيَّؤُا).

الإعراب:

﴿حَسَنَةً﴾ صفة للمصدر، أي لنبوئنهم تبوئة حسنة.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الذين: إما بدل مرفوع من ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ وإما بدل منصوب من الهاء والميم في ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ أو منصوب بتقدير: أعني.

﴿عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ حال من الفاعل أو المفعول .﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ حال من الظلال ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ حال من ضمير ﴿ظِلَالُهُ﴾ الذي هو في معنى الجمع ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ حال.

﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ حال من: هم.

البلاغة:

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا﴾ استفهام بمعنى الإنكار.

﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ من صيغ المبالغة.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عطف خاص على عام لتعظيم الملائكة وتكريمهم.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَشْعُرُونَ﴾ ﴿دَٰخِرُونَ﴾ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿يُؤْمَرُونَ﴾ بأسلوب السجع اللطيف.

﴿ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِي ٱللَّهِ﴾ هم النبي ﷺ وأصحابه، وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة في صدر الإسلام فرضاً، ثم قال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن ابن عباس: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية» أي إن الهجرة أصبحت هي ترك سيئات الأعمال: «والمهاجر: من هجر ما نهى الله عنه» والهجرة: ترك الوطن في سبيل الله لإقامة دينه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾ بالأذى من أهل مكة ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ لننزلنهم في الدنيا منزلاً حسناً ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أي إن الجنة أعظم ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للكفار، أي لو علموا أن الله يمنح المهاجرين خير الدارين لوافقوهم، أو للمهاجرين، أي لو علموا ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم، أو للمتخلفين عن الهجرة، أي لو علموا ما للمهاجرين من الكرامة لبادروا إلى الهجرة. وفي هذا ترغيب في الهجرة وفي طاعة الله تعالى؛ لأنه بالهجرة قوي الإسلام.

﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ هم الصابرون على الشدائد من أذى المشركين، والهجرة لإظهار الدين .﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي منقطعين إلى الله تعالى مفوضين إليه الأمر كله .﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ لا ملائكة، وهو رد لقول قريش: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً. وفي هذا دلالة واضحة أن النبوة لا تكون إلا في الرجال، وليس في النساء نبية .﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ العلماء بالتوراة والإنجيل، أي

أهل الكتاب العالمين ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فإنهم يعلمونه، وأنتم أقرب إلى تصديقهم من تصديق المؤمنين بمحمد ﷺ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بمحذوف، أي أرسلناهم بالبينات أي الحجج الواضحة، والبينة: هي المعجزة الدالة على صدق الرسول ﴿وَالزُّبُرِ﴾ الكتب، أي كتب الشرائع وتكاليف العباد، جمع زبور ﴿الذِّكْرَ﴾ القرآن، وسمي ذكراً؛ لأنه موعظة وتنبيه ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ لتوضح أسرار التشريع ﴿مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في القرآن من الحلال والحرام، والتبيين: أعم من أن ينص على المقصود، أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وإرادة أن يتأملوا فيه، فيتنبهوا للحقائق، ويعتبروا.

﴿مَكَرُوا﴾ المكرات السيئات، والمكر: السعي بالفساد خفية ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ أي الأعمال التي تسوء عاقبتها، وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء، أو الذين مكروا بالنبي ﷺ في دار الندوة من تقييده أو قتله أو إخراجه، كما ذكر في سورة الأنفال [٣٠] وراموا صد أصحابه عن الإيمان ﴿يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ مثلما فعل بقارون، أي بأن يذهبهم ويغوِّر بهم في أعماق الأرض .﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من جهة لا تخطر ببالهم، بأن يأتيهم العذاب بغتة من جانب السماء، كما فعل بقوم لوط، وكما أهلك المشركين في بدر، ولم يكونوا يقدرون على النجاة.

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ في أسفارهم في البلاد للتجارة، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦] .﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار من العذاب ﴿تَخَوُّفٍ﴾ مع تخوف وتوقع للبلايا أو تنقص شيئاً فشيئاً في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا، روي أن عمر رضي الله عنه قال على المنبر: ما تقولون فيها؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا، التخوف: التنقص، فقال: هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال: نعم، قال شاعر أبو كبير يصف ناقته:

تخوّف الرحل منها تامكاً قَرِداً كما تخوف عود النبعة السَّفِنُ[١]

فقال عمر: عليكم بديوانكم، لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة ﴿مِن شَيْءٍ﴾ له ظل كشجرة وجبل ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ يميل من جانب إلى جانب، وقرئ (تتفيأ) وكلاهما جائز لتقدم الفعل على الجمع، والظلال: جمع ظل: وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس ﴿وَالشَّمَآئِلِ﴾ جمع شمال، والمراد باليمين والشمائل: أي عن جانبي الشيء أول النهار وآخره .﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ أي خاضعين له بما يراد منهم، والسجود: الانقياد والخضوع ﴿وَهُمْ﴾ الظلال، نزلوا منزلة العقلاء ﴿دَاخِرُونَ﴾ صاغرون منقادون .﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدب على السماء والأرض، أي تخضع له بما يراد منها، وغلب في الإتيان بما: مالا يعقل لكثرته ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا يتكبرون عن عبادته ﴿يَخَافُونَ﴾ أي الملائكة، حال من ضمير ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ .﴿مِّن فَوْقِهِمْ﴾ حال، أي عالياً عليهم بالقهر والغلبة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢٧] .

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى موقف الكفار في إنكار البعث والقيامة، الدال على التمادي في الغي والجهل والضلال، أبان حكم الهجرة عن تلك الديار ورغب فيها، تخلصاً مما يقدم عليه أولئك الكفار من إيذاء المسلمين وإضرارهم وعقوبتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في ستة من الصحابة: صهيب، وبلال، وعمار، وخباب، وعابس، وجبير، مَوْلَيْنَ لقريش، فجعلوا يعذبونهم ليردوهم عن الإسلام، أما صهيب فقال لهم: أنا

---

(١) التامك القرد: اللحم المتراكم بعضه فوق بعض من السمن. والنبعة: شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسيّ.

رجل كبير إن كنت لكم، لم أنفعكم، وإن كنت عليكم، لم أضركم، فافتدى منهم بماله، فلما رآه أبو بكر قال: ربح البيع ياصهيب، وقال عمر: نعم الرجل صهيب، لو لم يخف الله، لم يعصه، وهو ثناء عظيم، يريد به: لو لم يخلق الله النار لأطاعه، فكيف ظنك به، وقد خلقها؟ وأما سائرهم فقد قالوا بعض ما أراد أهل مكة من كلمة الكفر والرجوع عن الإسلام، فتركوا عذابهم، ثم هاجروا، فنزلت هذه الآية[١].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال في هذه الآية: هؤلاء أصحاب محمد ﷺ، أهل مكة، فأخرجوهم من ديارهم، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة، ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك، فجعلها لهم دار هجرة، وجعل لهم أنصاراً من المؤمنين.

ثم ذكر الله تعالى الشبهة الخامسة لمنكري النبوة الذين قالوا: الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر، بل لو أراد بعثة رسول إلينا، لكان يبعث ملَكاً، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله تعالى وعادته أن يبعث رسولاً من البشر.

ثم هددهم بخسف الأرض بهم، أو بعذاب من السماء بغتة؛ لأن لله قدرة كاملة في السماء والأرض، والمخلوقات كلها تنقاد له وتخضع لأمره.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ هذه الآية تحدد جزاء المهاجرين في سبيل الله، ابتغاء مرضاته، الذين فارقوا الدار والإخوان، رجاء ثواب الله وجزائه، والمعنى: والذين فارقوا ديارهم وأوطانهم، وتركوا أموالهم وأولادهم في سبيل الله، وحباً في إرضائه، وذهبوا إلى ديار أخرى، بعد أن ظلموا، وأوذوا من

---

(١) تفسير الرازي: ٢٠/ ٣٤

الأعداء، لننزلنهم في الدنيا داراً أو بلدة حسنة، ومنزلة حسنة، وهي الغلبة على أهل مكة الذين ظلموهم وعلى العرب قاطبة وعلى أهل المشرق والمغرب. فالحسنة: هي المنزلة الطيبة والمسكن المرضي والموطن الأصلح وهو المدينة، كما قال ابن عباس والشعبي وقتادة. وقال مجاهد: هي الرزق الطيب، قال ابن كثير: ولا منافاة بين القولين، فإنهم تركوا مساكنهم وأموالهم، فعوضهم الله خيراً منها في الدنيا، فإن من ترك شيئاً لله، عوضه الله بما هو خير له منه، وكذلك أصبحوا سادة العباد والبلاد.

فالحسنة: هي المنزلة الرفيعة المادية والمعنوية.

﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي وثوابهم في الآخرة على هجرتهم أعظم مما أعطيناهم في الدُّنيا؛ لأن ثوابه هو الجنة ذات النعيم الدائم الذي لا يفنى، ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾: الضمير للكفار أي لو علموا أن الله يجمع لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدُّنيا والآخرة، لرغبوا في دينهم. ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين، أي لو كانوا يعلمون ذلك لزادوا في اجتهادهم وصبرهم. أو لو علم المتخلفون عن الهجرة معهم ما ادَّخر الله لمن أطاعه واتَّبع رسوله.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاءً قال: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك ربّك في الدُّنيا، وما ذخر لك في الآخرة أكثر.

ثم وصفهم الله بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أي هم الذين صبروا أو أعني الذين صبروا على الأذى من قومهم والعذاب، وعلى مفارقة الوطن المحبوب، وهو حرم الله، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح في سبيل الله، وعناء السفر ومتاعب الغربة، وتوكّلوا على ربّهم، أي فوّضوا أمورهم إليه، فأحسن عاقبتهم في الدُّنيا والآخرة.

قال ابن كثير: ويحتمل أن يكون سبب نزول الآية في مهاجرة الحبشة الذين

اشتدّ أذى قومهم لهم بمكة، حتى خرجوا من بين أظهرهم إلى بلاد الحبشة، ليتمكّنوا من عبادة ربّهم. ومن أشرافهم عثمان بن عفان ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وجعفر بن أبي طالب ابن عم الرّسول ﷺ، وأبو سلمة بن عبد الأسود، في جماعة قريب من ثمانين، ما بين رجل وامرأة، صدّيق وصدّيقة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقد فعل فوعدهم تعالى بالمجازاة الحسنة في الدُّنيا والآخرة[1]، وهذا هو الصحيح في سبب نزول هذه الآية، كما ذكر ابن عطية.

ثم أجاب الله تعالى عن الشُّبهة الخامسة لمنكري النّبوة المذكورة في هذه السورة وهي بشريّة الرُّسل، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾ أي وما أرسلنا للناس رسولاً من أهل السماء أي ملائكة، وإنما أرسلنا رجالاً من أهل الأرض نوحي إليهم أوامرنا ونواهينا، فلم نرسل إلى قومك يا محمد إلا كما أرسلنا إلى من قبلهم من الأمم، أي رسلاً من جنسهم وطبيعتهم: ﴿قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٩٣]، ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١٨/ ١١٠].

قال ابن عباس: لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً، أنكرت العرب ذلك، وقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الآية [يونس: ١٠/ ٢].

﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ أي فاسألوا أهل العلم وأهل الكتب الماضية: أبشراً كانت الرُّسل إليهم أم ملائكة؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً.

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ أي أرسلناهم بالحجج والدلائل التي تشهد لهم بصدق

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٧٠

نبوّتهم، وبالكتب المشتملة على التّشريع الرّبّاني. والزُّبر: جمع زبور أي كتاب، تقول العرب: زبرت الكتاب: إذا كتبته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر: ٥٤/ ٥٢]. وفي الآية: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ تقديم وتأخير، أي ما أرسلنا من قبلك بالبيِّنات والزُّبر إلا رجالاً، أي غير رجال، فكلمة ﴿إِلَّا﴾ بمعنى غير، كقوله: لا إله إلا الله.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي وكما أنزلنا الكتب إلى من قبلك يا محمد، أنزلنا إليك القرآن، لتبيِّن للناس ما أنزل إليهم من ربّهم من الشرائع والأحكام والحلال والحرام وقصص الأمم الماضية التي أبيدت وأهلكت لتكذيبها الأنبياء، لعلمك بمعاني ما أنزل الله عليك.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي ومن أجل أن يتفكّروا وينظروا في حقائق الكون وأسرار الحياة وعبر التاريخ، فيهتدون، ويفوزون بالنّجاة في الدّارين.

وبعد فتح باب الأمل أمامهم، حذّرهم تعالى سوء ما هم عليه من الكفر والعصيان، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي إنه تعالى يخبر عن حلمه وإمهاله العصاة الذين يعملون السّيئات ويدعون إليها، ويمكرون بالناس في دعائهم لما هم عليه من الضلال. والمكر في اللغة: عبارة عن السعي بالفساد على سبيل الإخفاء.

والمعنى: أفأمن الذين مكروا السيئات برسول الله ﷺ وهم أهل مكة، وحاولوا صدّ الناس عن الإيمان بدعوته، أحد أمور أربعة:

الأول - أن يخسف بهم الأرض، كما فعل بقارون.

الثاني - أو يأتيهم العذاب فجأة من حيث لا يشعرون به، كما صنع بقوم لوط.

الثالث - أو يأخذهم في تقلُّبهم في الليل والنهار أو في أسفارهم ومتاجرهم واشتغالهم في المعايش والأشغال الملهية، فلا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه.

الرابع - أو يأخذهم على تخوّف أي في حال خوفهم بأن يهلك الله قوماً، فيتخوّفوا، فيأخذهم بالعذاب، وهم متخوفون متوقعون، وهو خلاف قوله تعالى: ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فإن العذاب المتوقّع مع الخوف الشديد أبلغ وأشدّ من حال المفاجأة؛ لأن العقاب في حال الإرهاب، وإنهاك الأعصاب، وإخافة النفوس أشدّ من العقاب المفاجئ. وقيل: التّخوّف: التّنقص من الأموال والأرزاق، والأنفس، على لغة هذيل كما بيّنّا.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي إن الله تعالى لم يعجل بعذابهم، ولم يعاجلهم بالعقوبة؛ لأنه رؤوف رحيم بعباده، فترك لهم وقتاً يتمكنون من تلافي التّقصير، واستدراك الأخطاء، والعدول عن الضّلال.

ثبت في الصحيحين: «لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزقهم ويعافيهم» وثبت فيهما أيضاً: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١١/١٠٢]».

ونظير الآية: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٢٢/٤٨].

والتّخويف والإنذار يناسبه التّذكير بالقدرة الإلهية الهائلة، والعظمة والجلال والكبرياء الذي خضع له كل شيء، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ أي ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من المخلوقات ذات الظلال كالجبال والأشجار والمباني والأجسام القائمة، تتميل ظلاله من جانب إلى جانب، ذات اليمين وهو المشرق، وذات الشمال وهو

المغرب، وذلك بكرةً وعشياً أي في الغداة أول النهار، وفي المساء آخر النّهار، قال الأزهري: تفيؤ الظلال: رجوعها بعد انتصاف النهار، فالتفيؤ لا يكون إلا بالعشي بعدما انصرفت عنه الشمس، والظّل: ما يكون بالغداة: وهو ما لم تنله الشمس. والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ لجميع الناس.

وقوله تعالى: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أراد: من شيء له ظلّ من جبل وشجر وبناء وجسم قائم، بدليل ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ وهو الشيء الكثيف الذي يقع له ظلّ على الأرض.

وقوله تعالى: ﴿ظِلَالُهُ﴾ أضاف الظلال إلى مفرد، ومعناه: الإضافة إلى ذوي الظلال، وإنما حسن هذا؛ لأن الذي عاد إليه الضمير، وإن كان واحداً في اللفظ وهو قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ إلا أنه كثير في المعنى. ونظيره قوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ٤٣/١٣] ، فأضاف الظهور - وهو جمع - إلى ضمير مفرد؛ لأنه يعود إلى واحد أريد به الكثرة، وهو قوله تعالى: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾.

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي إن الظلال ساجدة لأمر الله وحده، والسّجود: الانقياد والاستسلام، وهم صاغرون خاضعون منقادون لله، والدّخور: الصّغار والذّل، لأن الظلال تتحوّل من جهة المشرق إلى جهة المغرب، فهي في أول النهار من جهة المشرق، ثم تتقلّص، وتنتقل من حال إلى حال في آخر النهار، مائلة إلى جهة المغرب، وهذا الانتقال دليل على القدرة الإلهية.

وقوله تعالى: ﴿دَٰخِرُونَ﴾ جمع بالواو؛ لأن الدّخور من أوصاف العقلاء، أو لأن في جملة ذلك من يعقل، فغلب العقلاء.

ومجمل معنى الآية: أولم ينظروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفيّئة عن أيمانها وشمائلها، أي عن جانبي كل واحد منها وشقّيه - استعارة

من يمين الإنسان وشماله لجانبي الشيء - ترجع الظلال من جانب إلى جانب، منقادة لله غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التّفيؤ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً صاغرة منقادة لأفعال الله لا تمتنع[1].

وهذا في الجمادات، ثم ذكر سجود الأحياء فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ أي ولله يخضع كل ما في السماوات والأرض من دابة تدبّ عليها، وكذلك الملائكة، والحال أنهم لا يستكبرون أبداً عن عبادته وعن أي شيء كلفوا به، أو عن مراد الله فيما أراد، فهم في تذلل وخضوع لله تعالى.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ يخاف هؤلاء الملائكة والدّواب الأرضية الذي خلقهم، وهو دائماً من فوقهم بالقهر والغلبة، ويفعلون أي الملائكة كل ما يؤمرون به، فهم مثابرون على طاعته تعالى، وامتثال أوامره، وترك زواجره. فالمراد بالفوقية: الفوقية بالرّتبة والشّرف والقدرة والقوة.

ونظير الآية كثير مثل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ١٥] .

والخلاصة: إن على أهل مكة الماكرين بالنّبي وبالمؤمنين أن يحذروا عقاب الله، فإن الله قادر على تعذيبهم عاجلاً أو آجلاً، ودليل قدرته وعظمته وكبريائه خضوع كل شيء له في السماوات والأرض، من جماد ونبات وحيوان وإنس وجنّ وملائكة.

فقه الحياة أو الأحكام:

تضمنت الآيات ما يأتي:

أ - جزاء المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وصبروا على الأذى،

---

(١) الكشاف: ٢/ ٢٠٥

وتوكّلوا على ربّهم هو الموطن الأفضل، والمنزلة الحسنة، والعيشة الرّضية، والرّزق الطّيّب الوفير، والنّصر على الأعداء، والسّيادة على البلاد والعباد، وقد اجتمع لهم بفضل الله كل ذلك، ولأجر دار الآخرة أكبر من أن يعلمه أحد قبل أن يشاهده.

٢ً - في الآية تنويه بفضيلة الصّبر والتّوكل، أما الصّبر فلما فيه من قهر النّفس، وأما التّوكل فللعزوف عن الخلق والاتّجاه إلى الحقّ، الأول هو مبدأ السّلوك إلى الله تعالى، والثاني هو نهاية هذا الطريق.

٣ً - دلّت آية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ على أنه تعالى ما أرسل أحداً من النّساء، ودلّت أيضاً على أنه ما أرسل مَلَكاً إلى الناس، ولكن الله يرسل الملائكة رسلاً إلى سائر الملائكة، ويرسل بعضهم بالوحي إلى الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ٣٥/١] . ورسل البشر هم دائماً من الرّجال.

٤ً - على العوام سؤال أهل الذّكر فيما لم يكونوا يعلمون به، وأهل الذّكر: هم أهل العلم مطلقاً، سواء بأخبار الماضين، إذ العالم بالشيء يكون ذاكراً له، أو بالكتب السماوية السابقة، أو بالقرآن. وبما أن أهل مكة كانوا مقرّين بأن اليهود والنّصارى أصحاب العلوم والكتب، فأمرهم الله بأن يرجعوا في مسألة بشرية الرّسل إليهم، ليبيّنوا لهم ضعف هذه الشُّبهة وسقوطها، فهم الذين يخبرونهم بأن جميع الأنبياء كانوا بشراً.

٥ً - احتجّ بآية ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ من أجاز للمجتهد تقليد مجتهد آخر، فقال: لما لم يكن أحد المجتهدين عالماً، وجب عليه الرُّجوع إلى المجتهد الآخر الذي يكون عالماً، لقوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فإن لم يجب فلا أقل من الجواز.

٦ً - احتجّ نفاة القياس بهذه الآية أيضاً: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ﴾ فقالوا: المكلف إذا نزلت به واقعة، فإن كان عالماً بحكمها لم يجز له القياس، وإن لم يكن عالماً

بحكمها وجب عليه سؤال من كان عالماً بها؛ لظاهر هذه الآية، ولو كان القياس حجة لما وجب عليه سؤال العالم، لتمكُّنه من استنباط الحكم بالقياس. وأجيب بأنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة، والإجماع أقوى من هذا الدّليل.

٧ً - أرسل الأنبياء السابقون بالبيِّنات والزُّبر، أي بالدّلائل والحجج الشاهدة بصدقهم، وبالكتب المتضمنة تشريع الإله. وأنزل الذّكر أي القرآن على النَّبي ﷺ ليبيِّن للناس فيه ما أنزل إليهم من الأحكام والوعد والوعيد قولاً وفعلاً، فالرّسول مبيِّن عن الله عزّ وجلّ مراده مما أجمله في كتابه من أحكام الصلاة والزّكاة وغيرها من أنظمة الحياة مما لم يفصِّله القرآن.

٨ً - اشتملت آية ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي بالسَّيئات على وعيد للمشركين الذين احتالوا على تقويض أركان الإسلام بخسف الأرض كما خسفها بقارون، أو بمفاجأتهم بالعذاب كما فعل بقوم لوط وغيرهم، أو بأخذهم في تقلبهم أي في أثناء أسفارهم وتصرفاتهم، وما هم بمعجزين الله، أي سابقين الله ولا فائتيه، أو بأخذهم في حال تخوّف وإرهاب، أو على تنقّص من أموالهم ومواشيهم وزروعهم، أي تنقص من الأموال والأنفس والثَّمرات، حتى أهلكهم كلهم.

٩ً - من أدلّة عظمة الله وكبريائه وقدرته سجود كل ما يدبّ على الأرض له، وكذا الملائكة الذين في الأرض، وخصَّهم بالذّكر لشرف منزلتهم، فكل جماد ونبات وحيوان وإنس وجنّ وملائكة يخضعون لله وينقادون لأمره، ولا يستكبرون عن عبادة ربّهم، ويخافون عقاب ربّهم وعذابه من فوقهم، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء، ويمتثلون كل ما يؤمرون به، وهؤلاء هم الملائكة.

١٠ً - استدلّ بعضهم بهذه الآية على أن الملائكة أفضل من البشر؛

لتخصيصهم بالذّكر، ولأنهم لا يستكبرون عن عبادة ربِّهم، فليس في قلوبهم تكبّر وترفُّع، ولأنهم يفعلون ما يؤمرون، مما يدلّ على أن أعمالهم خالية من الذّنب والمعصية، ولأنهم خلقوا قبل البشر بأزمان مديدة وهم طائعون لله طوال هذه المدة، ولاشيء فوقهم في الشرف والرتبة إلا الله تعالى.

مناقشة عقائد المشركين وأعمالهم القبيحة

﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا مِّمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡۗ تَٱللَّهِ لَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَفۡتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكۡرَهُونَۚ وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾

القراءات:

﴿يُؤَاخِذُ﴾، ﴿يُؤَخِّرُهُمۡ﴾:

وقرأ ورش، وحمزة، وقفاً: (يواخذ، يوخرهم).

﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (يستاخرون).

﴿مُّفْرَطُونَ﴾ :

وقرأ نافع (مُفْرِطون).

الإعراب:

﴿وَاصِبًاۚ﴾ حال من ﴿ٱلدِّينُ﴾ ، وعامله ﴿وَلَهُ﴾ الجار والمجرور الذي فيه معنى الظرف.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٍ﴾ ﴿مَا﴾ : شرطية، أو موصولة متضمّنة معنى الشرط باعتبار الإخبار دون الحصول، فإن استقرار النعمة بهم يكون سبباً للإخبار بأنها من الله تعالى.

﴿وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ ﴿مَّا﴾ : مبتدأ وخبره ﴿لَهُم﴾ مقدم عليه، أو معطوف بالنصب على ﴿ٱلۡبَنَٰتِ﴾ .

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه.

﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ ألسنة: جمع لسان، واللسان يذكّر ويؤنث، فمن ذكّر جمعه على ألسنة، ومن أَنَّثَ جمعه على ألسن، والقرآن أتى بالتّذكير. و﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ : مفعول ﴿وَتَصِفُ﴾ . ومن قرأ (الكُذُبُ) بثلاث ضمات، كان مرفوعاً على أنه صفة الألسنة.

البلاغة:

﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ فيه إفادة القصر، أي لا تخافوا غيري، وفيه التفات عن الغيبة إلى التّكلم، مبالغة في التّرهيب والمهابة، وتصريحاً بالمقصود، فكأنه قال: فأنا ذلك الإله الواحد، فإياي فارهبون لا غيري. ويلاحظ وجود

السَّجع في أواخر الآيات ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ ﴿تَتَّقُونَ﴾ ﴿تَجۡـَٔرُونَ﴾ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ ﴿تَفۡتَرُونَ﴾.

﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ تهديد ووعيد.

﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ ﴿يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ بينهما طباق.

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صيغة مبالغة.

﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ اعتراض لتعجيب الخلق من هذا الجهل الفاضح القبيح.

﴿وَتَصِفُ أَلۡسِنَتُهُمُ ٱلۡكَذِبَ﴾ كلام بليغ بديع، أي ألسنتهم كاذبة، كقولهم: «عينها تصف السحر» أي ساحرة.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ تأكيد. ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ فيه إثبات الألوهية والوحدانية. ﴿فَٱرۡهَبُونِ﴾ خافون دون غيري، وفيه التفات عن الغيبة. والرّهبة: الخوف. ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ملكاً وخلقاً وعبيداً. ﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾ الطاعة والإخلاص. ﴿وَاصِبًاۚ﴾ دائماً لازماً، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٣٧/٩]. ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي مع أنه الإله الحق ولا إله غيره، والاستفهام للإنكار والتّوبيخ. ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أي وأي شيء اتّصل بكم من نعمة، فهو من الله، فلا نافع غيره، ولا ضارّ سواه.

﴿مَسَّكُمُ﴾ أصابكم. ﴿ٱلضُّرُّ﴾ كالفقر والمرض. ﴿تَجۡـَٔرُونَ﴾ تتضرّعون لكشفه أو ترفعون أصواتكم بالاستغاثة والدُّعاء، ولا تَدْعون غيره. والجؤار: رفع الصوت في الدُّعاء والاستغاثة. ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم﴾ وهم كفاركم. ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ﴾ من النّعمة، أي كأنهم قصدوا بشركهم كفران النّعمة، وإنكار كونها من الله تعالى. ﴿فَتَمَتَّعُواْ﴾ باجتماعكم على عبادة الأصنام، وهو أمر تهديد. ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ عاقبة ذلك وأغلظ وعيده.

﴿وَيَجْعَلُونَ﴾ أي المشركون. ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لآلهتهم التي لا علم لها؛ لأنها جماد، أو لما لا يعلمون أنها تضرّ ولا تنفع، وهي الأصنام. ﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ من الزروع والأنعام، بقولهم: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ [الأنعام: ٦/١٣٦] ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ سؤال توبيخ، وفيه التفات عن الغيبة. ﴿تَفْتَرُونَ﴾ تكذبون على الله من أنه أمركم بذلك، وأنها آلهة حقيقة بالتّقرب إليها، وهو وعيد لهم عليه.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ بقولهم: الملائكة بنات الله، كانت خزاعة وكنانة يقولون: إن الملائكة بنات الله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً له عن النقائص، أو تنزيهاً له من قولهم أو تعجُّباً منه ومما زعموا. ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي يشتهونه، وهم البنون، والمعنى: يجعلون له البنات التي يكرهونها، وهو منزه عن الولد، ويجعلون لهم الأبناء الذين يختارونهم، فيختصون بالأسنى الأرفع، كقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات: ٣٧/١٤٩].

﴿وَإِذَا بُشِّرَ﴾ البشارة: إلقاء الخبر المؤثر في تغير الوجه، ويكون في السّرور والحزن، وجاءت الآية في الثاني (الحزن) ثم خصّ عرفاً بالخبر السّارّ. ﴿ظَلَّ﴾ صار ﴿مُسْوَدًّا﴾ متغيّراً، وهو كناية عن الاغتمام من الكآبة والحياء من الناس. ﴿كَظِيمٌ﴾ ممتلئ غماً وغيظاً وحزناً. ﴿يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ يستخفي منهم أي من قومه. ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾ من سوء المبشر به عرفاً، خوفاً من التعيير، متردداً فيما يفعل به. ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أيتركه بلا قتل، بهوان وذلّ، والإمساك هنا: الحبس. ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ أي يواريه في التّرب أو يئده، وذكر ضمير يمسكه ويدسّه؛ لأنه عائد على ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾. ﴿سَآءَ﴾ بئس. ﴿مَا يَحْكُمُونَ﴾ حكمهم هذا، حيث نسبوا لخالقهم البنات اللاتي هنّ عندهم بهذا التقدير.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي الكفار. ﴿مَثَلُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي الصفة السوء

بمعنى القبيحة، وهي اشتهاء الذكور استظهاراً بهم، وكراهة الإناث ووأدهنّ خشية الإملاق أو الفقر والعار، مع احتياجهم إليهن للزواج. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي الصفة العليا، وهي أنه لا إله إلا هو، واتِّصافه بجميع صفات الجلال والكمال، فله الوجوب الذاتي، والغنى المطلق، والجود الفائق، والنزاهة عن صفات المخلوقين. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي في ملكه، المتفرد بكمال القدرة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتّصف بكمال الحكمة في صنعه وخلقه.

﴿بِظُلْمِهِم﴾ بالمعاصي. ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾ على الأرض. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدبّ عليها. ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه. ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ عليه، بل هلكوا وعذبوا حينئذٍ لا محالة، وإضافة الظلم للناس الدّال على العموم: لا يلزم أن يكونوا كلهم ظالمين، حتى الأنبياء عليهم السّلام، لجواز أن يضاف إليهم ما شاع فيهم، وصدر عن أكثرهم. ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي ينسبون لله ما هو قبيح لأنفسهم من البنات، والشريك في الرِّياسة، وإهانة الرُّسل، وخبائث الأموال. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ مع ذلك، أي يكذبون، كما يقال: عينها تصف السحر، أي هي ساحرة، وقدّها يصف الهيف، أي هي هيفاء. وكذبهم هو ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ عند الله، أي الجنة، لقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾. ﴿لَا جَرَمَ﴾ حقّاً. ﴿مُّفْرَطُونَ﴾ مُتْرَكون فيها أو مُقَدَّمون إليها، مُعَجَّلون بهم إليها. وعلى قراءة كسر الراء: أي متجاوزون الحدّ.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أنّ كل ما سوى الله منقاد خاضع لجلاله وكبريائه وسلطانه، أتبع ذلك بأمور ثلاثة:

أولها - النّهي عن الشّرك، وأن كل ما سواه فهو مِلْكه، وأنه غني عن الكل، وأن الناس مذبذبون، فإذا أصابهم الضّرّ تضرّعوا إلى الله تعالى، وإذا كشفه عنهم، عادوا إلى الكفر والشرك.

ثانيها - بيان قبائح أفعال المشركين، بعد إيراد سُخْف أقوالهم وفسادها.

ثالثها - إمهال هؤلاء الكفار، وحلم الله عليهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، بالرّغم من عظيم كفرهم، وقبيح أفعالهم، إظهاراً للفضل والرّحمة والكرم.

التفسير والبيان:

بما أنه ثبت في الآيات السالفة خضوع كل ما في الكون لله تعالى، فذلك دليل قاطع على وحدانية الله، لذا أخبر تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لاشريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربُّه، فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ﴾ أي وقال الله تعالى للناس: لا تتخذوا إلهين اثنين، أي لا تتخذوا لي شريكاً، ولا تعبدوا سواي، فمن عبد مع الله غيره فقد أشرك به، إنما هو الله إله واحد، ومعبود واحد، فاتَّقوني وخافوا عقابي بالإشراك وعبادة سواي.

وإنما ذكر ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ بعد قوله ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ لتأكيد التنفير عن التعدد، والدّلالة على أن المنهي عنه هي الاثنينية. وكان ذكر ﴿وَٰحِدٞۖ﴾ بعد قوله ﴿إِلَٰهٞ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية، أما الألوهية فلا خلاف ولا نزاع فيها. وجاء بهذه العبارة ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ بعد ثبوت الإله ونفي التعدُّد للدلالة على أنه لما ثبت وجود الإله وأنه لا بدّ للعالم من الإله، وثبت أن القول بوجود الإلهين محال، ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الفرد الصَّمد.

والخلاصة مما ذكر: أن لا إله إلا الله وحده، وأن العبادة لا يستحقها سواه. ﴿وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي لما كان الإله واحداً، والواجب لذاته واحداً، كان كل ما سواه حاصلاً بخَلْقه وتكوينه وإيجاده، فلله جميع ما في السماوات

والأرض ملكاً وخَلْقاً وعبيداً، فهو خالقهم ورازقهم، ومحييهم ومميتهم، وهم عبيده ومملوكوه، وله الدِّين واصباً، أي له الطاعة والانقياد والعبادة على سبيل الدوام والاستمرار، فالدِّين هنا: الطاعة، والواصب: الدائم. وقيل: الواصب: الواجب اللازم أبداً.

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ أي إنكم بعدما عرفتم أن إله العالم واحد، وعرفتم أن كل ما سواه محتاج إليه في وقت حدوثه، ومحتاج إليه أيضاً في وقت دوامه وبقائه، فكيف يعقل الرغبة في غير الله أو رهبة غير الله تعالى؟ وهذا مقول على سبيل التّعجب.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ وإذا كان الواجب ألا يتقى غير الله، فالواجب ألا يشكر غير الله؛ إذ ما من نعمة بكم من إيمان وسلامة جسد وعافية، ورزق ونصر ونحو ذلك إلا وهي من الله عزّ وجلّ ومن فضله وإحسانه.

فدلّت الآية على أن العاقل يجب عليه ألا يخاف وألا يتقي أحداً إلا الله، وألا يشكر أحداً إلا الله تعالى، فجميع النّعم من الله تعالى.

وكذلك لا يدفع الضّر إلا الله بقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ أي إذا تعرّضتم لسوء أو ضرر في أنفسكم من مرض أو خوف أو مشقة، ونحوها من الضرورات، فإليه تلجؤون وتسألون وتَدْعون، وتلحون في الرّغبة إليه والاستغاثة به لكشف ذلك عنكم، لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٦٧].

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ﴾ أي ثم إذا كشف الضُّر عنكم، وأزال المخاوف، ووهبكم النعمة والسلامة والعافية، وفرج البلاء عنكم، إذا أنتم تفترقون فريقين، ففريق منكم يبقى على ما كان عليه من الإيمان، فلا يفزع إلا إلى الله

تعالى، وفريق منكم عند ذلك يتغيرون، فيشركون بالله غيره في العبادة، وهذا مثار عجب من فعل هؤلاء، حيث يقابلون النعمة بالنقمة، والشكر بالشرك بالله تعالى. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ هذه اللام إما لام التعليل، أي قيضنا لهم ذلك ليكفروا أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم، والمعنى: أنهم أشركوا بالله غيره في كشف الضّر عنهم، وغرضهم من الإشراك أن ينكروا كون ذلك الإنعام من الله تعالى.

وإما لام العاقبة (الصيرورة) أي إن عاقبة تلك التضرُّعات ما كانت إلا هذا الكفر، كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢٨/٨] .

ثم توعّدهم وهدّدهم قائلاً: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ أي اعملوا ما شئتم، وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً في الحياة الدُّنيا، فسوف تعلمون عاقبة تمتعكم، وما ينزل بكم من العذاب، وتدركون سوء ما أنتم عليه. وهذا الأمر التهديدي مثل قوله تعالى:

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ١٨/٢٩] ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا﴾ [الإسراء: ١٧/١٠٧] .

ثم أخبر الله تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام بغير علم، وجعلوا للأنداد نصيباً مما رزقهم الله، فقال تعالى:

أ - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ويجعل هؤلاء المشركون للأصنام التي لا يعلمون حقيقتها أنها جماد لا يضرّ ولا ينفع، فهم إذن جاهلون بها، يجعلون لها نصيباً مع الله تعالى، مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرها يتقرَّبون به إلى الله تعالى، ونصيباً يتقرَّبون به إليها، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا

ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٦] .

ثم توعّدهم الله على أفعالهم مقسماً بنفسه الكريمة فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ أي أقسم لأسألنكم عن ذلك الذي افتريتموه من الباطل، ولأجازينكم عليه أوفر الجزاء في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٢-٩٣] . وهذا سؤال توبيخ وتأنيب وتقريع لهم على إثمهم وجرمهم.

٢ - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ﴾ أي ومن جهل المشركين وإفكهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرّحمن بنات الله، فعبدوها مع الله تعالى، إذ قالت خزاعة: الملائكة بنات الله، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ٤٣/ ١٩] ، فأخطؤوا خطأ كبيراً، إذ نسبوا إليه تعالى الولد، ولا ولد له، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات، وهم لا يرضونها لأنفسهم، وإنما يرضون الذّكور، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ٥٣/ ٢١-٢٢] ، وقال تعالى﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٥١-١٥٤] ، نزلت في خُزاعة وكنانة، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى، فكانوا يقولون: ألحقوا البنات بالبنات.

وهنا قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ يعني البنين، أي إنهم يختارون لأنفسهم الذّكور، ويأنفون من البنات التي نسبوها إلى الله تعالى، تعالى الله عما يقولون علوّاً كبيراً. وهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور: ٥٢/ ٣٩] .

ثم عاب الله تعالى على العرب تبرمهم بالبنات فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ أي وإذا بُشِّر أحد هؤلاء العرب الذين جعلوا لله البنات بولادة أُنثى، ظلّ وجهه مسودّاً أي كئيباً من الهمّ، وهو كظيم، أي ساكت من شدّة ما هو فيه من الحزن، يتوارى من القوم، أي يكره أن يراه الناس، من مساءة ما بُشِّر به، هل يمسك المولود الأُنثى على هوان وذلّ وعار وفقر، أم يدفنها في التراب وهي حيَّة، وذلك هو الوأد المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ [التكوير: ٨١/٨-٩] .

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما قالوا، وبئس ما قسموا، وبئس ما نسبوه إلى الله تعالى، وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/١٧] .

والتبشير عرفاً: مختصّ بالخبر الذي يفيد السّرور، إلا أنه بحسب الأصل في اللغة: عبارة عن الخبر الذي يؤثر في تغير بشرة الوجه، وكل من السّرور والحزن يوجب تغيُّر البشرة.

وذكر ضمير ﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ لأنه عائد على ﴿مَا﴾.

ثم أجمل الله تعالى موقف المشركين حول هذا الأمر، فقال:

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي للذين لا يصدّقون بالحياة الآخرة وما فيها صفة السّوء التي هي كالمثل في القبح، أي لهم صفة النّقص بما ينسب إليهم، وهي الحاجة إلى الأولاد الذّكور، وكراهة الإناث، ووأدهن خشية الإملاق، والإقرار على أنفسهم بالشّح البالغ.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أي وله تعالى الصفة العليا، والكمال المطلق، فهو الواحد المنزه عن الولد والوالد والشريك، وهو الغني عن العالمين، والمنزه عن صفات المخلوقين، وهو الجواد الكريم، أي فله الكمال المطلق من كل وجه.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي وهو القوي الذي لا يُغْلَب، الحكيم في صنعه الذي لا يفعل إلا بما تقتضيه الحكمة السديدة.

وبعد أن حكى الله تعالى عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح قولهم، بيَّن أنه يمهل هؤلاء الكفار، ولا يعاجلهم بالعقوبة، فضلاً منه ورحمةً وكرماً، فقال:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم﴾ هذا إخبار عن حلمه تعالى بخلقه، مع ظلمهم، فلوأنه يؤاخذهم بذنوبهم ومعاصيهم ويعاقبهم على جرمهم فوراً، ما ترك على ظهرها من دابة، أي لأهلك جميع دواب الأرض، تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكنه جلّ جلاله حليم ستّار غفور رحيم، يؤخرهم إلى أجل مسمى، فلا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

روى البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول: إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى إن الْحُبَارى لتموت في وكرها بظلم الظالم.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: كاد الْجُعَل[1] يَهْلِك في جُحْره بذنب ابن آدم، ثم قرأ الآية: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ﴾ وهذا مروي أيضاً عن أبي الأحوص.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ولكن بحلمه تعالى يؤخر هؤلاء الظلمة والعصاة، فلا يعاجلهم بالعقوبة، إلى أجل سماه الله لعذابهم، فإذا حان وقت هلاكهم، لا يستأخرون عن الهلاك ساعة، ولا يتقدّمون قبله، حتى يستوفوا أعمارهم.

روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال: «إن الله لا يؤخر شيئاً إذا جاء أجله، وإنما زيادة العمر بالذريّة

(١) الْجُعْل مفرد جِعْلان: دابة سوداء من دوابّ الأرض.

الصالحة، يرزقها الله العبد، فيدعون له من بعده، فيلحقه دعاؤهم في قبره، فذلك زيادة العمر».

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أي وينسبون إلى الله ما يكرهون لأنفسهم من البنات ومن الشركاء الذين هم عبيد الله، وهم يأنفون أن يكون لأحدهم شريك في ماله.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أي ويكذبون في دعواهم أن لهم العاقبة الحسنة في الدُّنيا وفي الآخرة وهي الجنة على هذا العمل. روي أنهم قالوا: إن كان محمد صادقاً في البعث، فلنا الجنة بما نحن عليه، فردّ الله عليهم مقالهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ أي حقّاً أن لهم النار، وأنهم متروكون فيها أو معجل بها إليهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيات الأحكام التالية:

١ - النّهي عن تعدُّد الآلهة أو الشّرك، والأمر بالوحدانية والتّوحيد؛ لأن الإله الحقّ لا يتعدَّد، وأن كل من يتعدَّد فليس بإله، والله تعالى واحد في ذاته المقدَّسة، فقد قام الدَّليل العقلي والشَّرعي على وحدانيته تعالى.

٢ - ترتب على وحدانية الله أنه المستحق للعبادة، فلا يعبد سواه، ولا يخاف غيره.

٣ - وترتب على الوحدانية أن كل ما سوى الله في السماوات والأرض فهو مملوك له، لأنه مخلوق منه، متكون موجود به، فلا يكون الدين، أي الطاعة والإخلاص إلا له دائماً، ولا يُتَقَى غير الله تعالى.

٤ - جميع النعم من الله تعالى، سواء المادية كالرّزق والسّلامة والصّحة، أو المعنوية كالأمان والجاه والمنصب ونحوها.

٥ً - لا يجد الإنسان ملجأ لكشف الضُّرّ عنه في وقت الشدائد والكروب إلا الله تعالى، فيضجّ بالدُّعاء إليه؛ لعلمه أنه لا يقدر أحد على إزالة الكرب سواه.

٦ً - التعجيب من حال الإنسان بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار (رفع الصوت والتضرع بالدُّعاء إلى الله) فهو يعود إلى الإشراك بعد النجاة من الهلاك. وهذا المعنى مكرر في القرآن الكريم. وقد أشركوا ليجحدوا، فاللام لام كي، وقيل: لام العاقبة.

٧ً - تهديد هؤلاء الكفار بالتمتع بمتع الحياة الدُّنيا، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم.

٨ً - هناك نوع آخر من جهالات المشركين، وهو أنهم يجعلون لما لا يعلمون أنه جماد يضرّ وينفع، وهي الأصنام، شيئاً من أموالهم يتقرَّبون به إليه. فيكون ضمير ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائداً للمشركين، وقيل: إنه عائد للأوثان، أي ويجعل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شيئاً نصيباً.

ولكن الله عزّ وجلّ يسألهم سؤال توبيخ عن افترائهم واختلاقهم الكذب على الله أنه أمرهم بهذا.

٩ً - ومن جهالاتهم نسبة البنات إلى الله تعالى، ونسبة البنين لأنفسهم وأنَفَتهم من البنات.

١٠ً - ومن جهالاتهم تغيُّر وجوههم حزناً وغماً بالبنت، واختفاء الواحد منهم وتغيبه عن مواجهة القوم من شدّة الحزن وسوء الخزي والعار والحياء الذي يلحقه بسبب البنت. وكان بعض العرب يدفنون بناتهم أحياء في التراب، مثل خزاعة وكنانة، قال قتادة: كان مُضَرُ وخُزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدّهم في هذا تميم. زعموا خوف الفقر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهنّ.

وقد حرم الإسلام الوأد، وأوجب الإحسان إلى البنات، روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنّ النّبي ﷺ قال: «من ابتلي من البنات بشيء فأَحسن إليهنّ، كنّ له ستراً من النّار» ففي الصَّبر عليهنّ والإحسان إليهنّ ما يقي من النّار. وروى مسلم أيضاً عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال جاريتين حتى تبلُغا، جاء يوم القيامة أنا وهو» وضمّ أصابعه. وروى أبو يعلى الحافظ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من كانت له بنت فأدَّبها، فأحسن أدبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، وأسبغ عليها من نعم الله التي أسبغ عليه، كانت له ستراً أو حجاباً من النّار».

١١ً - بئس ما حكم به أهل الجاهلية من إضافة البنات إلى خالقهم وإضافة البنين إليهم، وقد استاؤوا من البنات أشدّ الاستياء؛ لأن الواحد منهم يسودّ وجهه بولادة البنت، ويختفي عن القوم من شدّة نفوره من البنت، ويقدم على قتلها.

١٢ً - لهؤلاء الواصفين لله البنات مَثَل السَّوْءِ، أي صفة السّوء من الجهل والكفر، ولله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى من الإخلاص والتوحيد، ووصفه بما لا شبيه له ولا نظير، جلّ الله تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّاً كبيراً.

١٣ً - من فضل الله ورحمته وكرمه أنه يمهل هؤلاء الكفار ولا يعاجلهم بالعقوبة، ليترك الفرصة لهم للإيمان والتوبة. قال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين، لأصاب العذاب جميع الْخَلْق، حتى الْجِعْلان في حجرها، ولأمسك الأمطار من السماء، والنبات من الأرض، فمات الدّواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل؛ كما قال: ﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ٥/ ١٥] ، وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا

كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٨/٥٨] .

١٤ - إن أجل موت الإنسان ومنتهى عمره لا يتقدّم ولا يتأخّر ساعة واحدة أو لحظة واحدة.

وتعميم الهلاك مع أن في الناس مؤمنين ليسوا بظلمة، بجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء، وهلاك المؤمن معوَّضاً بثواب الآخرة. جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أراد الله بقوم عذاباً، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على نيّاتهم» أو «على أعمالهم».

١٥ - ينسب المشركون لله البنات، وتقول ألسنتهم الكذب أن لهم الجزاء الحسن، والحق أن لهم النار، وأنهم مُتْرَكون منسيّون في النّار، أو معجَّلون إلى النار، مقدَّمون إليها.

عادة الأمم في تكذيب الرسل ومهمة النبي في تبيان القرآن وجعله هدى ورحمة

﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

الإعراب:

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ منصوبان على المفعول لأجله.

المفردات اللغوية:

﴿ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ ﴾ رسلاً . ﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ السيئة،

فرأوها حسنة، فأصروا على قبائحها، وكفروا بالمرسلين. ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ متولي أمورهم، وناصرهم ومساعدهم، والضمير يعود إلى الأمم. ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي في الدنيا، وقيل: يوم القيامة، على حكاية الحال الآتية، أي لا ولي لهم غيره، وهو عاجز عن نصر نفسه، فكيف ينصرهم؟! ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الآخرة. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن. ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ للناس. ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من أمر الدين كالتوحيد، والقدر، وأحوال المعاد، وأحكام الأفعال. ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ معطوفان على محل ﴿لِتُبَيِّنَ﴾.

المناسبة:

بعد أن فنَّد الله تعالى فساد عقائد المشركين وأقوالهم، وأمهلهم العذاب، سلّى رسوله ﷺ عما كان يناله من أذى قومه، ونسبتهم إلى الله ما لا يجوز، بإخباره بإرسال الرسل إلى الأمم المتقدمة، مقسماً على ذلك، ومؤكداً بالقسم، وبـ «قد» التي تقتضي تحقيق الأمر، فزين لهم الشيطان أعمالهم، من تماديهم على الكفر، فهو وليهم اليوم، حكاية حال ماضية، أي لا ناصر لهم في حياتهم إلا هو، أو حكاية حال آتية، وهي يوم القيامة، فلا تحزن لتكذيبهم، فلست بدعاً من الرسل، وليس قومك منفردين بالعتو والاستكبار.

وناسب ذلك بيان مهمة النبي ﷺ وهي تبيان أحكام القرآن للمختلفين وهم أهل الملل والأهواء، وتوضيح ما اختلفوا فيه وهو الدين، مثل التوحيد والشرك، والجبر والقدر، وإثبات المعاد ونفيه، وأحكام الدين مثل تحريمهم أشياء حلالاً كالبحيرة والسائبة، وتحليل أشياء حراماً كالميتة.

التفسير والبيان:

هذه الآية تسلية من الله لرسوله عما يناله من الحزن بسبب جهالة قومه وإعراضهم عن رسالته، فقال: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ أي والله لقد أرسلنا

رسلاً إلى الأمم الخالية من قبلك، فكذبت الأمم رسلها، وحسَّن لهم الشيطان أعمالهم من الكفر وعبادة الأوثان، فهو وليهم اليوم، أي هم رازحون تحت العذاب والنكال.

ووليهم اليوم، أي ناصرهم في الدنيا، على زعمهم، حكاية للحال القائمة ولكن لهم عذاباً مؤلماً في الآخرة، فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا. وقيل: ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ﴾ أي قرينهم في النار يوم القيامة، حكاية للحال الآتية، وهي حال كونهم معذبين في النار، أي فهو ناصرهم اليوم، لا ناصر لهم غيره، نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه، وأطلق على يوم القيامة اسم ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ لشهرته.

وبئس الناصر المعين الذي لا يملك لهم خلاصاً، ولا يستطيع إنقاذاً لهم، ولهم في الآخرة عذاب شديد الألم؛ إذ لا تنفعهم ولاية الشيطان.

فلا تحزن يا محمد على تكذيب قومك لك، فلك أسوة بالمرسلين قبلك، ودع المشركين الذين كذبوا الرسل؛ فإنما وقعوا فريسة لتزيين الشيطان لهم ما فعلوه.

ثم أبان الله تعالى أن الهلاك لا يكون إلا بعد بيان الحجة. فقال:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي إنما أنزلنا عليك القرآن لهدف واضح، وهو أن تبين للناس الذي يختلفون فيه في العقائد والعبادات، فيعرفوا الحق من الباطل، والقرآن فاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه، وهو هدى للقلوب الحائرة أو الضالة، ورحمة لقوم يصدقون به، ويتمسكون به.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية الأولى على أن سنة الله في عباده منذ القديم إرسال الرسل بالحجة الواضحة والبيان الشافي، وما محمد ﷺ إلا كغيره من الرسل.

وشأن الأمم تكذيب المرسلين، لتأثرهم بتزيين الشيطان أعمالهم، وإغوائهم، وصرفهم عن إجابة أنبيائهم.

وهكذا كان موقف كفار مكة، أغواهم الشيطان، كما فعل بكفار الأمم قبلهم.

ولكن سيتلقى هؤلاء الكفار جميعاً جزاء أوفى وعذاباً أليماً في نار جهنم، ولن يكون لهم ولي ولا ناصر ولا معين ينقذهم مما هم فيه.

ودلت الآية الثانية على أن مهمة النبي ﷺ هي تبيان ما جاء في القرآن، وبيان ما اختلف فيه أهل الملل والأهواء من الدين والأحكام، فتقوم الحجة عليهم ببيانه. أما الدين المختلف فيه فهو مثل التوحيد والشرك والجبر والقدر، وإثبات المعاد ونفيه. وأما الأحكام فهي مثل تحريم أشياء تحل شرعاً كالبحيرة والسائبة وغيرهما، وتحليل أشياء تحرم كالميتة.

والقرآن تبيان للناس وهدى أي رشد، ورحمة للمؤمنين به.

من دلائل القدرة الإلهية والتوحيد ومظاهر النعم على الناس

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

القراءات:

﴿نُّسۡقِيكُم﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (نَسقيكم).

﴿بُيُوتٗا﴾:

قرئ:

١- (بُيُوتاً) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتاً) وهي قراءة الباقين.

﴿يَعۡرِشُونَ﴾:

وقرأ ابن عامر (يعرُشون).

الإعراب:

﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ الهاء تعود على ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، على لغة من ذكّره، فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث، كما جاء في سورة المؤمنون: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: ٢١/٢٣] فقد ذكّر سيبويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم: ثوب أكياش، ولذلك رجع الضمير إليه هنا مفرداً، وأما في سورة المؤمنين فلأن معناه الجمع.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ﴾ الهاء تعود على موصوف محذوف، وتقديره: ما تتخذون منه. وما: مبتدأ، وتتخذون جملة فعلية صفة لـ «ما». وحذفَ الموصوف وأقام الصفة مقامه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٦٤] أي إلا من له مقام معلوم، وتقديره: إلا ملك له مقام.

﴿ذُلُلٗاۚ﴾ حال من السبل.

﴿فِيهِ شِفَآءٌ﴾ الهاء تعود إلى الشراب، أو إلى القرآن. و﴿شِفَآءٌ﴾ يرتفع بالظرف على كلا المذهبين، إذا جعل وصفاً لشراب، كما ارتفع ألوانه بمختلف؛ لأنه وصف للشراب.

البلاغة:

﴿كُلِي مِن كُلِّ﴾ فيهما جناس ناقص.

﴿يَسۡمَعُونَ﴾ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ ﴿يَعۡرِشُونَ﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها سجع.

المفردات اللغوية:

﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي أحياها بإنبات الزرع والشجر وإخراج الثمر .﴿بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ يبسها .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور .﴿لَأٓيَةً﴾ دالة على البعث .﴿يَسۡمَعُونَ﴾ سماع تدبر وفهم .﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الإبل والبقر والغنم .﴿لَعِبۡرَةًۖ﴾ اعتباراً وعظة، وأصل العبرة: تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة والمشابهة. ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ بيان للعبرة .﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ أي الأنعام .﴿مِنۢ بَيۡنِ﴾ من للابتداء متعلقة بـ ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ .﴿فَرۡثٍ﴾ خلاصة المأكول في الكرش والأمعاء .﴿خَالِصٗا﴾ مصفى من الشوائب، لا يشوبه شيء من الفرث والدم من طعم أو ريح أو لون، وهو بينهما .﴿سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ سهل المرور في الحلق، لا يغص به. ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ أي ثمر تتخذون منه ﴿سَكَرٗا﴾ خمراً يسكر، سميت بالمصدر، وهذا قبل تحريمها وفي أول مراحل التحريم؛ لأنه وصف الرزق بالحسن، ولم يوصف السكر بذلك .﴿وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ جميع ما يؤكل طازجاً أو غير متخمر من هاتين الشجرتين كالعنب والزبيب والتمر والخل والدبس .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿لَأٓيَةٗ﴾ دالة على قدرته تعالى .﴿يَعۡقِلُونَ﴾ يتدبرون.

﴿وَأَوۡحَىٰ﴾ ألهم وعلم، كالطبيعة والغريزة في الحيوان .﴿أَنِ ٱتَّخِذِي﴾ أن مفسرة أو مصدرية .﴿بُيُوتٗا﴾ تأوين إليها، أي أوكاراً .﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ بيوتاً.

﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي مما يبنيه الناس لكِ من الأماكن، أي يصنعونه من الخلايا من طين أو خشب أو غيرهما. ﴿فَاسْلُكِي﴾ ادخلي. ﴿سُبُلَ رَبِّكِ﴾ طرقه ومسالكه لامتصاص الأزهار والثمار وغيرها وتحويلها بقدرة الله عسلاً طيباً. ﴿ذُلُلًا﴾ جمع ذلول أي مسخرة لك، منقادة طائعة لا تتوعر عليك ولا تلتبس، وهو حال من السبل، أي لا تعسر عليك وإن توعرت، ولا تضل عن العود منها وإن بعدت. ﴿شَرَابٌ﴾ هو العسل ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ من أبيض وأصفر وأحمر وأسود، بحسب نوع المرعى ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ من الأوجاع، إما بعضها بدليل تنكير كلمة ﴿شِفَاءٌ﴾ كالأمراض البلغمية، وإما كلها مع ضميمة غيره إليه، كسائر الأمراض، إذ قلما يكون معجون إلا والعسل جزء منه.

وقيل: الضمير يعود للقرآن.

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتأملون في صنعه تعالى، فإن من تدبر اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والأفعال العجيبة حق التدبر، علم قطعاً أنه لا بد من وجود قادر حكيم يلهمها ذلك، ويحملها عليه.

المناسبة:

بعد بيان وعد المؤمنين بالجنان، والكافرين بالنيران، وتسلية النبي ﷺ عما ناله من أذى قومه، ونسبة الشرك إلى الله، وحصر مهمته في بيان أحكام القرآن، عاد تعالى إلى إثبات قدرته ووجوده ووحدانيته بدلائل حسية مشاهدة لكل راءٍ أمامه صباح مساء، من إنبات الزرع والشجر بالمطر، وإخراج اللبن من الأنعام، واتخاذ أصناف المآكل من الأعناب والنخيل، وإخراج العسل من بطون النحل، الذي فيه شفاء للناس.

قال الإمام أبو عبد الله محمد فخر الدين بن عمر الرازي: إن المقصود الأعظم من القرآن العظيم تقرير أصول أربعة: الإلهيات، والنبوات، والمعاد، وإثبات القضاء والقدر، والمقصود الأعظم من هذه الأصول الأربعة:

الإلهيات، فابتدأ تعالى في أول هذه السورة بذكر دلائل الإلهيات، وهي الأجرام الفلكية، ثم أردف ذلك بالإنسان، ثم الحيوان، ثم النبات، ثم أحوال البحر والأرض، ثم عاد إلى تقرير دلائل الإلهيات، فبدأ بذكر الفلكيات، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[1].

التفسير والبيان:

بعد أن جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها، كذلك أخبر أنه يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾.

أي إنه تعالى خلق السماء على وجه ينزل منه الماء، الذي يكون سبباً لحياة الأرض بإنبات الزرع والشجر والثمر، بعد أن كانت الأرض ميتة لا حياة فيها ولا ثمر ولا نفع.

إن في ذلك لآية واضحة ودليلاً قاطعاً على وحدانية الله تعالى وعلمه وقدرته لمن يفهمون الكلام ويدركون معناه، بسماع التدبر والإمعان، لا بمجرد سماع الآذان. فهذا دليل حسي على توحيد الإله، وتخصيصه بالعبادة، وإفراده بالألوهية.

وهناك دليل آخر على قدرة الله الباهرة، وهو إخراج اللبن من الضرع، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي وإن لكم أيها الناس لعظة وعبرة دالة على قدرتنا ورحمتنا ولطفنا في الأنعام التي هي الإبل والبقر والغنم، فإننا نسقيكم مما يخرج من بطونها من اللبن الخالص من الشوائب، السائغ شربه في الحلق، فلا يغص به أحد، اللذيذ طعمه، السهل هضمه، الذي يخلقه الله لبناً خالصاً وسيطاً بين الفرث (وهو الزبل الذي ينزل إلى الكَرِش) والدم المحيطين

(١) تفسير الرازي: ٢٠/ ٦٣

به، أي يتخلص اللبن بياضه وطعمه وحلاوته في باطن الحيوان من بين خلاصة المأكول في الكرش والأمعاء، والدم في العروق، فإذا هضم الغذاء في المعدة صرف من عصارته دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير أو يتأثر به. وذلك دليل القدرة الإلهية والحكمة البالغة.

وذكّر ضمير ﴿بُطُونِهِۦ﴾ مراعاة للفظ ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ فهو لفظ مفرد وضع لإفادة الجمع، كالرهط والقوم والبقر والغنم، فقد يراعى اللفظ فيكون ضميره التذكير، وقد يراعى المعنى فيكون ضميره ضمير الجمع وهو التأنيث.

وهناك دليل آخر وهو ما يتخذ من أشربة من ثمرات النخيل والأعناب وهي بعض منافع النبات المذكورة عقب بيان بعض منافع الحيوانات في الآية المتقدمة، فقال سبحانه: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ أي ولكم أيضاً عبرة وعظة فيما تشربونه من أشربة متنوعة من ثمرات النخيل والأعناب كالخل والدبْس والخمر أو النبيذ المسكر قبل تحريمه، وما تأكلونه من ثمار طازجة على طبيعتها. وهذا دليل على إباحة المسكر قبل تحريمه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾ أي إن في تلك الأشربة والمآكل لآية واضحة لقوم يستخدمون عقولهم في النظر والتأمل في الآيات. وذكر العقل هنا أمر مناسب؛ لأنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرمت المسكرات صيانة للعقول.

والتفاوت في الوصف بين «السكر والرزق الحسن» بوصف الرزق بالحسن في حال أكل الثمرة غير متخمرة دون السكر يؤذن بالتفرقة بينهما وبتقبيح المسكر، ويمهد لتحريم المسكرات، وهي أول آية نزلت تعرّض بالخمر أو المسكر، وقد روي أن النبي ﷺ قال عند نزول هذه الآية: «إن ربكم ليقدم في تحريم الخمر».

وهو دليل للجمهور غير أبي حنيفة على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل

والمتخذ من العنب، ومثله حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل، كما أوضحت السنة.

قال ابن عباس: السَّكَر: ما حُرِّم من ثمرتيهما (النخيل والعنب) والرزق الحسن: ما أُحلّ من ثمرتيهما، كالخل والرُّب (المربّة) والتمر والزبيب ونحو ذلك[١]. وفي رواية عن ابن عباس: السَّكَر: حرامه، والرزق الحسن: حلاله.

وهذا دليل آخر على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً بعد بيان أدلة إخراج الألبان من الأنعام، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب، وهو إخراج العسل من النحل، فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾.

أي وألهم[٢] ربك النحل وجعل في غريزتها وطبعها، وقرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها عقلاء البشر، فهي تعيش جماعات في الخلية، ويرأس كل خلية أكبرها جثة وهي الملكة أو اليعسوب، ومعها جماعة الذكور، وجماعة الإناث وهي الشغَّالات أو العاملات، وتعيش عيشة تعاونية في أدق نظام، وتقوم بامتصاص رحيق الأزهار، وإفرازه عسلاً وشمعاً.

وتقوم بما يلي:

أ - ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ أي ألهمها الله وأرشدها أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها، ومن الشجر، ومن عرائش الناس التي يصنعونها لها في البيوت والكروم، فتبني بيوتاً محكمة الإتقان، سداسية الأشكال، من

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٧٥

(٢) الإلهام: ما يخلقه الله تعالى في القلب ابتداء من غير سبب ظاهر، وهو من قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾. والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز، مثل كل جمع ليس بينه وبين واحده إلا الهاء.

أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض، ولا يوجد فيها خلل، تخزن في بعضها العسل، وفي بعضها الآخر الشمع لتربية صغار النحل.

وجعلها سداسية لمنع الفُرَج الخالية الضائعة فيما بينها. وإذا نفرت نحلة من وكرها ذهبت مع الجمعية إلى موضع آخر، فإذا أرادوا عودها ردوها إلى وكرها على ألحان الموسيقا والطبول. وكل ذلك دليل على مزيد الذكاء والكياسة.

٢ً - ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أي ثم امتصي من رحيق جميع الثمار ما تشائين، حلوة كانت أو مُرَّة أو بين ذلك. وهذا إذن أمر قدري تسخيري أن تأكل من كل الثمرات.

٣ً - ﴿فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًاۚ﴾ أي إذا أكلتِ من الثمار، فاسلكي الطرق التي ألهمك الله أن تسلكيها في عمل العسل، أو في طلب تلك الثمرات، والعودة بسلام إلى الخلايا.

وهي في أثناء بحثها عن الغذاء تنقل على أجنحتها من حيث لا تشعر لقاحات الأزهار من الذكر إلى الأنثى. وتلك مهام أودعها الله في غرائز النحل، ليست مجرد مصادفة أو طبيعة أو غريزة، وإنما هي جزء من رسالة الكائنات الحية التي تؤدي أدواراً في الكون، يعود نفعها في النهاية على الإنسان، فسبحان الله الخالق المالك القادر القاهر الميسر لكل شيء سبباً.

٤ً - ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾ أي يخرج من بطون النحل عسل مختلف الألوان، أبيض أو أصفر أو أحمر، فيه شفاء ونفع لكثير من أمراض الناس، ويدخل في تركيب العقاقير والأدوية. وقد وصفه الله بهذه الصفات الثلاث:

الأولى - كونه شراباً، إما أن يشرب وحده، أو تتخذ منه الأشربة.

الثانية - كونه مختلف الألوان من أحمر وأبيض وأصفر وغيرها.

الثالثة - كونه سبباً للشفاء في الجملة لكثير من الأمراض.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن أخي استطلق بطنه، فقال: «اسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً، قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله، ما زاده إلا استطلاقاً، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله، وكذب بطن أخيك، اذهب فاسقه عسلاً» فذهب، فسقاه عسلاً، فبرئ.

أوضح بعض الأطباء القدامى هذه الواقعة فقال: كان لدى هذا الرجل فضلات في المعدة، فلما سقاه عسلاً، وهو حار، تحللت فأسرعت في الاندفاع والخروج، فزاد إسهاله، فاعتقد الأعرابي أن هذا يضره، مع أنه كان مفيداً لأخيه، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع، ثم سقاه حتى ذهبت الفضلات الفاسدة كلها المضرة بالبدن، فاستمسك بطنه، وصلَح مزاجه، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده وإشارته عليه الصلاة والسلام(١).

وروى البخاري أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «الشفاء في ثلاثة: في شَرْطة مِحْجم، أو شَرْبة عسل، أو كَيَّة بنار، وأَنْهى أمَّتي عن الكَيّ». وروى ابن ماجه القزويني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفاءين: العسل والقرآن».

وذكر الأطباء المحدثون التركيب الكيماوي للعسل وهو ٢٥ - ٤٠ غلوكوز، و٣٠ - ٤٥ ليفيلوز، و١٥ - ٢٥ ماء. ويعطى مقوياً ومغذياً، وضدّ التسمم من المواد السامة كالزرنيخ والزئبق والذهب والمورفين، وضدّ تسمم الأمراض كالتسمم البولي بسبب أمراض الكبد، والاضطرابات المعدية

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٧٥

والمعوية، وتسمم الحميات كالتيفوئيد والتهاب الرئة والسحايا والحصبة، والذِّبْحة الصدرية، وحالات ضعف القلب واحتقان المخ والتهابات الكلى الحادة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إن في كل ما ذكر عن النحل لدلالة واضحة على وجود الله وقدرته لقوم يتفكرون في عجيب صنع الله وخلقه ورعايته الحكمة والمصلحة في ترتيب العالم.

فالنحل يختص بتلك العلوم والمعارف الدقيقة كبناء البيوت المسدسة، ويهتدي إلى أجزاء العسل من الأزهار وأطراف الشجر والأوراق، كما أنه يهتدي إلى جمع الأجزاء النافعة في جوّ الهواء الملقاة على أطراف الأشجار والأوراق.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدتنا الآيات إلى ما يأتي من بيان كمال القدرة وتعداد النعم الإلهية:

١ً - أنزل الله من السحاب مطراً يكون سبباً لإحياء الأرض بالنبات المختلف الأنواع بعد اليبس والجمود، وفي ذلك دلالة على البعث وعلى وحدانية الله تعالى؛ لأن معبود المشركين كما علموا لا يستطيع شيئاً، فتكون هذه الدلالة مفيدة لقوم يسمعون عن الله تعالى سماع تدبر وإصغاء بالقلوب، لا بالآذان.

٢ً - إن في الأنعام وهي أصناف أربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز لدلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته، فهو يسقي الناس من ألبانها، وحدوث اللبن يدل على أمرين: وجود الصانع المختار سبحانه، وإمكان الحشر والنشر، لمرور الطعام بعدة مراحل من التحول والقلب من نبات وعشب، إلى دم، إلى لبن، فدهن وجبن، وذلك يدل على أنه تعالى قادر على قلب أجزاء أبدان الأموات إلى صفة الحياة والعقل كما كانت قبل ذلك.

و يخرج اللبن ويتولد مع ثلاثة أشياء في موضع واحد، فالفرث يكون في أسفل الكرش، والدم يكون في أعلاه، واللبن يكون في الوسط، وهذا دليل القدرة العظيمة والصنع الإلهي الدقيق.

واستنبط بعض العلماء من عود الضمير مذكَّراً، في قوله: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ إلى الأنعام أن لبن الفحل يفيد التحريم؛ لأنه جيء به مذكراً لأنه راجع إلى ذَكَر النعم، واللبن محسوب للذكر.

٣ً - في هذه الآية دليل على جوازالانتفاع بالألبان من الشرب وغيره، فأما لبن الميتة فلا يجوزالانتفاع به؛ لأنه مائع طاهر في وعاء نجس؛ لأن ضرع الميتة نجس، واللبن طاهر، فإذا حُلب صار مأخوذاً من وعاء نجس. وأما لبن المرأة الميتة فهو طاهر؛ لأن الإنسان طاهر حياً وميتاً، وقيل: إنه نجس لتنجسه بالموت.

٤ً - وفي هذه الآية أيضاً دليل على استعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها، ولا يقال: إن ذلك يناقض الزهد أو يباعده، ولكن إذا أخذ من غير سَرَف ولا إكثار.

٥ً - اللبن غذاء كامل يغذي الطفل مدة من الزمن وينمي الجسد، روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أُتي رسول الله ﷺ بلبن فشرب، فقال رسول الله ﷺ: «إذا أكل أحدكم طعاماً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وأطعمنا خيراً منه، وإذا سُقِي لبناً، فليقل: اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه، فإنه ليس شيء يُجزي عن الطعام والشراب إلا اللبن».

٦ً - ومن منافع النبات ما يدل أيضاً على القدرة الإلهية، فقد أخرج الله لنا من ثمرات النخيل والأعناب الرزق الحسن: وهو ما أحله من ثمرتيهما على الطبيعة، والسَّكَر هو النبيذ، وهذا قبل التحريم النهائي البات له، في رأي الجمهور، فالنبيذ (وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب

ثلثاه، ثم يترك حتى يشتد) حرام عندهم، لإسكاره، وقول النبي ﷺ فيما رواه العقيلي عن علي، والنسائي عن ابن عباس: «حرَّم الله الخمر بعينها والسَّكَر من غيرها» والصواب أنه موقوف على ابن عباس.

وهو حلال عند أبي حنيفة رحمه الله ما لم يصل إلى حد السُّكْر، محتجاً بهذه الآية الدالة على أن السَّكَر حلال؛ لأنه تعالى ذكره في معرض الإنعام والمنة، ولأن الحديث السابق دلَّ على أن الخمر حرام: «الخمر حرام لعينها» وهذا يقتضي أن يكون السَّكَر شيئاً غير الخمر، والمغايرة تقتضي أنه النبيذ المطبوخ. والحق أن الآية ليس فيها ما يدل على الحل؛ إذ الكلام في الامتنان بخلق الأشياء لمنافع الإنسان، ولم تنحصر المنافع في حل التناول.

وختْم الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على قدرة الله تعالى؛ لأن من كان عاقلاً، علم بالضرورة أو البداهة أن هذه الأحوال لا يقدر عليها إلا الله سبحانه وتعالى، مما يدل على وجود الإله القادر الحكيم.

٧ - كما أن إخراج الألبان من النعم، وإخراج السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب دلائل قاطعة على أن لهذا العالم إلهاً قادراً مختاراً حكيماً، فكذلك إخراج العسل من النحل دليل قاطع على إثبات هذا المقصود.

وفي النحل منافع كثيرة للأشجار والنباتات نفسها، وللإنسان أيضاً، وكذلك في العسل والشمع منافع للإنسان، فالعسل شفاء من كثير من الأمراض، والشمع للإضاءة وصناعات أخرى.

وذلك كله دليل على وجود الإله الصانع الملهم في اعتقاد كل من أعمل فكره، وتأمل ونظر في أعمال النحل وآثاره العجيبة.

بعض عجائب أحوال الناس الدالة على قدرة الله وتوحيده

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾

القراءات:

﴿وَبِنِعْمَتِ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ﴿شَيْـًٔا﴾ منصوب بـ ﴿عِلْمٍ﴾ على مذهب البصريين على إعمال الثاني؛ لأنه أقرب. وبـ ﴿يَعْلَمَ﴾ على مذهب الكوفيين، على إعمال الأول.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ جملة اسمية، في موضع نصب؛ لأنها وقعت جواباً للنفي، وقامت هذه الجملة الاسمية مقام جملة فعلية، وتقديره: فما الذين فضِّلوا برادّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم، فيَسْتَوُوا.

﴿رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا﴾ ﴿شَيْـًٔا﴾ إما بدل منصوب من ﴿رِزْقًا﴾ كأنه قال: ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم شيئاً، وإما منصوب برزق، أي أن يرزقَ شيئاً، والوجه الأول أوجه؛ لأن الرزق اسم، والاسم لا يعمل إلا شاذاً، ولأن البدل أبلغ في المعنى.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ الواو عائد إلى ضمير «ما» حملاً على المعنى.

البلاغة:

﴿عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾ ولم تكونوا شيئاً. ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم. ﴿أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ أردئه وأخسه، بسبب الهرم والخرف، قال عكرمة: من قرأ القرآن لم يصر بهذه الحالة. ﴿عَلِيمٌ﴾ بتدبير خلقه. ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يريده.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ﴾ أي فاوت بين أرزاقكم، فمنكم غني وفقير ومالك ومملوك. ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾ الأغنياء والسادة ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ أي بمعطي رزقهم من الأموال وغيرها لمماليكهم، وجاعليها شركة بينهم وبين مماليكهم. ﴿فَهُمْ﴾ أي المماليك والسادة (الموالي) ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾ شركاء. والمعنى: ليس لهم شركاء من مماليكهم في أموالهم، فكيف يجعلون بعض مماليك الله شركاء له. ﴿يَجْحَدُونَ﴾ يكفرون حيث يجعلون له شركاء. وقرئ (تجحدون).

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي جعلها لكم من جنسكم لتأنسوا بها، ولتكون أولادكم مثلكم. ﴿وَحَفَدَةً﴾ أي أولاد الأولاد جمع حفيد. ﴿مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من أنواع الثمار والحبوب والحيوان ونحوها من اللذائذ أو من الحلالات. ومن للتبعيض، فإن المرزوق في الدنيا أنموذج من الطيبات.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أي بالأصنام. ﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوا نعمه إلى الأصنام، بإشراكهم، أو حرموا ما أحلّ الله لهم. وتقديم الصلة على الفعل إما للاهتمام بها، أو للتخصيص مبالغة، أو للمحافظة على فواصل الآيات بالسجع.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي غيره. ﴿رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ﴾ بالمطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ بالنبات. ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ولا يقدرون على شيء، وهم الأصنام. ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ لا تجعلوا لله أشباهاً أو أمثالاً تشركونهم به، أو تقيسونهم عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ ألا مثل له، وفساد القياس الذي تقيسونه. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، ولو علمتم لما جرأتم عليه. وهو تعليل للنهي. أو أنه يعلم كنه الأشياء، وأنتم لا تعلمونه، فدعوا رأيكم دون نصه.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى عجائب أحوال الحيوانات، ذكر بعده بعض عجائب أحوال الناس، فذكر مراتب عمر الإنسان وهي أربعة: سن النشوء والنماء (الطفولة) وسن الشباب، وسن الكهولة، وسن الشيخوخة، وذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته.

ثم ذكر تفاوت الناس في أرزاقهم، كما قال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٢] وهي من قسمة الخلاق. ثم ذكر نعمة ثالثة ورابعة وهي جعل الأزواج من جنس الذكور، والرزق من الطيبات من نبات كالثمار والحبوب والأشربة، ومن حيوان مختلف الأنواع.

التفسير والبيان:

تستمر الآيات في تعداد مظاهر قدرة الله وعظمته وألوهيته ونعمه، وهي

متعلقة هنا بالإنسان، فيذكر تعالى مراحل نشوء الإنسان، وأنه هو سبحانه الذي أنشأ الناس من العدم، ثم بعد ذلك يتوفاهم، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم، وهو الضعف في الخلقة، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾.

أي والله أوجدكم يا بني آدم، ولم تكونوا شيئاً، ثم حدد لأعماركم آجالاً معينة، فمنكم من يتوفاه عند انقضاء آجالكم، ومنكم من يهرم ويصير في أرذل العمر وأسوئه وهو حال ضعف القوى والحواس والخرف، أو فقدها، وقلة الحفظ والعلم، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٣٠/ ٥٤] وقال سبحانه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٣٦/ ٦٨] وقال عز وجل﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٩٥/ ٤-٥].

وروى البخاري وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحْيا والممات» وفي حديث سعد بن أبي وقاص: «وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر». وروي عن علي رضي الله عنه: أرذل العمر: خمس وسبعون سنة. وهذا أمر غير مطرد، وربما كان هذا هو الغالب في الماضي.

﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ أي نرده إلى أرذل العمر، ليصبح غير عالم بشيء، وجاهلاً كما كان وقت الطفولة، ونسَّاء لضعف ذاكرته.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أي إن الله عليم بكل شيء، فيجعل الإنسان في حال من القوة والضعف على وفق الحكمة، وقادر على كل شيء، فلا يعجزه شيء أبداً.

هذا شأن تفاوت الناس في الأعمار، أردفه ببيان تفاوتهم في الأرزاق فقال

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ﴾ أي إن الله تعالى جعلكم متفاوتين في الأرزاق، فهناك الغني والفقير والمتوسط لحكمة اقتضتها ظروف المعيشة، والمصلحة للإنسان نفسه، وليتخذ بعضكم بعضاً سُخرياً.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ أي فما الذين فضِّلوا بالرزق وهم السادة الملاك أو الموالي بجاعلي أرزاقهم شركة على قدم المساواة بينهم وبين مماليكهم.

وهذا مثل ضربه الله للعبرة، مفاده أنه إذا كنتم لم ترضوا بهذه المساواة بينكم وبين خدمكم، وهم أمثالكم في الإنسانية، فكيف تسوون بين الخالق والمخلوق، وبينه وبين هذه الأصنام، وتشركون به ما لا يليق به من عبيده ومخلوقاته؟

ويوضح المثل آية أخرى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ [الروم: ٣٠/٢٨].

﴿أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أي أتشركون بالله بعبادتكم الأصنام، فتجحدون بنعمة الله عليكم؟ لأن من أثبت شريكاً لله، فقد نسب إليه بعض النعم والخيرات، فكان جاحداً لكونها من عند الله تعالى. أو أتجحدون بنعمة الله عليكم بعد تقرير هذه البيانات وإيضاح هذه الدلالات على وحدانية الله، والتي يفهمها كل عاقل؟! فهذا إنكار على المشركين جحودهم نعم الله عليهم.

ومن جليل نعمه تعالى على عباده أمور أخرى منها: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي والله جعل لكم أيها العبيد المخلوقون لله أزواجاً من جنسكم وشكلكم لتحقيق الأنس والانسجام والائتلاف وقضاء المصالح، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، فمن رحمته جعل الذكور والإناث من جنس واحد.

ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والْحَفَدة، أي أولاد البنين.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ أي ورزقكم من طيبات الرزق التي تستطيبونها في الدنيا، من مطعم ومشرب وملبس ومسكن ومركب.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾؟ أي أيصدقون بالباطل وهو أن الأصنام شركاء لله في النفع والضرر، وأنها تشفع عنده، وأن الطيبات التي أحلها الله لهم كالبحيرة والسائبة والوصيلة هي حرام عليهم، وأن المحرمات التي حرمها الله عليهم كالميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح على النُّصُب هي حلال لهم؟

وهذا توبيخ وتأنيب لهم على تلك الأحكام الباطلة، وعلى إنعام الله في تحليل الطيبات، وتحريم الخبيثات.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي ويجحدون بهذه النعم الجليلة، فينسبونها إلى غير الخالق من صنم أو وثن؟! ويسترون نعم الله عليهم. جاء في الحديث الصحيح: «إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه: ألم أُزوجْك؟ ألم أُكرمْك؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل، وأذرُك ترأس وتربع؟».

ثم أخبر الله تعالى عن المشركين الذين عبدوا معه غيره، مع أنه هو المنعم المتفضل الخالق الرازق وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون من دونه من الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً، فقال:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون بالله ما لا يستطيع تقديم الأرزاق لهم من السماء والأرض، فلا يقدر على إنزال المطر، ولا إنبات الزرع والشجر، بل ولا يملكون ذلك لأنفسهم، فليس لهم الإمداد بالرزق لأنفسهم ولغيرهم، ولا يقدرون عليه، لو أرادوه.

وفائدة قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نفي الملك وتحصيل الملك، فمن لا يملك

شيئاً قد يكون مستطيعاً أن يتملكه بطريق ما، فأبان تعالى أن هذه الأصنام لا تملك، وليس في استطاعتها أيضاً تحصيل الملك[١]. وجمع ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالواو والنون المختص بأولي العلم اعتباراً لما يعتقدون فيها أنها آلهة.

ونتيجة ما ذكر: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً، ولا تشبهوه بخلقه، قال ابن عباس - فيما رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم في هذه الآية -: أي لا تجعلوا معي إلهاً غيري، فإنه لا إله غيري.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إن الله يعلم ويشهد أنه لا إله إلا هو، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره. وإن الله تعالى يعلم ما عليكم من العقاب الشديد، بسبب عبادة هذه الأصنام، فاتركوا عبادتها، وأنتم لا تعلمون ذلك، ولو علمتموه لتركتم عبادتها. وهذا تهديد شديد على عظم جرمهم وكفرهم ومعاصيهم، وردّ على عبدة الأصنام.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يلي:

أ - إن الله تعالى هو المتصرف في شؤون الإنسان من حياة أو موت، فهو خَلَقه وهو يتوفاه في أجل معين، وهو الذي يحميه من الأمراض، أو يرده إلى أرذل العمر حال الكبر يعني أرذأه وأوضعه، وهو الخرف ونقص القوة والعقل وسوء الحفظ وقلة العلم، فيصبح كالصبي الذي لا عقل له، ولا يعلم ما كان يعلم قبلُ من الأمور لفرط الكبر. ودلت الآية أيضاً على تفاوت الناس في الأعمار. وهذا دليل على وجود إله عالم فاعل مختار، وعلى صحة البعث والقيامة؛ لأن الانتقال من العدم إلى الوجود كالعودة إلى الوجود مرة أخرى.

(١) تفسير الرازي: ٢٠/ ٨٢

٢ً - لله تعالى الحكمة البالغة في قسمة الأرزاق بين العباد، فجعل منهم الغني والفقير والمتوسط، ليتكامل الكون، ويتعايش الناس، ويخدم بعضهم بعضاً، ويحجب عن الإنسان انزلاقه في المعاصي، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشورى: ٢٧/٤٢] فالآية دليل على أن التفاوت في الأرزاق كالتفاوت في الأعمار.

ورتَّب الله على هذا التفاوت في الأرزاق نتيجة منطقية تمس الاعتقاد في مثل ضربه الله لعبدة الأصنام وهو: إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء، فكيف تجعلون عبيدي معي سواء؟ فلما لم يجيزوا لأنفسهم أن يشركهم عبيدهم في أموالهم، لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعالى في عبادة غيره من الأوثان وغيرها مما عُبد، كالملائكة والأنبياء، وهم عبيده وخلقه.

والتفاوت ليس مختصاً بالمال، بل هو حاصل في الذكاء والبلادة والحسن والقبح والعقل والحمق والصحة والسقم والاسم الحسن والقبيح.

٣ً - من نعم الله على عباده جعل الزوجات من جنس الأزواج وشكلهم، وفي هذا ردّ على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوَّج الجن وتباضعها.

ومن نعمه سبحانه إنجاب الذرية من بنين وبنات وحفدة (أولاد البنين). ومن نعمه رزق الطيبات من الثمار والحبوب والحيوان وغير ذلك.

والآية تومئ إلى ضرورة التعاون بين الأزواج والبنين والحفدة؛ لأنهم أسرة واحدة. ومن السنة النبوية أن الرجل يعين زوجته؛ روت عائشة أن النبي ﷺ كان يكون في مِهْنة أهله، فإذا سمع الأذان خرج. ومن أخلاق النبي ﷺ: أنه كان يخصِف النعل، ويقُمُّ البيت، ويخيط الثوب.

ومن قدر على نفقة خادمة واحدة أو أكثر فعل، على قدر الثروة والمنزلة.

وهذا أمر متروك للعرف، فنساء الريف والأعراب والبادية يخدمن أزواجهن، ونساء المدن يعينهن الزوج، أو يستأجر لهن الخادمة إذا كان من أهل الثروة.

٤ - من حماقة المشركين وجهالتهم أنهم يعبدون أصناماً لا تضر ولا تنفع ولا تشفع، فلا تملك إمداد غيرها ولا أنفسها بالرزق من إنزال المطر وإنبات النبات، ولا يقدرون أي الأصنام على شيء، فلا تشبهوا بالله هذه الجمادات؛ لأنه واحد قادر لا مثل له.

مثلان للأصنام والأوثان

﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُۥنَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

القراءات:

﴿صِرَٰطٍ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿عَبْدًا﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾. ﴿مَّمْلُوكًا﴾ صفة قيد بها العبد للتمييز من الحر، فإنه أيضاً عبد لله.

﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾: رزق: فعل يتعدى إلى مفعولين، الأول منهما الهاء في ﴿رَّزَقْنَٰهُ﴾ والثاني: ﴿رِزْقًا﴾ وهذا ليس مصدراً؛ لأنه قال:

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ والإنفاق إنما يكون من الأعيان لا الأحداث.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ جمع الضمير في الفعل ولم يقل: يستويان، لمكان ﴿وَمَن﴾ لأنه اسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث؛ ولأنه للجنسين، فإن المعنى: هل يستوي الأحرار والعبيد؟

﴿رَّجُلَيْنِ﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾.

البلاغة:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ﴾ فيها استعارة تمثيلية، مثّل فيها الوثن بالأبكم الذي لا ينتفع به بشيء، كما مثله في الآية المتقدمة بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً.

﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿مَّمْلُوكًا﴾ صفة تميزه من الحر، فإنه أيضاً عبد لله. ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من التصرف مطلقاً لعدم ملكه. ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ﴾ ﴿وَمَن﴾ نكرة موصوفة أي حراً، لتطابق كلمة ﴿عَبْدًا﴾. ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي يتصرف به كيف يشاء، والأول: مثل الأصنام، والثاني: مثله تعالى، والمعنى: مثّل ما يشرك به: بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومثّل نفسه: بالحر المالك الذي رزقه الله مالاً كثيراً، فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف يشاء، فالأول مقيد والثاني حر طليق. ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أي الجنسان وهما العبيد والأحرار، أي هل يستوي الأحرار والعبيد؟ لا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد له لا يستحقه غيره، فضلاً عن العبادة لأنه مصدر النعم كلها. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ أهل مكة. ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يصيرون إليه من العذاب، فيشركون.

﴿أَبْكَمُ﴾ الأبكم: الذي ولد أخرس. ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الصنائع أو التدابير؛ لأنه لا يَفْهم ولا يُفْهم. ﴿كَلٌّ﴾ ثقيل على وليه وقرابته. ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ ولي أمره. ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ﴾ يصرفه. ﴿لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾ بنُجح وكفاية مهم، وهذا مثل الكافر أو الأصنام. ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ﴾ الأبكم المذكور. ﴿وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ أي ومن هو ناطق نافع للناس حيث يأمر به ويحث عليه. ﴿صِرَٰطٍ﴾ طريق، وهذا هو المؤمن، أو الله تعالى، أي إن هذا تمثيل ثانٍ ضربه الله تعالى لنفسه وللأصنام، لإبطال المشاركة بينه وبينها، أو هو مثل للمؤمن والكافر.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، وفي قوله: ﴿رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ قال: نزلت في عثمان ومولى له كان يكره الإسلام ويأباه وينهاه عن الصدقة والمعروف، فنزلت فيهما.

وفي عبارة أخرى: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أُسَيْد بن أبي العاص، كان يكره الإسلام، وكان عثمان ينفق عليه، ويكفُله، ويكفيه المؤونة، وكان المولى ينهاه عن الصدقة والمعروف.

المناسبة:

بعد أن نهى الله تعالى عن ضرب الأمثال له؛ لأن الله يعلم كيف يضرب الأمثال، وأنتم لا تعلمون، علَّمهم كيف تضرب الأمثال، فقال: مثلكم في إشراككم بالله الأوثان مثل من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك قد رزقه الله مالاً، فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف شاء.

ومثلكم أيضاً في الإشراك مثل من سوَّى بين رجلين: أحدهما أبكم عاجز،

لا يقدر على تحصيل خير، وهو عبء ثقيل على سيده، والآخر ذو فهم ومنطق وكفاية وقدرة ورشد ينفع الناس بالحث على العدل.

هل من المعقول التسوية بين الاثنين؟!

أي كيف يسوى الجماد بالله تعالى في الألوهية والعبادة؟! أو كيف يسوى الكافر المخذول والمؤمن الموفق؟!

هذان مثلان موضحان بطلان عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تجيب.

التفسير والبيان:

بعد أن نهى الله تعالى عن الإشراك، أبان بالأمثال الواقعية فساد عبادة الأصنام، فذكر مثلين:

أولهما - ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ هذا مثل ضربه الله لحالة الأصنام بالمقارنة مع ذاته تعالى، فما مثلكم أيها المشركون في إشراككم بالله الأوثان والأصنام المعبودة التي لا تنفع ولا تضر، إلا كمثل من سوّى بين عبد مملوك لمالكه، عاجز عن التصرف، لا يقدر على شيء، وبين مالك حر التصرف في ملكه، ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كيف يريد، سراً وجهراً، فالأول - مثل الصنم العاجز، والثاني - مثل الإله القادر. وبما أنه لا يعقل بداهة التسوية بين الشخصين: العبد والحر، ولا يجهل الفرق بينهما إلا كل غبي، فكيف يسوى بين الإله القادر على الرزق والإنفاق، وبين هذه الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء أصلاً؟ وكيف يسوى بين الضار والنافع؟

لذا قال تعالى نتيجة لهذه المقارنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الحمد التام الكامل لله، والثناء الشامل لله، والشكر الجزيل لله المنعم بمختلف النعم، فهو وحده المستحق للحمد، لا تلك الأوثان، بل أكثر

أولئك الكفار التي يعبدونها لا يعلمون الحق فيتبعوه، ولا يعرفون المنعم الحقيقي بالنعم الجليلة فيخصوه بالتقديس والتنزيه، والعبادة، والحمد والشكر.

وثانيهما - هو أيضاً مثل الحق تعالى، ومثل الوثن. وهذا المثل يؤكد ما دل عليه المثل السابق على نحو أوضح، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾.

أي وضرب الله مثلاً لنفسه وللوثن أو الآلهة المعبودة من دونه، مثل رجلين: أحدهما - أبكم لا ينطق ولا يتكلم بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء يتعلق بنفسه أو بغيره، وهو مع هذا كَلٌّ أي عيال وكلفة على مولاه الذي يعوله، حيثما أرسله أو بعثه، لا يحقق مطلباً، ولا ينجح في مسعاه، ولا يأتي بخير قط؛ لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا مقال لديه، فلا يُفهَم عنه.

والثاني - رجل كامل المواهب والحواس، ينفع نفسه وغيره، يأمر بالعدل أي بالقسط، ويسير على منهج الحق والعدل، ويحكم بالعدل، فمقاله حق، وأفعاله وسيرته مستقيمة، وطريقه مستقيم ودينه قويم.

هل يستوي هذان الرجلان؟ الأول عديم النفع، والثاني كامل النفع، والأول كالصنم لا يسمع ولا ينطق، والثاني وهو المتصف بصفات الله الواحد القهار الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، ويأمرهم بالعدل، ويلتزم العدل في نفسه قضاء وحكماً.

وإذا كان هذان الرجلان لا يتساويان بداهة، فلا تساوي أصلاً بين الحق تعالى، وبين ما يزعمون أنه شريك له.

فقه الحياة أو الأحكام:

دل هذان المثلان على ضلالة المشركين وبطلان عبادة الأصنام؛ لأن شأن الإله المعبود أن يكون مالكاً قادراً على التصرف في الأشياء، وعلى نفع غيره

ممن يعبدونه، وعلى الأمر بالخير والعدل، والتزام منهج الاستقامة والقسط في سيرته وسلوكه.

والأصنام في المثل الأول فاقدة الملك، عاجزة عن التصرف هي مثل العبيد المملوكين للسادة الموالي. أما الأحرار الملاك الأغنياء كثيرو الإنفاق سراً وجهراً، فهم القادرون على التصرف. وبما أن العقل لا يجوِّز التسوية بين الحر والعبد في التعظيم والإجلال، مع تساويهما في الخلقة والصورة والبشرية، فكيف يجوز للعاقل أن يسوي بين الله القادر على الرزق والإفضال، وبين الأصنام التي لا تملك ولا تقدر على شيء أصلاً؟!

وهناك قول آخر: وهو أن هذا مثل للمؤمن والكافر، فالمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، فهو باعتبار حرمانه من عبودية الله وطاعته كالعبد الذليل الفقير العاجز. والمراد بقوله ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو المؤمن، فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فأبان تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى.

قال الرازي: والقول الأول أقرب؛ لأن الآية في إثبات التوحيد، وفي الرد على المشركين.

وهذا المثل منتظم مع ما ذكر قبله من بيان نِعَم الله على أولئك المشركين، وعدم توافر تلك النعم من آلهتهم.

وقد احتج الفقهاء بهذه الآية على أن العبد لا يملك شيئاً.

والأصنام في المثل الثاني لا تقدر على شيء، وأما الله فهو القادر على كل شيء، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى، وهل يستوي هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل، وهو على الصراط المستقيم؟! والآمر بالعدل يجب أن يكون موصوفاً بالنطق، وإلا لم يكن آمراً.

ويجب أن يكون قادراً؛ لأن الأمر مشعر بعلو الرتبة، وذلك لا يحصل إلا مع كونه قادراً. ويجب أن يكون عالماً حتى يمكنه التمييز بين العدل والجور، فدل وصفه بالعدل على وصفه بكونه قادراً عالماً.

أما الرجل الأول فوصفه بأربع صفات: الأبكم (الأخرس العيي)، ولا يقدر على شيء، وهو إشارة إلى العجز التام والنقصان الكامل، وكَلٌّ على مولاه (أي غليظ وثقيل على سيده)، وأينما يوجهه، أي يرسله، لا يأت بخير؛ لأنه عاجز لا يحسن التعبير ولا يفهم الكلام، فهل الموصوف بهذه الصفات الأربع يتساوى مع الموصوف بأضدادها، وهو الآمر غير الأبكم، والقادر غير العاجز الذي لا يقدر على شيء وأنه كَلٌّ على مولاه، والعالم غير الذي لا يأتي بخير.

علم الله الغيب وخلقه الإنسان والطير

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾

القراءات:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة، وخلف (ألم تروا).

الإعراب:

﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ قرئ بضم الهمزة على الأصل، وبكسرها على الاتباع لكسرة نون ﴿بُطُونِ﴾.

﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ إما منصوب على المصدر، أي لا تعلمون علماً، أو منصوب لأنه مفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ الذي هو بمعنى (تعرِفون) للاقتصار على مفعول واحد، والجملة حال.

البلاغة:

﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية:

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي علم ما غاب فيهما، وهو يختص بعلم الغيب، لا يعلمه غيره، وهو ما غاب فيهما عن العباد، بأن لم يكن محسوساً ولم يدل عليه محسوس، وقيل: يوم القيامة، فإن علمه غائب عن أهل السماوات والأرض .﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وقت القيامة، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان في ساعة ما، فيموت الخلق بصيحة واحدة .﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ اللمح: النظر بسرعة، ولمح البصر: رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها .﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ أو أمرها أقرب منه؛ لأنه بلفظ ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. والمعنى: ما أمر قيام القيامة في سرعته وسهولته إلا كلمح البصر ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ أي الأسماع. ﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ جمع فؤاد وهي القلوب .﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ كي تعرفوا ما أنعم الله عليكم طوراً بعد طور، فتشكروا وتؤمنوا.

﴿مُسَخَّرَٰتٖ﴾ مذللات للطيران .﴿فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ الفضاء بين السماء والأرض .﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ عند قبض أجنحتهن أو بسطها أن يقعن .﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ بقدرته .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ أي إن في تسخير الطير للطيران وتمكنها منه، وإمساكها في الهواء وخلق الجو لدلالات على الإله الواحد الخالق .﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفعون بها.

المناسبة:

بعد أن مثّل تعالى الأصنام أو الكفار بالأبكم العاجز، ومثّل نفسه بالآمر

بالعدل، وهو على صراط مستقيم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة، أردف ذلك ببيان كمال علمه وقدرته. أما كمال العلم فهو قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وأما كمال القدرة فهو قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾. ومن مظاهر كمال قدرته وحكمته: خلق الإنسان في أطواره المختلفة، وتمكين الطير من الطيران في الجو، وهذا وما يأتي بعده من دلائل التوحيد.

التفسير والبيان:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي عَلِم الله وحده غيب السماوات والأرض، والتعبير يفيد الحصر، معناه: أن العلم بالمغيبات ليس إلا لله، وهو مختص بعلم الغيب، فلا اطلاع لأحد على ذلك. إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء. وهذا إخبار عن كمال علم الله تعالى. ثم أخبر عن كمال قدرته وأنه إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ أي وما شأن الساعة (وهي الوقت الذي تقوم فيه القيامة) في سرعة المجيء إلا كطرف العين أو رجع البصر من أعلى الحدقة إلى أسفلها، أو هو أقرب من هذا وأسرع؛ لأن أمره فوري الحدوث والتنفيذ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ٢/١١٧ ومواضع أخرى] ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٣١/٢٨] . فالله تعالى قادر على إقامة القيامة في أسرع لحظة، ولما كان أسرع الأحوال والحوادث في عقولنا وأفكارنا هو لمح البصر، ذكره تقريباً للأذهان.

ونظير الآية: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٥٤/ ٥٠] أي فيكون ما يريد كطرف العين.

وخص قيام الساعة من بين المغيبات، لكثرة الجدل حوله، وإنكاره من كثير من الناس، فهي محط الأنظار، ومحل البحث والجدل بين المنكرين والموحِّدين.

والمقصود من الآية: أن شرع التحليل والتحريم إنما يحسن بمن يحيط بالعواقب والمصالح، وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بذلك، فلِمَ تتحكمون؟!

ثم ذكر تعالى دليل ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن الله قادر على كل شيء، ومن مشتملات قدرته: إقامة الساعة في أسرع من لمح البصر أو غمضة العين.

ثم ذكر بعض مظاهر قدرته تعالى ومنته على عباده، فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾ أي والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً، فالإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء، ثم زوده الله بالمعارف والعلوم، فرزقه عقلاً يفهم به الأشياء، ويميز به بين الخير والشر، وبين النفع والضرر، وهيأ له مفاتيح المعرفة من السمع الذي يسمع به الأصوات ويدركها، والبصر الذي يبصر به الأشخاص والأشياء والفؤادِ الذي يعي به الأمور، كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٣-٢٤].

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا نعم الله عليكم، باستعمال كل عضو فيما خلق من أجله، ولتتمكنوا من عبادة ربكم، وتطيعوه فيما أمركم.

وذلك كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عادَى لي ولياً، فقد بارزني بالحرب، وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها[1]، ولئن سألني لأُعطينّه،

(١) هذا من قبيل المجاز عن عون الله وتوفيقه ورضاه.

ولئن دعاني لأجيبنَّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءَته، ولا بد له منه».

أي إن العبد إذا أخلص الطاعة لله، صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا لله، ولا يبصر إلا لله، أي لما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعيناً بالله في ذلك كله[1].

ثم ذكر الله تعالى دليلاً آخر على كمال قدرته وحكمته فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ أي ألم ينظروا إلى الطير المذلل المسخر بين السماء والأرض، كيف جعله يطير بجناحيه في جو السماء، ما يمسكه عن الوقوع إلا الله عز وجل، فإنه لولا أنه تعالى خلق الطير خلقة يمكنه معها الطيران، وخلق الهواء أو الجو خلقة يمكن معها الطيران فيه، لما أمكن ذلك، فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويضمه مرة، كما يفعل السباح في الماء، وأوجد له الذيل ليساعده في الهبوط، وخلق الهواء، وجعل ثقله حاملاً الطير، ولولا ذلك لما كان الطيران ممكناً.

وقوله: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معناه أن جسم الطائر ثقيل، والجسم الثقيل لا يمكنه التحليق في الجو من غير دعامة تحته، فكان الممسك له في الجو هو الله تعالى، بوساطة الهواء.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في خلق جناحي الطير، وتسخير الهواء لحمله، لدلالات على قدرة الله ووحدانيته، لا للأصنام والأوثان، لمن يؤمن بالله. وخص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم المنتفعون بتلك الآيات، وإن كانت دلائل لكل العقلاء.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٧٩

ونظير الآية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [الملك: ٦٧/١٩] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً - إن علم الغيب في السماوات والأرض مختص بالله تعالى، لا يعلم به أحد، إلا من أطلعه الله عليه. وإذا كان الله هو المحيط بالغيب فهو الذي يشرع الحلال والحرام، لا المشركون الجاهلون، الذين لا يدركون عواقب الأمور، ولا يقدرون المصالح.

٢ً - إن قيام الساعة (أي حدوث وقت القيامة) في أسرع من لمح البصر دليل واضح على قدرة الله التامة، فهو سبحانه القدير على كل شيء، وهو الذي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾. قال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتي في لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيان بها؛ أي يقول للشيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

٣ً - إن من نعمه تعالى ومن مظاهر قدرته خلق الناس من بطون أمهاتهم، لا علم لهم بشيء، ثم تزويدهم بوسائل المعرفة والعلم، وهي السمع والأبصار والأفئدة، فبها يعلمون ويدركون. فالسمع لسماع الأوامر والنواهي، والأبصار لرؤية آثار صنع الله، والأفئدة للوصول بها إلى معرفة الله. وذلك كله لشكر نعم الله وإبصار آثار صنعته. والآية دليل على أن الإنسان خلق في مبدأ الفطرة خالياً عن معرفة الأشياء، ثم تأتي المعارف والعلوم بالتعلم بوساطة الحواس التي هي السمع والبصر.

٤ً - ومن مظاهر قدرة الله ووحدانيته جعل الطير قادرة على التحليق والطيران في الجو (وهو ما بين السماء والأرض) وهي مذللة لأمر الله تعالى،

وما يمسكها في حال القبض والبسط والاصطفاف إلا الله تعالى، وتلك علامات وعبر ودلالات على القدرة الإلهية، لقوم يؤمنون بالله وبما جاءت به رسله، فإنه لولا خلق الطير على وضع يمكنه الطيران، وخلق الجو على حالة يمكن الطيران فيه، لما أمكن ذلك.

بعض دلائل التوحيد وأنواع النعم والفضل الإلهي

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾

القراءات:

﴿بُيُوتِكُمْ﴾:

قرئ:

١- (بُيُوتكم) وهي قراءة ورش، وأبي عمرو، وحفص.

٢- (بِيُوتكم) وهي قراءة الباقين.

﴿ظَعْنِكُمْ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (ظَعَنِكم).

﴿بَأْسَكُمْ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً: (باسكم).

﴿نِعْمَتَ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

البلاغة:

﴿ظَعْنِكُمْ﴾ ﴿إِقَامَتِكُمْ﴾ ﴿يَعْرِفُونَ﴾ ﴿يُنكِرُونَهَا﴾ بين كل اثنين طباق.

﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ فيه إيجاز بالحذف، أي والبرد، حذف الثاني استغناء بالأول.

المفردات اللغوية:

﴿سَكَنًا﴾ أي مسكناً تسكنون فيه. ﴿بُيُوتًا﴾ كالخيام. ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ تجدونها خفيفة للحمل والنقل. ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ سفركم، والظعن بسكون العين أو فتحها: سير أهل البادية لطلب الماء والمرعى. ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ الغنم. ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ الإبل. ﴿وَأَشْعَارِهَآ﴾ المعز. ﴿أَثَٰثًا﴾ متاع البيوت، كالفرش والثياب وغيرها. وليس للأثاث واحد من لفظه ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ما يتمتع وينتفع به، وهو ما يُتّجر به. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إلى مدة من الزمان، فإنها لصلابتها تبقى مدة مديدة.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ﴾ من البيوت والشجر والغمام. ﴿ظِلَٰلًا﴾ جمع ظل: وهو ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها، للوقاية من حر الشمس. ﴿أَكْنَٰنًا﴾ جمع كِنّ: وهو ما يستكن فيه وهو الغار في الجبل والسرب أو النفق. ﴿سَرَٰبِيلَ﴾ جمع سِرْبال: وهو القميص من القطن والكتّان

والصوف وغيرها، وسرابيل الحرب: الدروع، والسربال يعم كل ما يلبس ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي والبرد .﴿بَأْسَكُمْ﴾ المراد هنا حربكم، أي تقيكم الطعن والضرب وهي الدروع. والبأس في الأصل: الشدة .﴿كَذَٰلِكَ﴾ كإتمام هذه النعم التي تقدمت .﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ في الدنيا، بخلق ما تحتاجون إليه .﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة وأمثالكم .﴿تُسْلِمُونَ﴾ توحدون الله، أي لعلكم تنظرون في نِعَم الله، فتؤمنون به، أو تنقادون لحكمه.

سبب النزول:

نزول الآية (٨٣):

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد: أن أعرابياً أتى النبي ﷺ، فسأله، فقرأ عليه: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ قال: نعم: ثم قرأ عليه كل ذلك، وهو يقول: نعم، حتى بلغ ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ فولّى الأعرابي، فأنزل الله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

المناسبة:

هذه باقة أخرى من فضائل الله ونعمه على بني آدم، ومن دلائل التوحيد، فبعد أن ذكر الله تعالى مامنّ به على الناس من خلْقهم وما خلق لهم من مدارك العلم، ذكر ما امتن به عليهم مما ينتفعون به في حياتهم، من أمور أخرى غير دوابهم، من بيوت السكن المبنية من الحجارة وغيرها، والخيام أو بيوت الشعر المصنوعة من جلود الأنعام، والأصواف والأوبار والأشعار التي تصنع منها الملابس والأثاث (المفروشات) والأمتعة التي يتجر بها ويعاش من أرباحها،

والحصون والقلاع والمعاقل في الجبال، والثياب الواقية من الحر والبرد، والدروع والجواشن[1] الحامية من السلاح في الحرب.

التفسير والبيان:

هذا امتنان آخر بما أنعم الله على عبيده بالإيواء في المساكن فقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ أي والله جعل لكم بيوتاً هي سكن لكم، تأوون إليها، وتستترون بها، وتنتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ﴾ أي وجعل لكم أيضاً من جلود الأنعام المعروفة بيوتاً أي من الأدم، في السفر والحضر، تستخفون حملها يوم سفركم وانتقالكم ويوم إقامتكم، وهي الخيام والقِباب، يخف حملها عليكم في الأسفار.

وجعل من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار المعز ما تتخذونه أثاثاً لبيوتكم، تكتسون به، وتنتفعون به في الغطاء والفراش، وجعل لكم منها متاعاً تتمتعون به من جملة الأموال والتجارات، إلى أجل مسمى وزمن معين في علم الله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويُتَّخذُ مالاً وتجارة، وهذا كله بحسب عرف العرب في الماضي، وإن تغير الحال اليوم. فالأثاث: متاع البيت من الفرش والأكسية.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا﴾ أي ومن نعمه تعالى أن جعل لكم من الأشجار والجبال وغيرها ظلالاً تستظلون بها من شدة حر الشمس، وشدة عصف الرياح.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ أي وجعل لكم من الجبال حصوناً ومعاقل ومغارات وكهوفاً ونحوها، تأمنون فيها من العدو أو حر الشمس أو البرد.

---

(١) الجواشن: جمع جَوْشن وهو الدرع.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ أي وجعل لكم ثياباً من القطن والكتّان والصوف ونحوها، تقيكم شدة الحر، أي والبرد، لكن ذكر الحر لحاجة العرب في بلادهم الحارة إلى اتقاء الحر، وما يقي الحر يقي البرد.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ أي وجعل لكم دروعاً من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك، تقيكم البأس والشدة في الحرب والطعن والضرب ورمي النبال، واليوم تقي شظايا القنابل.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم وحوائجكم، ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته، أو مثل ذلك الإتمام بهذه النعم، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم، ونعمة الدنيا والآخرة.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ يا أهل مكة، أي لتدخلوا في حظيرة الإسلام، وتؤمنوا بالله وحده، وتتركوا الشرك وعبادة الأوثان، فتدخلوا جنة ربكم، وتأمنوا عذابه وعقابه.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا﴾ أي فإن أعرضوا بعد هذا البيان، وتعداد النعم، فليس عليك شيء، إنما عليك فقط البلاغ لرسالتك، الموضح لمهمتك، المفسر لأصول الاعتقاد ومقاصد الدين، وأسرار التشريع، وقد أديت ذلك، أي إن أعرضوا فلست بقادر على إيجاد الإيمان في نفوسهم، إن عليك إلا البلاغ فحسب.

وسبب هذا الإعراض هو ما قاله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المنعم عليهم بهذه النعم، المتفضل بها عليهم، ومع هذا ينكرون ذلك بأفعالهم، ويعبدون معه غيره، ويسندون الرزق والنصر إلى غيره، إذ يقولون: إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعة هذه الأصنام، فلم يخصوه تعالى بالشكر والعبادة، بل شكروا غير الله تعالى.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي وأكثرهم الجاحدون المعاندون، وأقلهم المؤمنون الصادقون. وإنما قال ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنه كان فيهم من لم يكن معانداً، بل جاهلاً بصدق الرسول عليه الصلاة والسلام، وما ظهر له كونه نبياً حقاً من عند الله.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على طائفة من النعم التي أنعم الله بها على الناس وهي مايأتي:

١ً - الآية الأولى فيها تعداد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر بيوت المدُن أولاً، وهي للإقامة الطويلة، ثم ذكر بيوت البدو والأعراب والرعاة، وهي بيوت الأدَم وبيوت الشعر وبيوت الصوف.

٢ً - وفي الآية الأولى أيضاً أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز، وفي آية أخرى أذن في الأعظم من ذلك وهو ذبحها وأكل لحومها.

ولم يذكر القطن والكَتان؛ لأنه لم يكن في بلاد العرب المخاطبين به، وإنما عدّد عليهم ما أنعم به عليهم، وخوطبوا بما عرفوا وألفوا.

والآية بعمومها دلت على جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال، حتى إن المالكية والحنفية قالوا: صوف الميتة وشعرها طاهر يجوز الانتفاع به على كل حال، ويغسل مخافة أن يكون عَلِق به وسخ. ويؤيدهم حديث أم سلمة عن النبي ﷺ: «لا بأس بجلد الميتة إذا دُبغ، وصوفِها وشعرِها إذا غُسِل». وروى أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن عباس: «أيما إهاب دبغ فقد طَهُر».

وزاد أبو حنيفة فقال: القَرْن والسِّن والعظم مثل الشعر؛ لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها، فلا تنجس بموت الحيوان. وقال باقي الأئمة: إن ذلك نجس كاللحم.

وأجاز الزهري والليث بن سعد الانتفاع بجلود ميتة الأنعام، وإن لم تدبغ؛ لأن قوله تعالى: ﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ عام في جلد الحي والميت. وخالفهما جمهور العلماء في ذلك.

والظاهر من مذهب مالك: أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يُصلَّ عليه، ولا يؤكل فيه. وأكثر المدنيين وأكثر أهل الحجاز والعراق على إباحة ذلك وإجازته، للحديث المتقدم: «أيما إهاب دُبغ فقد طهر».

وذهب الإمام أحمد إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة في شيء، وإن دُبغت؛ لأنها كلحم الميتة، واحتج بحديث عبد الله بن عُكيم عند أبي داود: «ألاّ تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عصب». وخالفه بقية الأئمة لحديث شاة ميمونة: الذي رواه عنها أبو داود والنسائي «لو أخذتم إهابها؟ فقالوا: إنها ميتة، فقال: يطهرها الماءُ والقَرَظ».

والمشهور عند المالكية أن جلد الخنزير لا يدخل في الحديث، ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعي والأوزاعي وأبي ثور: لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه. أما جلد الكلب ومالا يؤكل لحمه فغير معهود الانتفاع به، فلا يطهر.

٣ً - دلت الآية الثانية على نعمة الظل والظلال: وهو كل ما يستظل به من البيوت والشجر، وعلى نعمة الأكنان جمع كِنّ: وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك، وهي المغاور والكهوف في الجبال، يأوي إليها الناس في البراري، ويتحصنون بها من الأمطار والسيول والأعاصير وغير ذلك.

ودلت أيضاً على نعمة السرابيل أي القمص، والدروع التي تقي الناس في الحرب.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ دليل على اتخاذ العباد عُدّة الجهاد، ليستعينوا بها على قتال الأعداء.

ودل آخر الآية: ﴿كَذَالِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ على إكمال نعم الله وأفضاله بإتمام نعمة الدين والدنيا والآخرة.

وكل هاتيك النعم لتكون سبباً للانقياد والطاعة لله عزَّ وجلّ، شكراً على نعمه.

٤ً - تشير الآية الثالثة إلى أن مهمة النبي ﷺ هي التبليغ، وأما الهداية فإلى الله، فإن أعرض الناس عن النظر والاستدلال والإيمان، فعليهم تبعة إعراضهم.

٥ً - الآية الرابعة صريحة في أن الكفار يعرفون أن النعم من عند الله، ولكنهم ينكرونها بقولهم: إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم، أو بوساطة شفاعة الأصنام. ويعرفون نبوة محمد ﷺ ثم يكذبونه، ويعرفون نعم الله بأقوالهم وينكرونها بأفعالهم، ولا يستعملونها في طلب رضوان الله تعالى.

وعيد المشركين وأحوالهم يوم القيامة بعث الشاهد عليهم وعلى المؤمنين وعدم تخفيف العذاب ومضاعفته عليهم وتكذيب المعبودات لهم

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

القراءات:

﴿لَا يُؤْذَنُ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (لا يُوذَن).

﴿وَجِئْنَا﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وجينا).

المفردات اللغوية:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ واذكر ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ جيل من الناس ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾ هو نبيهم يشهد لها وعليها بالإيمان والكفر يوم القيامة ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ

﴿كَفَرُوا﴾ في الاعتذار؛ إذ لا عذر لهم، أي إنهم يستأذنون فلا يُؤْذَن لهم ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم العتبى أي الرجوع إلى ما يرضي الله ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفروا ﴿ٱلْعَذَابَ﴾ النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ يمهلون ويؤخرون إذا رأوه.

﴿شُرَكَآءَهُمْ﴾ من الشياطين وغيرها الذين شاركوهم في الكفر بالحث عليه، أو أوثانهم التي دعوها ﴿نَدْعُوا مِن دُونِكَ﴾ نعبدهم أو نطيعهم، وهو اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك، أو التماس بأن يشطر عذابهم ﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي قالوا لهم ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي أجابوهم بالتكذيب في أنهم شركاء الله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٢٨/ ٦٣] ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ﴾ [مريم: ١٩/ ٨٢] ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام به.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ أي استسلموا لحكمه، بعد الاستكبار في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ غاب وضاع عنهم وبطل ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من أن آلهتهم ينصرونهم ويشفعون لهم، حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

﴿وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ومنعوا الناس عن دين الله وهو الإسلام، والحمل على الكفر ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾ لصدهم ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ المستحق بكفرهم ﴿يُفْسِدُونَ﴾ بصدهم الناس عن الإيمان.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ واذكر ﴿شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ هو نبيهم، فإن نبي كل أمة بعث منهم ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمد ﴿شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قومك أو أمتك ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ القرآن ﴿تِبْيَٰنًا﴾ بياناً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه الناس من أمر الشريعة ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ بالجنة ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ خاصة، وهم الموحدون الخاضعون لله.

المناسبة:

بعد أن أوضح الله تعالى حال المشركين الذين عرفوا نعمة الله ثم أنكروها، وأبان أن أكثرهم الكافرون، أتبعه بالوعيد، فذكر حالهم يوم القيامة وبعض مشاهدهم من شهادة نبيهم لهم أو عليهم، وعدم تخفيف العذاب عنهم ومضاعفته عليهم، وتكذيب المعبودات لهم أنهم شركاء لله، أو أنهم ما عبدوهم حقيقة، وإنما عبدوا أهواءهم.

ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من التهديدات المانعة من المعاصي: وهو إحضار شاهد على كل أمة، وأن النبي ﷺ شاهد على أمته، وأن من مزاياه بيان أحكام القرآن الذي هو هدى ورحمة وبشرى للمؤمنين بالجنان.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن شأن المشركين وأحوالهم يوم القيامة، فيقول: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

أي واذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهداً عليهم، وهو نبيهم يشهد عليهم بما أجابوه عما بلَّغهم عن الله تعالى، إما بالإيمان وإما بالكفر والعصيان، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤/٤١].

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثم لا يسمح للكفار بالاعتذار والدفاع عن أنفسهم، إذ لا حجة لهم، ولأنهم يعلمون كذبهم في الاعتذار، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٥-٣٦].

وإيراد ﴿ثُمَّ﴾ يدل على أن منعهم من الكلام والاعتذار أشد عليهم من شهادة نبيهم عليهم.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي ولا يطلب منهم العتاب؛ إذ لا فائدة في العتاب مع سخط الله وغضبه، فإن الرجل يطلب العتاب من خصمه إذا كان جازماً أنه إذا عاتبه، رجع إلى صالح العمل، والآخرة دار جزاء لا دار تكليف وعمل، ولا أمل في الرجوع إلى الدنيا.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي وإذا عاين الذين أشركوا وجحدوا نبوة الأنبياء العذاب، فلا ينجو منهم أحد، ولا يخفف عنهم من شدته ساعة واحدة، ولا يمهل عقابهم ولا يؤخر عنهم، بل يؤخذون بسرعة من الموقف بلا حساب؛ لأنه فات وقت التوبة والإنابة، وحان وقت الجزاء على الأعمال.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/١٢-١٤][(١)] وقوله سبحانه: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ١٨/٥٣].

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهة المشركين منهم في وقت أحوج ما يكونون إليها، وهذا من بقية وعيد المشركين، فقال: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾.

أي إذا شاهد المشركون بالله يوم القيامة شركاءهم الأصنام التي كانوا يعبدونها من دون الله في الدنيا، ألقوا تبعة شركهم عليها، وقالوا: هؤلاء شركاؤنا الذين كنا نعبدهم وندعوهم من دونك، قاصدين بذلك إحالة الذنب والإثم على هؤلاء الشركاء، وهو شأن المتخبط في عمله، كالغريق الذي يتمسك بما تقع يده عليه.

فرد الشركاء قائلين: ﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ أي قالت لهم الآلهة:

---

(١) الثبور: الهلاك.

كذبتم، ما نحن أمرناكم بعبادتنا، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٥-٦] وقوله: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم: ١٩/ ٨١-٨٢] .

﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ﴾ أي استسلم العابد والمعبود، وأقروا لله بالربوبية وبالبراءة عن الشركاء والأنداد، وذلوا واستسلموا لله جميعهم، فلا أحد إلا سامع مطيع، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٢] . وقال: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ﴾ [مريم: ١٩/ ٣٨] أي ما أسمعهم وما أبصرهم يومئذ. وقال: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ﴾ [طه: ٢٠/ ١١١] أي خضعت وذلت واستسلمت.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وذهب عنهم افتراؤهم بنسبة الشركاء لله، وأنها نصراء وشفعاء لهم، كما حكى تعالى عنهم: ﴿وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٠/ ١٨] وذلك حين كذبوهم وتبرؤوا منهم.

وبعد ذكر وعيد الذين كفروا الضالين، أتبعه بوعيد من ضم إلى كفره صد غيره عن سبيل الله، من الضالين المضلين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟﴾ أي الذين جحدوا النبوة وأشركوا بالله وكفروا بأنفسهم وحملوا غيرهم على الكفر، وصدوا عن سبيل الله، وهو الإيمان بالله ورسوله، يضاعف الله عقابهم، كما ضاعفوا كفرهم، فهم في الحقيقة ازدادوا كفراً على كفر، فاستحقوا عذابين: عذاب الكفر، وعذاب الإضلال والإفساد، والصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق والإسلام، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٦] أي ينهون الناس عن اتباع محمد، ويبتعدون هم منه أيضاً.

﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ أي هذه الزيادة من العذاب بسبب الإفساد والصد. وهذا دليل على أن من دعا غيره إلى الكفر والضلال، فقد عظم عذابه، فكذلك إذا دعا إلى الدين الحق واليقين، فقد عظم قدره عند الله تعالى.

والآية دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨/٧] .

ثم خصص الله تعالى بالذكر شهادة محمد ﷺ على أمته، وهو نوع آخر من التهديد المانع من المعاصي، فقال مخاطباً رسوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي واذكر أيها الرسول يوم نبعث في كل أمة (أي قرن وجماعة) نبيها يشهد عليها، قطعاً للحجة والمعذرة، وجئنا بك شاهداً على هؤلاء أي أمتك، بما أجابوك به عن رسالتك، فيظهر لك الشرف الرفيع والمقام العظيم.

وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صَدْر سورةِ النساء، فلما وصل إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤/٤١] فقال له رسول الله ﷺ: «حسبُك» فقال ابن مسعود رضي الله عنه: فالتفتُّ، فإذا عيناه تَذْرِفان.

ثم أبان الله تعالى بمناسبة بيان شهادة النبي على أمته أنه أزاح علتهم فيما كلفوا، فلم يبق لهم حجة ولا معذرة، فقال:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا﴾ أي ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبياناً لكل شيء من العلوم والمعارف الدينية، مما يحتاج إليه الناس في حياتهم، وهدى للضالين، ورحمة لمن صدّق به، وبشرى لمن أسلم لله وجهه، فأطاعه وأناب إليه، بجنان الخلد والثواب العظيم.

وبيان القرآن لأحكام التشريع حلاله وحرامه إما بالوحي نصاً ومعنى مباشرة، وإما بالوحي معنى وهو السنة التي فيها بيان آخر لمجمل القرآن، كما قال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٦/ ٤٤] وقال ﷺ فيما رواه أبو داود والترمذي عن المقدام بن مَعْدِيكَرِب: «إني أوتيت القرآن ومثله معه» ثم يأتي دور الاجتهاد في نطاق النصوص الشرعية، وفي ضوء مبادئ التشريع، وروح الشريعة العامة، وضمن مقاصدها وأهدافها العامة. والاجتهاد يشمل كل مصادر التشريع الأخرى غير النصية من إجماع وقياس واستصلاح واستحسان وعرف وسد ذريعة واستصحاب وغير ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً - كل نبي شاهد على أمته بما أجابوه عن دعوته، وليس في الآخرة مجال للاعتذار عن التقصير والدفاع عن النفس، ولا يكلف الكفارأن يرضوا ربهم يوم القيامة؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون فيرجعوا إلى الدنيا فيتوبوا.

٢ً - لا تخفيف لعذاب جهنم عن المشركين الظالمين، فيدخلون فيها، ولا يؤخرون ولا يمهلون، وإنما يؤخذون بسرعة من الموقف بلا نقاش في الحساب، إذ لا توبة لهم حينئذ.

٣ً - تتبرأ الآلهة المزعومة من عبادة عابديها، وتكذبهم بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فيُنطق الله الأصنام حتى تظهر عند ذلك فضيحة الكفار.

ويستسلم العابد والمعبود لحكم الله فيهم، ويبعث الله المعبودين من أصنام وأوثان وغيرها، فيتّبعهم العابدون حتى يُوردوهم النار. ورد في صحيح مسلم من حديث أنس: «من كان يعبد شيئاً فليتّبعْه، فيتّبع من كان يعبد الشمسَ

الشمسَ، ويتّبع من كان يعبد القمر القمرَ، ويتّبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيتَ» ورواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وفيه: «فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبُه، ولصاحب التصاوير تصاويرُه، ولصاحب النار نارُه، فيتّبعون ما كانوا يعبدون».

٤ً - للكفار الذين يصدون عن سبيل الله وهو سبيل الحق والإسلام عذاب مضاعف بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية. ونوع زيادة العذاب موضح في الحديث التالي، روى الحاكم والبيهقي عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن أهل النار إذا جَزِعوا من حرّها، استغاثوا بضحضاح في النار، فإذا أتَوْه، تلقّاهم عقارب كأنهم البغال الدُّهْم، وأفاعٍ كأنهن البَخَاتي[1] تضربهم، فذلك الزيادة».

٥ً - الأنبياء - كما ذكرنا - شهود على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوهم الرسالة، ودعوهم إلى الإيمان، وفي كل زمان شهيد، وإن لم يكن نبياً، وهم أئمة الهدى خلفاء الأنبياء والعلماء حفظة شرائع الأنبياء.

والنبي ﷺ شاهد على أمته والأمم الأخرى، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣] وقال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٢/ ٧٨] .

قال القرطبي: فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحِّد الله، كقُس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نُفيل الذي قال فيه النبي ﷺ: «يبعث أمةً وحده»

(١) البخاتي: جِمَال ضخام طوال الأعناق.

وسَطِيح[١]، وورقة بن نَوْفل الذي قال فيه النبي ﷺ: «رأيته ينغمس في أنهار الجنة». فهؤلاء ومن كان مثلهم حجة على أهل زمانهم، وشهيد عليهم[٢].

٦ً - القرآن الكريم تبيان لكل شيء من أصول التشريع والحلال والحرام، والشرائع والأحكام، ومبادئ الحياة الإنسانية، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٦/٣٨] .

وذلك يدل على أنه لا تكليف من الله تعالى إلا ماورد في هذا القرآن، أي إما جملة وتفصيلاً، وإما جملة فقط. أما الأدلة الأخرى كالإجماع وخبر الواحد والقياس، فقد دل القرآن الكريم ذاته على حجيتها، كما هو معروف في علم أصول الفقه. وكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبياناً لكل شيء، كما قال الزمخشري.

(١) سطيح: هو كاهن بني ذئب، كان يتكهن في الجاهلية، واسمه ربيع بن ربيعة.

(٢) تفسير القرطبي: ١٠/ ١٦٤

أجمع آية في القرآن للخير والشر والوفاء بالعهد والهداية والإضلال

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

القراءات:

﴿ تَذَكَّرُونَ ﴾:

قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة الباقين.

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ﴾:

قرئ:

١- (ولنجزين) وهي قراءة ابن كثير، وعاصم.

٢- (وليجزين) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿تَوۡكِيدِهَا﴾ مضاف إليه، وهو مصدر وكّد، ويقال: أكّد في وَكّد، والواو هي الأصل، والهمزة بدل منها كما كانت في «أَحَد» وأصلها «وَحَد».

﴿أَنكَٰثًا﴾ منصوب على المصدر، وعامله ﴿نَقَضَتۡ﴾ لأنه بمعنى: نكثت نكْثاً، أو حال. ﴿تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ حال من ضمير ﴿تَكُونُواْ﴾.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ في موضع نصب على تقدير: كراهة أن تكون أمة، أو لئلا تكون أمة. و﴿تَكُونَ﴾ تامة، و﴿أُمَّةٌ﴾ فاعلها. و﴿هِيَ أَرۡبَىٰ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في موضع رفع، صفة ﴿أُمَّةٍ﴾. وهاء ﴿بِهِۦ﴾ تعود على العهد، وقيل: التكاثر.

البلاغة:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ مقابلة حيث جمع بين الأمر بثلاثة، ونهى عن ثلاثة. وإيتاء ذي القربى خاص بعد عام للاهتمام به. ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا﴾ تشبيه تمثيلي، شبّه تعالى من يعاهد ثم ينقض عهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه.

﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا﴾ فيه استعارة القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه، لكون الثبات يكون عادة بالقدم، ثم شبه الانحراف عن الحق بزلل القدم، وهو تشبيه المعنوي بالانزلاق الحسي بطريق الاستعارة.

﴿يُضِلُّ﴾ ﴿وَيَهْدِى﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿يَنفَدُ﴾ ﴿بَاقٍ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ قال ابن عطية: العدل: فعل كل مفروض من عقائد وشرائع وسِيَر مع الناس في أداء الأمانات، وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق. والإحسان: فعل كل مندوب إليه[1].

وذكر البيضاوي أن العدل: التوسط في الأمور اعتقاداً، كالتوحيد المتوسط بين التعطيل والتشريك، والقول بالكسب المتوسط بين محض الجبر والقدر، وعملاً كالتعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة والترهب، وخلُقا كالجود المتوسط بين البخل والتبذير. والإحسان: إحسان الطاعات، وهو إما بحسب الكمية كالتطوع بالنوافل، أو بحسب الكيفية، كما قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الشيخان عن عمر: «الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».

والخلاصة: إن العدل: الإنصاف، والإحسان: إتقان الأعمال والتطوع بالزائد عن الفرائض، ومقابلة الخير بأفضل منه، والشر بأقل منه.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ إعطاء القرابة حقهم من الصلة والبر، وخص ذلك بالذكر اهتماماً به و﴿ٱلْفَحْشَآءِ﴾ كل قبيح قولاً أو فعلاً، ويشمل الزنى والسرقة وشرب المسكرات والطمع ونحو ذلك من المذموم ﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾ ما أنكره الشرع واستقبحه العقل السليم، كالكفر والمعاصي من الضرب الشديد والقتل وغمط حقوق الناس، ونحو ذلك ﴿وَٱلْبَغْىِ﴾ ظلم الناس، والاستعلاء عليهم وتجاوز الحد، وخصه بالذكر اهتماماً، كما بدأ بالفحشاء اهتماماً بها ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون.

---

(١) البحر المحيط: ٥/٥٢٩

جاء في المستدرك عن ابن مسعود: وهذه أجمع آية في القرآن للخير والشر. وكانت سبب إسلام عثمان بن مظعون رضي الله عنه، ولو لم يكن في القرآن غير هذه الآية، لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء وهدى ورحمة للمؤمنين.

﴿بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ العهد: كل ما يلتزمه الإنسان باختياره، ويدخل فيه الوعد والبيع والأيمان وغيرها ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ﴾ نقض اليمين: الحنث فيها، والأيمان هنا: مطلق الأيمان أو أيمان العهد ﴿تَوۡكِيدِهَا﴾ توثيقها ﴿كَفِيلًاۚ﴾ شاهداً ورقيباً بالوفاء، حيث حلفتم به، والجملة حال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ في نقض الأيمان أو العهود، وهو تهديد لهم.

﴿نَقَضَتۡ﴾ أفسدت أو فكت غزلها من بعد إبرام وإحكام ﴿غَزۡلَهَا﴾ ما غزلته من صوف ونحوه، وهو مصدر بمعنى المفعول ﴿مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ﴾ متعلق بنقضت، أي من بعد إحكام له وإبرام ﴿أَنكَٰثًا﴾ جمع نِكْث: وهو ما ينكث بمعنى منكوث وهو المنقوص، أي يحل فتله وينقض بعد غزله. وهي امرأة حمقاء من مكة، كانت تغزل طول يومها، ثم تنقضه .﴿تَتَّخِذُونَ﴾ أي لا تكونوا مثلها في اتخاذكم أيمانكم مكراً وخديعة ﴿دَخَلًا﴾ أي فساداً ومكراً وخديعة، وأصل الدَّخَل: ما يدخل في الشيء، وليس منه، والمراد أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض.

﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ﴾ أي لأن تكون جماعة ﴿هِيَ أَرۡبَىٰ﴾ أكثر وأوفر عدداً. والمناسبة: أنهم كانوا يحالفون الحلفاء، فإذا وجدوا أكثر منهم وأعز، نقضوا حلف أولئك، وحالفوهم.

﴿إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ﴾ يختبركم الله بما أمر به من الوفاء بالعهد، لينظر المطيع منكم والعاصي، أو يختبركم بكون أمة أربى، لينظر: أتفون بالعهود أم لا؟ ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ في الدنيا من أمر العهد وغيره، بأن يعذب الناكث ويثيب الوافي ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذه المشيئة مشيئة

اختيار على مذهب أهل السنة ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أهل دين واحد، متفقين على الإسلام ﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ أي إنه تعالى جعل ناساً للشقاوة أو الضلال وهم من لم يأخذوا بأسباب الهدى، وكان في سابق علم الله أنهم لو تركوا وأنفسهم لما فعلوا إلا الضلال والفساد والبهتان، وجعل ناساً آخرين للسعادة وهم من اهتدوا بآيات الله، وعلى هذا النحو خلق الضلال والهدى، أما الإضلال فبالخذلان لمن اختار الكفر، عدلاً، وأما الهداية فبالتوفيق لاختيار الإيمان والدوام عليه، فضلاً.

﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذا سؤال توبيخ وتبكيت يوم القيامة، لا سؤال تفهم، فهذا منفي في آيات آخرى، مثل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٣٩] .

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ كرره تأكيداً، وهو تصريح بالنهي عنه بعد التضمين، تأكيداً ومبالغة في قبح المنهي ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ﴾ أي أقدامكم عن محجة الإسلام، وإنما وحد ونكر للدلالة على أن زلل قدم واحدة عظيم، فكيف بأقدام كثيرة؟! ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ استقامتها عليه ﴿السُّوءَ﴾ العذاب في الدنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي بصدودكم عن الوفاء بالعهد، أو بصدكم غيركم عنه؛ لأنه يستن بكم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي ولا تستبدلوا بعهد الله وبيعة رسوله عرضاً يسيراً من الدنيا، بأن تنقضوه لأجله. والمناسبة: أن قريشاً كانوا يَعِدُون بوسائل الإغراء ضعاف المسلمين ويشترطون لهم على الارتداد أن يكافئوهم ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي إن ما عند الله من النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب في الآخرة هو خير لكم مما يعدونكم من عطاء في الدنيا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم والتمييز، وتعلمون ذلك، فلا تنقضوا. والخلاصة: إن هذه الآية تحذير من نقض أيمان مخصوصة، وهي

نقض عهد رسول الله على الإيمان به، واتباع شرائعه، طمعاً في خيرات الدنيا ومغرياتها.

﴿مَا عِندَكُمْ﴾ من أعراض الدنيا وأمتعتها ﴿يَنفَدُ﴾ يفنى أو ينقضي ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من خزائن رحمته ﴿بَاقٍ﴾ دائم لا ينفد ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ﴾ على الوفاء بالعهود وأذى الكفار ومشاق التكاليف ﴿أَجْرَهُم﴾ ثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بجزاء أحسن من أعمالهم، وقال السيوطي: أحسن بمعنى حسن هنا.

سبب النزول:

نزول الآية (٩١):

﴿وَأَوْفُواْ﴾: أخرج ابن جرير عن بُرَيْدة قال: نزلت هذه الآية في بيعة النبي ﷺ. وأخرج ابن جرير عن مَزْيَدة بن جابر أن الآية نزلت في بيعة النبي ﷺ، كان من أسلم يبايع على الإسلام، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الآية، فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه، وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام، وإن كان في المسلمين قلة، وفي المشركين كثرة.

نزول الآية (٩٢):

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن أبي حفص: كانت سعيدة الأسدية حمقاء، تجمع الشعر والليف، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾.

المناسبة:

بعد أن أفاض الله تعالى في وعد المتقين ووعيد الكافرين، وأكد الترغيب والترهيب، أتبعه بأوامر جامعة لأمهات الفضائل، وأصول الأخلاق

الاجتماعية، وأنواع التكاليف المفروضة والنوافل، وهي العدل والإحسان والوفاء بالعهود.

أما آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فهي - كما قال ابن مسعود - أجمع آية في القرآن للخير والشر، وسأذكرالحديث كله. وقال عنها قتادة: ليس من خُلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به، ويستحسنوه، إلا أمرالله به، وليس من خلق سيِّئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدّم فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامّها. ولهذا جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني وأبو نعيم والحاكم والبيهقي عن سهل بن سعد: «إن الله يحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها».

وقال الحافظ أبو يَعْلى في كتاب معرفة الصحابة عن علي بن عبد الملك بن عمير عن أبيه، قال: بلَغَ أكثم بن صَيْفي مَخْرجُ النبي ﷺ، فأراد أن يأتيه، فأبى قومه أن يَدَعوه، وقالوا: أنت كبيرنا، لم تكن لتخِفّ إليه، قال: فليأته من يبلّغه عني ويبلّغني عنه، فانتُدب رجلان، فأتيا النبي ﷺ فقالا له: نحن رسل أكثم بن صيفي، وهو يسألك من أنت، وما أنت؟ فقال النبي ﷺ: أما من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله.

قال: ثم تلا عليهم هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ الآية. قالوا: ردِّدْ علينا هذا القول، فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم، فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه، فوجدناه زاكي النسب، وسطاً في مضر - أي شريفاً - وقد رَمَى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعهن أكثم قال: إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن مَلائمها - مساوئها -، فكونوا في هذا الأمر رؤساء، ولا تكونوا فيه أذناباً[١].

(١) تفسير ابن كثير: ٥٨٢/٢ ومابعدها.

وقد ورد في نزولها حديث حسن طويل رواه الإمام أحمد، مفاده أنها كانت سبباً في إسلام عثمان بن مظعون، وموجزه: أن عثمان بن مظعون كان جليس النبي ﷺ وقتاً، فقال له عثمان: ما رأيتك تفعل فعلتك الغداة، قال: وما رأيتني فعلت؟ قال: شَخَص بصرك إلى السماء، ثم وضعته على يمينك، فتحرفت عني إليه، وتركتني، فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك، قال: أو فطنت لذلك؟ أتاني رسول الله آنفاً، وأنت جالس، قال: فماذا قال لك؟ قال لي: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ الآية قال عثمان: فذلك حين استقر الإيمان في قلبي، وأحببت محمداً ﷺ. ورواه ابن أبي حاتم من حديث عبد الحميد بن بهرام مختصراً.

وأخرج البخاري وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أعظم آية في كتاب الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥] . وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التي في النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾. وأكثر آية في كتاب الله تفويضاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٢-٣] . وأشد آية في كتاب الله رجاء: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٥٣] .

وعن عكرمة: أن النبي ﷺ قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية، فقال له: يا ابن أخي، أعِدْ علي، فأعادها عليه، فقال له الوليد: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لَمُغْدِق، وما هو بقول بشر.

وأخرج البيهقي في شُعَب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه: أنه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية، ثم قال: إن الله عز وجل جمع لكم الخير كله، والشر كله في آية واحدة، فوالله ما ترك العدل والإحسان من

طاعة الله تعالى إلا جمعه وأمر به، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه وزجر عنه.

التفسير والبيان:

هذه الآيات دعائم الحياة الإسلامية وركائز المجتمع الإسلامي، فالآية الأولى يأمر الله فيها عباده بالعدل والإنصاف بصفة مطلقة في كل شيء، في التّعامل، والقضاء والحكم، وشؤون الدِّين والدُّنيا، وسلوك الإنسان مع نفسه ومع غيره، بل وفي الاعتقاد، فلا يعبد بحقٍّ وعدلٍ غير الله الخالق الرّازق النافع، والآلهة المزعومة من أصنام وأوثان وكواكب وملائكة وأنبياء وأولياء وزعماء لا تستحق شيئاً من العبادة والتقديس، قال ابن عباس في آية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾: شهادة أن لا إله إلا الله.

روى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القُرَظي أنه قال: دعاني عمر بن عبد العزيز فقال: صِفْ لي العدل، فقلت: بَخٍ، سألت عن أمر جسيم، كن لصغير النّاس أباً، ولكبيرهم ابناً، وللمثل منهم أخاً، وللنساء كذلك، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم، وعلى قدر أجسامهم، ولا تضربنّ لغضبك سوطاً واحداً، فتكون من العادين.

ويندب الله تعالى إلى الإحسان، والإحسان في العبادة: هو كما في حديث عمر في الصحيحين: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» والإحسان في الجزاء العقاب بالمثل واستيفاء الحق في القتل والجرح عن طريق القصاص (المعاملة بالمثل). والإحسان في وفاء الحقّ أو الدين: أداؤه من غير مماطلة، أو مع الزيادة غير المشروطة المتبرع بها.

وأفضل الإحسان وأعلاه الإحسان إلى المسيء، فقد أمر النّبي ﷺ به: «وأحسن إلى من أساء إليك تكن مسلماً». وقال عيسى بن مريم عليه السّلام: إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك.

وروى البخاري في تاريخه أن علي بن أبي طالب مرَّ بقوم يتحدَّثون، فقال: فيم أنتم؟ فقالوا: نتذاكر المروءة، فقال: أو ما كفاكم الله عزّ وجلّ ذاك في كتابه إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ فالعدل: الإنصاف، والإحسان: التّفضل، فما بقي بعد هذا؟

وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع: هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان: أن تكون سريرته أحسن من علانيته، والفحشاء والمنكر: أن تكون علانيته أحسن من سريرته.

ويأمر الله في هذه الآية بإيتاء ذي القربى أي بصلة الأرحام والأقارب، بالزيارة والمودة والعطاء والتّصدق عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ١٧/٢٦] ، وقد خصّه بالذّكر مع أنه داخل في الإحسان للاهتمام به والعناية بشأنه.

وبعد أن أمر تعالى بثلاثة نهى عن ثلاثة فقال: ﴿وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾، والفحشاء: الشيء المحرم كالزّنى والسّرقة وشرب المسكر وأخذ أموال النّاس بالباطل.

والمنكر: ما قبّحه الشّرع والعقل، وظهر من الفواحش من فاعلها، كالقتل والضرب بغير حق، وازدراء الناس وغمطهم حقوقهم، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٣] .

والبغي: ظلم النّاس والاعتداء عليهم؛ جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم عن أبي بكرة: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدُّنيا، مع ما يدّخر لصاحبه في الآخرة، من البغي، وقطيعة الرّحم».

والخلاصة: العدل: أداء الواجب، والإحسان: الزيادة فيه، والفحشاء والمنكر والبغي: تجاوز حدود الشّرع والعقل.

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشّر، لتتعظوا وتتذكروا وتعملوا بما فيه مرضاة الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس المراد منه التّرجي والتّمني، فإن ذلك محال على الله تعالى، فوجب أن يكون معناه: أنه تعالى يعظكم لإرادة أن تتذكّروا طاعته، وهو يدلّ على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل.

وبعد أن ذكر الله تعالى كل المأمورات والمنهيات في الآية الأولى على سبيل الإجمال، خصص بعضها بالذّكر، فبدأ بالأمر بالوفاء بالعهد، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ أي ووفّوا بالعهود والمواثيق، وحافظوا على الأيمان المؤكدة، وعهد الله: كل ما يجب الوفاء به، من تطبيق أحكام الإسلام، وكل عهد يلتزمه الإنسان باختياره، والوعد من العهد، كما قال ابن عباس.

ثم أكّد الله تعالى ضرورة الوفاء بالعهد بقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي واحذروا نقض العهود وأيمان البيعة على الإسلام بعد توثيقها باسم الله. وأكّد ووكّد لغتان فصيحتان. والمراد بالأيمان هنا: هي الدّاخلة في العهود والمواثيق، أي أيمان العهد أو الأحلاف المعقودة، لا الأيمان التي هي واردة على حثّ أو منع. روى أحمد ومسلم عن جبير بن مُطْعِم قال: قال رسول الله ﷺ: «لاحِلْف في الإسلام، وأيما حلف كان في الجاهلية، فإنه لا يزيده الإسلام إلا شدّة» يعني في نصرة الحق والقيام به، والمعنى: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التّمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وهذا مثل حلف الفضول الذي ذكره ابن إسحاق فقال: اجتمعت قبائل من قريش في دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه، فتعاقدوا وتعاهدوا ألا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه، حتى تُردَّ عليه مظلمته.

فسمَّت قريش ذلك الحِلْف حلف الفضول، أي حلف الفضائل. ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ أي شهيداً.

ثم جعل الله تعالى نفسه رقيباً على العهود لتأكيد احترامها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي إنه مطَّلع ومراقب كل ما تفعلونه في العهود، من البِرِّ بها أو النَّقض لها، ومحصٍ ذلك عليكم، ومجازيكم على أفعالكم، ثواباً ورضا في حال البر والوفاء، وعقاباً وسخطاً في حال النّقض والعبث والإخلال بأحكام المعاهدة. وهذا وعد للطائع، ووعيد وتهديد للمخالف الذي ينقض عهده بعد توكيده.

ثم أكّد الله تعالى حرمة العهد مرّة ثالثة فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ﴾ أي ولا تكونوا في نقض العهود والمواثيق كالتي نقضت غزلها بعد إبرامه. قال عبد الله بن كثير والسُّدِّي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكّة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه. واسمها: رَيْطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرَّة.

أو هو مثل لمن نقض عهده بعد توكيده كما قال مجاهد وغيره، فمن نقض العهد كان كمن نقض الغزل بعد فتله وإبرامه، فهو ليس من فعل العقلاء، وإنما في زمرة الحمقى. والأنكاث: الأنقاض.

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ أي تجعلون أيمانكم على الوفاء بالعهد خديعةً ومكراً وتغريراً بالطرف الآخر، من أجل أن تكون جماعة أقوى وأكثر عدداً وعُدّة من جماعة أخرى، بل عليكم الوفاء بالعهود والحفاظ عليها.

فقوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ معناه أنكم تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم، ليطمئنوا إليكم، فإذا أمكنكم الغدر بهم، غدرتم، فنهى الله عن ذلك، لينبِّه بالأدنى على الأعلى، أي إذا نهاكم عن الغدر في هذه الحالة، فلأن ينهى عنه مع التّمكن والقدرة بطريق الأولى. وأربى: أكثر. والمقصود: النّهي عن العود إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم.

ومن أمثلة الوفاء بالعهد: أن معاوية كان بينه وبين ملك الروم أمد، فسار معاوية إليهم في آخر الأجل، حتى إذا انقضى، وهو قريب من بلادهم، أغار عليهم، وهم غارّون - غافلون - لا يشعرون، فقال له عمرو بن عَنْبَسَة: الله أكبر يا معاوية، وفاء لا غدر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كان بينه وبين قوم أجل، فلا يُحِلنَّ عقدة حتى يُمضي أمَدَها» فرجع معاوية رضي الله عنه بالجيش.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ﴾ أي إنما يعاملكم معاملة المختبر، بأمره إياكم بالوفاء بالعهد، لينظر أتغترون بالكثرة والقلّة أم تراعون العهد؟!

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ﴾ أي وليبينن لكم ربّكم يوم القيامة ما كنتم تختلفون فيه، من أمر الإيمان والكفر، والوفاء بالعهد والنّقض، فيجازي كل عامل بعمله من خير أو شرّ، وهذا إنذار وتحذير من مخالفة ملّة الإسلام، التي من أهم أحكامها وجوب الوفاء بالعهد.

والله قادر على جمعهم على الإيمان وعلى الوفاء بالعهد، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي ولو شاء الله لجعل الناس على ملّة واحدة أو دين واحد، بمقتضى الفطرة والغريزة، فتصبحون كالملائكة مخلوقين على منهج الطاعة والانقياد لأمر الله تعالى، فلا اختلاف ولا تباغض ولا شحناء، وإنما وفاق بينكم.

ولكن حكمة الله اقتضت خلقكم متفاوتين في الكسب، كسب الإيمان والتزام الأحكام، مختارين الاعتقاد والعمل، فيضلّ من يشاء ممن سبق في علمه أنه سيختار الضّلال، ويهدي من يشاء ممن علم في الأزل أنه سيفعل الخير ويختار الإيمان.

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة سؤال حساب وجزاء، لا سؤال استفهام، عن جميع أعمالكم، فيجازيكم عليها خيراً أو شرّاً.

ونظير الآية كثير في القرآن، مثل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ﴾ [يونس: ١٠/٩٩] ، ومثل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ [هود: ١١/ ١١٨-١١٩] .

وبعد أن حذّر الله تعالى في الآية الأولى عن نقض العهود والأيمان على الإطلاق، حذّر في قوله: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾ عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها، وهي أيمان البيعة للنّبي ﷺ على الإسلام.

والمعنى: يحذر الله تعالى عباده وينهاهم عن اتّخاذ الأيمان دَخلاً، أي خديعةً ومكراً، تغرون بها الناس، لئلا تزل قدم في الضّلال بعد ثبوتها على الاستقامة والإيمان. وهذا مثل لمن كان على الاستقامة، فحاد عنها، وزلَّ عن طريق الهدى، بأيمان حانثة مشتملة على الصّدّ عن سبيل الله؛ لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده، ثم غدر به، لم يعد يثق بالدِّين، فانصدّ بسبب الغدر عن الدّخول في الإسلام.

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي وتذوقوا العذاب السَّيِّئ الشديد وهو القتل والأسر في الدنيا، بسبب صدِّكم عن سبيل الله؛ لأن الدخول في الدِّين، ثم الخروج منه، مشجع للآخرين بالبعد عن الإسلام.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي ولكم عقاب شديد في الآخرة، جزاء المخالفة والانضمام لفئة الأشقياء الضّالين.

أي إنكم إن نقضتم العهد وقعتم في مفاسد ثلاثة:

١ً - البعد عن منهج الاستقامة والنّأي عن طريق الهدى، بعد الثَّبات فيهما.

٢ً - تحمُّل سوء العذاب في الدُّنيا بالقتل والأسر وسلب الأموال وهجر الأوطان.

٣ - العقاب في الآخرة جزاء الإعراض عن جادّة الحقّ والإعراض عن أهله.

ثم حذّر الله تعالى من نقض العهد بالمعاوضات فقال: ﴿تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان المحلوفة بالله عرض الحياة الدُّنيا وزينتها، فإنها قليلة.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي لو خيرت للإنسان الدُّنيا بحذافيرها، لكان ما عند الله هو خير له، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به، وهو خير أيضاً من ذلك العَرَض القليل في الدُّنيا.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون التّفاوت بين خيرات الدُّنيا وبين خيرات الآخرة.

ووجه الخيرية: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ أي إن متاع الدُّنيا أو نعيمها ينقضي ويفرغ ويزول، وإن طال الأمد، وما عند الله من ثواب في الجنّة باقٍ خالد لا انقطاع ولا نفاد له، فإنه دائم لا يحول ولا يزول.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ أي والله لنجازي ونثيب الصابرين الذين صبروا على أذى المشركين وأحكام الإسلام التي تتضمن الوفاء بالعهود، بأحسن أعمالهم ونتجاوز عن سيئها، وهو ثواب عظيم، ووعد حسن بمغفرة السَّيئات.

فقه الحياة أو الأحكام:

حدّدت هذه الآيات دعائم المجتمع المسلم في الحياة الخاصة والعامة، للفرد والجماعة والدولة.

فأمرت الآية بأوامر ثلاثة، ونهت عن نواهٍ ثلاثة، تعتبر محاسن الأخلاق.

أما الأوامر: فهي التزام العدل، والإنصاف بأداء الواجبات والفرائض، وفعل الإحسان وهو الزيادة والتّفضل، أو النافلة المستحبة فوق الفرض والواجب، وإيتاء ذي القربى أي صلة الأقارب والأرحام. وإنما خصّ ذا القربى؛ لأن حقوقهم أوكد، وصلتهم أوجب.

قال ابن عطية: العدل: هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وتركُ الظلم والإنصاف، وإعطاء الحقّ. والإحسان: هو فعل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أنّ حدّ الإجزاء منه داخل في العدل، والتّكميلُ الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان.

وقسم ابن العربي العدل ثلاثة أقسام: عدل مع الله، وعدل مع النفس، وعدل مع الناس، فقال:

العدل بين العبد وبين ربّه: إيثار حقّه تعالى على حظّ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزّواجر والامتثال للأوامر.

وأما العدل بينه وبين نفسه: فمنعها مما فيه هلاكها؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ وعُزوب الأطماع عن الاتّباع، ولزوم القناعة في كل حال ومعنًى.

وأما العدل بينه وبين الْخَلْق: فبذل التّضحية، وترك الخيانة فيما قلّ وكثُر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه؛ ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، لا في سرّ ولا في عَلَن، والصَّبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى.

وأما النّواهي الثلاثة: فهي عن الفحشاء والمنكر والبغي. والفحشاء: الفحش، وهو كل قبيح من قول أو فعل كالزّنى والغيبة. والمنكر: ما أنكره

الشّرع بالنّهي عنه، وهو يعمّ جميع المعاصي والرّذائل والدّناءات على اختلاف أنواعها، وأخطرها الشّرك. والبغي: هو تجاوز الحدّ، كالْكِبْر والظّلم والحِقْد والتّعدِّي. وخصّ بالذّكر، بالرّغم من دخوله تحت المنكر، اهتماماً به؛ لشدّة ضرره. ومن معاني الحديث: «لا ذنب أسرع عقوبةً من بغي» «الباغي مصروع»، وقد وعد الله من بُغي عليه بالنّصر، وفي بعض الكتب المنزلة: لو بَغَى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دَكّاً.

وتضمّنت هذه الآية الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

والآية الثانية خصصت بالذّكر الأمر بالوفاء بالعهد، لخطورة العهود والمواثيق. وعهد الله: لفظ عام يشمل جميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أو صلة أو مواثقة في أمر موافق للديانة.

وأكَّدت الآية حرمة العهود والمواثيق بعدّة مؤكّدات: أولها النّهي عن نقضها حتى تنتهي مدّتها، بعد تشديدها وتغليظها، وإشهاد الله عليها. وإنما قال تعالى: ﴿بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا﴾ للتفرقة بين اليمين المؤكّدة بالعزم وبين لغو اليمين.

ثم مثَّل لنقضها بصورة المرأة الحمقاء التي تنقض غزلها أنقاضاً بعد إبرامه وفتله، ثم شنّع على النّاقضين باتِّخاذ الأيمان خديعةً ومكراً وغشّاً وتغريراً، ثم قبَّح البواعث والأهداف من الغدر ونقض العهد تأييداً لقوّة قبيلة كثيرة قوية، وتحلُّلاً من عهد القبيلة الضّعيفة القليلة العَدَد والعُدَد، فقال تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى، أو أكثر أموالاً، فتنقضون أيمانكم، إذا رأيتم الكثرة والسّعة في الدُّنيا لأعدائكم المشركين.

ثم نبَّه الله تعالى أن العهود ابتلاء واختبار، وأن الله تعالى سيبيِّن الحقائق يوم القيامة في الاختلاف من البعث وغيره.

ثم ذكر تعالى أنه قادر على جعل الناس على ملّة واحدة هي ملّة الإيمان، والاجتماع على الوفاء بالعهود.

ولكنه تعالى يوفق بهدايته من يشاء فضلاً منه عليهم، ويضلّ من يشاء بخذلانه إياهم لاختيارهم سبيل الضّلال، عدلاً منه فيهم، وسيسأل الجميع عن أفعالهم.

ثم بالغ تعالى في النّهي عن عقد الأيمان والعهود المنطوية على الخديعة والفساد، فتزلّ قدم بعد ثبوتها، أي عن الإيمان بعد المعرفة بالله، وهذا استعارة لمستقيم الحال، الذي لا يوفي بالعهد، فيقع في شرّ عظيم.

ثم توعّد تعالى المخادعين في الأيمان والعهود بعذاب في الدُّنيا، وعذاب عظيم في الآخرة. وهذا الوعيد الشديد فيمن نقض عهد رسول الله ﷺ؛ فإن من عاهده، ثم نقض عهده، خرج عن الإيمان، وذاق السّوء في الدُّنيا: وهو ما يحلّ بهم من المكروه.

ثم حذّر الله تعالى من المتاجرة بالأيمان والعهود، فنهى عن الرّشاوى وأخذ الأموال على نقض العهد، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي لا تنقضوا عهودكم لعَرَض قليل من الدُّنيا، وإنما كان قليلاً وإن كثر؛ لأنه مما يزول، فهو إذن قليل.

ثم بيَّن تعالى الفرق بين حال الدُّنيا وحال الآخرة، بأن كل ما في الدُّنيا ينفد ويتحوّل، وما في الآخرة وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته لا يزول، لمن وفَّى بالعهد، وثبت على العقد.

وختم ما ذكر بأن الله سبحانه يجزي الصابرين على الإسلام والطاعات ومنها الوفاء بالعهد، وعن المعاصي، أجرهم على الطاعات، ويتجاوز عن السَّيئات، وهذا هو المراد من الجزاء على أحسن أعمالهم.

كل هذه الأوامر والنّواهي والمؤكّدات والوعود والمواعيد والتّهديدات والجزاءات من أجل الحفاظ على المعاهدات والعهود والمواثيق، وعدم الإخلال بأحكامها وشروطها ومشتملاتها.

أجمع آية للرجال والنساء في الترغيب بالعمل الصالح

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾

الإعراب:

قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ﴾ ثم قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ لأن ﴿مِّن﴾ يصلح للواحد والجمع، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى.

المفردات اللغوية:

﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيّن النوعين دفعاً للتخصيص. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ قيد في قبول العمل؛ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة في استحقاق الثواب، وإنما يتوقع عليها تخفيف العقاب. ﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدنيا: يعيش عيشاً طيباً لا قلق فيه ولا ضجر، فهو إن كان موسراً لم يصرفه الحرص والطمع عن واجبات الدين، وإن كان معسراً طيّب عيشه بالقناعة والرضا بالقسمة والرزق الحلال. وقيل: ذلك في الآخرة وهي حياة الجنة. ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الطاعة.

المناسبة:

هذه الآية ترغيب للرجل والمرأة في أداء الطاعات والفرائض الدينية، فبعد أن رغّب الله تعالى المؤمنين في القسم الأول وهو الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام بقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟﴾ بأن يجزيهم على أحسن

أعمالهم التي تشمل المباحات والمندوبات والواجبات، ويثيبهم على ما عدا المباحات، رغَّب المؤمنين في القسم الثاني وهو الإتيان بكل ما كان من شرائع الإسلام.

التفسير والبيان:

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً، فمن عمل صالح الأعمال، من ذكر أو أنثى، وهي الأعمال المطابقة لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فأدى الفرائض، وكان قلبه مؤمناً بالله ورسوله، فله حياة طيبة في الدنيا، وجزاء بأحسن ما عمله في الدار الآخرة.

والحياة الطيبة: تشمل وجوه الراحة المختلفة، وفسرها ابن عباس وجماعة بالرزق الحلال الطيب، أو السعادة، أو العمل بالطاعة والانشراح بها، أو القناعة، والصحيح - كما قال ابن كثير -: أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله، كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزق كفافاً، وقنَّعه الله بما آتاه» ورواه مسلم من حديث عبد الله بن يزيد المقري.

وروى الترمذي والنسائي عن فَضَالة بن عُبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قد أفلح من هُدي للإسلام، وكان عيشه كَفافاً، وقنِع به».

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يُعطى بها في الدنيا، ويثاب عليها في الآخرة. وأما الكافر فيُطعم بحسناته في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة، لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول: «اللهم قنِّعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف علي كل غائبة لي بخير».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية بوضوح أن إفادة العمل الصالح للحياة الطيبة مشروط بالإيمان. أما إفادته تخفيف العقاب فإنه لا يتوقف على الإيمان.

والحياة الطيبة ذكر فيها خمسة أقوال أصحها أنها تشمل كل مناحي السعادة في الدنيا من الصحة والرزق الحلال الطيب، والطمأنينة النفسية وراحة البال، والتوفيق إلى الطاعات، فإنها تؤدي إلى رضوان الله تعالى.

ما يتعلق بالقرآن

الاستعاذة والنسخ وعربية القرآن

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

القراءات:

﴿قَرَأْتَ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (قرات).

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً: (القران).

﴿بِمَا يُنَزِّلُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: (بما يُنْزِل).

﴿ٱلْقُدُسِ﴾:

وقرأ ابن كثير (القُدْس).

﴿يُلْحِدُونَ﴾:

١- (يَلحَدون) من «لحد» الثلاثي، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (يُلحِدون) من «ألحد» ولحد، وألحد: بمعنى، وهي قراءة الباقين.

﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (لا يهديهُمُ).

الإعراب:

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ﴾ هاء (سلطانه) تعود على الشيطان، وهاء ﴿بِهِۦ﴾ لله تعالى، وهو مما جاء في التنزيل من ضميرين مختلفين، مثل ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥/٤٧] أي سول الشيطان، وأملى الله تعالى، كقوله: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨/٣] وقيل: هاء ﴿بِهِۦ﴾ تعود على الشيطان أيضاً.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوفان على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي تثبيتاً وهداية وبشارة، فهما مفعولان لأجله.

البلاغة:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ مجاز مرسل من إطلاق المسبَّب على السبب، أي إذا أردت قراءة القرآن.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ جملة اعتراضية لبيان حكمة النسخ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب، وذكر اسم الله للمهابة.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ استعار اللسان للغة والكلام، والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة مثل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١٤/ ٤] .

﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ و﴿عَرَبِىٌّ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي أردت قراءته ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أي ألجأ إلى الله لحمايتي من وساوس الشيطان في القراءة، وذلك في كل ركعة للمصلي؛ لأن الحكم المترتب على شرط يتكرر بتكرره قياساً. ﴿سُلْطَٰنٌ﴾ تسلط وقوة واستيلاء. ﴿يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾ بطاعته، يقال: توليته: أطعته، وتوليت عنه: أعرضت. ﴿هُم بِهِۦ﴾ بالله. ﴿بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ بنسخها أو رفعها وإنزال غيرها، لمصلحة العباد. ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ أي قال الكفار للنبي ﷺ: إنما أنت كذاب، تقوله من عندك. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة القرآن وحكمة النسخ وتمييز الخطأ من الصواب. ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾ قل لهم يا محمد: ﴿نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ جبريل، وسمي بذلك؛ لأنه ينزل بالقدس أي بما يطهر النفوس. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلق بنزل، أي نزله ملتبساً بالحكمة المقتضية له. ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الإيمان بأنه كلامه، وإنهم إذا سمعوا الناسخ، وتدبروا ما فيه من رعاية

الصلاح والحكمة، رسخت عقائدهم، واطمأنت قلوبهم .﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحكمه، وفيه تعريض بحصول أضداد ذلك لغيرهم.

﴿وَلَقَدْ﴾ للتحقيق .﴿يُعَلِّمُهُ﴾ القرآن .﴿بَشَرٌ﴾ هو جبر الرومي، غلام عامر بن الحضرمي النصراني، كان قد قرأ التوراة والإنجيل، وكان حداداً، وكان النبي ﷺ يدخل عليه، ويجلس إليه إذا آذاه أهل مكة .﴿لِّسَانُ﴾ لغة وكلام .﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ يميلون إليه، ويشيرون أنه يعلمه .﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ في لسانه عجمة، سواء من العجم أو من العرب، وهو الذي لا يفصح عن مراده .﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ ذو بيان وفصاحة، فكيف يعلمه أعجمي. والجملتان مستأنفتان لإبطال طعنهم .﴿لَا يَهْدِيهِمُ﴾ لا يخلق الإيمان في قلوبهم، وهذا عام مخصوص فقد اهتدى قوم كفروا بآيات الله تعالى.

﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم في الآخرة .﴿يَفْتَرِى﴾ يختلق .﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ القرآن بقولهم: هذا من قول البشر؛ لأنهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا، أو إلى قريش .﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي الكاذبون على الحقيقة، أو الكاملون في الكذب؛ لأن تكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه المزاعم أعظم الكذب، أو الكاذبون في قولهم: إنما أنت مفترٍ، إنما يعلمه بشر، والتأكيد بالتكرار ردّ لقولهم المذكور.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠١):

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ﴾ نزلت حين قال المشركون: إن محمداً عليه الصلاة والسلام سخر بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وينهاهم عنه غداً، أو يأتيهم بما هو أهون عليهم، وما هو إلا مُفْتَرٍ يقوله من تلقاء نفسه، فأنزل الله تعالى هذه الآية والتي بعدها.

نزول الآية (١٠٣):

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ الآية: أخرج ابن أبي حاتم من طريق حصين عن عبد الله بن مسلم الحضرمي قال: كان لنا عبدان: أحدهما يقال له: يسار، والآخر جبر، وكانا صقلِّيين، فكانا يقرآن كتابهما، ويعلمان علمهما، وكان رسول الله ﷺ يمرّ بهما، فيستمع قراءتهما، فقالوا: إنما يتعلم منهما، فنزلت.

المناسبة:

بعد أن أبانَ الله تعالى أنه يجزي المؤمنين بأحسن أعمالهم، أرشد إلى العمل الذي تخلص به أعمالهم من وساوس الشيطان. ثم ذكر بعض وساوسه إلى منكري نبوة محمد ﷺ بإلقاء الشبهات ومنها شبهتان:

الأولى - شبهة النسخ: وهو التبديل، أي رفع الشيء مع وضع غيره مكانه، وتبديل الآية: رفعها بآية أخرى غيرها، وهو نسخها بآية سواها.

والثانية - شبهة كون القرآن من تعليم نصراني لا من الله، وكان الردّ مفحماً موضحاً بطلان هذه الشبهة: وهو أن القرآن كلام عربي مبين، وهذا المعلم المزعوم أعجمي، فكيف يُعلِّمُ كلاماً عربياً فصيحاً؟!

التفسير والبيان:

يأمر الله عباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم، فيقول: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، أي الجأ إلى الله من وساوس الشيطان المرجوم الملعون المطرود من رحمة الله، حتى لا تلتبس عليك القراءة، ولتتدبر معاني القرآن. والآية متصلة بما سبق: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وخطاب النبي ﷺ خطاب لأمته، بل هي أولى؛ لأنه معصوم من وساوس الشيطان وإغوائه.

وظاهر الآية جعل الاستعاذة عقب القراءة، ولكنها قبل القراءة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٥/٦] وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟﴾ [الأنعام: ٦/١٥٢] وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٣] وقوله: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: ٥٨/١٢] أي إذا أردتم ذلك. ثم إن سبب الاستعاذة وهو دفع وسوسة الشيطان يقتضي تقديم الاستعاذة قبل القراءة.

والاستعاذة أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

والأمر بها أمر ندب بإجماع العلماء، كما حكى ابن جرير وغيره من الأئمة. وعن الثوري وعطاء: أنها واجبة في الصلاة أو غيرها، عملاً بظاهر الآية؛ إذ الأمر للوجوب، لكن الوجوب في رأي الجمهور مصروف عنه إلى الندب؛ لأنه ﷺ لم يعلمها الأعرابي، ولأنه كان يتركها أحياناً.

والاستعاذة في رأي الحنفية وجماعة مطلوبة فقط في أول الصلاة؛ لأنها عمل واحد، مفتتح بقراءة، فتكون في ابتدائها. وفي رأي الشافعية وجماعة: تتكرر في كل ركعة؛ لأنها قد رتّبت على القراءة، وكل ركعة فيها قراءة، فتبدأ الركعة بالاستعاذة.

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾ أي إن الشيطان أي جنسه ليس له قوة ولا تسلط على المصدقين بلقاء الله، ويفوضون أمورهم إليه. ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ﴾ أي إنما تسلطه بالغواية والإضلال على الذين أطاعوه واتخذوه ولياً ناصراً لهم من دون الله، والذين أشركوه في عبادة الله، ويحتمل أن تكون الباء سببية، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان وإغوائه لهم مشركين بربهم.

ثم ذكر تعالى شبهتين من شبهات منكري النبوة بتأثير وسوسة الشيطان.

الشبهة الأولى:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً﴾ أي إذا رفعنا آية وجعلنا مكانها آية أخرى لحكمة وهدف، والله أعلم بما ينزله من القرآن، ورأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها، عيّروا رسول الله ﷺ، وقالوا له: إنما أنت مفترٍ، أي كذاب، متقول على الله، تأمر بشيء ثم تنهى عنه، بل أكثرهم لا يعلمون ما في التغيير من حكمة ومصلحة للناس، ومراعاة لظروف التغير والتطور، وأخذ بمبدأ التدرج في تنزيل الأحكام، فليس محمد بمفتر، وإنما يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، كما قال تعالى: ﴿۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة: ٢/١٠٦] .

فردّ الله عليهم شبهتهم الواهية آمراً رسوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ أي قل لهم يا محمد: نزّله، أي القرآن المتلو عليكم جبريل عليه السلام، وقد أضيف أي جبريل إلى القدس وهو الطهر من المآثم، نزّله من ربك بالحق، أي مقترناً بالصدق والعدل والحكمة، وأن النسخ من جملة الحق.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي ليبلوهم بالنسخ، فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً، وتطمئن له قلوبهم، فإذا قالوا: هو الحق من ربنا، حكم لهم بثبات القدم في الدين وصحة اليقين بأن الله حكيم، فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب.

واستعمال كلمة ﴿نَزَّلَهُۥ﴾ الدالة على أن التنزيل شيئاً فشيئاً على حسب الحوادث والمصالح، فيه إشارة - كما قال الزمخشري - إلى أن التبديل من باب المصالح، وأن ترك النسخ بمنزلة إنزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ معطوف على محل ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ أي إن القرآن بما فيه من نسخ نزل تثبيتاً لهم، وإرشاداً وهادياً، وبشارة بالجنة للمسلمين الذين أسلموا وجوههم لله، وأطاعوه، وانقادوا لحكمه وأمره، وآمنوا بالله ورسله.

وهذا يدل على أن المسلمين إذا رأوا النسخ، رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم، وثبت الدين في نفوسهم، وتيقنوا من حكمة الله، وهدوا إلى الحق من الضلال والزيغ، وبشروا بجنات تجري من تحتها الأنهار. وأما المشركون فهم على الضد من هذه الصفات.

والشبهة الثانية:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ﴾ أي ونحن نعلم تمام العلم ما يقوله المشركون من الكذب والافتراء على محمد ﷺ، فهم يقولون جهلاً: إنما يعلمه هذا القرآن بشر آدمي، وليس وحياً من الله، ويشيرون إلى رجل أعجمي اللسان، لا يعرف العربية، غلام لبعض القرشيين، وكان بياعاً يبيع عند الصفا، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه، ويكلمه بعض الشيء.

واسمه جبر، وقيل: بلعام، وقيل: يعيش، عبد لبني الحضرمي، وكان غلاماً للفاكه بن المغيرة أو لعامر بن الحضرمي أو لعتبة بن ربيعة[١]، وكان نصرانياً فأسلم، فإذا سمع المشركون بعض القصص القرآني، قالوا: إنما يعلمه جبر، وهو أعجمي.

فردّ الله عليهم افتراءهم وكذبهم بنحو يدعو إلى العجب، فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ﴾ أي لسان الذي يميلون ويشيرون إليه أعجمي لا عربي، والقرآن كلام عربي واضح مبين لكل شيء فصيح يدرك بسرعة، بل أفصح ما يكون من العربية، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته، وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي لا يحسن التعبير العربي؟! لا يعقل أن يتعلم هذا النبي كلاماً من هذا النوع من مثل هذا الرجل الأعجمي.

---

(١) قال القرطبي: والكل محتمل، فإن النبي ﷺ ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة ليعلمهم مما علمه الله، وكان ذلك بمكة.

ثم كشف الله زيفهم وتوعدهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن الذين لا يصدّقون بالآيات المنزلة على رسوله ﷺ، ولم يكن لهم قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله، لا يهديهم ولا يوفقهم الله إلى الإيمان بآياته وما أرسل به رسله، لفقد استعدادهم لذلك واقترافهم السيئات، ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع .﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ أي وأولئك المشركون من قريش هم الكاذبون المفترون، لا أنت يا محمد.

وهذا تصريح بوصفهم بالكذب الذين عرفوا به عند الناس، أما الرسول محمد ﷺ فكان أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً ويقيناً، معروفاً بالصدق في قومه، حتى لقبوه بالأمين محمد.

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفات الرسول ﷺ أجابه بأنه صدوق، وكان فيما قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا، فقال هرقل: فما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله عز وجل.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ - الاستعاذة من الشيطان الرجيم مطلوبة على سبيل الندب عند الشروع في قراءة القرآن، في الصلاة وغيرها، حتى لا يعرض الشيطان بوسوسته للقارئ، فيصده عن تدبر القرآن والعمل بما فيه.

وللشيطان وسوسة في القلب، حتى في حق الأنبياء، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الحج: ٢٢/ ٥٢].

٢ً - ليس للشيطان مجال سلطان وقوة بالإغواء والكفر على المؤمنين المصدقين بالله ورسوله؛ لأن الله تعالى صرف سلطانه عنهم حين قال إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ١٥/٣٩-٤٠] قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ١٥/٤٢].

لكن قال القرطبي: إن هذا عام يدخله التخصيص، وقد أغوى آدمَ وحواء عليهما السلام بسلطانه، وقد شوش على الفضلاء أوقاتهم بقوله: من خلق ربك[(١)]؟.

٣ً - النسخ واقع في القرآن لحكمة هي مراعاة المصالح والحوادث وتطور الأوضاع البشرية. والنسخ: رفع الحكم الشرعي بطريق شرعي متراخ أو متأخر عنه.

وقد نزل جبريل بالقرآن كله ناسخه ومنسوخه، من كلام ربه لتثبيت المؤمنين بما فيه من الحجج والآيات، وجعله هادياً ومرشداً ومبشراً للمسلمين بجنات النعيم، فلا يصح للمشركين الاعتراض على النسخ.

وقد ذكرتُ في تفسير سورة البقرة أن مذهب أبي مسلم الأصفهاني: أن النسخ غير واقع في هذه الشريعة. وقال عن هذه الآية: إذا بدلنا آية مكان آية في الكتب المتقدمة، مثل أنه حوّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، قال المشركون: أنت مفتر في هذا التبديل، فالآية هي الرسالة أو بعضها.

وقال سائر المفسرين: النسخ واقع في هذه الشريعة، بأدلة واقعية في القرآن والسنة، سبق إيرادها.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٠/١٧٦

وقال الشافعي رحمه الله: القرآن لا ينسخ بالسنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ وهذا يقتضي أن الآية لا تصير منسوخة إلا بآية أخرى. وردّ عليه بأن هذه تدل على أنه تعالى يبدل آية بآية أخرى، ولا دلالة فيها على أنه تعالى لا يبدل آية إلا بآية، وأيضاً فجبريل عليه السلام قد ينزل بالسنة، كما ينزل بالآية، وأيضاً فالسنة قد تكون مثبتة للآية.

٤ - القرآن بلسان عربي مبين، فكيف يصح للمشركين الزعم بأن محمداً الرسول ﷺ يتعلمه من حداد أعجمي مقيم في مكة؟ مع أن الإنس والجن عجزوا أن يعارضوا منه سورة واحدة فأكثر.

٥ - لا يوفق الله للإيمان هؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالقرآن، لإصرارهم على الكفر وعنادهم، وإعراضهم عن هدي الرسول ﷺ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم موجع.

٦ - قد صرحت الآية: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ بوصف المشركين بالكذب والافتراء جواباً لوصفهم النبي ﷺ بالافتراء. وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ مبالغة في وصفهم بالكذب، أي كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم.

المرتدون عن الإسلام والمهاجرون بعدما فتنوا

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾﴾

القراءات:

﴿فُتِنُواْ﴾:

وقرأ ابن عامر (فَتَنُوا).

الإعراب:

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ﴾ ﴿مَن﴾ بدل مرفوع من (الكاذبين) في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ أو مبتدأ أو شرطية، والخبر أو الجواب: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ وأحسن الوجوه أن ﴿مَن﴾ مبتدأ محذوف الخبر. ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ استثناء متصل؛ لأن الكفر يعم القول والنية كالإيمان.

﴿مَّن شَرَحَ﴾: من: مبتدأ مرفوع، وخبره: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

﴿صَدۡرٗا﴾ مفعول ﴿شَرَحَ﴾ أي ولكن من شرح بالكفر صدره؛ وحذف الضمير لأنه لا يشكل بصدر غيره، فهو نكرة يراد بها المعرفة.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٌ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى دل عليه خبر ﴿إِنَّ﴾ الثانية.

المفردات اللغوية:

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ على الافتراء، أو على النطق بكلمة الكفر فتلفظ به ﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ لم تتغير عقيدته، وثبت على ماكان عليه، وفيه دليل على أن الإيمان هو التصديق بالقلب.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ له، أي فتحه ووسعه، والمعنى: اعتقده وطابت له نفسه ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا وعيد شديد؛ إذ لا أعظم من جرمه، والغضب: أشد من اللعن الذي هو الطرد من رحمة الله ﴿ذَٰلِكَ﴾ الوعيد لهم ﴿بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ اختاروها أو آثروها وقدّموها.

﴿لَا جَرَمَ﴾ حقاً ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ إذ ضيعوا أعمارهم، وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد، وصاروا إلى النار المؤبدة عليهم.

﴿هَاجَرُواْ﴾ من مكة إلى المدينة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾ عذِّبوا أو اختبروا بالعذاب، وتلفظوا بالكفر، كعمار رضي الله عنه. ومن قرأ: ﴿فَتَنُوا﴾ معناه كفروا، أو فتنوا الناس عن الإيمان، كالحضرمي أكره مولاه جبراً، حتى ارتد، ثم أسلما وهاجرا ﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد وما أصابهم من المشاق ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ من بعد الفتنة والهجرة والجهاد والصبر ﴿لَغَفُورٞ﴾ لهم لما فعلوا قبل ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم، منعم عليهم، مجازاة على ما صنعوا بعد.

﴿يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ﴾ اذكر، وهو يوم القيامة ﴿تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ تحاج وتجادل عن ذاتها وتسعى في خلاصها، لا يهمها شأن غيرها، فتقول: نفسي نفسي. والنفس الأولى: الجثة والبدن، والنفس الثانية: عينها وذاتها ﴿وَتُوَفَّىٰ

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ تعطى جزاء ما عملت ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا ينقصون أجورهم شيئاً.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠٦):

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: لما أراد النبي ﷺ أن يهاجر إلى المدينة، أخذ المشركون بلالاً، وخبَّاباً، وعمار بن ياسر، فأما عمار فقال لهم كلمة أعجبتهم تَقيَّة، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ، حدَّثه فقال: كيف كان قلبك حين قلت؛ أكان منشرحاً بالذي قلت؟ قال: لا، فأنزل الله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم أيضاً عن مجاهد قال: نزلت هذه الآية في أناس من أهل مكة آمنوا، فكتب إليهم بعض الصحابة بالمدينة أن هاجروا، فخرجوا يريدون المدينة، فأدركتهم قريش بالطريق ففتنوهم، فكفروا مكرهين، ففيهم نزلت هذه الآية.

روايات أخرى:

في آية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾: أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل: «أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر، فلم يتركوه حتى سبَّ النبي ﷺ، وذكر آلهتهم بخير، فلما أتى رسول الله، قال له: ما وراءك؟ قال شرٌّ ما تركتُ، نلتُ منك، وذكرت آلهتهم بخير، قال: كيف تجد قلبك؟ قال مطمئن بالإيمان، قال: إن عادوا فعُدْ، فنزلت: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾».

وروي: «أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه ياسراً وسميَّة على الارتداد فأبْوا، فربطوا سمية بين بعيرين، ووُجئت بحربة في موضع عفتها، وقالوا: إنما أسلمتِ

من أجل الرجال، فقتلوها وقتلوا ياسراً، وهما أول قتيلين في الإسلام، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقيل: يارسول الله، إن عماراً كفر، فقال رسول الله ﷺ: كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه، فأتى عمار رسول الله ﷺ، وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، وقال: مالك؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت».

نزول الآية (١١٠):

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾: أخرج ابن سعد في الطبقات عن عمر بن الحكَم قال: كان عمار بن ياسر يعذَّب، حتى لا يدري ما يقول، وكان صهيب يعذب، حتى لا يدري ما يقول، وكان أبو فكيهة يعذب، حتى لا يدري ما يقول، وبلال وعامر بن فُهَيْرة وقوم من المسلمين، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة أن عياشاً رضي الله عنه (وكان أخا أبي جهل من الرضاعة) وأبا جَنْدل بن سهيل، وسَلَمة بن هشام، وعبد الله بن سَلَمة الثقفي، فتنهم المشركون، وعذبوهم، فأعطوهم بعض ما أرادوا ليَسْلَموا من شرهم، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا، وجاهدوا، فنزلت فيهم هذه الآية.

المناسبة:

بعد أن عظَّم الله تعالى تهديد الكافرين الذين تقولوا الأقاويل على النبي ﷺ، فوصفوه بأنه مفتر، وأن ما جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله، أردف ذلك ببيان من يكفر بلسانه لا بقلبه بسبب الخوف والإكراه، ومن يكفر بلسانه وقلبه معاً. ثم ذكر بعده حال من هاجر بعدما فتن، وهم المستضعفون في مكة.

التفسير والبيان:

من كفر بوجود الله وتوحيده بعد الإيمان والتبصر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به، فعليه غضب من الله ولعنته، وله عذاب شديد في الآخرة، لعلمه بالإيمان، ثم عدوله عنه، ولأنه استحب الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدم على الردة، ولم يهد الله قلبه، ولم يثبته على الدين الحق، فطبع على قلبه، فهو من الغافلين عما يراد، ومن الذين لا يعقلون شيئاً ينفعهم، وقد ختم على سمعه وبصره، فهو لا ينتفع بها، ولا أغنت عنه شيئاً.

ثم استثنى الله تعالى ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه من أكره فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي إلا إذا أكره بسبب الضرب والأذى، وقلبه يأبى ما ينطق به في الظاهر، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله بعد الانزعاج الحاصل بسبب الإكراه، كما فعل عمار بن ياسر حينما عذبه مشركو مكة. وأصل الاطمئنان: سكون بعد انزعاج، والمراد هنا السكون والثبات على الإيمان، ومعنى قوله: ﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ أي فتحه ووسعه لقبول الكفر.

ثم ذكر الله تعالى سبب سخطه على المرتد، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟﴾ أي ذلك الجزاء والغضب من الله والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الدنيا على الآخرة.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ أي وأن الله لا يوفق المصرِّين على الكفر، الذين أمعنوا في إنكار توحيد الله ونبوة محمد ﷺ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ﴾ أولئك الذين ارتدوا أو كفروا بعد إيمانهم هم الذين ختم الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فلا يؤمنون ولا يسمعون كلام الله ولا يبصرون البراهين والأدلة إبصار تبصر، وأولئك هم الكاملون في الغفلة الذين لا أحد أغفل منهم؛ لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهاها.

س﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ﴾ أي حقاً أو لابد أنهم هم الهالكون في الآخرة، الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة.

هؤلاء المرتدون الخاسرون حَكَمَ الله عليهم بستة أحكام هي:

١ً - أنهم استوجبوا غضب الله.

٢ً - أنهم استحقوا العذاب الأليم.

٣ً - أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة.

٤ً - أنه تعالى حرمهم من الهداية للطريق القويم.

٥ً - أنه تعالى طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم.

٦ً - أنه جعلهم من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

ثم ذكر الله تعالى حكم المستضعفين في مكة، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ أي ثم إن ربك يامحمد للذين هاجروا من ديارهم في مكة بعدما حاول المشركون فتنهم عن دينهم، وجاهدوا المشركين بعدئذ في المعارك، وصبروا على جهادهم، بالعون والنصر والتأييد والمغفرة والستر لذنوبهم، والرحمة بهم، فلا يعاقبهم بعد توبتهم وصدق إسلامهم.

فهؤلاء صنف آخر من المؤمنين كانوا مستضعفين بمكة، مهانين في قومهم، فوافقوهم على الفتنة والنطق بالكفر ظاهراً، ثم إنه أمكنهم الخلاص بالهجرة إلى المدينة، تاركين بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه، وانتظموا في سلك المؤمنين، وجاهدوا معهم الكافرين، وصبروا على الأذى، فأخبر تعالى أنه من بعدها أي من بعد تلك الفعلة وهي الإجابة إلى الفتنة، لغفور لهم، رحيم بهم يوم معادهم.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ منصوب برحيم أو بإضمار فعل: اذكر،

أي إنه غفور رحيم بهم يوم يأتي كل إنسان يجادل عن ذاته، لا يهمه شأن غيره، كل يقول: نفسي نفسي، كقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٧] .

ومعنى المجادلة عنها: الاعتذار عنها، كقولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٨] ، ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٢٣] ونحو ذلك.

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي وتعطى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير، ولا يزاد على جزاء الشر، ولا يظلمون نقيراً، أي شيئاً حقيراً أو صغيراً.

فقه الحياة أو الأحكام:

اشتملت الآيات على الأحكام التالية:

١ً - جزاء المرتدين يوم القيامة هو ستة أوصاف ذكرناها. وأما جزاؤهم في الدنيا فهو القتل، لحديث ابن عباس عند الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة): «من بدل دينه فاقتلوه».

٢ً - الترخيص للمستكره بالنطق بالكفر ظاهراً مع اطمئنان القلب بالإيمان، فقد أمر النبي ﷺ عماراً أن يعود إلى مجاراة المشركين في القول إن عادوا إلى إكراهه، لكن عدم المجاراة أفضل.

أ - قال العلماء: إن الأمر في الحديث للإباحة، والصارف له عن الوجوب إليها: ما روي عن خُبَيْب بن عدي لما أراد أهل مكة أن يقتلوه أنه لم يعطهم التقية، بل صبر حتى قتل، فكان عند النبي ﷺ خيراً من عمار في إعطائه التقية. ثم إن في الصبر على المكروه إعزازاً للدين والإسلام وغيظاً للمشركين، فهو بمنزلة من قاتل المشركين حتى قتل، فتأثير الإكراه حينئذ إنما

هو إسقاط المأثم فقط، كما قال ﷺ فيما رواه الطبراني عن ثوبان، وهو صحيح: «رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» فألحق المكره بالمخطئ والناسي، وفي رواية أخرى لابن ماجه عن أبي ذر: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان..» إلخ.

وكذلك بلال الحبشي أبى على المشركين المجاراة في القول، وهم يفعلون به الأفاعيل، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر، ويأمرونه بالشرك بالله، فيأبى عليهم، وهو يقول: أَحَدٌ، أحدٌ، ويقول: والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها، رضي الله عنه وأرضاه.

وكذلك حَبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مُسَيْلمةالكذاب: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً وهو ثابت على ذلك.

ورواية القصة هي: «أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنت أيضاً، فخلاه، وقال للآخر: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ قال: أنا أصم، فأعاد عليه ثلاثاً، فأعاد جوابه، فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقال: أما الأول فقد أخذ برخصة الله، وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له»[1].

والخلاصة: أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر، فاختار القتل، أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة.

ب - لما سمح الله عز وجل بالكفر به - وهو أصل الشريعة - عند الإكراه ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلها، فإذا أكره الإنسان عليها لم يؤاخذ بما قال أو فعل، ولم يترتب عليه حكم.

(١) الكشاف: ٢/٢١٩، تفسير ابن كثير: ٢/٥٨٨، تفسير القرطبي: ١٠/١٨٨ ومابعدها.

ج - قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أُكره على الكفر حتى خَشِي على نفسه القتل: أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم عليه بحكم الكفر، هذا قول مالك والكوفيين والشافعي، غير محمد بن الحسن، فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتداً في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه امرأته ولايصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلماً. وهذا قول يرده الكتاب والسنة، فإنه مخالف لهذه الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾.

د - اختلف الفقهاء في طلاق المكره وعتاقه ونكاحه، فذهب الحنفية إلى أن الطلاق ونحوه يلزمه؛ لأن الطلاق يعتمد الاختيار، والإكراه ينفي الرضا ويحقق الاختيار.

وغير الحنفية ذهبوا إلى عدم لزومه، استدلالاً بالحديث المتقدم: «رفع عن أمتي» وحمله الحنفية على رفع الحكم الأخروي وهو الإثم.

هـ - وأما بيع المكره والمضطر فله حالتان:

الأولى - أن يبيع ماله في حق وجب عليه: فذلك نافذ لازم لا رجوع فيه؛ لأنه يلزمه أداء الحق إلى صاحبه من غير المبيع، فلما لم يفعل ذلك، كان بيعه اختياراً منه، فلزمه.

الثانية - بيع المكره ظلماً أو قهراً: فهو بيع غير لازم، وهو أولى بمتاعه، يأخذه بلا ثمن، ويتبع المشتري بالثمن ذلك الظالم؛ فإن تلف المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك، على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه.

و - للإكراه مراتب:

الأولى - أن يجب الفعل المكره عليه، مثل الإكراه على شرب الخمر وأكل الخنزير وأكل الميتة، هنا يجب الأكل؛ لأن صون الروح عن الهلاك واجب؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٥] .

الثانية - أن يصير ذلك الفعل مباحاً لا واجباً، كالإكراه على التلفظ بكلمة الكفر، يباح ولا يجب.

الثالثة - ألا يجب ولا يباح بل يحرم، كالإكراه على قتل إنسان أو قطع عضو آخر، يبقى الفعل على الحرمة الأصلية. أما القصاص فيسقط في رأي، ويجب في رأي آخر[١].

قال القرطبي: أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يَفْدي نفسه بغيره، ويسأل الله العافية في الدنيا والآخرة[٢].

والخلاصة: ثلاثة أمور لا تباح بحال هي الكفر والقتل والزنى. ويرخص في إجراء كلمة الكفر على اللسان فقط دون استباحة ذلك.

ز - هل يحد الزاني مكرهاً؟ فيه رأيان: قال بعضهم: عليه الحد؛ لأنه إنما يفعل ذلك باختياره، وقال الأكثرون: لا حد عليه، وهو الصحيح. وإذا استكرهت المرأة على الزنى، فلا حد عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ وقوله ﷺ: «إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» ولقول الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٣] يريد الفتيات. والعلماء متفقون على أنه لا حد على امرأة مستكرَهة.

ح - هل يجب الصداق (المهر) للمستكرهة؟ قال مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو ثور: لها صداق مثلها. وقال الحنفية والثوري وأصحاب مالك: إذا أقيم الحد على الذي زنى بها، بطل الصداق. قال ابن المنذر: القول الأول صحيح.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٠/ ١٢٢

(٢) تفسير القرطبي: ١٠/ ١٨٣

ط - إذا أكره إنسان على إسلام (تسليم) أهله (زوجته) لما لم يَحِلّ، أسلمها فيما ذكر القرطبي، ولم يقتل نفسه دونها، ولا احتمل أذية في تخليصها. وإن أمكنه الدفاع عن عرضه وجب ذلك.

ي - يمين المكره غير لازمة عند مالك والشافعي وأبي ثور وأكثر العلماء؛ لأن نيته مخالفة لقوله. وقال الحنفية: إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنِث؛ لأن المكره له أن يورِّي في يمينه كلها، فلما لم يورِّ، فقد قصد إلى اليمين.

ك - إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال، كأصحاب المكس (الجمارك) وظلمة السعاة وأهل الاعتداء، فقال مالك: لا تَقيَّة له في ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه، لا ماله. وقال ابن الماجشون: لا يحنث، وإن درأ عن ماله، ولم يخف على بدنه.

ل - قال المحققون من العلماء: إذا تلفظ المكره بالكفر، فلا يجوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض، فإن في المعاريض لمندوحة عن الكذب، ومتى لم يكن كذلك، كان كافراً؛ لأن المعاريض لا سلطان للإكراه عليها، مثل أن يقول: أكفر باللاهي، بزيادة الياء، وكافر بالنبي بالتشديد، أي المكان المرتفع من الأرض، أو بالنبيء أي المخبر.

م - حد الإكراه: عند مالك والشافعي وأحمد وأبي ثور وأكثر العلماء هو الوعيد المخوف، والسجن، والضرب، والإخافة، والإيثاق، والقيد ونحو ذلك. ونقل عن الحنفية أنهم لم يجعلوا السجن والقيد إكراهاً على شرب الخمر وأكل الميتة؛ لأنه لا يخاف منهما التلف، وجعلوهما إكراهاً في إقرار الشخص: لفلان عندي ألف درهم.

٣ً - المرتدون استوجبوا غضب الله وعذابه؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، وحرموا من هداية الله، وطبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، وجعلوا من الغافلين عما يراد بهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

٤ - كتب الله المغفرة والرحمة للذين هاجروا من بعد ما فتنوا أي قبلوا فتنة مشركي مكة، ثم جاهدوا مع المؤمنين، وصبروا على الجهاد، وهؤلاء هم المستضعفون، مثل عمار بن ياسر، وجبر مولى الحضرمي الذي أكرهه سيده، فكفر، ثم أسلم مولاه، وأسلم، وحسن إسلامهما، وهاجرا، ومثل المذكورين في سبب النزول: عياش وأبي جندل وسلمة بن هشام وعبد الله بن سلمة، ومثل عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح الذي ارتد ولحق بالمشركين، فأمر النبي ﷺ بقتله يوم فتح مكة، فاستجار بعثمان، فأجاره النبي ﷺ، ثم صار والياً على مصر. وقد ذكرت قصة عمار، وأشير للمعذبين المستضعفين بإيجاز.

قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وخَبَّاب، وصُهَيب، وبلال، وعمار، وسُمَية.

أما الرسول فحماه أبو طالب، وأما أبو بكر فحماه قومه، وأُخذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد، ثم أجلسوا في الشمس، فبلغ منهم الجهد بحرّ الشمس والحديد، وأتاهم أبو جهل يشتُمهم ويوبخهم، ويشتم سمية، ثم طعنها بحربة في ملمس العفة.

عاقبة كفران النِّعَم في الدنيا

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الإعراب:

﴿قَرْيَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾.

﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ الجملة حال.

البلاغة:

﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ المراد أهلها على سبيل المجاز المرسل، لأجل أنها مكان الأمن وظرف له، والظروف توصف بما حل فيها.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ استعارة مكنية في أذاقها، حذف منها المشبه به، شبه ذلك اللباس لكراهته بالطعام المرّ، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الإذاقة، على طريق الاستعارة المكنية، أي إنه استعار الذوق لإدراك أثر الضرر، واللباس لما غشيهم واشتمل عليهم من الجوع والخوف، وأوقع الإذاقة عليه، نظراً إلى المستعار له.

المفردات اللغوية:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي وجعلها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة، فكفروا، فأنزل الله بهم النقمة، أو لمكة ﴿قَرْيَةً﴾ هي مكة، والمراد أهلها، وقال الرازي: والأقرب أنها غير مكة؛ لأنها ضربت مثلاً لمكة، وهو غير مكة. ﴿ءَامِنَةً﴾ من الغارات، لا تهاج. ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ لا يحتاج إلى الانتقال عنها لضيق أو خوف. ﴿رِزْقُهَا﴾ قوتها. ﴿رَغَدًا﴾ واسعاً. ﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها. ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ أي بنعمه، جمع نِعْمة، كدرع وأدرع، أو جمع نُعْم كبؤس وأبؤس، وكفرانها بتكذيب النبي ﷺ. ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ فقحطوا سبع سنين. ﴿وَٱلْخَوْفِ﴾ بتهديدهم بسرايا النبي ﷺ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ بصنعهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ﴾ محمد ﷺ. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الجوع والخوف. ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ حال التباسهم بالظلم.

المناسبة:

بعد أن هدد الله تعالى الكفار بالوعيد الشديد في الآخرة، هددهم أيضاً بآفات الدنيا وهو الوقوع في الجوع والخوف.

التفسير والبيان:

ذكر الله صفة قرية للعبرة، كانت بأهلها آمنة من العدو، مطمئنة لا يزعجها خوف، يأتيها رزقها الوافر رغداً أي هنيئاً سهلاً واسعاً من سائر البلاد، فكفر أهلها بنعم الله، أي جحدوا بها، فعمَّهم الله بالجوع والخوف، وبدلوا بأمنهم خوفاً، وبغناهم جوعاً وفقراً، وبسرورهم ألماً وحزناً، وذاقوا مرارة العيش بعد سعته، بسبب أفعالهم المنكرة.

وجاءهم رسول من جنسهم، فكذبوه فيما أخبرهم به من أنه رسول إليهم، مبلّغ عن ربه بأن يعبدوه ويطيعوه ويشكروه على النعمة، وتمادوا في كفرهم وعنادهم، فعذبوا بعذاب الاستئصال الشامل، حال كونهم ظالمين أنفسهم بالكفر وتكذيب الرسل، متلبسين بالظلم: وهو الكفر والمعاصي، وما ظلمهم الله أبداً.

والمثل: قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة، سواء كان ذلك الشيء موجوداً أو لم يكن موجوداً، وقد يضرب بشيء موجود معين، فهذه القرية يحتمل أن تكون شيئاً مفروضاً، ويحتمل أن تكون قرية معينة، وهذه القرية إما مكة أو غيرها، وأكثر المفسرين على أنها مكة وأهلها، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة، يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف، فجحدت بآلاء الله، وأعظمها بعثة محمد ﷺ، فأذاقها الله شدة الجوع والخوف، بعد الرفاه والأمن، وأبوا إلا معاندة الرسول ﷺ، فدعا عليهم بقوله: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، واجعلها عليهم سِنين كسِني يوسف» فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء وابتلوا بالقحط، فاضطروا إلى أكل الجِيَف والكلاب الميتة

والعظام المحرقة، والعَلْهز: وهو وبر البعير المخلوط بدمه إذا نحروه. ثم قتل رؤساؤهم في بدر.

وقال الرازي: والأقرب أنها غير مكة؛ لأنها ضربت مثلاً لمكة، ومثل مكة يكون غير مكة. أي إن هذا المثل عبرة لكل قرية، وعلى التخصيص مكة إنذاراً من مثل عاقبتها، وهي مثل لكل قوم أنعم الله عليهم، فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا، فأنزل الله بهم نقمته.

وقوله: ﴿ءَامِنَةً﴾ إشارة إلى الأمن، وقوله: ﴿مُّطْمَئِنَّةً﴾ إشارة إلى الصحة بسبب طيب الهواء والمناخ، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ إشارة إلى الكفاية[1]. وبعد أن وصفت القرية بهذه الصفات الثلاثة قال: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ والأنعم جمع نعمة، وهو جمع قلة، أي أنها كفرت بأنواع قليلة من النعم، فعذبها الله. والمقصود التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإذا كان كفران النعم القليلة موجباً العذاب، فكفران النعم الكثيرة أولى بإيجاب العذاب.

وهذه الصفات، وإن وصفت بها القرية، إلا أن المراد في الحقيقة أهلها، لذا قال في آخر الآية: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وسماه الله لباس الجوع والخوف؛ لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى وجوب الإيمان بالله وبالرسل، وإلى عبادة الله وحده، وشكره على نعمه وآلائه الكثيرة، وإلى أن العذاب الإلهي لا حق بكل من كفر بالله وعصاه، وجحد نعمة الله عليه.

---

(١) قال بعضهم مبيناً أهمية هذه العناصر الثلاثة للحياة:

ثلاثة ليس لها نهاية   الأمن والصحة والكفاية

وهذا إنذار ووعيد لأهل كل قرية اتصفوا بالظلم أي بالكفر والمعاصي؛ إذ لا ظلم أشد من ظلم الكفر والمعصية، في حق الله تعالى.

والعذاب أو العقاب من جنس العمل، فإن أهل هذه القرية لما بطروا بالنعمة، بدلوا بنقيضها، وهو محقها وسلبها، ووقعوا في شدة الجوع بعد الشبع، وفي الخوف والهلع بعد الأمن والاطمئنان، وفي انعدام موارد العيش بعد الكفاية.

الحلال الطيب والحرام الخبيث من المأكولات

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾﴾

القراءات:

﴿نِعْمَتَ﴾:

رسمت بالتاء، ووقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾:

قرئ:

١- (فمنِ اضطُر) وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وحمزة.

٢- (فمنُ اضطُر) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾: ما مع الفعل بعدها: في تأويل المصدر. ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ مفعول ﴿تَصِفُ﴾. ومن قرأه بالجر كان بدلاً مجروراً من (ما) أي ولا تقولوا الكذب لوصف ألسنتكم.

البلاغة:

﴿حَلَٰلٌ﴾ ﴿حَرَامٌ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿فَكُلُوا۟﴾ أيها المؤمنون، أمرهم تعالى بأكل ما أحل الله لهم، وشكر ما أنعم عليهم، بعدما زجرهم عن الكفر، وهددهم عليه.

﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ﴾ أي لوصف ألسنتكم، والمراد: لا تحرموا ولا تحللوا بمجرد قول من غير دليل، فمن قال: له وجه يصف الجمال، وعين تصف السحر، أراد أنه جميل، وأن عينه فتانة، وهنا جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة، وكذبهم يشرح تلك الحقيقة .. ﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ لما لم يحله الله ولم يحرمه. ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي لهم متاع في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب مؤلم.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ أي اليهود. ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ في آية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ٦/١٤٦]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾

بتحريم ذلك .﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بارتكاب المعاصي الموجبة لذلك .﴿ٱلسُّوٓءَ﴾ الشرك .﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾ رجعوا .﴿وَأَصۡلَحُوٓاْ﴾ عملهم .﴿مِنۢ بَعۡدِهَا﴾ الجهالة أو التوبة .﴿لَغَفُورٞ﴾ لهم .﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

المناسبة:

بعد أن هدد الله تعالى الكفار على كفران النعم، وزجرهم عن الكفر بضرب المثل، أمر المؤمنين بأكل ما أحل الله لهم، وشكر ما أنعم عليهم، والمعنى: أنكم لما آمنتم وتركتم الكفر، فكلوا الحلال الطيب وهو الغنيمة، واتركوا الخبائث وهي الميتة والدم ونحوهما، ثم أوضح لهم أن التحليل والتحريم ليسا بالهوى والشهوة ومحض العقل، وإنما لا بد من دليل أو نص شرعي، وأن ما حُرِّم على اليهود هو ما ذكر سابقاً في سورة الأنعام، وأن من يعمل السوء (وهو كل ما لا ينبغي من الكفر والمعاصي) بجهالة أي بطيش وعدم تدبر العواقب (وكل من عمل السوء، فإنما يفعله بالجهالة) ثم يتوب بعدئذ، فإن الله يغفر له معصيته ويرحمه.

التفسير والبيان:

هذا انتقال من الإنذار والتخويف إلى الاطمئنان، وتهدئة الخواطر، وتطييب النفوس المؤمنة، والإذن بمتع الحياة الحلال، لا الخبيثة الحرام كالميتة والدم، فكلوا أيها المؤمنون من رزق الله الحلال الطيب، واشكروه على ذلك، فإنه المنعم المتفضل الذي يستحق العبادة وحده لاشريك له، إن كنتم تعبدونه حقاً، فتطيعونه فيما أمر، وتنتهون عما نهى، والمراد بالجملة الأخيرة التحريض على العبادة والاستمرار عليها.

والحلال أكثر بكثير من الحرام، ولكنه على وفق ما أذن الله به، لا على النحو الذي كان عليه عرب الجاهلية من تحريم ما أحل الله، لذا ناسب ذلك

بيان المحرّمات القليلة أمام الحلال الكثير الواسع، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ أي إنما حرَّم عليكم ربكم محرَّمات أربعة فقط؛ لأن لفظة ﴿إِنَّمَا﴾ تفيد الحصر، وهي أكل الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما ذبح على النصب للأصنام، وهو داخل تحت قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ أي ذبح على غير اسم الله، جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن ابن عباس: «ملعون من ذبح لغير الله» فلا تحرموا شيئاً مما أحله الله لكم.

وقد ذكرت هذه الأنواع الأربعة في سور ثلاث سابقة هي سورة البقرة المدنية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾ [البقرة: ١٧٣/٢] وسورة المائدة المدنية أيضاً: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣/٥] وسورة الأنعام المكية كهذه السورة: ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥/٦] . وأما المذكور في سورة المائدة من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكي (ذبح حياً) فهو داخل في الميتة.

ثم استثنى تعالى حالة الضرورة فقال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي فمن دعته الضرورة وألجأته، واحتاج من غير بغي ولا عدوان إلى تناول شيء من هذه المحرّمات، لمجاعة غلب على ظنه الهلاك فيها، غير باغ على مضطر آخر، بأن ينفرد بتناوله، فيهلك الآخر، ولا عاد أي متجاوز ما يسد الرمق والجوع أي قدر الضرورة، مما يدل على تحريم الشبع وهو مذهب الأكثرين، فإن الله غفور ستار لذنبه أو هفوته، لا يؤاخذه على ذلك، رحيم به أن يعاقبه على مثل ذلك. وفي هذا تيسير وتوسعة على هذه الأمة التي يريد الله بها اليسر ولا يريد بها العسر.

ثم نهى الله تعالى عن سلوك سبيل المشركين بالتحليل والتحريم بآرائهم، وما ابتدعوه شرعاً في جاهليتهم من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، وتحليل الميتة والدم وغيرهما، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ أي ولا تحللوا وتحرموا بالرأي والهوى والجهالة، دون اتباع شرع الله، ولمجرد وصف ألسنتكم الكذب دون دليل. وهذه مبالغة في تأكيد حصر المحرمات في الأربع السابقة.

﴿لِّتَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۚ﴾ أي لتصير عاقبة أمركم إسناد التحليل والتحريم إلى الله كذباً، من غير إنزال شيء فيه، فإن من حلل أو حرم شيئاً برأيه دون دليل أو وحي من الله، كان من الكاذبين على الله تعالى.

فيدخل في هذا النهي كل من حلل شيئاً مما حرم الله، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وهواه، وكل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي.

ثم توعد على ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ، مَتَٰعٞ قَلِيلٞ﴾. أي إن الذين يختلقون الكذب على الله، لا يفوزون بخير في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الدنيا فلهم متاع قليل زائل وعرض زائل، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم جداً، كما قال: ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: ٢٤/٣١] .

والآية في الأصل خطاب للكفار الذين حرموا البحائر والسوائب، وأحلوا ما في بطون الأنعام وإن كان ميتة.

وبعد بيان الحلال والحرام والمباح للضرورة لهذه الأمة، ذكر تعالى ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل نسخها، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا﴾ أي وقد حرمنا على اليهود ما أخبرناك به أيها الرسول في سورة الأنعام: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾ [الأنعام: ١٤٦/٦] فلا يصح لكم أيها العرب التحريم والتحليل من عند أنفسكم، ولا تقليد اليهود فيما حرمنا عليهم، فلم نحرم عليهم إلا ما ذكر.

وسبب التحريم هو: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ أي وما كان التحريم بظلم منا، ولكن كان بسبب ظلم ارتكبوه، فإنهم ظلموا أنفسهم بعصيان ربهم ومعاندة رسلهم، وتجاوز حدودهم، فاستحقوا ذلك، وعوقبوا بما حرمناه عليهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠] . وهو صريح في أن التحريم كان بسبب الظلم والبغي، عقوبة وتشديداً.

ثم أبان الله تعالى إمكان قبول التوبة تكرماً وامتناناً على العصاة والمفترين على الله، والمنتهكين حرماته، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي إن الافتراء على الله ومخالفة أمر الله لا يمنعهم من التوبة وحصول المغفرة والرحمة، فإن ربك غفور ستار رحيم بالذين افتروا عليه بالتحليل والتحريم، وعملوا السوء: وهو كل ما لا ينبغي من الكفر والمعاصي، بسبب الجهالة؛ لأن كل من عمل السوء، فإنما يفعله بالجهالة، فلا يرضى أحد بالكفر مع العلم بكونه كفراً، ولا تصدر المعصية عنه إلا إذا غلبت الشهوة على العقل والعلم.

لكن المغفرة والرحمة مرتبطان بالتوبة والإنابة، والندم على ما فعلوا، وإصلاح الأعمال على وفق مراد الله ورسوله، فمن تاب من بعد ذلك، أي من بعد تلك السيئة أو الجهلة، وأصلح عمله، فآمن بالله ورسوله وأطاع الله ورسوله، فإن الله يغفر ذنبه، ويرحمه في الآخرة والدنيا.

وقد أعاد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾ على سبيل التأكيد، ثم قال ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لذلك السوء الذي صدر عنهم بسبب الجهالة.

وهذا يدل على أن ارتكاب الذنب يكون غالباً بسبب غلبة الشهوة على ميزان العقل والعلم، أو بسبب جهالة الشاب وطيشه. ويدل أيضاً على أن من أقدم على الكفر والمعاصي ولو دهراً طويلاً، ثم تاب وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يقبل توبته، ويخلصه من العذاب.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ً - إباحة الحلال الطيب الذي لا ضرر فيه، وتحريم الخبيث الضار الذي يؤدي إلى الأذى والشر، وذلك بحق يقتضي شكر النعمة.

٢ً - المحرمات الأساسية في الشريعة أربعة: هي الميتة والدم ولحم الخنزير، والمذبوح لغير الله من الأصنام وغيرها.

٣ً - يباح للضرورة التي يترتب على مخالفتها غلبة الظن بالوقوع في الهلاك تناول شيء من الأطعمة المحرمة المذكورة آنفاً.

٤ً - تحذير المؤمنين من التشبه بالكفار في تحليل الحرام وتحريم الحلال، دون دليل أو برهان من المشرع الحقيقي وهو الله، فذلك افتراء على الله الكذب، والمفترون لا يفلحون في الدنيا والآخرة. فمتاعهم في الدنيا متاع قليل، ونعيمها يزول عن قريب، ولهم استمتاع بمتاع قليل، ثم يردون إلى عذاب أليم.

٥ً - التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان، إلا أن يخبر الله تعالى بذلك عنه. وما يؤدي إليه الاجتهاد في أنه حرام يقول المجتهد فيه: إني أكره كذا، وهكذا كان يفعل مالك وأحمد وغيرهما من أهل الفتوى من السلف الصالح. فإذا قوي دليل التحريم فلا بأس بالقول بأنه حرام، كتحريم الربا في غير الأصناف الستة الواردة في تحريم الربا بنوعيه: ربا الفضل وربا النسيئة.

٦ً - الأنعام والحرْث (الزروع والثمار) حلال لهذه الأمة، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء، وما ظلمهم الله بتحريم ما حرم عليهم، ولكن ظلموا أنفسهم، فحرم عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم.

٧ - اقتضت رحمة الله وفضله وكرمه أن يقبل توبة عباده الذين يعملون السوء من الكفر والمعاصي، ثم يتوبون بعد فعلها، ويصلحون أعمالهم، فيغفر الله لهم.

إبراهيم عليه السلام
واتباع ملته وتعظيم اليهود السبت

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿صِرَٰطٍ﴾:

وقرأ قنبل (سراط).

الإعراب:

﴿حَنِيفًا﴾ حال من الضمير المرفوع في ﴿ٱتَّبِعْ﴾ ولا يحسن أن يكون حالاً من ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ لأنه مضاف إليه.

البلاغة:

﴿كَانَ أُمَّةً﴾ أي كان رجلاً جامعاً للخير، كالأمة والجماعة؛ لاتصافه بأوصاف كثيرة.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ التفات عن الغيبة إلى التكلم، زيادة في تعظيم أمره.

المفردات اللغوية:

﴿أُمَّةً﴾ إماماً قدوة جامعاً لخصال الخير، والأصل في الأمة: الجماعة الكثيرة، وسمي إبراهيم بذلك؛ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة في أشخاص كثيرة، كما قال أبو نواس مادحاً الرشيد:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

ولأنه عليه السلام كان وحده مؤمناً، وكان سائر الناس كفاراً.

﴿قَانِتًا﴾ مطيعاً لله قائماً بأمره. ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الدين الباطل إلى الدين الحق القيم. ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ كما زعموا، فإن قريشاً كانوا يزعمون أنهم على ملة إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام. ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ ذكر بلفظ القلة للتنبيه على أنه كان لا يخل بشكر النعم القليلة، فكيف بالكثيرة؟ ﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾ اصطفاه للنبوة. ﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ في الدعوة إلى الله. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ فيه التفات عن الغيبة. ﴿حَسَنَةً﴾ هي الثناء الحسن ومحبة أهل الأديان جميعاً له. ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الذين لهم الدرجات العُلا، من أهل الجنة، كما سأله بقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد، و﴿ثُمَّ﴾: إما لتعظيمه والتنبيه على أن أجل ما أوتي إبراهيم اتباع الرسول ﷺ ملته، أو لتراخي أيامه. ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أن اتبع دين إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه بالرفق، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى، والمجادلة مع كل أحد على حسب فهمه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوة الموحدين. وكرر رداً على زعم اليهود والنصارى أنهم كانوا على دينه.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾ فرض تعظيمه، والتخلي فيه للعبادة، وترك الصيد فيه .﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ أي على نبيهم، وهم اليهود، أمرهم موسى عليه السلام أن يتفرغوا للعبادة يوم الجمعة، فقالوا: لا نريده، وإنما نريد يوم السبت؛ لأنه تعالى فَرَغ فيه من خلق السماوات والأرض، فشدَّد الله عليهم، وألزمهم السبت. وقيل: معناه إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه، فأحلوا الصيد فيه تارة، وحرموه أخرى، واحتالوا له الحيل. وذكر ذلك هنا لتهديد المشركين كذكر القرية التي كفرت بأنعم الله .﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمجازاة على الاختلاف، أو بمجازاة كل فريق من الذين أبوا تعظيم السبت والمعظمين له بما يستحقه، من إثابة الطائع، وتعذيب العاصي بانتهاك حرمته.

المناسبة:

بعد أن أبطل الله تعالى مذاهب المشركين من إثبات الشركاء لله، والطعن في نبوة الأنبياء والرسل عليهم السلام، وتحليل أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أباحها الله، وكانوا مفتخرين بجدهم إبراهيم عليه السلام، مقرين بحسن طريقته ووجوب الاقتداء به، بعد إبطال ذلك كله، ختم تعالى هذه السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين، وقدوة الأصوليين، ليتأسوا به إن كانوا صادقين في اتباع ملته، ولحمل المشركين على الإقرار بالتوحيد، والرجوع عن الشرك، والاقتداء به لاتصافه بصفات تسع.

وبعد وصف إبراهيم بهذه الصفات العالية، أمر الله نبيه محمداً ﷺ باتباع ملة إبراهيم - ملة التوحيد.

وبما أن محمداً ﷺ اختار يوم الجمعة، فذلك يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان قد اختار في شرعه يوم الجمعة، وهذا يستدعي السؤال: لِمَ اختار اليهود يوم السبت؟ فأجاب الله تعالى بأن تعظيم السبت واتخاذه للعبادة لم يكن

من شرع إبراهيم ولا دينه، وإنما كان مفروضاً على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم موسى عليه السلام في شأن تعظيمه، حيث أمرهم بالجمعة، فاختاروا السبت، فاختلافهم في السبت كان اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم، وليس اختلافهم في أن منهم من قال بالسبت، ومنهم من لم يقل به؛ لأن اليهود اتفقوا على ذلك، وهذا هو ما صححه الرازي[١].

التفسير والبيان:

يمدح الله تعالى إبراهيم إمام الحنفاء، ووالد الأنبياء، ويبرئه من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية، فيقول: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.

أي إنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام بتسع صفات هي:

١ً - إنه كان أمة، أي كان وحده أمة من الأمم، لكماله في صفات الخير. والمعنى: أنه الإمام الذي يقتدى به.

٢ً - كونه قانتاً لله، أي خاشعاً مطيعاً لله قائماً بأمره.

٣ً - كونه حنيفاً، أي مائلاً عن الشرك والباطل قصداً إلى التوحيد.

٤ً - إنه ما كان من المشركين، بل كان من الموحدين في الصغر والكبر، فهو الذي قال لملك زمانه: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٨] وهو الذي أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٧٦] ثم كسر الأصنام حتى ألقوه في النار.

ونظير الآية قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٣/٦٧].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٠/١٣٧

٥ً - شاكراً لأنعم الله عليه، والأنعم وإن كان جمع قلة إلا أن المراد به أنه كان شاكراً لجميع نعم الله إن كانت قليلة، فبالأولى الكثيرة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧/٥٣] أي قام بجميع ما أمره الله تعالى به. وهذا تعريض بكل من جحد بأنعم الله مثل قريش وغيرهم.

٦ً - إنه اجتباه ربه، أي اختاره واصطفاه للنبوة، كما قال: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنبياء: ٥١/٢١] .

٧ً - إنه هداه إلى صراط مستقيم، أي في الدعوة إلى الله والترغيب في الدين الحق، والتنفير عن الدين الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣/٦] .

٨ً - وآتاه الله في الدنيا حسنة، أي إن الله حببه إلى جميع الخلق، فكل أهل الأديان يُقرُّون به، سواء المسلمون واليهود والنصارى، أما كفار قريش وسائر العرب، فلا فخر لهم إلا به، وهذا إجابة لدعائه إذ قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤/٢٦] .

٩ً - وإنه في الآخرة لمن الصالحين أي في زمرتهم، تحقيقاً لدعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٣/٢٦] وكونه مع الصالحين لا ينفي أن يكون من أعلى مقامات الصالحين؛ لقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ﴾ [الأنعام: ٨٣/٦] .

وبعد تعداد هذه الصفات العالية لإبراهيم عليه السلام، أمر الله نبيه باتباعه، فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ وبناء على كماله وصحة توحيده وطريقته، أوحينا إليك أيها الرسول أن اتبع ملة إبراهيم الحنيف المائل عن كل الأديان والشرك والباطل إلى دين التوحيد، وما كان مشركاً، وذكر ذلك لزيادة التأكيد، وهو يدل على أن اتباع ملة إبراهيم إنما هو في الأصول أي الدعوة إلى التوحيد وفضائل الأخلاق والأعمال. أما الفروع فقد تختلف؛

لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨/٥] وذلك حسب تطور الأزمنة واكتمال العقل والنضج الإنساني، ومراعاة أحوال الأمم والشعوب. وذكر ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يدل على تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، والدلالة على أن أشرف كرامة وأجل نعمة لإبراهيم الخليل اتباع الرسول ﷺ ملته.

ومتابعة إبراهيم تقتضي كونه اختار يوم الجمعة للعبادة، كما اختاره النبي محمد ﷺ؛ لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة وتمت النعمة فيه على عباده، أما تعظيم السبت عند اليهود فأجاب تعالى عنه بقوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ وقد اختاروه لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات التي كمل خلقها يوم الجمعة، فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة.

أي إنما جعل تعظيم السبت مفروضاً على اليهود الذين اختلفوا على نبيهم موسى في شأن تعظيمه، حيث أمرهم بالجمعة فاختاروا السبت، فكان اختلافهم في السبت اختلافاً على نبيهم في ذلك اليوم، أي لأجله، وليس اختلافهم فيه في أن منهم من قال بالسبت، ومنهم من لم يقل به؛ لأن اليهود اتفقوا على ذلك، كما صحح الرازي[١].

وقال الزمخشري: المعنى إنما جعل وبال السبت وهو المسخ على اليهود المختلفين فيه، وهو أنهم أحلوا الصيد فيه تارة، وحرّموه تارة، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة، بعد أن حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه. والمقصود هو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره، والخالعين ربقة طاعته، فالله يجازيهم جزاء اختلاف فعلهم في كونهم مُحلِّين تارة، ومحرّمين أخرى[٢].

---

(١) تفسير الرازي: ١٣٧/٢٠

(٢) تفسير الكشاف: ٢٢١/٢

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي وإن الله ليفصل بين الفريقين فيما اختلفوا فيه، ويجازي كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب.

والظاهر لدي هو التأويل الأول، قال مجاهد في قوله: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾: اتبعوه وتركوا الجمعة. والمراد بقوله: ﴿ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ يوم الجمعة، اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى.

وظل اليهود متمسكين بتعظيم السبت حتى بعث الله عيسى بن مريم فيقال: إنه حوّلهم إلى يوم الأحد. ويقال: إنه ظل معظماً السبت، ولكن النصارى بعده في زمن قسطنطين هم الذين تحولوا إلى يوم الأحد، مخالفة لليهود، كما تحولوا إلى الصلاة شرقاً عن الصخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

١ً - إن وصف إبراهيم عليه السلام بتسع صفات عالية وشريفة، يقتضي الاقتداء به، والقصد من ذلك دعوة مشركي العرب إلى ملة إبراهيم الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع الإلهية؛ إذْ كان إبراهيم أباهم الذي يفتخرون به، ويعترفون بحسن طريقته، ويقرون بوجوب الاقتداء به، وهو باني البيت الذي به عزهم.

٢ً - أمر النبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم في عقائد الشرع وأصوله من الدعوة إلى توحيد الله والتحلي بفضائل الأخلاق، لا اتباعه في الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٥/٤٨].

٣ً - الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول؛ لأن النبي ﷺ أفضل الأنبياء عليهم السلام، وقد أُمر بالاقتداء بهم، فقال: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٦/٩٠] وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾.

٤ً - لم يكن في شرع إبراهيم ولا من دينه تعظيم السبت، وإنما كان السبت

تغليظاً على اليهود في رفض الأعمال، وترك التبسط في المعاش، بسبب اختلافهم فيه.

٥ً - إن الله تعالى لم يعين يوماً للتفرغ فيه للعبادة، وإنما أمر بتعظيم يوم في الأسبوع، فعينت اليهود السبت؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق، وعينت النصارى يوم الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه الخلق، فأُلزم كل منهم ما أداه إليه اجتهاده. وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة، من غير تفويض إلى اجتهادهم، فضلاً منه ونعمة، فكانت خير الأمم أمة محمد ﷺ. ثبت في الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نحن الآخرون، السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم، فاختلفوا فيه، فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غد».

ولفظ مسلم عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما: «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، والمقضي بينهم يوم القيامة».

٦ً - إن المقصود من آية السبت أن النبي ﷺ أمر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف فيه، فيشدّد عليهم كما شدَّد على اليهود.

أسس الدعوة إلى الدين
وجعل العقاب بالمثل والصبر على المصاب

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ (١٢٥) وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ (١٢٦) وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ (١٢٨)﴾

القراءات:

﴿ضَيۡقٖ﴾ :

وقرأ ابن كثير (ضِيْق).

الإعراب:

﴿فِي ضَيۡقٖ﴾ قرئ بفتح الضاد وكسرها، والضَّيْق بالفتح: المصدر، والضِّيق بالكسر: الاسم.

المفردات اللغوية:

﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ادع يامحمد الناس إلى دين الله ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ بالمقالة المحكمة وهو الدليل الموضح للحق المزيح للشبهة ﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ المواعظ والعبر النافعة والقول الرقيق. قال البيضاوي: والأُولى - أي الحكمة - لدعوة خواص الأمة الطالبين للحقائق، والثانية - أي الموعظة - لدعوة عوامهم ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ جادل معانديهم بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرفق واللين وإيثار أيسر الوجوه وأقوم الأدلة وأشهر المقدمات،

فإن ذلك أنفع في تسكين ثورتهم وتبيين شغبهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ أي إنما عليك البلاغ والدعوة، وأما حصول الهداية والضلال والمجازاة عليهما، فليس إليك، بل الله عالم بالضالين والمهتدين، وهو المجازي لهم.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ فيه دليل على أن للمقتص أن يماثل الجاني، وليس له أن يجاوزه، وفيه أيضاً الحث على العفو تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾ وتصريحاً على الوجه الآكد بقوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ لهو، أي الصبر خير كله من الانتقام.

﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي واصبر يامحمد وما صبرك إلا بتوفيق الله، وتثبيته، وهذا تصريح بالأمر به لرسول الله ﷺ؛ لأنه أولى الناس به، لزيادة علمه بالله، ووثوقه عليه ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ على الكافرين إن لم يؤمنوا، لحرصك على إيمانهم، أو على المؤمنين وما فعل بهم يوم أحد ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ لا تك في ضيق صدر من مكرهم، أي لا تهتم بمكرهم، فأنا ناصرك عليهم ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الكفر والمعاصي ﴿وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ في أعمالهم من طاعة وصبر، بالعون والنصر، والولاية والفضل.

سبب النزول:

نزول الآية (١٢٦):

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾: أخرج الحاكم والبيهقي في الدلائل والبزار عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وقف على حمزة، حين استشهد، وقد مُثِّل به فقال: لأمثّلنَّ بسبعين منهم مكانك، فنزل جبريل، والنبي ﷺ واقف، بخواتيم سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ إلى آخر السورة، فكفّ رسول الله ﷺ، وأمسك عما أراد.

وأخرج الترمذي وحسنه والحاكم عن أبي بن كعب قال: لما كان أحد

أصيب من الأنصار أربعة وستون، ومن المهاجرين ستة، ومنهم حمزة، فمثلوا بهم، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنُرْبِيَنَّ عليهم، فلما كان فتح مكة، أنزل الله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ الآية. قال السيوطي: وظاهر هذا تأخير نزولها - أي السورة - إلى الفتح، وفي الحديث الذي قبله نزولها بأحد، وجمع ابن الحصار بأنها نزلت أولاً بمكة، ثم ثانياً بأحد، وثالثاً يوم الفتح، تذكيراً من الله لعباده.

والخلاصة: إن هذه الآية مدنية في رأي جمهور المفسرين، نزلت في شأن التمثيل بحمزة في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السِّيَر.

فضيلة هذه الآيات:

قيل لهرِم بن حِبَّان حين احتضر: أوص، فقال: إنما الوصية من المال، ولا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى محمداً ﷺ باتباع ملة إبراهيم عليه السلام، بيّن الشيء الذي أمره بمتابعته، وهو دعوة الناس إلى الدين بإحدى طرق ثلاث: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن. والدعوة إلى دين الله وشرعه تكون بتلطف، وهو أن يسمع المدعو الحكمة: وهو الكلام الصواب القريب، الواقع من النفس أجمل موقع.

فالآية متصلة بما قبلها اتصالاً حسناً، لتدرج الآيات من الذي يُدعى ويُوعظ، إلى الذي يُجادل، إلى الذي يُجازى على فعله.

ثم أمر الله تعالى برعاية العدل والإنصاف، وجعل القصاص بالمثل، ثم صرح تعالى بالأمر بالصبر على المشاق والمصائب، والصبر بتوفيق الله ومعونته، هو مفتاح الفرج.

التفسير والبيان:

الدعوة إلى دين الله وتوحيده أو الإعلام بها أمر ضروري للعلم بها، لذا كانت هي المهمة الأساسية للرسل عليهم السلام، فأمر الله رسوله ﷺ أن يدعو الناس إلى الله بالحكمة قائلاً: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي ادع أيها الرسول الناس إلى شريعة ربك، وهي الإسلام بالحكمة، أي بالقول المحكم، والموعظة الحسنة، أي بالعبر والزواجر التي تؤثر بها في قلوبهم، ذكّرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى.

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ أي وخاصمهم بالخصومة التي هي أحسن من غيرها، ومن احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن برفق ولين وحسن خطاب، واصفح عمن أساء في القول، وترفَّقْ بهم في الخطاب، وقابل السوء بالحسنى، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت، وسب الخصم أو الأذى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٦].

فهذا أمر للنبي ﷺ بلين الجانب ولطف الخطاب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ (٤٤)﴾ [طه: ٢٠/٤٤] فعلى كل داعية امتثال هذا الأمر الإلهي في دعوته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ أي قد علم الله الشقيَّ منهم والسعيد، ومن حاد عن منهج الحق، ومن اهتدى إليه، وهو مجازيهم على ضلالهم واهتدائهم حين لقاء ربهم، فله الجزاء، لا إليك يامحمد ولا إلى غيرك، وليس عليك هداهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦] وقال: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢/٢٧٢]. والآية مشتملة على وعد ووعيد.

ومن رفق النبي ﷺ في الدعوة ما رواه أبو أمامة: أن غلاماً شاباً أتى النبي ﷺ، فقال: يانبي الله، أتأذن لي في الزنى؟ فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ: قربوه إذن، فدنا حتى جلس بين يديه، فقال النبي ﷺ: أتحبه لأمك؟ قال: لا، جعلني الله فداك. قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبُّه لابنتك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبّه لأختك؟ قال: لا، جعلني الله فداك، قال: كذلك الناس لا يحبّونه لأخواتهم.

فوضع رسول الله ﷺ يده على صدره وقال: اللهم طهر قلبه، واغفر ذنبه، وحصّن فرجه، فلم يكن شيء أبغض إليه منه.

وبعد أن أمر سبحانه وتعالى بالرفق في الدعوة والخطاب، أمر بالعدل والإنصاف في العقاب، والمماثلة في استيفاء الحق؛ إذ قد تكون الدعوة سبباً في إغاظة الآخرين، وإقدامهم على القتل أو الضرب أو الشتم، فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ﴾.

أي وإن عاقبتم المسيء أيها المؤمنون، فعاقبوه بمثل جرمه، بلا زيادة ولا تجاوز للحدود. وإن أخذ رجل منكم شيئاً، فخذوا مثله، فإن الزيادة ظلم، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به.

وقوله: ﴿عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ إنما سماه الله عقاباً على سبيل المشاكلة؛ لأن أصل العقاب المجازاة على الفعل، فالفعل في ابتداء الأمر ليس عقاباً.

ثم دعا تعالى إلى الترفع عن العقاب والتسامي عن المقابلة والجزاء بالمثل، فقال: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾.

أي ولئن صبرتم عن المقابلة بالمثل، وتجاوزتم عن الإساءة، وصفحتم، واحتسبتم الثواب والأجر على ما نالكم من ظلم، فالله يتولى عقابه، والصبر خير للصابرين من الانتقام؛ لأن انتقام الله أشد. فقوله ﴿لَهُوَ﴾ يعود الضمير

إلى المصدر في قوله: ﴿صَبَرْتُمْ﴾. والمراد بالمصدر: إما الجنس أي جنس الصبر خير، وإما صبركم، أي لصبركم خير لكم، فوضْعُ ﴿لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ موضع لكم ثناء عليهم.

ثم أمر الله نبيه صراحة بالصبر بصفة عامة بعد أن ذكر حسن عاقبته، فقال: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ أي واصبر على ما أصابك من أذى في سبيل الدعوة، وما صبرك إلا بعون الله وحسن توفيقه ومشيئته، أي لما كان الصبر شاقاً، ذكر ما يعين عليه، فالجأ إلى الله في طلب الصبر، والتثبيت في الأمر.

وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ تأكيد للأمر بالصبر، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته. وهو تسلية للنبي ﷺ عما ناله من أذى قومه، وتثبيت له.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي ولا تجزع على إعراض المشركين وكل من خالفك، فإن الله قدّر ذلك، أو لا تحزن على قتلى أحد، فترك الحزن مما يستعان به على الصبر.

﴿وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي لا تكن في غم وضيق صدر من مكرهم وتدبيرهم الكيد لك، وإجهاد أنفسهم في عداوتك، وإيصال الشر إليك، فإن الله كافيك وناصرك ومؤيدك، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٧/ ٢] وقال: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١١/ ١٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي إن الله مع المتقين الذين تركوا محارمه، المجتنبين معاصيه بالنصر والمعونة والتأييد، ومع المحسنين أعمالهم برعاية الفرائض، والتزام الطاعة، وأداء الحقوق. والصبر: من التقوى والإحسان. فقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ أي تركوا محارمه، وقوله: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ أي فعلوا الطاعات.

وهذه معيَّة خاصة، يراد بها الإعانة والتأييد والهداية، كقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الأنفال: ٨/١٢] وقوله لموسى وهرون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٢٠/٤٦] وقول النبي ﷺ للصديق، وهما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٩/٤٠].

وهناك معيَّة عامة بالسمع والبصر والعلم، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٥٧/٤] وقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ [المجادلة: ٥٨/٧] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات الأحكام التالية:

١ً - على من يدعو الناس إلى دين الله اتباع إحدى هذه الطرق الثلاث: وهي الحكمة، والموعظة الحسنة، والمجادلة بالطريق الأحسن.

وعلى الداعية أيضاً أن يكون شجاعاً في الحق، فلا يهن، صارماً في الصدق، فلا يضعف، مخلصاً متفانياً في مبدئه، فلا يبيعه بزخارف الدنيا وزينتها، ولا يتطلع إلى ما في أيدي الناس. وأن يصبر في دعوته؛ جاءت قريش إلى أبي طالب عم النبي ﷺ، وعرضوا عليه أن يأخذ محمد ﷺ ما شاء من مال، ويترك ما يدعو إليه، فذكر أبو طالب للنبي ﷺ ذلك، فبكى وقال:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله، أو أهلِك دونه».

٢ً - لا يتعلق حصول الهداية بالداعية، فهو تعالى أعلم بالضالين، وأعلم بالمهتدين.

٣ً - العقاب يكون بالمثل دون زيادة، فالمظلوم منهي عن استيفاء الزيادة من الظالم.

واختلف العلماء فيمن ظلمه رجل في أخذ مال، ثم ائتمن الظالم المظلوم على مال، هل يجوز له خيانته في القدر الذي ظلمه، فقالت فرقة: له ذلك، محتجين بهذه الآية وعموم لفظها: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾.

وقال مالك وجماعة معه: لا يجوز له ذلك؛ لقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الدار قطني - «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». ووقع في مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكّن الآخر من زوجة الثاني، بأن تركها عنده وسافر؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر، فقال له: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك».

٤ً - دلت آية: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ على جواز التماثل في القصاص، فمن قَتل بحديدة قُتل بها، ومن قَتَل بحجر قُتل به، ولا يتعدى قدر الواجب.

٥ً - سمّى الله تعالى الأذى في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنما فعل ذلك من طريق المشاكلة، ليستوي اللفظان، وتتجانس ديباجة القول، فالأول مجاز والثاني حقيقة.

هذا بعكس قوله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/ ٥٤] وقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥] فإن الفعل الثاني أي من الله هو المجاز هنا، والأول هو الحقيقة، كما قال ابن عطية.

٦ً - التحلي بالصبر فضيلة أمر الله بها. قال ابن زيد عن آية: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾: هي منسوخة بآية القتال. ولكن جمهور الناس على أنها مُحكَمة، أي اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عوقبوا به من المُثْلة.

٧ً - إن الله نصير المتقين الذين تركوا الفواحش والمعاصي ومؤيدهم ومعينهم، وهو أيضاً نصير المحسنين الذين فعلوا الطاعات.

تم هذا الجزء الرابع عشر ولله الحمد

فهرس المجلد السابع

فهرس الجزء الثالث عشر

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الجزء الرابع عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *